بسم الله الرحمن الرحيم

قام الطالب / محمد ربيع هادي المدخلي بإجراء التصحيحات التي طلبت منه من لجنة مناقشته من رسالته

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

المشرق الإسلامي في عصر السلاطين السلاجقة الأوائل

٤٣١ ـ ٤٨٥هـ / ١٠٤٠ ـ ١٠٩٢م

« دراسة سياسية »

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي

إعـــداد

محمـد ربيع هـادي المدخلي

إشراف الأستاذ الدكتور

أحمد السيد دراج



١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

"المشرق الاسلامي في عصر سلاطين السلاجقة الأوائل (٤٣١-٤٨٥هـ/١٠٤٠-١٠٩٢م) - دراسة سياسية

تأتي أهمية البحث من خلال أوضاع المشرق الاسلامي في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري ، الذي ساد فيه مذهب التشيع سياسيا وعسكريا ، ولم يأت النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الا والمشرق يعود سنيا سياسيا وعسكريا بفضل الله أولا ثم بجهود السلاجقة ، الذين لم يقتصر دورهم على ذلك فحسب بل أعادوا للاسلام هيبته وقوته بإحيائهم لحركة الجهاد في سبيل الله التي كانت قد خبت في عهد بني بويه ، ومن هنا تأتي أهمية دراسة هذه الفترة وابرازها كما ينبغي من جميع جوانبها السياسية .

وقد اشتمل البحث على مقدمة ، وعرض للمصادر ، وتمهيد وستة فصول ، ثم الخاتمة ، وقوائم مصادر ومراجع البحث .

أما المقدمة فبينت فيها أهمية الموضوع واطاره الزماني والمكاني وشمول الدراسة لجميع الجوانب السياسية للدولة السلجوقية بما فيها الفتوح في أرمينية وبلاد الكرج وآسيا الصغرى ، وبسط النفوذ السلجوقي في بلاد ماوراء النهر وبلاد الشام ، وبعد ذلك بينت محتويات الرسالة ، منتقلا الى عرض أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث .

وفي التمهيد تحدثت عن انتشار الاسلام في بلاد ماوراء النهر لما لهذا الموضوع من أهمية في أثره على المشرق وبروز دولة السلاجقة على اثره ، كما ذكرت أهم القوى السياسية آنذاك وخاصة الدولة البويهية وعلاقتها السيئة بالخلافة العباسية ، بسبب تشيع بني بويه ، كما أفردت مبحثا عن التشيع وأسباب انتشاره في المشرق مبينا دور الفاطميين وبني بويه في نشره .

أما الفصل الأول ففيه بيان للظروف التي أسلم فيها السلاجقة وهجرتهم الى بلاد ماوراء النهر ثم الى خراسان وصراعهم مع الغزنويين حتى معركة دندانقان سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م التي حسم فيها السلاجقة معركتهم مع الغزنويين ، وبسطوا سيادتهم على كامل خراسان .

وفي الفصل الثاني شرح لكيفية تقدم السلاجقة في الري واقليم العراق العجمي وتغلبهم على كل القوى السياسية هناك مثل الامارة الكاكوية ، وامارة بني عناز ، حتى بداية علاقتهم ببني بويه ، ووصولهم الى مشارف العراق .

وأما الفصل الثالث ، فهو عن اعتراف الخلافة العباسية بدولة السلاجقة ، وماترتب عليه من دخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وظهور فتنة البساسيري ودعم الفاطميين لها ، ثم كيف قضى السلطان طغرلبك على هذه الفتنة .

وأما الفتوحات التي قام بها السلاجقة في ارمينية وبلاد الكرج ، ومعركة ملاذكرد مع البيزنطيين التي أعقبت بسط النفوذ السلجوقي في آسيا الصغرى ، اضافة الى سيطرتهم على بلاد الشام ، ومنطقة بلاد ماوراء النهر فقد عولج في الفصل الرابع .

أما الخامس فقد خصص عن اخضاع السلاجقة للامارات الكردية مثل امارة بني مروان في ديار بكر ، اضافة الى بسط الهيمنة على الامارات العربية مثل امارة بني عقيل ، وامارة بني مرداس .

وقد عالج الفصل السادس الأحوال الداخلية لدولة السلاجقة مبينا التنافس في البيت السلجوقي على السلطنة ، وعلاقة السلاطين السلاجقة الأوائل بالخلافة العباسية ، وعن دور نظام الملك في الدولة السلجوقية ، اضافة لدور السلاجقة في التصدي للمذهب الشيعي الامامي والاسماعيلي .

أما أهم النتائج التي خرجت بها من البحث فهي : تمكن السلاجقة من توحيد المشرق الاسلامي تحت قيادة موحدة ، وإعادة السيادة للمذهب السني في المشرق الاسلامي وتقليص دور الشيعة فيه ، واتساع رقعة الدولة الاسلامية بسببهم عندما سيطروا على أرمينية وآسيا الصغرى لأول مرة منذ الفتوح الاسلامية الأولى . والله ولي التوفيق ،،،

الطالب	المشرف	عميد كلية الشريعة
محمد ربيع هادي مدخلي	أحمد السيد دراج	د.عابد محمد السفياني

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وعرفـان

الحمد لله رب العالمين ، فأول الشكر له سبحانه وتعالى على نعمه التي لاتُحصى،ولانحصى ثناء عليه جل جلاله ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه،وخيرة خلقه محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

ثم إلى من له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى والديَّ الكريمين حفظهما الله ، وأخص الوالد العزيز فضيلة الشيخ ربيع بن هادي المدخلي ، حفظه الله ، ومتعه بالصحة والعافية،ومتعنا بحياته،إنه سميع مجيب ، على مابذل في سبيل تربيتي وتوجيهي التوجيه الصحيح الشيء الكثير في جهل الصبا وطيش الشباب ، بحكمة وصبر لاأملك له فيها من المكافأة،إلا الدعاء له ، كما أمر بذلك سبحانه وتعالى في محكم التنزيل .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى سعادة الأستاذ الدكتور أحمد السيد دراج على مابذله من جهد في سبيل اخراج هذه الرسالة منذ فترة البحث عن الموضوع إلى أن اكتمل ، كان فيها موجهاً ومسدداً وناصحاً ، وقد إستفدت من خلال هذا البحث من خبرته الكبيرة في مجال البحث العلمي الشيء الكثير ، فجزاه الله عني خير الجزاء إنه سميع مجيب .

ولجامعة أم القرى وعمادة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، وقسم التاريخ الاسلامي ، شكري وتقديري على اتاحتهم المجال لي في اكمال دراستي العليا ، وجزى الله القائمين عليها خير الجزاء .

كما أتقدم بالشكر إلى كل من مد يد المساعدة لي من الاخوة الزملاء الذين أعانوني بالكثير من المصادر والمراجع الخاصة بالبحث وكان لمساعدتهم دور في إنجاز هذا البحث .

والله ولي التوفيق ،،،

المقدمة

المقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلاهادى له ، وأشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين بعد أن ترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لايزيغ عنها الا هالك ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ، ومن تبعهم واهتدى بهداهم الى يوم الدين .

أما بعد :

تأتى أهمية دراسة عصر سلاطين السلاجقة الأوائل (٤٣١ - ٤٨٥هـ/١٠٣٩ - ١٠٩٢م) من خلال وضع العالم الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى الذى كان يشهد سيطرة سياسية وعسكرية لدول شيعية بسطت نفوذها على قلب العالم الاسلامى السنى .

فالفاطميون كانوا يحكمون معظم أجزاء المغرب ومصر والشام ، ومع هذا النفوذ كانوا نشيطين فى بث دعاتهم الى المشرق الاسلامى لجذب الناس الى أئمتهم ، وساعدهم على هذا الاتجاه سيطرة بنى بويه على الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وبسطهم لنفوذهم السياسى على معظم أنحاء المشرق الاسلامى .

وفى ظل هذه السيطرة شهدت الخلافة العباسية فى عقر دارها من الاضطهاد المذهبى الشيعى مالم تعهده من قبل ، فلعن أفضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أصبح يكتب على المساجد بدعم بنى بويه وتشجيع منهم ، وأقيمت احتفالات شيعية لم يكن لها وجود فى العراق حتى جاء الديلم مثل الاحتفال بيوم كربلاء (مقتل الحسين) ، والاحتفال بغدير خم ، وظهرت كتب الشيعة التى تطعن صراحة فى القرآن ونقصه فى عهدهم فى جرأة لم تكن معهودة منهم من قبل ، وماذلك الا لأن خلفاء بنى العباس وأهل السنة معهم لايستطيعون أن يفعلوا شيئا ازاء تلك الأوضاع .

وفى ظل هذه الأجواء أصبح هناك حلف مذهبى بين الفاطميين وبنى بويه فى دعم التشيع والفلسفة واضعاف أهل السنة ومذهبهم ، ان لم يكن الهدف القضاء عليه .

كما أن سيطرة بنى بويه على العراق أتاح الفرصة لظهور امارات شيعية أحاطت بمركز الخلافة مثل امارة بنى مزيد فى جنوب العراق ، وامارة بنى عقيل فى شماله ، وهكذا أصبحت الخلافة العباسية محاطة بقوى شيعية تحكم سيطرتها عليها مما أضعف أملها فى أى مقاومة للتخلص من النفوذ الشيعى .

واضافة الى ماسبق ، فقد خسر المسلمون كثيرا من المدن الاسلامية التى ظلت فى حوزتهم منذ الفتوح الاسلامية الأولى ، وكانت تعد ثغورا للمسلمين يرابطون فيها للجهاد فى سبيل الله ضد البيزنطيين ، فاذا بهذه المواقع تسقط الواحدة تلو الأخرى بيد البيزنطيين ابتداء من النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى مثل أنطاكية والرها وطرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربى ، وغيرها من المدن الاسلامية .

علاوة على ماخسره المسلمون من نفوذ فى أرمينية التى ارتمت فى أحضان النفوذ البيزنطى خلال تلك الفترة بسبب توقف حركة الجهاد التى أماتها البويهيون وأطلقت يد البيزنطيين فى الاستيلاء على الثغور الاسلامية .

وفى ظل هذه الأوضاع المتردية للخلافة العباسية وضعف أهل السنة عموما كانت ارادة الله سبحانه وتعالى تهيىء لهذا الدين من يعيد له قوته وعزته . فقد فشا الاسلام فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى فى مجموعات هائلة من كفار الترك لم يعرف الى الآن من كان سبب اسلامهم ، بعد هداية الله سبحانه وتعالى لهم ، وعلى مذهب أهل السنة واحتلوا بهذا الدين مكانتهم فى التاريخ .

وفى الربع الأخير من هذا القرن أيضا هدى الله سبحانه وتعالى مجموعة كبيرة من الترك الى الاسلام ، وكان الأخيرون هم السلاجقة الذين غيروا مسار التاريخ الاسلامى بظهورهم .

وفى خراسان كانت هناك دولة سنية قوية برزت فى أواخر القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى وهى الدولة الغزنوية ، ساهمت بدورها فى حماية المشرق من الدعوات الباطنية والفلسفة وحركات التشيع ، فلما دخل السلاجقة خراسان انتهى دور الغزنويين ليحمل عنهم السلاجقة عبء الدفاع عن العالم الاسلامى فى المشرق كله بكل كفاءة واقتدار وأعادوا للاسلام هيبته وقوته بالروح الجهادية التى حملوها معهم ، ولأهل السنة مكانتهم ، واستردوا مافقده المسلمون من البيزنطيين . بل وأضافوا للدولة الاسلامية مواطن جديدة لم يكسبها المسلمون منذ الفتوح الاسلامية الأولى وأصبحت معظم أجزاء آسيا الصغرى تحسب فى أرض الاسلام .

لهذا كله أحببت أن أقوم بدراسة عصر سلاطين السلاجقة العظام كموضوع لرسالة الدكتوراه التى تقدمت بها الى قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، بجامعة أم القرى وكان عنوانها (المشرق الاسلامى فى عصر سلاطين السلاجقة العظام - ٤٣١-٤٨٥هـ/ ١٠٣٩-١٠٩٢م) ووفق عليه من قبل المجلس .

وقبل أن أدخل فى بيان خطة البحث لهذا الموضوع أجد أنه من الواجب على أن أذكر جهود من سبقنى فى دراسة العصر السلجوقى حسب ماوصل اليه علمى ، والتى سجلت لهم كرسائل علمية فى الجامعات العربية الأخرى ، ومن هذه الدراسات :

أولا : حسين أمين وعنوانها : (تاريخ العراق فى العصر السلجوقى) حاز بها درجة الدكتوراه فى جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤م ، وهى مطبوعة فى بغداد سنة ١٩٦٥م .

وقد اقتصر فيها الباحث على دراسة الجوانب السياسية والحضارية فى العراق مشيرا الى نشأة السلاجقة وقيام دولتهم بشكل مختصر وبقدر مايوضح الملامح العامةللتطور التاريخى لهم حتى دخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م مع ذكر أهم الأحداث التى حدثت فى العراق فى عهد كل من السلاطين السلاجقة الأوائل واستغرقت هذه الدراسة من الصفحات ٤١ - ٨٧ ، ثم انتقل بعدها الى سلاجقة العراق وجهود الخلفاء العباسيين لاسترداد سلطتهم ، وخصص القسم الثانى من دراسته للجوانب الحضارية .

وهو بهذه الدراسة تطرق الى الملامح العامة للنواحى السياسية للسلاجقة فى العراق وأهميتها فى هذا القطر فقط .

ثانيا : الدراسة التى قام بها فاضل الخالدى وهى بعنوان : (الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق خلال

القرن الخامس الهجرى) . حصل بها على درجة الماجستير فى جامعة القاهرة ، كلية الآداب سنة ١٩٦٦م ، وقد طبعت فى بغداد سنة ١٩٦٩م .

وقد تناول الباحث فيها أواخر العهد البويهى وفترة سلاطين السلاجقة العظام ، واهتمت هذه الدراسة كسابقتها فيما له علاقة بالعراق واستغرقت دراسته من الفترة السلجوقية منذ ظهورهم الى نهاية عصر السلطان ملكشاه من الصفحات ١٤٣-١٩٩ ليتطرق بعدها الى دراسة نظم الحكم فى العراق .

ثالثا : أما الدراسة الثالثة فهى التى قام بها محمد محمود ادريس وهى بعنوان : (الأحوال السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الاسلامى خلال العصر السلجوقى الأول ٤٢٩-٤٨٥هـ/١٠٣٧-١٠٩٢م) حصل بها على درجة الدكتوراه فى جامعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، وهى مطبوعة فى القاهرة سنة ١٩٨٥م .

والدراسة الأخيرة فضلا عما تحويه من دراسة الجانبين السياسى والحضارى ، فانها فى جانبها السياسى الذى استغرقت دراسته بعد التمهيد من ص ٥٥ - ١٧٠ تكرار لما هو مدروس فى الدراستين السابقتين اللتين أشرنا اليهما قبل ذلك فيما عدا مبحثين هما :

(١) سياسة السلاجقة فى توطيد سلطاتهم فى المشرق .

وفى هذا الجانب رجع الباحث ليتحدث عن بعض التوسعات التى قام بها السلطان طغرلبك فى خراسان قبل اعتراف الخلافة العباسية بهم ، ثم بعد اعتراف الخلافة وضم السلطان طغرلبك

أجزاء أذربيجان وخوارزم بشكل مختصر جدا (ص ١٣١ – ١٣٨) .

ثم انتقل بعد ذلك ليتحدث عن التنافس على السلطنة بعد طغرلبك في عهد ألب أرسلان (ص ١٣٩ – ١٤١) ، ثم بيّن بعض الحروب التي خاضها السلطان ألب أرسلان من أجل تثبيت دعائم السلطة (ص ١٤٢ – ١٤٣) ليذكر التنافس على العرش بعد مقتل السلطان ألب أرسلان وولاية ابنه ملكشاه وسياسته من أجل تدعيم سلطته ضد المنافسين له ، ثم انتقل الى حروب ملكشاه مع أمراء ماوراء النهرواستغرقت هذه الدراسة (ص ١٤٥ – ١٤٩) ليتحدث بعدها عن ظهور طائفة الاسماعيلية بقيادة الحسن بن الصباح ، وأخذت منه هذه الدراسة (ص ١٥٠ – ١٥٥) ليتحدث بعدها عن نظام الملك (ص ١٥٥ – ١٥٨) .

(٢) العلاقات بين سلطنة السلاجقة والامارات الاسلامية المجاورة .

وتحدث فيها عن علاقة السلاجقة بامارة القراخانيين (الايلك خانيين) ، وعن ظهور هذه الامارة ودورها في اسقاط الدولة السامانية ، ثم تطرق الى علاقتهم بالسلاجقة في فترة وجودهم في بلاد ماوراء النهر قبل أن تقوم دولتهم (ص ١٦٠ – ١٦٣) ، وعرج بعد ذلك الى علاقتهم بالسلاجقة بعد قيام دولتهم بشكل موجز جدا استغرق صفحتين فقط (ص ١٦٤ – ١٦٥) .

ثم ذكر علاقة السلاجقة بالامارات التركية الشرقية ، ذاكرا فقط دولة الايلك خانيين مع أن القراخانيين والايلك خانيين اسمان مترادفان لدولة واحدة ، ويذكر علاقتهم بالسامانيين مُعيدا نفس المعلومات التي تحدث بها عنهم في الصفحات (١٦٠ – ١٦٣) ، وأخذ منه هذا المبحث (ص ١٦٥-١٧٠) .

ويمكنني أن أقول مطمئنا أن دراستي لعصر سلاطين السلاجقة الأوائل وان اتفقت مع الدراسات التى أشرنا اليها فيما يتعلق بظهور السلاجقة ونشأتهم وقيام دولتهم ، الا أنها تتميز عليها فى اعتمادها على مصادر أساسية كان مؤلفوها معاصرين أو شاهدى عيان للأحداث وكانت هذه المصادر الركن الأساسى فى استقاء المعلومات عن تلك الفترة والتى بينت كثيرا من الحقائق التى سنراها فى البحث ان شاء الله تعالى وهذه المصادر وان اعتمد عليها الباحثون السابقون الا أن اعتمادهم عليها رغم أهميتها كان ضعيفا جدا ، وكان جل اعتمادهم على مصادر فارسية متأخرة ومن أهمها كتاب الراوندى (راحة الصدور وآية السرور) وهو مصدر لايمثل أى أهمية بالنسبة لتاريخ السلاجقة المبكر باعتراف محقق الكتاب نفسه (ص ٢١) ، اضافة الى الأخطاء التاريخية التى وقع فيها الراوندى وأوقع فيها من اعتمد عليه عند تعرضهم لنشأة السلاجقة وأدى بهم الى الخلط بين فترتين زمنيتين للسلاجقة الأولى وهى فترة السلاجقة أتباع أرسلان بن سلجوق ، وفترة السلاجقة بقيادة أبناء ميكائيل بن سلجوق الذين قامت الدولة على أكتافهم كما سنرى ذلك فى البحث ان شاء الله .

واضافة الى ماسبق فقد كانت دراستى شاملة عن التاريخ السياسى لدولة سلاطين السلاجقة الأوائل بما فيه الفتوحات التى قاموا بها فى كل من بلاد الكرج (جورجيا) وارمينية وآسيا الصغرى ، ثم اخضاع الشام وبلاد ماوراء النهر والامارات التركمانية والكردية والعربية لنفوذهم ، وهو

ماتفتقر اليه تلك الدراسات السابقة ، الى جانب التوسع فى ذكر الأحداث الداخلية التى مرت بها الدولة السلجوقية ، كما سنفصل ذلك عند ذكرنا لخطة البحث ان شاء الله تعالى .

ومع ذلك فاننى لا أقلل من جهد الباحثين السابقين وأهمية دراساتهم ، فقد كانت - اضافة الى فضيلة سبقها - مهمة جدا ، اذ يسرت لى سبيل الوصول الى المصادر والمراجع ذات العلاقة بالبحث وكفتنى مؤنة التفتيش عنها فى مظانها . وهو جهد لايعرفه الا من تعرض لمثل تلك الدراسة التى تصدوا لها ، ويكفيهم أنهم بذلوا غاية جهدهم فى دراستهم تلك وكانوا روادا لمن يأتى بعدهم فى التطرق للمواضيع السياسية والحضارية المتعلقة بتاريخ السلاجقة .

أما بالنسبة لتسمية المشرق الاسلامى لموضوع البحث فانى قد اعتمدت تعريف الحافظ الذهبى له فى كتابه سير أعلام النبلاء بقوله : "... قلت المشرق فى عرف المغاربة مصر ومابعدها من الشام والعراق وغير ذلك ، كما أن المغرب فى عرف العجم وأهل العراق أيضا مصر وماتغرب عنها"(١) .

وعلى هذا فان الاتفاق وقع فيما بين أهل المشرق والمغرب آنذاك على أن الشام والعراق وخراسان تعد من المشرق ونقطة اختلافهم هى مصر .

كما أن المقصود بالسلاطين السلاجقة الأوائل هم (السلطان طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه) كما هو محدد بالتاريخ الملتزم به فى عنوان البحث ، ومرد هذه التسمية الى تميز الدولة السلجوقية فى عهدهم بالقوة ووحدة الدولة والفتوحات التى تمت فى عهدهم اضافة الى تطور كثير من النظم فى عهدهم وعدوا بحق عظاما بأعمالهم وانجازاتهم بعكس الفترات التى تلتهم من تمزق وتشتت وظهور دويلات سلجوقية فى الشام ، والعراق ، وآسيا الصغرى ، وخراسان ، وليس بينها من رابط سوى النسب فقط .

خطة البحث :

اشتملت الخطة بعد المقدمة وعرض أهم المصادر والمراجع على تمهيد وستة فصول بيان محتواها كما يلى :

التمهيد وعنوانه : (عرض موجز عن أحوال المشرق الاسلامى قبيل ظهور دولة السلاجقة) . وفيه عرض موجز عن انتشار الاسلام فى بلاد ماوراء النهر فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى ، والنصف الثانى من ذلك القرن ، وذلك لأهمية هذا الموضوع وأثره على مستقبل العالم الاسلامى

---

(١) ج١٨ ، ص ٨٠ .

آنذاك ، وماترتب عليه من ظهور دولتين سنيتين قويتين هما دولة الايلك خانيين فى بلاد ماوراء النهر ، ثم دولة السلاجقة التى هيمنت على المشرق الاسلامى .

كما عرضت بشكل موجز لأهم القوى السياسية الموجودة فى المشرق الاسلامى مثل دولة الايلك خانيين والغزنويين ثم دولة بنى بويه وذكرت فيه موقف بنى بويه من الخلافة العباسية وأثرهم فى اضعاف الخلافة العباسية .

ثم أفردت عرضا موجزا عن التشيع فى العالم الاسلامى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين - العاشر والحادى عشر الميلاديين - وأثر ذلك فى اضعاف مركز ومكانة الخلافة وأهل السنة .

أما الفصل الأول وعنوانه : (ظهور السلاجقة وقيام دولتهم) . فقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : وفيه تحدثت عن هجرة السلاجقة الى بلاد ماوراء النهر ثم اسلامهم وجهادهم لكفار الترك ودورهم السياسى فى بلاد ماوراء النهر فى أواخر الدولة السامانية فى حياة سلجوق بن دقاق .

كما بينت الأوضاع التى آل اليها أبناء سلجوق بعد وفاته وهم أرسلان بن سلجوق وأتباعه ، ثم رحيلهم الى خراسان فى عهد السلطان محمود الغزنوى وأسباب ذلك ، مع متابعة الدور الذى قام به أبناء ميكائيل بن سلجوق وهم جغرى بك داود وطغرلبك محمد وبيغو فى بلاد ماوراء النهر منذ استشهاد والدهم ميكائيل بن سلجوق فى احدى معاركه مع كفار الترك الى تاريخ دخولهم خراسان سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م .

وفى المبحث الثانى تناولت حروب السلاجقة أتباع أرسلان بن سلجوق ضد الدولة الغزنوية فى عهد كل من السلطان محمود ثم ابنه مسعود وأسباب تمردهم على الدولة الغزنوية .

أما النقطة الثانية من هذا المبحث فقد خصصت عن دخول أبناء ميكائيل بن سلجوق الى خراسان وموقف الدولة الغزنوية منهم ، والحروب التى نشبت بينهم مثل معركة نسا التى هزموا فيها القائد الغزنوى بكتغدى ، ومعركة سرخس التى انتصروا فيها على القائد الغزنوى سباشى وماتبع ذلك من استيلائهم على أهم حواضر خراسان مثل نيسابور ومرو وسرخس .

وتبع ذلك الحديث عن موقف السلطان مسعود الغزنوى من استيلاء السلاجقة على خراسان والحروب التى خاضها ضدهم من أجل اخراجهم من خراسان ، وفشله فى ذلك نتيجة خسارته للحرب التى خاضها معهم فى سرخس فى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م ، ثم ماتبع ذلك من فقد الدولة الغزنوية لأملاكها فى خراسان عقب انتصار السلاجقة على السلطان مسعود فى دندانقان سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م .

وفى المبحث الثالث استكمال لموقف خلفاء السلطان مسعود ابن محمود الغزنوى من السلاجقة والمحاولات المبذولة من قبلهم فى استرداد نفوذهم فى خراسان ، وفشلهم فى هذا الأمر واقرارهم فى النهاية بسلطة السلاجقة على خراسان والاعتراف بدولتهم فى المعاهدة التى تمت بين الطرفين فى عهد فرخ زاد ابن مسعود الغزنوى .

الفصل الثانى وعنوانه : (توسع السلاجقة فى المشرق قبل دخولهم بغداد) ويحتوى على مبحثين :

أولهما : لدراسة توسع السلاجقة فى المشرق الاسلامى قبل دخول السلطان طغرلبك بغداد .

وقد بينت فى هذا المبحث كيف قضى السلاجقة على بعض الامارات المشرقية التى كانت قائمة آنذاك مثل الامارة الزيارية فى جرجان وطبرستان ، وسقوط خوارزم بيدهم ثم تقدمهم فى بلاد الجبل وقضائهم على الامارة الكاكوية وامارة بنى عناز ، وقربهم من العراق نتيجة ذلك .

وفى المبحث الثانى عرضت للعلاقة بين السلاجقة والبويهيين قبل دخول السلطان طغرلبك الى بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م .

أما الفصل الثالث وعنوانه : (السلاجقة والخلافة العباسية فى عهد السلطان طغرلبك) :

فقد بينت موقف الخلافة العباسية من السلاجقة قبل معركة دندانقان ، ثم اعتراف الخلافة العباسية بهم بعد تلك المعركة ، وكيف تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك حتى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وماترتب على ذلك التقارب من خلاف بين البساسيرى والخليفة العباسى القائم بأمر الله وتآمر البساسيرى على الخلافة العباسية ، وماتلا ذلك من طلب الخليفة القائم بأمر الله العباسى من السلطان طغرلبك دخول بغداد مبينا فيه موقف الملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه فى العراق من ذلك ، ثم دخول السلطان طغرلبك بغداد ، والفتنة التى حدثت بين بعض سكان بغداد والجند السلجوقى ، وكيف استغل السلطان طغرلبك هذا الحدث للقبض على الملك الرحيم وترحيله عن بغداد مسجونا فى احدى القلاع فى السيروان .

وبعد ذلك تابعت فتنة البساسيرى وطلبه مساعدة الدولة الفاطمية ومساندتهم اياه والظروف والملابسات التى جعلت الدولة الفاطمية تمد يدها اليه بالمساعدات المالية دون القوات العسكرية .

ثم ذكرت الحروب التى نشبت بين السلاجقة والبساسيرى ، والظروف التى مكنت البساسيرى من دخول بغداد وأهمها انحياز زعماء القبائل العربية اليه وتمرد ابراهيم ينال على السلطان طغرلبك واضطرار الأخير الى الانسحاب الى همذان لمتابعة أخيه تاركا بغداد ليدخلها البساسيرى بعد ذلك سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، وسياسة البساسيرى فى بغداد من اخراج الخليفة القائم بأمر الله منها والخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله فيها ، كما تحدثت عن موقف البساسيرى السلبى من الفاطميين عقب دخوله بغداد وأثره فى سهولة القضاء عليه عقب قضاء السلطان طغرلبك على تمرد أخيه وماقام به السلطان طغرلبك من جهود من أجل تأمين سلامة الخليفة القائم بأمر الله حتى عودته سالما الى بغداد أواخر سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، وكيف تم القضاء على البساسيرى وقتله .

الفصل الرابع وعنوانه : (الدولة السلجوقية فى أقصى اتساعها شرقا وغربا) وفيه أربعة مباحث .

المبحث الأول : وخصص لفتوح السلاجقة فى أرمينية وبلاد الكرج ، وبينت فيه الحملات السلجوقية الأولى على أرمينية .

أما الغزوات التى تمت فى عهد السلطان طغرلبك لهذا الاقليم فقد تم استعراض الحملة التى قام بها ابراهيم ينال سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م وبعض الحملات التى تلتها ثم الحملة التى قام بها السلطان طغرلبك سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م ونتائجها .

أما السلطان ألب أرسلان فقد كان هو الفاتح لهذه المنطقة والمثبت لأقدام السلاجقة فيها ،بالحملتين اللتين قام

بهما سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م على بلاد الكرج وأرمينية وما أعقب ذلك من استيلائه على مدينة آني حاضرة اقليم أرمينية وأهمها موقعا بالنسبة للبيزنطيين فى تلك المنطقة .

وفى الحملة الثانية سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م تم تأكيد السيطرة السلجوقية على بلاد الكرج وهيمنتها عليها عقب تلك الحملة .

أما المبحث الثانى فهو عن معركة ملاذكرد وامتداد سلطان السلاجقة فى بلاد الروم (آسيا الصغرى) وفيه عرض للغزوات الأولى التى قام بها السلاجقة داخل آسيا الصغرى وفى قلب الدولة البيزنطية والتى قام بها كل من الافشين بن بكجى والقائد السلجوقى المتمرد أريسغى زوج أخت السلطان ألب أرسلان ، وكانت هذه الغزوات اضافة الى ماخسره البيزنطيون من نفوذ فى أرمينية أكبر دافع للامبراطور رومانوس ديوجنيس فى حشد أكبر جمع من الجند للقضاء على دولة السلاجقة .

هذا مع ذكر الآراء التى قيلت عن تعداد الجيشين السلجوقى والبيزنطى والاستعداد المعنوى لكل منهما قبل هذه المعركة ، ثم أكملت الحديث عن المعركة التى انتهت بالانتصار الساحق للسلطان ألب أرسلان على البيزنطيين وأسره للامبراطور رومانوس ديوجنيس عقب هذه المعركة .

ثم تم استعراض نشأة بعض الامارات التركمانية فى آسيا الصغرى كاحدى النتائج المترتبة على معركة ملاذكرد وأهم هذه الامارات هى امارة بنى دانشمند ، وامارة بنى منكوجك اضافة الى نشأة دولة سلاجقة الروم على يد سليمان بن قتلمش .

وفى المبحث الثالث تحدثت عن فتح السلاجقة لبلاد الشام مستعرضا فيه الأوضاع التى آلت اليها الدولة الفاطمية بعد

مقتل البساسيرى ، من ظهور المجاعة والخلاف بين الجند الأتراك والسودان الفاطميين وماترتب عليها من محاولة القائد الحسين بن حمدان اسقاط الخلافة الفاطمية وطلبه من السلطان ألب أرسلان معاونته على ذلك .

ثم بينت عقب ذلك فتح السلاجقة للأجزاء الوسطى والجنوبية من بلاد الشام عقب معركة ملاذكرد والجهود التى بذلها أتسز بن أوق الخوارزمى فى هذا الشأن ، وماتم على يد تتش بن ألب أرسلان من محافظة على النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام وتصديه للحملات الفاطمية فى عهد السلطان ملكشاه .

أما المبحث الرابع فقد تم فيه عرض الحملة التى قام بها السلطان ألب أرسلان على بلاد ماوراء النهر سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م ومقتله فيها ، وكيف فتحت هذه الحملة الباب لحملات سلجوقية أخرى قام بها السلطان ملكشاه حتى تم بسط النفوذ السياسى للسلاجقة عليها .

الفصل الخامس وعنوانه : (خضوع التركمان والامارات الكردية والعربية فى الجزيرة وبلاد الشام للسلاجقة) وفيه عدد من المباحث .

المبحث الأول : فقد تم استكمال ماكان قد بدىء به فى الفصل الأول عن أتباع أرسلان بن سلجوق وموقفهم من السلطان طغرلبك ، والآثار التى ترتبت على عصيانهم وعدم انضمامهم الى الدولة السلجوقية فى ديار بكر والجزيرة الفراتية ثم خفوت ذكرهم باقتراب السلطان طغرلبك من العراق .

وفى المبحث الثانى شرح لكيفية هيمنة السلاجقة على بعض الامارات الكردية فى أذربيجان مثل امارة بنى الروادى والامارة المروانية فى ديار بكر ، وامارة هزارسب بن بنكير الكردى فى البصرة .

وختم الفصل الخامس بمبحث عن خضوع الامارة العقيلية لدولة السلاجقة ودور قريش بن بدران وابنه مسلم بن قريش فى هذه الدولة وكيف توسع مسلم بن قريش باسمها فى حلب وبعض مناطق الجزيرة الفراتية حتى مقتله ثم مصير هذه الامارة بعده .

أما الامارة المرداسية فقد تم الحديث عن كيفية دخولها فى طاعة السلطان ألب أرسلان فى عهد محمود بن نصر المرداسى ومآل اليه أمر هذه الامارة فى ظل تبعيتها لدولة السلاجقة بعد محمود المرداسى وسقوطها .

الفصل السادس وعنوانه : (الأحوال الداخلية فى دولة السلاجقة) .

وقد بدىء فيه بمبحث عن التنافس على السلطنة فى البيت السلجوقى مبتدئا بذكر تمرد ابراهيم ينال وأسبابه ، مشيرا الى الجهود التى بذلها ابراهيم ينال فى بناء الدولة السلجوقية ، وكيف أدى طموحه بالتفرد بالسلطة الى التمرد على السلطان طغرلبك مستغلا ثورة البساسيرى لتنفيذ هدفه ، ثم كيفية قضاء السلطان طغرلبك عليه .

كذلك تحدثت عن التنافس الذى حدث بين أفراد البيت السلجوقى على السلطنة بعد وفاة السلطان طغرلبك وتمكن ألب أرسلان من التغلب على منافسيه .

وكذلك الحال فى الصراع الذى حدث بين ابنه ملكشاه الذى خلفه وظهور بعض المطالبين بكرسى السلطنة وعلى رأسهم عمه قاورت بك الذى قتل فى نهاية هذا الصراع .

كما تحدثت فيه عن الخلاف الذى تم بين السلطان ملكشاه وأخيه تكشى بن ألب أرسلان من أجل الاستقلال بخراسان بعيدا عن نفوذ السلطة المركزية .

أما نظام الملك ودوره فى ادارة الدولة السلجوقية فكان فى المبحث الثانى من هذا الفصل وبينت فيه أسباب بروز منصب الوزارة فى الدولة السلجوقية من خلال السياسة العامة التى سار عليها السلطان ألب أرسلان مع نظام الملك ، ونظرته الى دور الوزير وتعاظم هذه النظرة فى عهد ملكشاه ، مما أتاح لنظام الملك أن يلعب دورا لايقل شأنا عن السلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه فى الدولة السلجوقية ، كما بينت فيه أيضا الملامح العامة لهذه السياسة فى شتى المجالات داخل الدولة السلجوقية .

كما تم استعراض العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة العظام فى المبحث الثالث من هذا الفصل ، وتم التركيز على العلاقة بين الخليفة القائم بأمر الله العباسى والسلطان طغرلبك من بعد دخوله بغداد الى اجبار الأخير له على تزويجه من ابنته قسرا ثم تحسن العلاقة بين السلطان ألب أرسلان والخليفة القائم بأمر الله .

أما فى عهد ملكشاه فقد حدث تحسن فى البداية بين السلطان ملكشاه والخليفة القائم بأمر الله ثم حفيده المقتدى بأمر الله لتعود مرة أخرى الى التوتر نتيجة تدخل نظام الملك فى شئون الخلافة ، وأخيرا محاولة السلطان ملكشاه اخراج الخليفة المقتدى بأمر الله من العاصمة بغداد وعدم تحقق رغبته تلك بسبب موت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م .

ثم ختم البحث بأهم النتائج التى توصل اليها البحث من خلال فصول هذه الرسالة .

دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع التى اعتمد عليها البحث

بنى البحث بالاعتماد على مصادر لها أهميتها التاريخية وهى تختلف بحسب هذه الأهمية من فترة الى فترة ، فبعضها كان معاصرا للأحداث التاريخية أو شاهد عيان ، ولذلك اكتسبت أهميتها أو مصادر اعتمدت على مصادر مفقودة فاكتسبت أيضا أهمية لاتقل عن الأولى ، وسنوضح فيما يلى أهمها :

(١) تاريخ البيهقى :

لمؤلفه أبى الفضل محمد بن حسين البيهقى المتوفى سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ، وقد ولد فى مدينة بيهق سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ورحل الى نيسابور التى تعلم فيها علوم القرآن والحديث والآداب العربية ، وحين بلغ السابعة والعشرين التحق فى خدمة الدولة الغزنوية كموظف فى ديوان الرسائل .

وقد ترقى مؤرخنا فى وظيفته حتى وصل الى درجة نائب رئيس ديوان الرسائل ، ثم وصل الى رئاسة هذا الديوان فى عهد السلطان عبد الرشيد بن محمود (٤٤١-٤٤٤هـ/١٠٤٩-١٠٥٢م) وقد اعتزل البيهقى العمل فى الديوان بعد مقتل السلطان عبد الرشيد ليتفرغ بعدها للقراءة والتأليف الى أن توفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م (١) .

وللبيهقى عدا تاريخه عدة مؤلفات منها كتاب زينة الكتاب ، ومقامات أبى نصر مشكان ، وبضع صفحات فى أدب الانشاء (٢) .

---

(١) تاريخ البيهقى ، مقدمة المترجم يحيى الخشاب ، ص ٥-٦.
(٢) تاريخ البيهقى ، مقدمة المترجم يحيى الخشاب ، ص ٦ .

أما كتابه في التاريخ الذي يسمى أيضا التاريخ المسعودي (نسبة الى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي) فقد كان حين وضعه البيهقي في ثلاثين جزءا فقدت كلها سوى هذا الجزء الذي بين أيدينا الذي اعتمد عليه البحث وهو المتعلق بفترة حكم السلطان مسعود بن محمود الغزنوي (٤٢١-٤٣٢هـ/ ١٠٣٠-١٠٤٠م)، وهو هنا ينقل أخبار السلاجقة على أنهم جزء من المشاكل التي واجهت السلطان مسعود بن محمود ، وتبعا لذلك كان ينظر للأحداث من وجهة نظر غزنوية ، ولاغرابة في ذلك فهو ربيب دولتهم الا أن هذا لم يمنعه أن يكون أمينا في نقل الأحداث التي جرت بين السلاجقة والغزنويين بحسب مارآه أو سمعه ، وهو بهذا النقل سجل لنا في تاريخه أدق التفاصيل فيما يختص بالدولة الغزنوية عامة ، وعن السلاجقة بصفة خاصة لأنه يرى وهو يدون كتابه أنه يؤدي (حق التاريخ كاملا وأن أبحث عن الخفايا حتى لايخفى شيء من الحوادث) ، وسعة المعلومات هذه التي أمدنا بها البيهقي ترجع لكونه مطلعا على وثائق الدولة الغزنوية بحكم عمله في ديوان الرسائل .

وقد أفدت من تاريخه من خلال المعلومات الدقيقة التي أمدنا بها عن السلاجقة في الفترة من ٤٢٦-٤٣١هـ/١٠٣٤-١٠٣٩م.

وتاريخ البيهقي الى جانب كونه مصدرا معاصرا للأحداث في فترة البحث عن السلاجقة فانه أهم بالنسبة للدارس عن الدولة الغزنوية كاشفا لنا كثيرا من نظمها الادارية والعسكرية ، والكتاب في حد ذاته يتمتع بأسلوب أدبي رفيع يعطي صورة واضحة للأدب الفارسي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

(٢) كتاب زين الأخبار :

لمؤلفه أبى سعيد بن الضحاك بن محمود الكرديزى . وللأسف لاتوجد له ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر وان كان محققوا كتابه يرجحون أنه من مؤرخى القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى ، اعتمادا على النقول الشفوية التى استقاها المؤلف من أبى الريحان البيرونى عن الهند ، وأنه أهدى كتابه للسلطان عبد الرشيد مما يرجح أنه كان من رجال الدولة الغزنوية (١) .

وماعدا ذلك لايوجد عنه أى شىء من المعلومات .

والكتاب بصفة عامة يتحدث عن خراسان والدول التى قامت فيها منذ عهود القوى المتغلبة على الخلافة العباسية بدءا من الطاهريين ثم الصفاريين والسامانيين ، ثم الدولة الغزنوية الى نهاية عهد السلطان مودود بن مسعود الغزنوى (٤٣٢-٤٤١هـ/١٠٤١-١٠٤٩م) .

أما أهميته بالنسبة للبحث فهى لاتقل عما ورد فى تاريخ البيهقى ومعلوماته اضافة الى معلومات ابن الأثير أتاحت لنا أن نقارن بين الروايات بشأن السلاجقة فى عهدهم المبكر ، وهو اضافة الى ذلك المصدر الذى أمدنا بأهم المعلومات بشأن ترحيل السلطان محمود للسلاجقة من بلاد ماوراء النهر سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م الى بلاد ماوراء النهر ، وهو الناقل أخبار بداية وجود السلاجقة فى هذه المنطقة منذ ذلك التاريخ ، كما

(١) انظر الترجمة الانجليزية المقدمة للكتاب ، ص ١٥٦ .

بين لنا أسباب توجيه الحملات من قبل السلطان محمود اليهم لكسر شوكتهم سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م .

وعلى الرغم من أن الكرديزى كان معاصرا للأحداث ـ كما هو مرجح ـ فانه كان يميل فى سرده للأحداث الى الاختصار ، فهو مثلا لم يتحدث عن معركة سرخس سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، وباختصار شديد ينقل لنا أيضا معركة دندانقان سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م ، الا أن ذلك لايقلل من قيمة الكتاب بالنسبة للتاريخ المبكر للسلاجقة وخاصة أسباب ترحيلهم الى خراسان .

(٣) الكامل فى التاريخ :

لعز الدين أبى الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى (٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٠-١٢٣٢م) المولود بجزيرة ابن عمر ونشأ فيها حتى جاوز العشرين من عمره ثم رحل مع أسرته الى الموصل وسمع من علمائها ، ورحل الى بغداد وحلب ودمشق ومكة وبيت المقدس فى طلب العلم ، وكان مميزا بين اخوته بعلم التاريخ ، فقد برع فيه وبز كثيرا من المؤرخين فى حسن تصنيفه ، ودقته واطلاعه على مصادر من سبقه .

ولابن الأثير عدة مؤلفات غير كتابه الكامل ، منها كتابه الباهر فى الدولة الأتابكية ، واللباب فى تهذيب الأنساب ، وكتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة .

وقد اعتمد البحث على كتاب الكامل فى التاريخ فى جزئيه التاسع ، والعاشر ، ومعلوماته التى أمدنا بها عن السلاجقة فى تاريخهم المبكر قل أن نجد لها مثيلا فى المصادر الأخرى ، ان لم يكن هو المتفرد بهذه المعلومات نتيجة اطلاعه على مصادر لم نتوصل اليها حتى الآن وربما فقدت على مر الزمن . واذا كان ابن الأثير قد تجاهل التواريخ الدقيقة فى سرده للأحداث عن السلاجقة منذ انتقالهم من صحراء الخزر الى مدينة جند ، ثم اسلامهم الى عبور أبناء ميكائيل بن سلجوق الى خراسان ، فتلك طريقة اتبعها ابن الأثير فى حديثه عند قيام الدول أو الامارات ، حيث يضطر الى تجميع المعلومات عنهم فى مكان واحد حتى لايتشتت ذهن القارىء لكتابه فى متابعة الأحداث عنهم سنة بسنة .

ومما يبعث على الاطمئنان الى المعلومات التى ذكرها لنا ابن الأثير عن السلاجقة ، هو توافقه فى كثير من الحوادث مع ماذكره المؤرخون المعاصرون للأحداث أمثال الكرديزى والبيهقى مما يدل على أنه اطلع عليها وعلى غيرها من المصادر المشابهة لها ، وهو بذلك يكون اطلع على وجهات نظر مختلفة وآراء متعددة عن العصر السلجوقى المبكر ، صاغها لنا بطريقته المعهودة فى تلخيص المعلومات تلخيصا غير مخل بحيث يدرك القارىء الملم بجوانب الموضوع الذى يبحث فيه أن ابن الأثير أحاط بجوانب الأحداث التى يتحدث عنها .

ولذلك فان الاعتماد على ابن الأثير كان فى جميع الرسالة منذ بدايتها الى نهايتها لما له من أهمية فى الموضوعات التى تطرقنا اليها .

(٤) كتاب زبدة التواريخ أو (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) .

لمؤلفه صدر الدين على بن ناصر الحسينى المتوفى بعد سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، ومما يؤسف له أن المعلومات عن الحسينى غير متوفرة بخصوص مولده ، وان كان محقق كتابه يرجح أن مولده كان سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م ، وكما هو مجهول تاريخ مولده فكذلك تجهل أخباره منذ النشأة وتاريخ ومكان وفاته .

وقد استفاد البحث من كتاب زبدة التواريخ أو أخبار الأمراء والملوك السلجوقية .

فعلى الرغم من أهمية ماكتبه الحسينى عن المراحل الأولى للسلاجقة الى معركة دندانقان ، وتوافقه مع ابن الأثير فى كثير من المواضع مما يرجح اعتمادهما على مصادر واحدة فى هذا الجانب ، الا أن أهم مايميز الحسينى عن غيره فى رأيى هو تفرده بالمعلومات التى تخص فتح السلاجقة لأرمينية وبلاد الكرج فى عهد السلطان ألب أرسلان ، والتى لم نجد لها مثيلا فى أى من المصادر الأخرى التى كتبت عن هذا الموضوع ، واذا كان الحسينى لم يحدد لنا مصادره عن تلك الأحداث ، الا أنه يتضح من خلال تعليقات المحقق لنصوص الحسينى ومقارنتها بالمصادر الجورجية مايؤكد صدق موارد الحسينى عن حملات السلاجقة على تلك المنطقة تيسر له الوقوف عليها ولم يطلع عليها مؤرخون آخرون .

والحسينى فى كتابه اتبع طريقة تدوين تواريخ الحكام السلاجقة واحدا بعد آخر بدلا من طريقة الحوليات ، ومع ذلك فانه لم يغفل أهمية بعض الشخصيات التى خدمت السلاطين السلاجقة فأفرد لهم تراجم خاصة بهم مثل عميد الملك الكندرى ونظام الملك ، وعميد خراسان محمد منصور النسوى ، وغيرهم .

(٥) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم :

لأبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد المعروف بابن الجوزى (٥٠٨-٥٩٧هـ/١١١٤-١٢٠١م) ، ولد فى بغداد وتعلم فيها وكانت وفاته فيها أيضا ، كان غزير العلم غزير التأليف ، مشهورا بالوعظ والزهد .

وكتابه المنتظم فقير المعلومات فيما يتلعق بالسلاجقة قبل وصولهم الى بغداد ، وحين اقتربوا من بغداد نلحظ غزارة مادته التاريخية وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السلاطين السلاجقة الأوائل مع الخلفاء العباسيين ، وكشف فى كتابه كثيرا من جوانبها . ولعل الملاحظة الجديرة فيما يتعلق بكتابه المنتظم فى الجزئين الثامن والتاسع اللذين اعتمد عليهما البحث أن ابن الجوزى كان يهتم بوفيات الأعلام أكثر مما يهتم بالحوادث ، وهو هنا غلبت عليه نزعة المحدثين وعنايتهم بتراجم الرجال ودقة ولادتهم ووفياتهم وميول المترجم المذهبية ودرجة الحكم عليهم عند المحدثين .

(٦) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان :

لشمس الدين أبى المظفر يوسف بن قزأوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى (٥٨٢-٦٥٤هـ/١١٨٦-١٢٥٦م) . ولد فى بغداد وتلقى على يد جده لأمه أبى الفرج بن الجوزى ثم رحل الى الموصل وحلب ودمشق وبيت المقدس والحجاز وغيرها من المدن ، ولازم التدريس والوعظ فى جميع تنقلاته حتى أدركه الأجل فى دمشق سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م .

ولسبط ابن الجوزى الكثير من المؤلفات فى شتى المجالات. الا أن أشهر مؤلفاته هو كتابه الكبير مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان الذى لازال معظمه مخطوطا ، وقد سلك فيه طريقة الحوليات ، وتختلف أهميته من عصر الى عصر ، وأجزاؤه الأولى حتى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى تقل أهميتها لأنه ينقل عن مصادر معروفة عند جمهرة الباحثين .

أما فيما يتعلق بالقرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى ، وهو فترة البحث فله أهمية خاصة ، وذلك لأن سبط ابن الجوزى اعتمد فى كتابه على مادونه غرس النعمة محمد بن هلال الصابى المتوفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م فى كتابه (عيون التواريخ) الذى يعتبر مفقودا الى الآن .(١)

(١) عن سبط ابن الجوزى ومؤلفاته وكتابه مرآة الزمان ، انظر الدراسة التى قام بها مسفر الغامدى فى مقدمة تحقيقه للجزء الخاص بحوادث سنة ٤٨١-٥١٧هـ من كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، طبعة جامعة أم القرى.

وقد اعتمد البحث على النسخة المحققة لكتاب مرآة الزمان والتى قام بتحقيقها على سويم للحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة ٤٤٨-٤٧٩هـ/١٠٥٦-١٠٨٦م ، وتحقيق مسفر الغامدى للحوادث ٤٨١-٥١٧هـ/١٠٨٨-١١٢٣م .

وللقسم الأول أهمية لفترة البحث نظرا لما حواه من معلومات دقيقة وغزيرة فيما يتعلق بدخول السلطان طغرلبك بغداد وماتبع ذلك من خروج البساسيرى على الدولة العباسية التى تحدث عنها سبط ابن الجوزى من خلال مانقله عن غرس النعمة باسهاب وتفصيل .

وتكتسب المعلومات المتعلقة بقصة زواج السلطان طغرلبك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله وتأثيرها على العلاقة بين الطرفين نفس الأهمية .

وكذلك كان هذا الجزء من مرآة الزمان ذا أهمية فى ايضاح العلاقة بين السلاجقة وتنافسهم على السلطنة فى عهد السلطان ألب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه ، وعلاقة الوزير نظام الملك بالخلافة العباسية ، وأحداث بلاد الشام ، ودور القبائل العربية داخل الدولة العباسية فى عهد السلاطين السلاجقة العظام ، وكذلك الامارة المروانية .

وتتوقف بنا غزارة المعلومات بنهاية حوادث سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م لتعود لتكتسب أهميتها فى حوادث سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م عند ذكره لمقتل الوزير نظام الملك والمعلومات التى أمدنا بها عنه وعن أسباب مقتله جامعا لعدد من الآراء فى هذا الشأن .

(٧) اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا :

لتقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى (٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٤-١٤٤٢م) ، ولد بمدينة القاهرة ونشأ بها وحفظ القرآن ودرس علوم الدين والتاريخ وغيره ، وتولى عددا من الوظائف منها وظيفة الحسبة فى القاهرة (١) .

وكتاب المقريزى اتعاظ الحنفا ، وان كان متأخر زمنيا عن فترة البحث الا أنه اكتسب أهميته من خلال ماأورده عن ثورة البساسيرى ، وموقف الفاطميين منها فى بدايتها ، وعند نهايتها ، ومبينا من خلال المعلومات التى أفادنا بها أسباب فشلها وهو مالم نجده عند غيره الا ماذكره سبط ابن الجوزى عن هذه الحادثة .

كذلك استفاد البحث من هذا المصدر عند تعرفه لفتح السلاجقة بلاد الشام منذ عهد السلطان ألب أرسلان ، وقد أبانت معلوماته الأزمة الاقتصادية التى ضربت مصر فى تلك الفترة وعرفت من شدتها بالشدة المستنصرية أو الشدة العظمى وتأثيرها على الدولة الفاطمية وماصاحبها من فتنة بين الجند السودان والأتراك ، وكيف استفاد السلاجقة من هذه الأوضاع فى فتح بلاد الشام .

واضافة الى المصادر التى ذكرنا فهناك مصادر عديدة استفاد منها البحث سيجدها القارىء فى ثبت المصادر والمراجع فى آخر الرسالة .

---

(١) عن ترجمته انظر : السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ،ج٢ ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢١-٢ .

كذلك استفاد البحث من مجموعة من المراجع الحديثة التى كان لها دور فى بناء البحث ، ومن أهمها كتاب على عودة الغامدى (بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ٤٦٣-٤٩١هـ/ ١٠٧٠-١٠٩٨م) فقد أفاد منه الباحث فى تقييمه لكثير من الأحداث فى بلاد الشام خلال فترة البحث ، وكذلك فيما كتبه عن الامارة المرداسية والامارة العقيلية ودورهما فى بلاد الشام.

وعن هاتين الامارتين استفاد البحث أيضا مما كتبه محمد أحمد عبد المولى فى كتابه (بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجية مع دولتى الفواطم والروم) ومما كتبته أمينة بيطار فى كتابها (موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى) .

كذلك استفاد البحث من كتاب محمد العوفى (العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى) فيما يتعلق بفتنة البساسيرى وخلفياتها السياسية وماصاحبها من أزمات فى الدولتين العباسية والفاطمية .

كذلك استفاد البحث فائدة كبيرة مما كتبه فايز نجيب اسكندر فى كتابيه (أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى مصنف اريستاكيس اللسيتفرتى) حيث استفاد البحث من خلاله ، ومن خلال الدراسة المقارنة التى قام بها مع المصادر البيزنطية الأخرى فى كشف كثير من جوانب الفتح السلجوقى لأرمينية فى عهد كل من السلطان طغرلبك والسلطان ألب أرسلان .

كذلك استفاد البحث من كتابه الآخر (البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس ـ

دراسة مقارنة) ، اذ اعتمد البحث عليه فى كشف بعض الملابسات التى أحاطت بمعركة ملاذكرد من خلال الدراسة المقارنة التى قام بها المؤلف من المصادر البيزنطية الأخرى والمصادر العربية مما وضح الرؤية لى عند دراستى لهذه المعركة .

كما اعتمد البحث فيما يتعلق بفتوح السلاجقة لآسيا الصغرى بعد ملاذكرد على الرسالة العلمية التى حاز بها أحمد تونى عبد اللطيف على درجة الدكتوراه من جامعة المنيا وعنوانها (الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم) ، واكتسبت هذه الرسالة مع كتاب (المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجرى / ٩-١٢م) لأحمد عبد الكريم سليمان أهمية خاصة فى طرقنا لموضوع نشأة دولة سلاجقة الروم .

وهناك مراجع أخرى اختلفت أهميتها بالنسبة للبحث استفدنا منها مثبتة فى آخر الرسالة فى قوائم المراجع .

وأخيرا فالحمد لله أولا وأخيرا الذى أعان على اتمام هذا البحث ، وقد بذلت فيه غاية جهدى ، فان أحسنت فنعمة من الله وحده ، وان أخطئ فمن نفسى ، والخطأ فيه موكول الى ، وسبحان من له الكمال جل جلاله .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الطالب

محمد ربيع هادى المدخلى

التمهيد

عرض موجز عن أحوال المشرق الاسلامى
قبيل ظهور السلاجقة

(أ) انتشار الاسلام فى بلاد ماوراء النهر .

(ب) الأحوال السياسية .

(ج) الأحوال المذهبية .

(أ) انتشار الاسلام فى بلاد ماوراء النهر

عرفت منطقة بلاد ماوراء النهر[(١)] الاسلام منذ وقت مبكر منذ أن وصلتها جيوش المسلمين حاملة مشعل الهداية ونور التوحيد فى القرن الأول الهجرى ـ السابع الميلادى ، وقد تمكن المسلمون من اقامة موطىء قدم لهم فى تلك المنطقة منذ حملة قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦هـ/٧٠٥م واتخاذها نقطة انطلاق الى سائر أنحاء اقليم تركستان[(٢)] .

وحين نشأت الامارة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/٨٧٤ ـ ٩٩٨م) تبنى حكامها نشر الاسلام بالجهاد والدعوة فى بلاد ماوراء النهر ، وآزرهم فى ذلك الأتراك المسلمون الذين كانوا أكثر فهما لأوضاع الترك عموما وأعرف بلسانهم . ومع تلك الجهود المبذولة من قبل الحكام والدعاة وغيرهم ، فان دائرة انتشار الاسلام فى بلاد ماوراء النهر كانت غير واضحة المعالم وربما كانت تتركز فى المناطق الحضرية فى هذه البلاد ، وفى دائرة المناطق المفتوحة التى خضعت للمسلمين[(٣)] .

---

(١) بلاد ماوراء النهر : المقصود بالنهر هو نهر جيحون ، وهذا اللفظ مصطلح اسلامى يقصد به المنطقة الواقعة شمال نهر جيحون .
انظر : (كى لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٤٧٦) .

(٢) تركستان : اسم جامع لجميع بلاد الترك ، وأول حدها من جهة المسلمين فاراب وينتهى بالصين والتبت .
انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ٢٣) .

(٣) بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان وابراهيم صبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ ص ٥٧ .

وفى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى بدأت بوادر انتشار الاسلام فى بلاد ماوراء النهر تظهر بوضوح لافت للأنظار وكان الاقبال بأعداد كبيرة غيرت من مسار الخارطة السياسية لهذه البلاد . فمن الناحية الشرقية لتركستان أسلم سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م مائتى ألف خركاة[(١)] . وقدر بعض الباحثين أنها تضم مايقرب من المليون نسمة[(٢)] ، وهذا الاقبال على الاسلام فى تلك الفترة قل أن نجد له مثيلا فى كتب التاريخ[(٣)] .

ولاشك أن اسلام هؤلاء الترك الشرقيين كان نتيجة جهود عديدة ومخلصة قام بها الدعاة المسلمون[(٤)] ، وقد رجح بارتولد - معتمدا على نسخة خطية لكتاب الأنساب للسمعانى - أن اسلام أولئك الترك كان بجهود بعض الدعاة مثل الفقيه أبى الحسن ابن محمد بن سفيان الكلماتى ، الذى رحل الى ديار الأتراك الشرقيين ودخل فى خدمة كبير خاناتهم وتوفى هناك قبل سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م[(٥)] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج٨ ، ص ٥٣٢ - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ج١ ، ص ٤٣٠ .
والخركاة تعنى الخيمة (البيهقى ، تاريخ البيهقى ، ترجمه الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ٨٠٠) .

(٢) حسن أحمد محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ١٨١ .

(٣) حسن أحمد محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى ص ١٨١ .

(٤) على عوده الغامدى ، المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين ، الطبعة الأولى ، الطائف ، ١٤١١هـ ، ص ٩ .

(٥) بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٣٩١ ، وقد أخذ برأيه هذا حسن أحمد محمود فى كتابه الاسلام فى آسيا الوسطى ص ١٨١ ، ومحمد محمود ادريس فى كتابه تاريخ العراق والمشرق الاسلامى خلال العصر السلجوقى الأول ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٦١ .
والجدير بالذكر أن النسخة الخطية لكتاب الأنساب للسمعانى والتى ربما اعتمد عليها بارتولد كان فيها تحريف ، أشار اليه المترجم فى الحاشية رقم (٥٥٢) .

الا أن المعلومات التى بين ايدينا عن الفقيه أبى الحسن الكلماتى من النسخة المطبوعة لاتشير الى انه قد رحل الى خانات التركستان وانما ذكر السمعانى أنه رحل من نيسابور سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م الى بخارى ثم عاد الى جوزجانان (جوزجان)(١) واتصل بسلاطينها(٢) ، وعلى هذا فان سبب اسلام هؤلاء فى رأيى ينسب الى مجهود عدد كبير من الدعاة ، وليس الى شخص واحد بعينه .

وقد ربط بارتولد بين اسلام هؤلاء الترك وبين ظهور الايلك خانيين فى منطقة بلاد ماوراء النهر ، وهو ربط منطقى نتيجة للأحداث التى تعاقبت على هذه المنطقة بعد اسلام تلك المجموعات(٣) .

وعلى أى حال فقد كانت هداية الله سبحانه وتعالى لهم الى الاسلام سببا فى امتداد رقعة الاسلام من حدود نهر جيحون الى اقصى بلاد التركستان ، حيث كان الايلك خانيون يتخذون من كاشغر(٤) عاصمة لهم ، ورفع الله شأنهم بهذا الدين فقادوا حركة الجهاد ضد من يليهم من كفار الترك ، وما الاتفاقية التى عقدت بين السلطان محمود الغزنوى وطغان خان بعد سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م لوقف الحرب بين الجانبين للتفرغ لجهاد

---

(١) جوزجان : ويقال لها جوزجانان كورة من كور بلخ بين مرو الروذ وبلخ .
(ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٧٢) .

(٢) السمعانى ، الأنساب ج٥ ، تحقيق عبد الله عمر البارودى الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٨٩ .
وانظر تعريف جوزجان فيما بعده .

(٣) تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٣٩١ .

(٤) كاشغر : ذكر ياقوت أنها مدينة فى وسط بلاد الترك دون أن يحدد موقعها . (معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٣٠) .
أما لسترنج فقد ذكر أنها من المدن التى تقع على حدود الصين . (بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٣٠) .

الكفار الا دليلا قويا يعطى مصداقية توجههم نحو نشر الاسلام (١) وبسط نفوذه الى أقصى حد ممكن فى هذه الأقاليم .

ومما لاشك فيه أن هذا النفوذ الواسع الذى كان يتمتع به الايلك خانيون ، ومع ماعرف عن معظمهم من حسن السيرة والسريرة والالتزام بالاسلام قولا وعملا (٢) ، جعل كثير من الأقوام التى تقع فى نطاق نفوذهم أو ماوراءها ترغب فى الدخول فى الاسلام ، أو على الأقل تبدأ التفكير فيما آل اليه شأن الايلك خانيين من مجد ورفعة ومكانة بسبب دخولهم فى الاسلام .

ان ابن الأثير حينما يذكر لنا فى حوادث سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م خبر اسلام عشرة آلاف خركاة من كفار الترك فى وقت واحد (٣) وقد كانت مهنتهم هى قتال المسلمين والاغارة على حدودهم لخير دليل على التأثير الذى تركه الأتراك الشرقيون المسلمون فى بعض القبائل التركية المنتشرة هناك ، بل ان ابن الأثير يؤكد لنا فى مكان آخر أن الأمراء الايلكخانيين كانوا دعاة للاسلام وكانوا ينتهزون الفرصة المناسبة فى العلاقات السياسية لدعوة الكفار الى الاسلام ، اذ يذكر فى حوادث سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٤م أنه خرج من كفار الترك من بلد التبت خلق لايحصون كثرة ، وأنهم راسلوا أرسلان خان (٤) صاحب

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٤٠ ، ومما ذكره ابن الأثير عن سبب هذه الاتفاقية أن طغان خان راسل السلطان محمود وقال له : (المصلحة للاسلام والمسلمين أن تشتغل أنت بغزو الهند ، وأشتغل أنا بغزو الترك وأن يترك بعضنا بعضا) .

(٢) انظر على سبيل المثال فى ابن الأثير ج٩ ، ص٢٤٠ عن ايلك خان ، ص ٢٩٧ عن طغان خان ، ص ٢٩٩ عن قدرخان وشرف الدولة أرسلان بن قدر خان ، ص ٣٠٠ عن طفغاج خان ابراهيم بن نصر ، ص ٥٢٠ عن شرف الدولة حاكم بلاساغون.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٠ .

(٤) أرسلان خان : لم أجد له تعريفا فى المصادر التى بين يدى .

بلاساغون (١) يشكرونه على حسن سيرته فى رعيته ، وقد انتهز أرسلان (٢) خان مراسلتهم تلك ورد عليهم يدعوهم الى الاسلام ، وكأنى به فى هذا المقام يخبرهم بأن سبب حسن سيرته فى رعيته كانت نابعة من الاسلام ومثله العليا التى تربط بين الراعى والرعية ، مع أن رد أولئك الكفار الترك كما ذكر ابن الأثير بأنهم لم يجيبوا ولم ينفروا منه .

واذا كان ابن الأثير حفظ لنا بعض النصوص عن ظاهرة انتشار الاسلام بين مجموع القبائل التركية ، فانه بلاشك هناك حوادث مماثلة لم تصل الى المؤرخين ربما لأنها أقل شأنا من تلك الحوادث التى ذكروها أو لأنها لم تصل اليهم مثل تلك الأخبار .

وعلى أى حال فان جانب الدعوة الى الاسلام لم يكن قاصرا على الحكام فقط بل كان موضع اهتمام كثير من علماء بلاد ماوراء النهر وغيرهم الذين كانوا يجوبون تلك المناطق داعين اليه (٣) . وهناك طبقة من الدعاة لايمكن اغفال دورهم وهم طبقة تجار المسلمين الذين خبروا الطرق التجارية بين

---

(١) بلاساغون : قصبة بلاد خانات تركستان فى القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر ، الحادى عشر الميلاديين) وصعب على البلدانيين معرفة موضعها الصحيح .
انظر : (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٣٠) .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٥ .

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٦٩ يتحدث بارتولد عن دور الصوفية فى نشر الاسلام ويذكر انهم كانوا لايتحدثون عن الجهاد وعما يجده الشهداء من نعيم الجنة بل كانوا يتحدثون عن الاثم والعذاب فى نار جهنم ثم ربط فجأة هذا المنطق بما هو موجود عند البوذيين والمانويين والنصارى .
واذا كان تعليله هذا صحيحا فما هو التفسير لما قام به الترك الذين أسلموا عموما سواء الايلك خانيون والسلاجقة من تبنى حركة الجهاد التى تركت بصماتها واضحة فى ماوراء النهر وفى العالم الاسلامى والنصرانى آنذاك .

المناطق الاسلامية المتعددة وبين الممالك والقبائل التركية المنتشرة فى ربوع تركستان الى حدود الصين (١) .

وقد استغل أولئك التجار الصلات التجارية المتبادلة بين المسلمين وغيرهم من الأمم التى كانت تدين بغير الاسلام فدعوهم الى الاسلام بالتى هى أحسن فأثاروا اعجاب كثير منهم بالعقيدة الاسلامية ، واذا كان بارتولد ربط هذا الاعجاب بالمنتوجات الاسلامية وبالمظاهر المادية للحضارة الاسلامية (٢) فيبدو لى أنه تعمد التقليل من أهمية الجانب الدينى والأخلاقى للتاجر المسلم والتزامه بتعاليم دينه فى بيعه وشرائه والتزامه بالصدق والأمانة والاخلاص فى أداء عمله وهو أمر له تأثيره القوى على نفوس المحتكين بأولئك التجار لابما يحمله فقط من بضائع من الديار الاسلامية .

وهكذا نرى أن القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادى عشر الميلادى) كانا فيصلا فى تاريخ الاسلام فى منطقة ماوراء النهر لم تشهد له هذه المنطقة مثيلا من قبل ، وأمد الترك العالم الاسلامى بدماء وقوة جديدة أعادت له هيبته ونشطت فيه أيضا حركة الجهاد والفتح واستردت فيه هيبة العالم الاسلامى والمذهب السنى الذى أحاط به الشيعة من بنى بويه والفاطميون فضلا عن تهديد الدولة البيزنطية التى سلبت من العالم الاسلامى أجزاء عديدة فى الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، ولذلك فان مقولة : انه اذا كان للعرب فضل نشر الاسلام فان للترك فضل حماية هذا الدين فى أوقات المحن تعتبر صحيحة (٣) .

---

(١) حسن أحمد محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى ص ١٧٥-١٧٦ ،
(٢) بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٦٩-٧٠ .
(٣) انظر : سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٧٥م ، ص ١٥-١٩ .

(ب) الأحوال السياسية

مع نهاية العقد التاسع من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) سقطت دولة السامانيين (١) سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م فى بلاد ماوراء النهر وخراسان (٢) ، وطويت صفحتها من التاريخ ، لتحل محلها دولة الايلكخانيين (٣) فى بلاد ماوراء النهر ،

---

(١) عن الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٨م) انظر : (أبو بكر النرشخى ، تاريخ بخارى ، ترجمة عن الفارسية وحققه أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرزى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠٥-١٣٤ - أرمنيوس فامبرى ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمه وعلق عليه أحمد محمود الساداتى القاهرة بدون تاريخ الطبع ص ٩٣-١٢٥ - حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، مجلد ٣ ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٦٥م ص ٧٣-٧٤ - عصام عبد الرؤوف الفقى ، الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٧م ، ص ١٢-١٣ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ج١ ، ص ٢٧٦ - استانلى لين بول ، طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمة طاهر الكعبى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ١٢٨) .
وعن الدولة السامانية بصفة عامة انظر : (محمد على حيدر ، الدولة السامانية ، تطورها وقيامها وحضارتها رسالة ماجستير ، مكتبة دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٥م) .

(٢) خراسان : اقليم واسع يقسم الى أربعة أرباع هى :
١ - ايران شهر وتضم : نيسابور ، وقهستان ، والطبسان وهراة ، وبوشنج وباذغيس وطوس .
٢ - مرو الشاهجان وسرخس ونسا وأبيورد ومرو الروذ والطالقان وخوارزم وآمل وهما على نهر جيحون .
٣ - المناطق الواقعة غربى جيحون وأهم مدنه فارياب والجوزجان وطخارستان العليا .
٤ - مما يلى جيحون شمالا ومن مدنه بخارى وسمرقند والشاش والصغد .
وهذا التقسيم كان فى أوائل عهد الدولة الاسلامية ، ثم اقتصر الاسم على الأرباع الثلاثة الأولى وأصبح اقليم ماوراء النهر اقليما قائما بذاته وخاصة فى الدولة العباسية .
انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٥٠-٣٥١ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٢٣ ومابعدها .

(٣) الايلك لقب حملة حكام ماوراء النهر وينقسمون الى شعبتين شرقية وغربية وتواريخ حكامها غير واضحة المعالم لندرة المعلومات عنهم وتشابههم فى الأسماء على العملات النقدية التى يمكن الخروج منها بتواريخ دقيقة عنهم .
=

بينما سيطر الغزنويون على خراسان ، أما البويهيون فقد سبق لهم اقتطاع اقليم الجبل واعترف لهم السامانيون بحكمه منذ سنة ٣٦١هـ/٩٧١م .

واذا نظرنا الى دولة الايلكخانيين فى بلاد ماوراء النهر نجد أنها من الدول حديثة العهد بالاسلام بالنسبة الى دول المشرق الأخرى ، فقد أسلم زعيم احدى قبائل الترك فى شرق تركستان ويدعى ساتوق بغراخان وتبعته قبيلته فى اسلامه ولايعرف على وجه التحديد متى كان ذلك الحدث الا أنه من المؤكد أنه كان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى ، اذ أن وفاة ساتوق كانت سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م على وجه التقريب (١) .

وقد أخذ خلفاؤه من بعده يتجهون جنوبا نحو المناطق التى يسيطر عليها السامانيون . وأول خانات تركستان يقوم بهذا التحول الى الجنوب هو شهاب الدولة هارون ايلك المعروف ببغراخان ، ويتضح مما ذكره ابن الأثير أن شهاب الدولة هارون ايلك لم يقدم على مهاجمة الدولة السامانية (٢)

= انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ج١ ، ص ٢٧٩-٢٨٢ - ستانلى لين بول ، طبقات سلاطين الاسلام ص ١٢٩- ١٣٠) ويذكر بارتولد : أن لقب الايلك لم يكن عاما فى هذه الأسرة الحاكمة ، وانما كان يختص به البعض منهم (دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٣ ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٢٠٥) ، ومما يجدر ذكره أن بارتولد يطلق عليهم فى كتابه (تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٤٠٦-٤٠٧) لقب القراخانيين .

(١) بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٧٦ ، وانظر أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ٢٧٩/١ ، ستانلى لين بول ، طبقات سلاطين الاسلام ص ١٢٩ .

(٢) هو شهاب الدولة بن فغراخان بن موسى ستوق ، ولايعرف على وجه التحديد متى كانت بداية حكمه واذا كان والده توفى سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م كما ذكر ذلك أحمد السعيد سليمان فى كتابه تاريخ الدول الاسلامية ج١ ، ص ٢٨٠ فان مدة حكمه كانت سنة واحدة (٣٨٢-٣٨٣هـ/٩٩٢-٩٩٣م) .

تلقائيا ، وانما كان بتحريض من حاكم خراسان أبى على بن سيمجور (١) الذى كان على خلاف مع الأمير السامانى نوح بن منصور (٢) وقد اتفق أبو على مع الايلك خانيين على تقسيم النفوذ بينهما فيحصل شهاب الدولة هارون على بخارى وسمرقند (٣) ، ويستقل أبو على بالحكم فى خراسان ، وعلى ضوء ذلك الاتفاق قام شهاب الدولة هارون بهجومه على بخارى سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م . وعندما وجد الأمير نوح بن منصور السامانى أنه لاقبل له بالقوات المهاجمة انسحب من عاصمته ليدخلها الأمير الايلك خانى الذى لم يستطع البقاء فى بخارى طويلا لأنه استوخمها واعتل فيها مما أجبره على الخروج من بخارى ، وأثناء انسحابه هاجمه الأهالى وساعدهم الغز (٤) فى ذلك الهجوم وألحقوا بهم خسائر جمة فى الأموال والأرواح (٥) .

ولم يعش شهاب الدولة هارون بعد هذه الحادثة اذ أنه توفى بعد ذلك لتنتهى مغامرة الايلك خانيين بالفشل فى

---

(١) أبو على بن أبى الحسن بن سيمجور : قائد سامانى حكم خراسان باسم السامانيين سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م ، وتوفى سجينا لدى سبكتيكين الغزنوى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م .
انظر : (ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٨، ٩٨، ١٠٩) .

(٢) نوح بن منصور بن نوح بن نصر السامانى ، حكم الدولة السامانية من سنة ٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م .
(حمد الله القزوينى ، تاريخ كزيده ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرزى ، القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م ، ص ١٤٣-١٤٧ ، وهو ملحق بتاريخ بخارى للنرشخى).

(٣) بخارى : من أعظم مدن بلاد ماوراء النهر وأجلها ، يعبر اليها من آمل الشط وبينها وبين جيحون يومان .
يقول عنها ياقوت : بأنه لم ير بلدا أحسن خارجا من بخارى ، ولم يقع بصرك من جميع النواحى الا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء ، فكأن السماء مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر ، تلوح القصور فيما بينها كالنواوير فيها . (معجم البلدان ، مجلد١ ، ص ٣٥٢-٣٥٣)
أما سمرقند فهى على بعد ١٥٠ ميلا شرق مدينة بخارى تقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر السغد الجنوبية (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٦) .
وهما الآن ضمن جمهورية أوزبكستان الخاضعة للاتحاد السوفييتى .
انظر : (سعيد الصباغ ، الأطلس العربى العام ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٤٤) .

(٤) انظر تعريف الغز ص ٧٣ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٩٨ .

بخـــارى .(١)

كمـــا أن الأمير نوح بن منصور الذى عاد الى عاصمته بعد ذلـك لـم يطـل بـه العمر ، اذ توفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ، وخلفه ابنـه منصور بن نوح الذى كان حدثا يافعا لم تعركه التجارب(٢) فـوقع ضحيـة لكبار قادته مثل فائق الخاصة وبكتوزون اللذين قامـا بـالقبض عليه وسمل عينيه ووليا بدلا منه أخاه المغير عبد الملك بن نوح .(٣)

وكان خلع الأمير منصور بن نوح هو الحجة التى تذرع بها كـل مـن الايلـك أبـى الحسين نصر الأول حاكم ماوراء النهر ،(٤) ومحـمود الغزنـوى للاجهاز على الدولة السامانية ، فقد عاتب(٥)

(١) ابن الأثير ، الكامل ج٨ ، ص ٩٨-٩٩،١٠٠ .

(٢) منصـور بـن نـوح بـن منصـور : خلف أباه فى الحكم سنة ٣٨٧هـــ/٩٩٧م وهـو صغيـر ، وعـزل عـن الحكم مسمولا سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م ، انظر : حمد الله القزوينى ، تاريخ كزيده ص ١٤٧ .

(٣) حـمد الـلـه القـزوينى ، تـاريخ كزيـدة ، ص ١٤٧ ـ ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ١٤٥ .

(٤) ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل ، ج٩ ، ص ١٤٨ أن الذى أنهـى الحـكم السـامانى وقبض علـى الأمير عبد الملك هو الايلك أبو نصر أحمد بن على الملقب بشمس الدولة .
أمـا أبـو الحسين نصـر الأول بـن عـلى بن ستوق . فهو الـرابع فـى سلسلة الحكام الايلك خانيين . حكم من سنة ٣٨٩-٤٠٠هـــ/٩٩٨-١٠٠٩م على وجه التقريب ولايعرف شىء من حياتـه . انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٣٨١) وفـى ستانلى لين بول ، طبقات سلاطين الاسلام ص ١٣٠ ذكره باسم أبو الحسن .

(٥) السـلطان محـمود بـن سـبكتكين الغزنوى : يمين الدولة (٣٦١-٤٢١هـــ/٩٧١-١٠٣٠م) تـولى الحكم بعد منازعة أخيه اسـماعيل بن سبكتكين واستطاع التغلب عليه سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م وأقـره الخليفـة القادر بالله على حكم خراسان ، كـان مجـاهدا غيـورا عـلى الاسلام لـه فى كل سنة غزوة الى الهند ، وحارب المبتدعة والباطنية فى المشرق وفرض نفوذه على بلاد الغور وخوارزم وجرجان وطبرستان واقليم الجبال .
انظـر ترجمتـه ومصادرهـا فـى : (الـذهبى ، سـير أعلام النبلاء ، ج١٧ ، الطبعـة الثانيـة ، تحـقيق شـعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٤٨٣-٤٩٥ .

الأخير القادة السامانيين على صنيعهم بالأمير منصور بن نوح ولم يعترف بهذا التغيير ، وكانت هذه المناسبة فرصة للاستقلال بأمور خراسان بعيدا عن النفوذ الساماني (١) . وفي مرو في جمادى الأوى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م خرج محمود الغزنوى من حربه مع عبد الملك بن نوح وفائق الخاصة وبكتوزون ظافرا ومحققا للاستقلال التام في خراسان ومنهيا النفوذ الساماني (٢) .

وبينما كان الأمير عبد الملك بن نوح وقادته يعيدون ترتيب قواتهم استعدادا لجولة أخرى مع السلطان محمود الغزنوى واستعادة نفوذهم كان الايلك نصر يتقدم نحو بخارى مظهرا نصرته للامارة السامانية ومعلنا تأييده للأمير عبد الملك بن نوح . وقد صدق السامانيون دعواه تلك وخرج بكتوزون وبعض الأمراء السامانيين لاستقباله .

ولم يضيع الايلك نصر الفرصة فقام على الفور بالقبض على القادة السامانيين ثم تقدم نحو بخارى التى دخلها في العاشر من ذى القعدة سنة ٣٨٩هـ/أكتوبر ٩٩٨م ، ولم ينفع الأمير عبد الملك تواريه عن الأنظار ، اذ سرعان ماقبض عليه وهو مختف ، كما تم القبض على سائر الأسرة السامانية . وبذلك ينتهى الحكم الساماني ويحل محله في بلاد ماوراء النهر قادة جدد هم الايلك خانيون (٣) .

---

(١) مرو : تطلق على موضعين ، أحدهما مرو الروذ ، وهى صغيرة بالنسبة الى مرو الأخرى وهى مرو الشاهجان وهى الكبرى ، ومن أشهر مدن خراسان وقصبتها ، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخا ومنها الى سرخس ثلاثون فرسخا . والفرسخ = ثلاثة أميال .
انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣٦ ، مجلد ٥ ، ص ١١٢،١١٣) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٤٦ – عصام عبد الرؤوف الدول الاسلامية المستقلة ص ٧٤ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٤٨ – بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٤٠٦ .

وقد تم الاتفاق بين السلطان محمود الغزنوى والايلك خانيين على الحدود السياسية بينهما عقب القضاء على السامانيين ، ويبدو أن نهر جيحون كان هو الحد الفاصل بين الدولتين (١) . وقد استمر هذا الاتفاق الى سنة ٣٩٦هـ/٩٠٨م ، ففى هذه السنة انتهز حاكم ماوراء النهر فرصة غياب السلطان محمود الغزنوى فى بلاد الهند فى احدى غزواته وقام بارسال جيش كانت مهمته الاستيلاء على خراسان ، وقد تمكنت هذه القوات من الاستيلاء على بلخ (٢) ، وهراه (٣) ، ونيسابور (٤) (٥) . وحينما سمع السلطان محمود بهذه الأنباء عاد فورا الى غزنة ليجهز جيشا قويا قاده بنفسه لاجلاء أمراء ماوراء النهر عن خراسان وقد نجح السلطان محمود فى اجلائهم عنها رغم المحاولات التى

---

(١) بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٤١١ .

(٢) بلخ : من أجل مدن خراسان ، وأكثرها خيرا وأوسعها غلة تحمل غلتها الى جميع خراسان والى خوارزم ، بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخا ، وأحيانا ينسب نهر جيحون اليها فيقال نهر بلخ وبينهما عشرة فراسخ .
انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٧٩-٤٨٠)
وهى اليوم فى أقصى حدود دولة أفغانستان الشمالية المجاورة للاتحاد السوفييتى .
انظر : (سعيد الصباغ ، الأطلس العربى العام ، ص ٤٧) .

(٣) هراة : من أمهات مدن خراسان ، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة .
انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٣٩٦) .
وهى اليوم فى دولة أفغانستان فى الشمال الغربى منها (سعيد الصباغ ، الأطلس العربى العام ، ص ٤٤) .

(٤) نيسابور : مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة ، من معدن الفضلاء ومنبع العلماء . هكذا ابتدأ ياقوت تعريفه لها وهى كذلك ، فتحت فى أيام أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ٣١هـ/٦٥١م على يد عبد الله بن عامر بن كريز ، وقيل أنها فتحت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على يد الأحنف ابن قيس ، تبعد عن الرى مائة وستين فرسخا ، ومن نيسابور الى سرخس أربعون فرسخا .
(معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٣٣١) .

(٥) الكرديزى ، زين الأخبار ، تعريب محمد بن تاويت ، فاس ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ص ٧٦-٧٧ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٨٨ .

بذلها جعفر تكين أخو الايلك خان فى تشتيت جهود السلطان محمود الغزنوى (١) .

وقد فتحت هذه الحملة التى قام بها الايلك خانيون باب العداء بين الدولتين ، ولم يسلم الايلك خانيون بتلك الهزيمة التى منوا بها ، اذ عمل ايلك خان على مراسلة أقاربه من الأمراء وعلى رأسهم طغان خان ، وقدرخان بن بغراخان حاكم الختن (٢) لمناصرته ضد الغزنويين ، وقد لبى كثير من الأمراء الترك استغاثة الايلك خان ، واجتمعوا معه ، ولم يكن السلطان محمود غافلا عن هذه التحركات فأسرع بقواته نحو بلخ ، وحدد مكان اللقاء بالقوات الغازية على بعد فرسخين من بلخ ، وبعد معركة دامت يومين تحقق النصر للقوات الغزنوية على القوات الايلك خانية سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م (٣) .

وقد وضعت هذه المعركة حدا لأطماع أمراء ماوراء النهر فى خراسان .

وعلى كل فان تاريخ الأسرة الايلك خانية غير واضح المعالم ، ويكتنفه الكثير من الغموض ، لعدم توفر المعلومات الدقيقة والصحيحة عن تلك الأسرة الحاكمة الشرقيون ، منهم والغربيون (٤) ، الا أن الفترة التى حكمها

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٨٨-١٨٩ .
(٢) الختن : لايعرف موقعها على وجه التحديد وعدها لسترنج من المدن المجهولة على حدود الصين .
انظر : (بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٣٠) .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٩١-١٩٢ .
بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٤١٣ .
(٤) انظر : بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٤١٤ – أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٧٩-٢٨٢ – ستانلى بول ، طبقات سلاطين الاسلام ، ص ١٢٨-١٣٠ .

هؤلاء يمكن اعتبارها امتدادا للعالم الاسلامى السنى ، وهم يتبعون نفس السياسة التى سار عليها السلطان محمود الغزنوى فى محاربة التشيع ، ولعل ماحدث سنة ٤٣٦هـ يعطى دليلا واضحا على هذا الاتجاه ، اذ أن بغراخان بن قدر يوسف خان (١) بلغته أنباء تسلل عدد من الدعاة الاسماعيلية الى بلاد ماوراء النهر ، وأنهم تمكنوا من ضم كثير من الناس الى دعوتهم وطاعة المستنصر بالله الفاطمى ، فتظاهر بغراخان بقبول دعوتهم وميله اليهم حتى عرف زعماءهم ومن تبعهم ، ثم أمر بقتلهم فى كل أنحاء بلاده (٢) ، وكانت هذه الحركة ضربة موجعة للشيعة الاسماعيلية فى بلاد ماوراء النهر ، وأنهت نشاطهم فيها تماما .

واذا انتقلنا الى خراسان نجد أن السلطان محمود الغزنوى قد تمكن من تثبيت حكمه فى أجزاء واسعة من ذلك الاقليم وخاصة بعد معركة بلخ سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م التى اشرنا اليها ، كما تمكن من الاستيلاء على سجستان (٣) سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م (٤) وخضع له منوجهر بن قابوس بن وشمكير الزيارى (٥) سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م (٦)

---

(١) بغراخان بن قدر يوسف خان حكم من (٤٢٥-٤٣٩هـ/١٠٣٣-١٠٤٧م) تقريبا وكان واليا على طشقند وطراز قبل أن يخلف أخاه أرسلان خان .
انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ج١ ، ص ٢٨١ حاشية رقم ٥) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٤ .

(٣) سجستان : ويطلق عليها أيضا سيستان وهو اقليم جنوب خراسان ، خصب كثير الطعام والتمور والأعناب . (لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٧٢-٣٧٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٥) حكم من (٤٠٣-٤٢٠هـ/١٠١٢-١٠٢٩م) .
انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ج١ ، ص ٢٨٣، ٢٨٤) .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٣٥ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٨٣ .

كما ضم الى حكمه خوارزم[1] سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م ، ولم تأت سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م الا وقد فرض سيطرته على الرى واقليم الجبل منهيا النفوذ البويهى منه[2] .

ومع اتساع رقعة الدولة الغزنوية الا أن الجانب المشرق فى حياة السلطان محمود الغزنوى ، هو دوره العظيم فى احياء حركة الجهاد والفتح فى بلاد الهند التى توقفت منذ ضعف الخلافة وتدهور أحوال الدولة العباسية وخاصة فى العصر العباسى الثانى .

وقد بلغ عدد الغزوات التى قام بها السلطان محمود فى بلاد الهند سبع عشرة غزوة كان فيها فاتحا مظفرا وداعيا الى الاسلام[3] ، وكذلك كانت بلاد الغور والافغان مجالا للفتح والجهاد ونشر الاسلام فى هذه المناطق[4] .

والى الغرب من حدود الدولة الغزنوية نجد دولة بنى بويه ، وبنو بويه كما هو معلوم ينتمون الى طائفة الديلم ، وكان بويه الذى سميت الدولة باسمه رجلا فقيرا يعمل فى صيد

---

(١) خوارزم : اسم اقليم واسع له قصبتان ، أولهما فى الجانب الغربى من نهر جيحون وهو الفارسى ويسمى الجرجانية أو أوركنج ، والآخر فى الجانب الشرقى وهو التركى من النهر ويقال له كاث .
انظر : (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٨٩) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧١-٣٧٣ ، وانظر تعريف الرى والجبل ص

(٣) عن فتوح السلطان محمود الغزنوى فى بلاد الهند انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٦٩، ١٧٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٢، ٢٠٦، ٢١٣، ٢٢١، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٦٠، ٢٦٥، ٣٨٠ .

(٤) حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة بدون تاريخ ص ٤٧٤-٤٧٥ .

السمك ، وحين كبر أبناؤه الثلاثة : علي (١) ، والحسن (٢) ، وأحمد (٣) التحقوا في بجيش ماكان بن كالي ، وعندما دارت الدوائر على ماكان بن كالي ، انضم أبناء بويه الى خصمه مرداويج بن زيار الديلمي ، ثم تنقلت بهم الأحوال حتى استطاعوا الاستيلاء على فارس وكرمان وامتد نفوذهم الى همدان واقليم الجبل مقتربين من العراق من ناحيته الشرقية ثم الجنوبية حينما سيطروا على الأهواز سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م ، ولم تأت سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م الا وأحمد بن بويه في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ومسيطرا على الخليفة المستكفي بالله (٤) (٣٣٣ – ٣٣٤هـ/٩٤٤ – ٩٤٥م) الذي اعترف بسلطة البويهيين مفوضا أمور الدولة العباسية اليهم ، ومنح أحمد بن بويه لقب معز الدولة وأخاه علياً لقب عماد الدولة والحسن لقب ركن الدولة (٥) . وقد فرض أحمد بن بويه نفوذه على الخليفة المستكفي بالله عقب هذا التفويض ، وبدأ يمارس ضغطه عليه عندما أجبر الخليفة على

---

(١) علي بن بويه (عماد الدولة) حكم إقليم فارس وكرمان من سنة (٣٢٢-٣٣٨هـ/٩٣٤-٩٤٩م) .

(٢) الحسن بن بويه (ركن الدولة) كان اليه حكم الري وأصبهان وجميع عراق العجم مدة أربعة وأربعين عاما ، توفي سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م .

(٣) أحمد بن بويه (معز الدولة) حكم العراق من (٣٣٤-٣٥٦هـ/ ٩٤٥-٩٦٦م) .

(٤) هو عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد بالله أحمد ولي الخلافة سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م بعد عزل الخليفة المتقي لله ، ولم يعمر في الخلافة بسبب عزله من قبل معز الدولة أحمد بن بويه سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م .
انظر : (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٣٦٧-٣٦٨) .

(٥) عن قيام الدولة البويهية انظر : (حسن منيمنة ، تاريخ الدولة البويهية السياسي والاقتصادي والاجتماعي – مقاطعة فارس ٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ١٢١-١٢٨ – محمد حسين الزبيدي ، العراق في العصر البويهي ، التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية ٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٢٩-٣٤) .

تعيين ابن شيرزاد كاتبا له مع علم معز الدولة أحمد بن بويه أن الخليفة قد حلف ألا يعينه فى أى منصب ، وظل معز الدولة يضغط على الخليفة المستكفى بالله حتى عين ابن شيرزاد كاتبا للخليفة (١) .

لم يكتف معز الدولة بما حققه من سلب سلطات الخليفة العباسى والاستيلاء على موارد الدولة العباسية ، وتخصيص مرتب يومى له ، بل انه فى بادرة شك منه ، خلع المستكفى بالله من الخلافة بصورة مهينة . ففى حفل استقبال عام فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٣٠ يناير ٩٤٥م تقدم ديلميان من جند معز الدولة الى الخليفة الذى ظن أنهما مقبلان نحوه لتقبيل يده واذا بهما يجذبانه من يده وجعلا عمامته فى عنقه ، وبهذه الصورة المخزية أمام الجميع اقتاداه الى دار معز الدولة ليعتقل فيها (٢) .

ويبدو أن معز الدولة حين فكر فى خلع الخليفة المستكفى بالله كان فى ذهنه استبدال الخلافة العباسية

---

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، مجلد ١ ، نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة الطبعة الرابعة ، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص ٤٠ ـ وقد نقل آدم متز عن مخطوط "كتاب العيون" رواية عن ذكاء أحد موالى الخليفة الراضى ، أن الخليفة المستكفى بالله عندما قبل تعيين ابن شيرزاد كاتبا له فعل ذلك وعيناه تغرر بالدموع لعظم ماورد عليه من سؤال ابن بويه .

(٢) مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٨٦-٨٧ ـ الهمدانى ، تكملة تاريخ الطبرى ، ص ١٤٩ .
وعن العلاقة بين الخلفاء العباسيين وأمراء بنى بويه انظر : (حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى بغداد ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ص ٧-٤٠ ـ الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ، ص ٣٤-٣٦ ـ توفيق سلطان اليوزبكى ، الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية (١٣٢-٤٤٧هـ) الطبعة الثانية ، الموصل ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ٢١٨-٢٢٠ ـ محمد مسفر الزهرانى ، نظام الوزارة فى الدولة العباسية (العهدان البويهى والسلجوقى) (٣٣٤-٥٩٠هـ) الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٢١-٣٠) .

بخلافة علوية ، وبذلك أمر باستدعاء أحد العلويين وهو أبو الحسن محمد بن يحيى العلوى الزيدى ليبايعه ، لكن بعض خواصه نبهه الى خطورة مثل هذا الاجراء حين قال له : "اذا بايعته استقر عليك أهل خراسان وعوام البلدان ، وأطاعته الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك ، وبنو العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مرارا ، وتمرض تارة وتستقل أطوارا ، لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ" (١) .

وعن ذلك فيما ورد فى الكامل لابن الأثير : "ليس هذا برأى ، فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة معك من يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه" (٢) .

وكانت هذه الآراء سببا فى عدول معز الدولة عن رأيه فى نقل الخلافة الى البيت العلوى ، وآثر أن يبقى الخلافة العباسية الضعيفة ليضمن لبيته البقاء والاستمرار ، ومن ثم أجبر المستكفى بالله على التنازل عن منصبه الى الفضل بن جعفر الذى لقب بالمطيع لله بعد توليه الخلافة ، وقد انحدرت الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه انحدارا عبر عنه ابن الأثير أبلغ تعبير عندما قال : "... وازداد أمر الخلافة ادبارا ، ولم يبق لهم من الأمر الشىء البته ، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة بعض الشىء فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة

---

(١) الهمدانى ، تكملة تاريخ الطبرى ، تحقيق البرت يوسف كنعان ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦١م ، ص ٣٥٤-٣٥٥ .
(٢) الكامل ، ج٨ ، ص ٤٥٢ .

لم يبق له وزير ، وانما كان له كاتب يدبر اقطاعه واخراجاته لاغير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه مايريد ..." .(١)

وبين ابن الأثير سبب هذا الوضع وأنه كان لمغالاة بنى بويه فى التشيع ، وأنه لم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة .(٢)

وهكذا كانت خلافة المطيع لله مجرد منصب دينى ليس له أى سلطة ، واستأثر معز الدولة بأمور الدولة وتسلم نوابه العراق بأسره ، ولم يبق فى يد الخليفة الا ماأقطعه له الأمير البويهى .

وكانت سياسة معز الدولة فى العراق سياسة سيئة استولى فيها على أموال الناس وصرفها فى غير وجهها ، وأقطع قواده وأصحابه القطائع ، فتعطلت الدواوين ، وخربت القرى فعظم الخراب باهمال النظر فى وسائل الرى كالترع والقنوات والقناطر ، ولم يراع معز الدولة الأحوال الاقتصادية السيئة فى العراق عندما أخذ فى جمع الأموال لانفاقها على ملذاته واتراف نفسه عندما بنى له دارا فى بغداد سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م كانت فى غاية الفخامة ، وصرف على بنائها ثلاثة عشر مليون درهم ، فى الوقت الذى قطع فيه مخصصات الخليفة المطيع اليومية ، وأحاله على اقطاع منحه اياه فى البصرة ليقوم هذا الاقطاع بكفاية نفقات الخليفة .(٣)

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٤٥٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٤٥٢ .
(٣) عن السياسة الاقتصادية فى العراق فى عهد بنى بويه ، انظر : محمد حسين الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ص ١١٣-١١٨،١٥٧-١٦٠ – سليمان الرحيلى ، مظاهر الشعوبية فى العصر البويهى ، مجلة بحوث تاريخية ، اصدار الجمعية التاريخية السعودية ، عدد شوال ١٤٠٩هـ شوال ١٤١٠هـ ، ص ٢٩٦-٣٠٠ .

وقد سلك بختيار بن معز الدولة الذى لقب بعز الدولة[1] بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م نفس مسلك والده مع الخلافة ، اذ كان سىء السيرة واشتغل باللهو ومعاشرة النساء وجمع الاقطاعات والأموال ، وحينما استنكر الناس عليه اشتغاله باللهو والصيد سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وتفرغه لمحاربة المسلمين بينما البيزنطيون ينهبون ويحرقون ويسبون فى ديار المسلمين تظاهر عز الدولة بختيار بأنه سيتجهز للجهاد وأمر بعض قادته بالاستعداد لذلك ، وقد تجمع الناس استعدادا لهذا الأمر ، واذا بالسلطان البويهى يطلب من الخليفة المطيع لله مالا ينفقه فى الجهاد بحجة أنه فى حاجة للمال ، وأنه يلزم الخليفة أن يعطيه منه مايشاء لأن ذلك واجبه ، ومع أن الخليفة المطيع لله أنكر عليه مطالبته بالمال بحكم أنه فاقد السلطة للدولة العباسية وهى فى يد الحاكم البويهى ، لم يتركه عز الدولة الا بعد أن أجبره على بيع ثيابه وبعض من أخشاب قصوره حتى وفى له أربعمائة ألف درهم ، ومع ذلك لم ينفقها عز الدولة فى الجهاد كما زعم ، وانما فى مصالحه الخاصة . ولم يلبث الخليفة المطيع لله أن تنازل عن الخلافة نتيجة مرضه لابنه عبد الكريم الذى لقب بالطائع لله سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م[2] .

---

(١) بختيار بن معز الدولة حكم من سنة (٣٥٦-٣٦٧هـ/٩٦٦-٩٧٧م)

(٢) الطائع لله : أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله ، ولد سنة ٣٢٠هـ ، قبض عليه بهاء الدولة البويهى سنة ٣٨١هـ/٩٩١م وأجبره على التنازل عن الخلافة للقادر بالله ، توفى سنة ٣٩٣هـ ببغداد .
انظر : (السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٧٩) .
وقد حاول عضد الدولة البويهى مصاهرة الخليفة الطائع لله ، وذلك بتزويجه من ابنته على أمل أن يكون ولى العهد فيما بعد حفيدا له ، ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية . الا أن رغبته تلك لم تتحقق .
كما أجبر عضد الدولة الطائع لله على اعطائه لواء ولاية العهد ، وهو لواء مذهب مقصور اعطائه على ولاة العهد . (مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٤١٤ ـ سليمان الرحيلى ، مظاهر الشعوبية فى العصر البويهى،ص ٨٨،٨٩)

لم يكن الخليفة الجديد أحسن حظا من أسلافه ، فقد تدهورت أمور الخلافة زيادة عماكان عليه الحال سابقا ، وعاصر من ملوك بنى بويه فى عهده الذى استمر الى سنة ٣٨١هـ ٩٩١م عز الدولة بختيار (٣٥٦-٣٦٧هـ/٩٦٧-٩٧٨م) ، وعضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه (٣٦٧-٣٧٣هـ/٩٧٨-٩٨٢م) ، وصمصام الدولة بن عضد الدولة (٣٧٣-٣٧٧هـ/٩٨٢-٩٨٧م) ، وأخيه شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٧-٣٧٩هـ/٩٨٧-٩٨٩م) ، ثم كانت نهايته فى الخلافة على يد بهاء الدولة البويهى (٣٧٩-٤٠٣هـ/٩٨٩-١٠١٢م) الذى أجبره على التنازل عن الخلافة لأبى العباس أحمد بن اسحاق الذى لقب بالقادر بالله سنة ٣٨١هـ/٩٩١م (١) .

واذا أردنا أن نعطى مثالا للامتهان الذى مارسه البويهيون للخليفة الطائع لله فلن نجد مثالا أسوأ مما فعله الأمير البويهى عضد الدولة عندما راسل العزيز بالله معترفا لهم بانتمائهم الى آل البيت ومستقبلا لرسل العزيز بالله الفاطمى عند الخليفة الطايع لله وفى مجلسه رغم مابين الخلافتين من عداء .

واذا نظرنا الى عهد الخليفة القادر بالله الذى تعتبره بعض المصادر معيدا لهيبة الخلافة العباسية ، نجد أن

---

(١) القادر بالله : أبو العباس أحمد بن اسحاق بن المقتدر بالله ، ولد سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م وبويع بالخلافة سنة ٣٨١هـ ٩٩١م ودام فيها الى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م ، كان دينا عفيفا غيورا على الاسلام حارب المبتدعة والشيعة وألف فى سبيل ذلك كتبا كانت تقرأ فى المساجد على الرغم من سلطة بنى بويه ونفوذهم فى بغداد .
انظر : (ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٩٨٢م ، ص ١٨٣-١٨٧ - السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٠،٣٨٣) .

ذلك لم يكن بسبب تراخي قبضة البويهيين عن الخليفة القادر بالله واحترامهم له ، وانما يعود ذلك الى نشوء دولة سنية قوية جاورت البويهيين على حدودهم الشرقية ألا وهى دولة الغزنويين فى عهد سلطانها الكبير السلطان محمود الغزنوى ، وقد استغل القادر بالله هذا الوضع أحسن استغلال وقاد الأمور بمهارة فائقة وشمر عن ساعد الجد فى محاربة التشيع الذى قاد الدعوة اليه حكام الدولة الفاطمية وشجع ظهور حركاتهم فى المشرق البويهيون .(١)

واستعراضنا السابق عن الخلافة والدولة البويهية انما يمثل جانبا واحدا من السلبيات الكثيرة عن العصر البويهى ، كما كان لسيطرة البويهيين عن الخلافة العباسية آثار أخرى بعيدة المدى ، فقد عمل البويهيون على اخضاع الامارات حول العراق وعلى رأسها الدولة الحمدانية فى الموصل والجزيرة الفراتية ، واستطاعوا أن يقضوا عليها لينتهى بذلك دور امارة عربية اسلامية لها خبرتها فى قيادة الجهاد ضد البيزنطيين وهو دور لم يتشرف البويهيون بحمل لوائه .

وقد أكمل الفاطميون مابدأه بنو بويه عندما قضوا على فرع دولة الحمدانيين فى حلب وانهاء وجودهم فيها حتى أصبح(٢)

---

(١) عن علاقة الخليفة القادر بالله والسلطان محمود الغزنوى وأثرها فى محاربة التشيع ، انظر : (عبد المجيد أبو الفتوح بدوى ، التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق الاسلامى من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص ١٠٩-١١٤) .

(٢) عن الدولة الحمدانية انظر : (أحمد عدوان ، الدولة الحمدانية ، الطبعة الأولى ، ليبيا ١٩٨١م — فيصل جرىء السامر ، الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٣م) .

شمال الشام مرتعا سهلا للقوات البيزنطية للاغارة عليه متى شاؤوا (١)، وأصبحت أرمينية التى كانت تخضع للدولة الاسلامية منذ الفتوح الأولى تخضع مباشرة للبيزنطيين بدءا من النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) (٢).

واذا كنا لانحمل البويهيين وزر سقوط مصر وبلاد الشام بيد الفاطميين وخروج هذين الاقليمين من دائرة النفوذ العباسى ، الا أن ذلك لايسقط عنهم وزر تساهلهم بل وتواطئهم مع الدعاة الفاطميين الذين كانوا يجوبون المشرق الاسلامى داعين الى مذهبهم الاسماعيلى .

واذا كان البويهيون قد تشددوا تجاه بعض الامارات العربية التى خطبت باسم الفاطميين مثل دولة بنى عقيل فى الموصل ، فما كان ذلك الا حفظا لنفوذهم السياسى (٣).

بل ان البويهيين ساهموا مساهمة كبيرة فى نشر الفلسفة والالحاد بقدر كبير جدا ، وضع العالم الاسلامى على حافة الهاوية ، كما سنرى ذلك عند استعراضنا للتشيع فى بلدان الخلافة العباسية ان شاء الله تعالى .

---

(١) عن الحملات البيزنطية على بلاد الشام فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس الهجرى انظر : (على محمد عوده الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى (٤٦٣-٤٩١هـ/١٠٧٠-١٠٩٨م) مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٨٥-٩٤) .

(٢) عن حملات البيزنطيين على أرمينية فى هذه الفترة انظر (أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، الطبعة الأولى ، حلب ١٩٧٢م ، ص ١٨٦-١٩١) .

(٣) عن الدولة العقيلية انظر الفصل الخامس ص

(ج) الأحوال المذهبية

منذ أن ظهر مذهب التشيع بين المسلمين ، لم يظهر لهذا المذهب كيان سياسى وعسكرى ينشر فكره بشكل علنى ويدعو اليه حتى كان منتصف القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ، ففى هذه الفترة بدأت تظهر الكيانات السياسية الشيعية فى أطراف العالم الاسلامى ، ففى هذه الفترة قامت للزيدية (١) دولة فى طبرستان على يد الحسن بن زيد العلوى ، وفى أوائل القرن الرابع تمكن الداعية حسن الأطروش من اعادة النفوذ الزيدى اليها من السامانيين ، كما تمكن من ادخال عدد كبير من الديلم فى الاسلام على المذهب الزيدى (٢) .

وفى اليمن أيضا نجح الهادى الى الحق يحيى بن الحسين الرسى فى اقامة دولة زيدية فى صعدة سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م (٣) . وفى وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى سنة ٢٦٨هـ/٨٨١م

---

(١) الزيدية : هم من قالوا بامامة زيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، وساقوا الامامة فى أولاد فاطمة رضى الله عنها ،ولم يجوزوا ثبوت الامامة فى غيرهم ، ويرون أن كل من انتسب الى الحسن أو الحسين يتصف بالعلم والشجاعة والسخاء ودعا الى نفسه فهو امام ، ويجوزون امامة المفضول مع وجود الأفضل .
عن الزيدية وفرقهم انظر :(الشهرستانى ، الملل والنحل ج١ ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ١٥٤-١٥٩) .

(٢) عن الدولة الزيدية فى طبرستان انظر : (عصام عبد الرؤوف الفقى ، الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ص ٢٤-٤٠) .

(٣) عن دولة الزيدية فى اليمن انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢١١) .

قامت للاسماعيلية دولة في اليمن على يد علي بن الفضل (١) ومنصور اليمن (٢) .

وفي هذه الفترة أيضا نشأت دولة القرامطة في جنوب العراق والبحرين (٣) .

---

(١) الاسماعيلية : هم من أثبتوا الامامة لاسماعيل بن جعفر ومن بعده ابنه محمد بن اسماعيل ويقسمون تاريخهم الى فترتين .
١ - فترة الستر وتبدأ من محمد بن اسماعيل بن جعفر وتنتهي بفترة الظهور منذ عبيد الله المهدي .
ويطلق عليهم الباطنية لكونهم يقولون بأن لكل ظاهر باطنا ، وأولوا أحكام الدين على هذا الأساس ، فالصلاة عندهم ولاية الأولياء الذين يجب على الخلق طاعتهم ، والزكاة معرفة الأسس الذين هم أوصياء النبيين والحجج الذين هم أوصياء الأئمة ، أما الصوم هو الستر والكتمان والصمت بين أهل الظاهر وكتمان الأسرار عنهم وصوم شهر رمضان هو ستر مرتبة القائم ومن أدرك زمان الامام فليلزم الصمت ، أما الحج ، فهو اتباع الامام .
ولمعرفة حقيقة مذهب الاسماعيلية وموقفهم من الاسلام جملة وتفصيلا انظر ماكتبه عنهم الشهرستاني : الملل والنحل ، ج١ ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ١٩١-١٩٨ - وكذلك احسان الهي ظهير (رحمه الله) مستقيا ذلك من مصادرهم وكتبهم المعتمدة في كتابه : الاسماعيلية - تاريخ وعقائد ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٢) عن دور علي بن الفضل ومنصور اليمن انظر : (حسين بن فيض الله الهمداني ، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨هـ/٦٢٦م) ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٥٥م ، ص ٣٢-٤٨ - سهيل زكار ، أخبار القرامطة في الاحساء ، الشام - اليمن - العراق ، تحقيق ودراسة ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

(٣) عن قرامطة العراق والبحرين انظر : (ابراهيم عطا الله البلوشي ، بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني ، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى ، ١٤٠٥-١٤٠٦هـ - ميكال يان دي خويه ، القرامطة - نشأتهم ، دولتهم ، وعلاقتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينه ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م) .
ومما يجدر ذكره أن هناك خلافا بين المؤرخين حول سبب تسميتهم بالقرامطة فبعضهم يرجعها الى أصل لغوي اذ أن قرمط تعني الغضب والانقباض أو الزندقة حسب اصطلاح أهل اليمن الى غير ذلك من الدلالات اللغوية .
وبعضهم يجعل الكلمة صفة لحمدان بن الأشعث الذي كان يطلق عليه في سواد العراق - كربيته - ومعناها شدة حمرة العين ، وبعضهم يقول بأن حمدان بن الأشعث كان شديد القصر ، وأنه كان يقرمط في سيره لقصر ساقيه الى غير ذلك من التعليلات . =

وقبل نهاية هذا القرن أيضا سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م قامت الدولة الفاطمية فى المغرب واستطاعت أن تزيل دولة الأغالبة وترنو ببصرها منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى نحو مصر حتى تمكن القائد الفاطمى جوهر الصقلى من الاستيلاء عليها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ودخلها الخليفة الفاطمى المعز لدين الله سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م ليرنو ببصره نحو بلاد الشام ، واستطاع الفاطميون أن يقضوا على الدويلات المستقلة التى قامت فى مصر والشام والتى كانت تعترف بالخلافة العباسية (١) .

أما الخلافة العباسية فقد كانت مشاكلها مع الزنج ثم بعد ذلك قرامطة العراق وقرامطة البحرين أكبر صارف لها عما يحدث بعيدا عن مركز الخلافة ، اضافة الى انهيار مركز الخلافة من جديد بعد وفاة الخليفة العباسى المكتفى بن المعتضد (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠١-٩٠٧م) وعودة نفوذ الأمراء الأتراك وتحكمهم فى الخلفاء العباسيين وموارد الدولة العباسية (٢) .

ولم تجىء سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م الا وأحمد بن بويه يسيطر على بغداد نتيجة لتلك الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة التى

= وكانت بداية أمرهم قد نمت بجهود أحد دعاة الاسماعيلية الحسين الأهوازى فى جنوب غربى العراق سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م الذى قابل حمدان قرمط وضمه الى دعوته وكان للأخير الجهود التى توجت بقيام دولتهم فى جنوب العراق والبحرين .
انظر : (ابراهيم البلوشى ، البحرين فى العصر العباسى الثانى ، ص ٨٠-٨٨) .

(١) عن قيام الدولة الفاطمية انظر : (حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الرابعة ١٩٨١م ، ص ٨٢-١٥١) .

(٢) عن هذه الفترة انظر : (الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج١١ ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، حوادث سنة ٢٥٥ الى سنة ٢٧٠ ـ فيصل السامر ، ثورة الزنج ، بغداد ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ـ فاروق عمر ، الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٦م) ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) .

كانت عليها الخلافة بل واقليم العراق باجمعه .

ومع دخول البويهيين بغداد دخلت الخلافة العباسية والعالم الاسلامى السنى مرحلة جديدة من الصراع ، بدأ يغذيه ويتبناه البويهيون فى معظم أقاليم المشرق التى يسيطرون عليها .

ولعل الشيعة الامامية فى بغداد والذين كانوا يقطنون فى محلة الكرخ أدركوا أن الحكام الجدد سيقفون الى جانبهم ضد أهل السنة ، ولذلك نجد أن أول حوادث الصراع بين السنة والشيعة تبدأ سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م عندما نهبت محلة الكرخ (١) ، وهذا العمل يدل على أن هناك استفزازا قام به الشيعة الامامية ضد أهل السنة مما حفز الأخيرين على الانتقام منهم . ومنذ ذلك التاريخ بدأت الفتن المذهبية تظهر فى بغداد فقد تكررت مثل هذه الحوادث طيلة العهد البويهى (٢) . وغير بعيد أن تكون لمعز الدولة يد كبرى فى اثارة مثل هذه المنازعات ، ومما يؤيد ذلك ماحدث سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م عندما ظهر رجل ببغداد ادعى أن روح على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، حلت فيه ، وظهرت امرأة تدعى أن روح فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حلت فيها ، ورغم أن هذين المدعين سجنوا وضربوا الا أن الوزير المهلبى (٣) لم يستطع أن يبقيهم فى السجن

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٦ ، الطبعة ١ ، حيدر أباد الدكن ١٣٥٩هـ ، ص ٣٦٣-٣٦٤ . (لم يبين لنا ابن الجوزى سبب قيام هذه الفتنة) .

(٢) انظر عن الفتن بين السنة والشيعة فى عهد بنى بويه : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٦ ، ج٧ ، ج٨ – ابن الاثير ، الكامل ، ج٨ ، ج٩ فى حوادث السنوات : ٣٤٨،٣٤٩،٣٥٣، ٣٥٤،٣٦٣،٣٨٠،٣٨١،٣٨٢،٣٨٤،٣٩٢،٣٩٨،٤٠٦،٤٠٨،٤١٧،٤٢٠ ، ٤٢١،٤٢٢،٤٢٣،٤٢٥،٤٢٩،٤٣١،٤٣٢،٤٣٧،٤٣٩،٤٤١،٤٤٢،٤٤٣ ، ٤٤٤،٤٤٥) .

(٣) هو الحسن بن محمد بن هارون أبو محمد المهلبى من ولد المهلب بن أبى صفرة ، من الوزراء العرب القلائل الذين وزروا لآل بويه ، توفى سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م . انظر ترجمته =

خوفا من أن يتهم من قبل معز الدولة بترك التشيع وأنه يضطهد شيعة على بن أبى طالب (١). فتساهل رجال معز الدولة مع أمثال هؤلاء الحلولية المتزندقة خوفا من معز الدولة دليل واضح على أن الحاكم البويهى كان يتخذ خط الشيعة بكافة فرقهم ضد أهل السنة والجماعة (٢)، على الرغم من أن بنى بويه كانوا من الشيعة الزيدية التى يجعلها البعض بأنها أقرب مذاهب الشيعة الى أهل السنة .

لكن يبدو أن معز الدولة البويهى بدأ ينحرف عن مفاهيم المذهب الزيدى الى الرفض المحض منذ أن عدل عن نقل الخلافة من البيت العباسى الى البيت العلوى ، وماحدث سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م يؤيد ماذهبنا اليه ، ففى هذه السنة كتب على جامع بغداد "لعن صريح فى معاوية (رضى الله عنه) ولعن من غصب فاطمة فدكا ومن منع من دفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى" (٣).

وهذه العبارات تعنى بدلالة قاطعة لعن خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة الأول أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

= (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص ٩-١٠) وعلى الرغم من كفاءته وخدمته الطويلة لمعز الدولة بن بويه فانه حين توفى صادر أمواله حتى استقبح الناس منه ذلك ، ومما يجدر ذكره أن أكثر وزراء بنى بويه كانوا من الفرس . وعن هذا الموضوع انظر مقال (سليمان الرحيلى ، مظاهر الشعوبية فى العصر البويهى ، ص ٢٩٢-٢٩٣) .

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٦ ، ص ٣٧١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٤٩٥ ، ويجعل هذه الحادثة سنة ٣٤٠هـ.

(٢) عن موقف معز الدولة أحمد بن بويه من الشيعة وبدعه فى العراق وأثرها على أهل السنة انظر : رشاد عباس معتوق الحياة العلمية فى العراق خلال العصر البويهى (٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م) رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص ٤٩-٦٣ ، ٦٦-٧٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٥٤٢-٥٤٣ ، وانظر : ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص ٧ .

وعندما محيت هذه الكتابة من على الجامع ، أراد معز الدولة أن تعاد كتابتها لولا تدخل الوزير المهلبى الذى أشار بأن يكتفى بلعن معاوية فقط والظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى السنة التالية (٣٥٢هـ/٩٦٣م) ابتدع معز الدولة بن بويه بدعا جديدة استمدها من تراث الشيعة الرافضة وذلك أنه أمر الناس يوم العاشر من محرم بأن يغلقوا دكاكينهم وأن يمتنعوا عن البيع والشراء ، وأن يظهروا النياحة ، كما أمر النساء بأن يخرجن منشرات الشعور ، مسودات الوجوه ، مشققة ثيابهن ، ويطفن فى بغداد نائحات على مقتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما . ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : "ولم يكن للسنة قدرة على المنع منه ، لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم" (١) .

ولم تكن هذه أوامره الوحيدة فى اظهار مناسبات الشيعة فقد ابتدع الاحتفال بغدير خم (٢) ، وذلك باظهار الزينة واشعال النيران ، واظهار الفرح مع فتح الأسواق بالليل كما هى عادة الأهالى فى الأعياد (٣) .

ويبدو أن معز الدولة كان يهدف من اقامة مثل هذه المناسبات والاحتفالات الشيعية الى عدة أهداف منها :

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٥٤٩ .
(٢) خم وادى بين مكة والمدينة به غدير ، وعنده خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٨٩) .
أما حديث غدير خم فهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم "من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" والحديث اسناده صحيح ، انظر : الامام أبى عبد الله أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، ج٢ ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ، ص ٥٨٥-٥٨٦ ، وليس فيه نص بخلافة على كما يزعم الشيعة .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص ١٦ — ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٥٤٩-٥٥٠ .

أولا : كسب ود طائفة الشيعة الامامية الرافضة ، واشعاره لهم بحمايتهم من الخلافة العباسية وأهل السنة وذلك حتى يكونوا عضدا للدولة البويهية فى المحيط السنى الذى تعيش فيه .

ثانيا : ابعاد الديلم تدريجيا عن المذهب الزيدى وتحويلهم الى مبدأ الرفض حتى لايكونوا تبعا لأى علوى يدعوهم الى امامته .

ثالثا : كان معز الدولة يهدف من اقامة مناسبات الشيعة والجهر بها فى بغداد تشجيع الدعوة الى التشيع وأن الشيعة يحترمون ويجلون آل البيت ، وهم بذلك يستدرون عطف العامة والجهلاء ويكسبونهم الى جانبهم ضد الاتجاه السنى فى بغداد خاصة ، والعراق والمشرق عامة (١) .

وبهذه الأعمال يكون معز الدولة قد استغل ضعف الخلاف العباسية وعدم وجود المناصر لها ضد البويهيين ليرسخ لخلفائه من بعده أسس التعامل مع الخلافة وأهل السنة . وقد سار بختيار بن معز الدولة الذى خلف أباه سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م فى بغداد على نهج أبيه فى تأييد حركة التشيع وحمايتها (٢) .

غير أن هناك تطورا خطيرا حدث بعد دخول عضد الدولة الى بغداد ، اذ عمل عضد الدولة على تشجيع الفلاسفة والباطنية والمتكلمين من المعتزلة ، الذين خبا صوتهم وقل ناموسهم منذ أبعدهم الخليفة العباسي المتوكل على الله بن المعتصم (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) فأدناهم اليه عضد الدولة

---

(١) رشاد عباس معتوق ، الحياة العلمية فى العراق خلال العصر البويهى ، ص ٨٦ .
(٢) رشاد عباس معتوق ، الحياة العلمية فى العراق خلال العصر البويهى ، ص ٦٠ .

وقربهم وأغدق عليهم الأموال ، فكثروا بعد قلة ، وعزوا بعد ذلة ، وأفرد لهم فى داره مكانا يجتمعون فيه "آمنين من السفهاء ورعاع العامة ، وأقيمت لهم رسوم تصل اليهم وكرامات تتصل بهم ، فعاشت هذه وكانت مواتا ، وتراجع أهلها وكانوا أشتاتا" (١)، فعم نشاطهم فى جميع أنحاء المشرق بتشجيع بنى بويه وخاصة عندما تولى الصاحب بن عباد وزارة مؤيد الدولة البويهى فى الرى الذى كان يقدمهم فى الوظائف الدينية لينشروا آرائهم وهم فى حماية الدولة ورعايتها (٢).

هذا الى جانب نشاطهم ونشاط رجال الشيعة فى انشاء المدارس والمكتبات الخاصة ، وظهور كثير من آراء الشيعة الامامية فى القرآن التى كانوا يخفونها عن أهل السنة مثل القول بتحريف القرآن ونقصه وتدوينها فى مؤلفاتهم لتظهر على الملأ وأمام الناس ، وهم آمنون من العقاب فى ظل دولة بنى بويه (٣).

ومع سيطرة الفاطميين على مصر والشام فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى أصبحوا على مقربة من الخلافة العباسية ، وأصبحت أنظارهم تتجه الى تقويض رمز العالم الاسلامى السنى من الخلفاء العباسيين ، متخذين من قضية نصرة آل البيت واستعادة حقهم واجهة هذا الصراع . ولانريد أن نخوض فى زيف هذا الادعاء وبطلانه ، لأن

---

(١) مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، القاهرة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م ، ص ٤٠٢ .

(٢) عن المعتزلة ونشاطهم من عهد بنى بويه انظر : عبد المجيد أبو الفتوح بدوى ، التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق الاسلامى ، ص ٧١-١١٥ .

(٣) عن تشجيع البويهيين للتشيع وأثره فى العراق انظر : رشاد عباس معتوق ، الحياة العلمية فى العراق خلال العصر البويهى ، ص ٣٩-١٢٩ .

مسألة الامامة أو الخلافة في هذه الفترة كانت في نظري لاتشكل قضية أمام ماكان الفاطميون يركزون عليه من هدم أسس الاسلام وتقويض بنيانه عن طريق تأويلاتهم الباطنية لكتاب الله تعالى والقدح في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم عن طريق لعن الصحابة الذي فرضوه على الناس في المناطق التي بسطوا سلطتهم عليها ، وحبسهم لعلماء أهل السنة واضطهادهم وقتلهم حتى لايفضحونهم أمام رعيتهم ، ويبدون لهم زيف انتماء أولئك الذين نسبوا أنفسهم الى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعملون على تقويض دعائم دعوته التي أخرج بها الناس من الظلمات الى النور .(١)

ومايهمنا هنا هو كيف استغل الفاطميون فترة حكم بني بويه وتسامحه مع الشيعة ليكثفوا من دعايتهم في المشرق الاسلامي لجذب الناس الى مذهبهم ، ولذلك نلحظ أن جهودهم سارت في اتجاهين هما :

أولا : محاولة كسب بعض حكام وقادة المشرق الى جانبهم وقد ذكر عبد القاهر البغدادي عددا ممن دعاه الباطنيون الى مذهبهم ، منهم قابوس بن وشمكير الزياري ، وأبو الحسن محمد ابن ابراهيم بن سيمجور ، ونوح بن منصور بن نوح الساماني وحاكم خوارزم ،(٢) اضافة الى محاولتهم المستميتة في كسب ولاء السلطان محمود الغزنوي .(٣)

ثانيا : مع نفس الاتجاه الأول كان دعاتهم منتشرين في أرجاء المشرق يدعون العامة من الناس وابتكروا لذلك نظما وطرقا في الدعاية الى مذهبهم بأن جعلوا حججا ونقباء ،

---

(١) عن سياسة الفاطميين في فرض مذهبهم في المغرب ومصر والشام انظر : (احسان الهي ظهير ، الاسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٠١-١٥٣) .

(٢) عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٩٢ ٢٩٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج٩ ، ص ٣٥٠ .

ولكل نقيب أربعة وعشرين داعية (١) ، ومن أجل ذلك كان المعز لدين الله الفاطمي يقول : "ومامن جزيرة فى الأرض ولا اقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ويدلون علينا وياخذون بيعتنا ويذكرون رجعتنا وينشرون علمنا وينذرون باسنا ، ويبشرون بايامنا بتصاريف اللغات واختلاف الألسن" (٢) .

ولاشك أن مثل هذا النشاط المكثف كان له صداه عند من لايعرف حقيقة مذهب الباطنية وذلك فى ظل تساهل حكام بنى بويه معهم ، والسماح لهم بنشر مذهبهم ، ولذلك أصبح موقف الخلافة العباسية مهددا تهديدا مباشرا ، وهذا مادفع الخليفة العباسى القادر بالله أن يتخذ قراره بالتصدى لهم وكانت أولى خطواته فى هذا الشأن ذلك المحضر الذى كتبه فى بغداد سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م ، وأشهد عليه وجوه الشيعة وعلى رأسهم الشريف الرضى والشريف المرتضى وطائفة من علماء أهل السنة طعن فيه فى نسب الفاطميين وتكذيبهم فى انتسابهم الى على رضى الله عنه ، وبين فيه فساد مذهبهم واعتقاداتهم المجوسية ، واباحتهم الفروج ، وتحليلهم للخمر ، وسب الأنبياء ، ولعن السلف . واتخذ من السلطان محمود الغزنوى عضدا له فى مواجهة الشيعة عموما اضافة الى مواجهته للمعتزلة والمتكلمين وألف فى ذلك كتابا سماه (الاعتقاد القادرى) وهدد من يخالف مافيه بانه كافر حلال الدم (٣) .

---

(١) عن الطرق التى كان يتبعها الدعاة الباطنيون وأساليبهم وتقسيماتهم ، انظر : (محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية - تاريخها - نظمها - عقائدها ، الطبعة الأولى ١٩٥٩م ص ١٣١-١٤٣ - احسان الهى ظهير ، الاسماعيلية ، تاريخ وعقائد ، ص ٦١٣-٦٤٠) .

(٢) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، مجلد ٢ ، ص ٧٣-٧٤ .

(٣) عن ظروف كتابة هذا المحضر ودور الخليفة القادر بالله فى محاربة الباطنية من الفاطميين انظر : عبد المجيد بدوى ، التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى ص ٧١-١١٤ .

ان هذا العمل الذى قام به القادر بالله كان رد فعل قوى لما شهدته هذه الفترة من خطر أصحاب الفرق الضالة من امامية واسماعيلية وأهل الكلام من المعتزلة ، وهى تؤكد ماأثبته المقريزى الذى وصف فترة حكمه بقوله : "وفى أيامه عظمت الديلم والباطنية واشتهر مذهب الاعتزال ومذاهب الباطنية والرافضة وانتشر ذلك فى الأرض" (١).

كما تكشف لنا الوثيقة التى أوردها ابن الجوزى والذهبى ، وهى رسالة بعث بها السلطان محمود الغزنوى من الرى سنة ٤٢٠هـ/١٠٤٩م الى الخليفة القادر بالله عقب استيلائه على الرى من مجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن بويه (٣٨٧-٤٢٠هـ/٩٩٧-١٠٢٩م) اذ بين فيها كيف كانت الرى مجالا خصبا للدعاة الباطنية فى ظل حكم بنى بويه والكميات الكبيرة من كتبهم وكتب المعتزلة التى أعدمها (٢).

ويبدو أن نشاط الدعاة الفاطميين قد تأثر كثيرا فى خراسان عقب استيلاء السلطان محمود الغزنوى على الرى الى جانب خراسان ، ولذلك بدأ دعاتهم يبحثون لهم عن مواطىء قدم أخرى ، لدعوتهم ، اذ لم يبق لهم الا منطقة ماوراء النهر وفارس .

أما بلاد ماوراء النهر فقد أشرنا الى مالقيه الدعاة الفاطميون على يد بغراخان حاكمها سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م (٣).

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ، القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ٣٩ .

(٢) انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣٨-٤٠ — الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج١٣ ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم ٢٢٧١ مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى رقم ١٥٢ تاريخ ، ورقة ١٣أ) .

(٣) انظر ص ٤٨ من التمهيد .

وأما في فارس فقد كان الوضع يختلف عما كان عليه في بغداد والعراق او خراسان وبلاد ماوراء النهر ، فقد كانت هذه المنطقة بعيدة نسبيا عن التهديد نتيجة تسامح الأمير البويهي أبوكاليجار بن سلطان الدولة (٤٣٥-٤٤٠هـ/١٠٤٣-١٠٤٨م) الذى رحب بالداعية الفاطمي هبة الله الشيرازى الذى عده البعض من أخطر الدعاة الذين ظهروا في هذه الفترة في هذه المنطقة ، اذ استطاع أن يستقطب اليه الجنود الديلم ويضمهم الى دعوته ، وازداد جرأة في الدعوة الى الفاطميين عقب قبول أبي كاليجار الانضمام الى دعوته واشراكه معه في مجلسه . ولولا غيرة أهل السنة الذين كاتبوا الخليفة القائم بأمر الله بما صنعه أبو كاليجار وداعية الفاطميين هبة الله الشيرازى لاستفحل أمرهم ، ولكن الخليفة القائم بأمر الله حسم أمره مع أبي كاليجار حين هدده بالسلاجقة (١) الذين وصل نفوذهم الى اقليم العراق العجمي مما أجبر الملك البويهي على طرد الداعية الفاطمي من بلاده ، ومن ثم رحل الى مصر مقر الفاطميين (٢) .

---

(١) القائم بأمر الله : أبو جعفر عبد الله بن القادر ، ولد سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م ، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه القادر سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م ، عاصر العهدين البويهي في أواخر أيامهم والسلاطين السلاجقة العظام ، توفي سنة ٤٦٧هـ/١٠٦٤م ببغداد .
انظر : (ابن العمراني ، الانباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٨-٢٠٠ - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٥-٣٨٩) .

(٢) عن نشاط هبة الله الشيرازى الملقب بالمؤيد (في فارس والأهواز) انظر : مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية (المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران موسى الشيرازى) ، تحقيق عارف تامر ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ومع ظهور السلاجقة في المشرق تبدأ مرحلة قوة أهل السنة في المشرق في الظهور لتكون سلطة أهل السنة هي الغالبة طيلة عهد السلاطين السلاجقة العظام ، وهو ماسنراه في فصول هذه الرسالة ان شاء الله تعالى .

الفصل الأول

ظهور السلاجقة وقيام دولتهم

(أ) هجرة السلاجقة الى بلاد ماوراء النهر .

* اسلامهم .
* نشاطهم السياسى فى بلاد ماوراء النهر .
* رحيل أتباع أرسلان بن سلجوق الى خراسان .
* نشاط أبناء ميكائيل بن سلجوق فى بلاد ماوراء النهر

(ب) حروبهم مع الغزنويين .

* نشاط أتباع أرسلان بن سلجوق فى خراسان وموقف الدولة الغزنوية منهم .
* طغرلبك واخوته فى خراسان .
* معركة نسا وهزيمة بكتغدى ٤٢٦هـ/١٠٣٥م .
* هزيمة القائد الغزنوى سباشى على يد السلاجقة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م واستيلاؤهم على خراسان .
* موقف السلطان مسعود الغزنوى من استيلاء السلاجقة على خراسان .
* معركة سرخس فى شوال ٤٣٠هـ/يونيه ١٠٣٩م .
* معركة دندانقان فى رمضان ٤٣١هـ/مايو ١٠٤٠م .

(ج) الغزنويون والسلاجقة بعد معركة دندانقان .

(أ) هجرة السلاجقة الى بلاد ماوراء النهر

* اسلامهم .
* نشاطهم السياسى فى بلاد ماوراء النهر .
* رحيل أتباع أرسلان بن سلجوق الى خراسان .
* نشاط أبناء ميكائيل بن سلجوق فى بلاد ماوراء النهر

هجرة السلاجقة الى بلاد ماوراء النهر :

على امتداد مناطق شاسعة ، وعبر سهول الصحارى الممتدة بين شرق وغرب منطقة تركستان ، كانت هناك قبائل وأجناس تنتمى الى طوائف الترك التى تأخذ غدوها ورواحها عبر تلك المسالك ، اما بحثا عن كلأ يغنيها ، أو مدفوعة الى الهجرة رغما عنها نتيجة اغارة من قبيلة أقوى وأكثر عددا منها (١).

وقد شهد العالم الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أكبر موجات الهجرة التركية الى ديار الاسلام (٢)، وفى زمنين منفصلين ، ولم تكن هذه الموجات القادمة تهدف الى الاغارة والسلب والنهب كما تعود أمراء السامانيين مثل تلك الغارات التركية على ديار الاسلام ، ولكن قدوم هذه القبائل هو بدافع الاسلام الذى اعتنقوه وأرادوا أن يتقربوا من العالم الاسلامى الذى دانوا بدينه . وكانت احدى هذه الهجرات قادمة من الشرق وهم الايلكخانيون الذين تحدثنا عنهم فى التمهيد .

أما القبائل الأخرى فكانت بقيادة سلجوق بن دقاق الذى يرجع المؤرخون نسبته الى احدى قبائل الغز (٣) ،

---

(١) حسن أحمد محمود ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٥٤٤ .

(٢) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٢٢ .

(٣) أصل هذه التسمية هى الأغوز ثم خفف هذا الاسم على مر العصور فصار الغز ، انظر (عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٤) .
وقد ذكر العينى فى كتابه (السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، طبعة القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص ٢٢) أنه من الغز يتفرع التركمان وهم اثنان وعشرون بطنا لكل بطن منهم علامة وشمه على دوابهم وأوانيهم يعرف بها بعضهم بعضا ، وأن أعظم تلك القبائل هم القنق التى ينتمى اليها السلاجقة .

وتدعى القنق .[1]

أما سبب هذه الهجرة فقد ذكر لها المؤرخون أسبابا مختلفة .

فبعضهم يرى أن سبب الهجرة كانت نتيجة نفوذ واسع كان يتمتع به سلجوق بن دقاق فى صحراء الخزر عند ملك الترك المدعو بيغو ، وكان سلجوق يلقب عنده بسوباشي[2] ، وكانت مكانته هذه سببا فى اثارة المتاعب له من قبل زوجة بيغو التى حذرته من سلجوق وحرضته على قتله ، وأمام هذا التهديد آثر سلجوق بن دقاق الانسحاب والهجرة بقومه ، ولذلك اتجه صوب المناطق الاسلامية وحط رحاله معهم فى جند[3] سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[4] .

وهناك رواية أخرى حول هجرة السلاجقة تقول : أن قلة المراعى وكثرة الأنعام التى يمتلكها هؤلاء القوم أجبرتهم

---

(١) الحسينى ، زبدة التواريخ أو أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، تحقيق محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٢٢ — رشيد الدين بن فضل الله ، جامع التواريخ ، المجلد ٢ ، ج٥ ، تحقيق أحمد آتش ، أنقرة ١٩٦٠م ، ص ٥ — العينى ، السيف المهند ، ص ٢٦ .

(٢) بيغو وسوباشى من الألقاب التى استخدمها الترك فبيغو لقب للزعيم أو الرئيس ، وسوباشى لقائد الجيش ، واينال للنبلاء . انظر (فامبرى ، تاريخ بخارى ، ص ١٢٨ حاشية رقم ١) .

(٣) جند : مدينة عظيمة بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قريب من نحر سيحون (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١٦٨) وأطلق عليها فى الأزمنة المتأخرة اسم ينكى شهر (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥٢٩) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤ — الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٢٤ ، ومما يجدر ذكره أن ابن الأثير أورد اسم دقاق باسم تقاق ، أما الحسينى فذكره باسم يقاق ، ومعنى الاسم القوس الجديد أو القوس من الحديد كما ذكره المؤرخون .

على أن يبحثوا عن مناطق رعى أفضل تستوعبهم وتستوعب أنعامهم ، ولذلك نزلوا بالقرب من جند .(١)

ومن المرجح أن صحراء الخزر لم تكن بلادا أصيلة للغز ، ولكنهم وفدوا اليها ضمن الهجرات الكبرى التى قام بها الغز فى القرون الثانى والثالث والرابع للهجرة (القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادى) عقب انهيار مملكتهم فى شرق تركستان ،(٢) سواء كان ذلك بدافع من عدم رضاهم عن الأوضاع التى أعقبت انهيار مملكتهم ، أو كان ذلك نتيجة طرد من الأقوام الأخرى التى استوطنت بلادهم .(٣)

ومن خلال الهجرات المتعاقبة للغز الى مناطق الغرب حيث شمال بحر قزوين التى يسيطر عليها سكانها من الخزر ،(٤) فانه من المؤكد أن أعداد الغز قد تكاثرت ، وماشيتهم تزايدت ، مما ولد أوضاعا تختلف عما كانت عليه فى فى الفترات الماضية ، وقد أورد لنا ابن الأثير نصا لايمكن اغفاله فى سياق الحوادث التى ذكرها سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ، فقد

---

(١) الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، نقله الى العربية ابراهيم الشواربى وآخرون ، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، ص ١٤٥-١٤٦ - رشيد الدين ، جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٥ ، ص ٥ .

(٢) بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٠١-١٠٢.

(٣) حسن أحمد محمود ، وأحمد ابراهيم الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ٥٤٣-٥٤٤ .

(٤) الخزر : أحد الشعوب التركية التى كونت لها امارة مستقلة منذ القرن السادس الميلادى شمال بحر قزوين وعرفت تلك المناطق باسمهم فى المصادر الاسلامية ، واستمرت امارتهم الى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى . انظر (زبيدة عطا ، بلاد الترك فى العصور الوسطى ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٣٠٧-١٤ - بارتولد ، دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٣٠٥-٣١١ ، ويذكر بارتولد أن الخزر شعب لايعرف أصله) .

ذكر أن طائفة من الترك نزلت على بلاد الخزر ، ولم يتقبل الخزر وجودهم ، ويبدو أنهم لم يستطيعوا اجلاءهم ، ولذلك استنجد الخزريون بمسلمى خوارزم الذين نصروهم بعد أن اشترطوا عليهم الدخول فى الاسلام ، واستطاع مسلموا خوارزم أن يجلوا أولئك الترك من أراضى الخزر (١) .

واذا كان ابن الأثير لم يحدد لنا الى أى القبائل ينتمى أولئك الترك ، أو الملة التى يمكن أن نستدل بها على مدى علاقتهم بالغز الذين حلوا قبلهم فان روايته تلك تعطينا الدليل على أن الخزر لم يعودوا يحتملون بقاء الأجناس التركية الأخرى فى بلادهم ، ولذا فانه من المرجح أن هجرة سلجوق بن دقاق كانت نتيجة صراع بينه وأتباعه من جهة والخزر من جهة أخرى (٢) .

اسلام السلاجقة :

عقب نزول السلاجقة بالقرب من جند بدأوا يحتكون مع مجتمع اسلامى يختلف عن أى مجتمع آخر نزلوا بجواره من قبل ، وقد أثمر هذا الاحتكاك عن وجود قناعة لدى سلجوق وأتباعه بأنهم اذا أرادوا الاندماج فى المجتمع الاسلامى فيجب عليهم أن يدخلوا فى الاسلام . وقد أورد ابن العبرى هذه الحقيقة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٥٦٥ .

(٢) يورد كل من ابن الأثير فى كتابه الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٣ والحسينى فى أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٢٣-٢٤ سبب النزاع الذى حدث بين أتباع سلجوق بن دقاق وملك الترك بيغو ، الى أن ملك الترك بيغو عزم على غزو بلاد الاسلام وأن دقاق عارضه فى ذلك وحدث شجار بينهما ثم توفى دقاق وخلفه فى الزعامة ابنه سلجوق الذى تعرض لمكائد زوجة ملك الترك وهددته بالقتل ، مما أجبره على الرحيل الى جند كما ذكرنا ذلك فى المتن .

عندما سرد قصة اسلام السلاجقة ، ولعله يكون المصدر الوحيد الذى أشار الى ذلك ، وفى هذا الصدد يقول : "... وبعد فترة وجيزة قالوا فى أنفسهم يجب علينا أن نكون مسلمين مثلهم ليتسنى لنا المعيشة معهم ، فأرسلوا رجلا الى والى زنداك من ديار خارزم (١) بأن يرسل اليهم بعالم ليعلمهم الاسلام ، وأرسل والى زنداك شيخا كبيرا عالما مع هدايا كثيرة ، وهذا الشيخ علمهم الاسلام ..." (٢) .

وطالما أنهم تلقوا الاسلام عن طريق عالم من علماء خوارزم ، فانه بحكم هذا التلقى اعتنقوا المذهب السنى الذى كان يتبعه كل سكان منطقة بلاد ماوراء النهر (٣) ، وأصبح سلجوق وأتباعه من أشد المتحمسين للاسلام . وتتضح هذه الحماسة فى قيام سلجوق بجهاد من يليه من كفار الترك الذين كانوا يفرضون الجزية على بعض المناطق الاسلامية القريبة من جند ، وقد تمكن سلجوق وقومه من طرد كفار الترك وكف أيديهم عن المسلمين اضافة الى تحرير بعض المناطق التى خضعت لهم (٤) .

وقد كان اسلام السلاجقة نقطة تحول فى تاريخهم اذ سقط الحاجز بينهم وبين المسلمين ، ويسر لهم الحياة فى بلاد الاسلام ، وكان اسلامهم أيضا بداية الانطلاقة للسلاجقة ليصبحوا جزءا من التاريخ العالمى (٥) .

---

(١) هكذا وردت فى النص ، والمقصود بها خوارزم .

(٢) ABUL-FARAG,Tarihi, Gilt, I,Ankra, 1987, pp.292-293
ومما يجدر ذكره أن ابن العبرى ذكر أنه اقتبس هذه المعلومة من الكتاب الفارسى (ملك نامه) لمؤلفه الأمير اينانج بك .

(٣) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٢٥ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٢٤-٢٥ .

(٥) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٢٢ .

ومما يجدر ذكره بصدد اسلام السلاجقة أن بعض المؤرخين ينسب الى السلاجقة اعتناقهم لليهودية (١) أو النصرانية (٢) قبل دخولهم فى الاسلام .

وقد رجح بعض الباحثين اعتناق سلجوق وأتباعه المسيحية أولا ثم مالبثوا أن اعتنقوا الاسلام سرا قبيل رحيلهم الى جند وذلك خشية بطش ملك الترك بهم ، فلما دخلوا منطقة ماوراء النهر أظهروا اسلامهم (٣) .

وقد كان الاستناد فى هذه الآراء بشأن ديانة السلاجقة قبل دخولهم فى الاسلام هو أسماء أبناء سلجوق ميكائيل وموسى وأرسلان الذى تسميه بعض المصادر الفارسية المتأخرة باسم اسرائيل (٤) ، دون أن يجدوا مايدعم آراءهم السابقة سوى تلك الأسماء ، وهى لاتعطى دليلا فيما ذهبوا اليه لأن وجود مثل هذه الأسماء فى البلاد الاسلامية ليس مستغربا ولامنكرا بينهم ، اذ أن المسلمين يؤمنون بالرسالات السماوية السابقة كايمانهم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكونها لفتت الانتباه عند أولئك الباحثين ، فهذا يأتى من تجاهلهم بحقيقة موقف المسلمين من اليهودية والنصرانية ، والا فكيف نفسر وجود أسماء بعض حكام الدولة السامانية مثل نوح واسماعيل ، أو يوسف وموسى فى دولة الايلك خانيين الذين

---

(١) تامارارايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخورى وابراهيم الدانوقى ، بغداد ١٩٦٨م ، ص ٢١-٢٢ نقلا عن :
(M. DUNLOP : The History of the Jewish, khazars)

(٢) بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٣٠ .

(٣) محمد محمود ادريس ، تاريخ العراق والمشرق الاسلامى ، ص ٦٢ .

(٤) النظام الحسينى ، العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ترجمة عبد النعيم حسنين وحسين أمين ، بغداد ١٩٧٩م ، ص ٣٠ .

ورثوا الدولة السامانية ، وقد كان كاتب مادة السلاجقة فى دائرة المعارف الاسلامية أكثر دقة حينما عقب على تلك الأقوال بقوله : "... على أن الروايات لاتذكر شيئا مما ذهب اليه هؤلاء العلماء" (١) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ١٢ ، ص ٢٥ .

النشاط السياسى للسلاجقة فى ماوراء النهر :

جاءت هجرة السلاجقة الى جند فى ظروف تدهور أحوال الدولة السامانية ووقوعها بين دولتين تسعيان الى تقاسم أملاكها وهما : دولة الايلكخانيين من الشمال ، والدولة الغزنوية كما سبق أن ذكرنا ذلك .

ويبدو أن جهاد سلجوق ضد كفار الترك وتحقيقه الانتصارات عليهم ، قد لفت نظر الأمير السامانى نوح بن منصور الذى وجد نفسه أمام هجوم شهاب الدولة هارون بن ايلك خان سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م ، وعندما انسحب الأمير نوح من أمام قوات الايلك التى استولت على بخارى ، لم يجد الأمير السامانى سوى الاستعانة بسلجوق الذى لم يمانع فى ارسال ابنه أرسلان على رأس قوة تابعة له لمساعدة الأمير السامانى (١) الا أن هذه القوة لم يكن لها دور فى انسحاب الايلك من بخارى اذ أن انسحابه منها كان بسبب مرضه المفاجىء فى تلك المدينة مما اضطره الى العودة الى بلاده ، وفى أثناء انسحابه شارك السلاجقة الأهالى فى الايقاع بالجيش المنسحب (٢) .

وبعد انتهاء مهمة السلاجقة عاد أرسلان الى والده سلجوق الذى توفى بعد هذه الحادثة عن عمر جاوز المئة سنة بسبع سنوات ، وخلف من الأبناء أرسلان وميكائيل وموسى (٣) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤،١٠٠ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٠٠ – بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٣٩٦-٣٩٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤ – الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٢٥ وذكر أن سلجوق توفى عن مائة سنة – ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٤٨ – أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣ – رشيد الدين بن فضل الله =

وقد واصل ميكائيل بن سلجوق مابدأه والده من جهاد كفار الترك وظل على ذلك الى أن استشهد فى احدى معاركه معهم (١) .

أما أخوه أرسلان فيبدو أنه اختار البقاء حول بخارى اذ أننا نجد أن المنتصر أبا ابراهيم اسماعيل بن نوح الساماني (٢) يستعين بالأتراك الغزية سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م لاسترداد ملك آبائه واجداده من الايلك خانيين ، وقد تمكن بمساعدتهم من ايقاع الهزيمة بسباشى تكين وأسر عددا من قادة الايلك خان . وعقب هذه المعركة لاحظ اسماعيل بن نوح تآمر السلاجقة عليه عندما أطلقوا الأسرى تقربا الى الايلك ، وانفض الحلف الذى كان بين السلاجقة وابراهيم بن نوح ، وكانت نهاية اسماعيل بعد ذلك بقليل سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م ونهاية الدولة السامانية (٣) .

وفى ظل دولة الايلك خانيين الجديدة أصبح لقوة أرسلان العسكرية دورها فى ترجيح كفة بعض المتنافسين من الأسرة الحاكمة على بعض ، اذ أنه عندما فر على تكين من سجن أخيه

= جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٥ ، ص ٥ وذكر أن سلجوق خلف خمسة أبناء مضيفا يوسف ويونس ـ وفى راحة الصدور للراوندى ، ص ١٤٦ يجعل لسلجوق أربعة أبناء .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤ .

(٢) كان اسماعيل بن نوح من ضمن من قبض عليهم الايلك نصر ، وقد تمكن اسماعيل من الهرب من سجنه وقام بمحاولة أخيرة لاسترداد نفوذ السامانيين وفشل فى ذلك كما سنرى فى المتن فيما بعد ، وانظر أيضا : ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٥٨ .

(٣) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ٧١-٧٢ ـ المنينى ، الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى ، ج١ ، القاهرة ١٢٨٦هـ ، ص ٣٣٥-٣٣٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٥٨ ـ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٧ ، ص ٩٣ ـ حمد الله قزوينى ، تاريخ كزيدة ، ص ١٤٨-١٤٩ ، وهو ملحق بتاريخ بخارى للنرشخى .

أرسلان خان ، اتفق مع أرسلان بن سلجوق وعملا معا على التصدى[(١)] لقوات أرسلان خان التى بعثها للقضاء على تمرد على تكين ، وقد تمكن الأخير بمساعدة السلاجقة من القضاء على قوات أرسلان فى خان والاستقلال بامارة بخارى[(٢)] .

ومما لاشك فيه أن أرسلان بن سلجوق قد اكتسب كثيرا من الفوائد بسبب هذا الموقف ، وأصبحت للسلاجقة مكانة مرموقة فى بلاد ماوراء النهر التى أصبحوا يقيمون فيها ويرتحلون من حدود بخارى الى سغد سمرقند[(٣)] .

رحيل أتباع أرسلان بن سلجوق الى خراسان :

أدت سياسة الجور والظلم التى سار عليها على تكين مع الأهالى فى بخارى الى فرار مجموعة منهم الى بلخ التى كان قد وصل اليها السلطان محمود الغزنوى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وشكوا اليه مايعانونه من على تكين فى بلادهم[(٤)] . وقد وجد

(١) لعله شرف الدولة أبو شجاع أرسلان خان الثانى بن يوسف قدر خان الذى حكم من (٤٢١-٤٢٥هـ/١٠٣٠-١٠٣٣م) .
أما على تكين فلم أجد له تعريفا فى المصادر التى بين يدى وان كان بارتولد يرى أن على تكين ليس أخا لأرسلان خان (تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٤٢٢) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٥ – أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣ .
(٣) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٢٦ .
(٤) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ٩١ .

السلطان محمود فى هذه الشكوى الفرصة لتصفية حسابه مع أمير بخارى الذى كان يقطع على سفراء السلطان محمود الطريق وهم متوجهون الى ملوك الترك (١). وعلى الفور تجهز السلطان بجيشه لعبور نهر جيحون ، وحين تم العبور لم يستطع على تكين التصدى للقوات الغزنوية فلاذ بالفرار وكان حليفه أرسلان بن سلجوق معه (٢).

وقد حرص السلطان محمود على أن يلقى القبض على على تكين وأرسلان بن سلجوق ، وقد نجحت قواته التى أرسلها فى هذا الشأن فى القبض على أرسلان بن سلجوق بينما اخفقت فى القبض على على تكين .

وقد اختلفت الروايات فى كيفية القبض على أرسلان ، كذلك اختلفت فى الأسباب التى جعلت السلطان محمود الغزنوى يأمر بترحيل أتباع أرسلان بن سلجوق الى خراسان .

فالكرديزى مثلا يذكر أن السلطان محمود أرسل المخبرين ليعرفوا المكان الذى لجأ اليه على تكين وقد عاد المخبرون الى السلطان محمود دون أن يعرفوا الجهة التى اختبأ فيها على تكين ، ولكنهم عرفوا مكان حليفه أرسلان بن سلجوق فأرسل السلطان محمود قوة تمكنت من القبض عليه ، وعلى الفور أمر السلطان بترحيله الى الهند وكان آخر العهد به هناك (٣).

أما بالنسبة لأتباع أرسلان بن سلجوق فيذكر الكرديزى أن جماعة من القادة والرؤساء منهم وفدوا على السلطان محمود

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٥ - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣ .
(٢) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ٩٥ - ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٤٧٥ - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣ .
(٣) زين الأخبار ، ص ٩٥ .

وشكوا اليه ظلم أمرائهم اياهم والأضرار التى كانت تحل بهم بسبب ذلك الظلم وقالوا له : "اننا أربعة آلاف أسرة فاذا صدر الأمر من سيدنا لنا بأن نعبر من النهر لنتخذ خراسان وطنا لنا ، فانه ستكون له منا راحة ، وستنمو ولايته بنا ، فاننا رجال صحراء ، ولنا مواش كثيرة ، وفى جيشه يكون منا ذكر ..." (١) .

وقد قوبل هذا الطلب بموافقة السلطان محمود الذى أصدر أمره لهم بالعبور الى خراسان .

بينما يذكر مؤرخون آخرون : أن السلطان محمود حينما عبر النهر وهرب أرسلان بن سلجوق وجماعته الى الصحراء رأى كثرة عددهم وقوة شوكتهم ، فعمد الى مراسلة أرسلان ورغبه فى الحضور عنده ، وبناءا على وعود السلطان قدم أرسلان اليه ، لكن السلطان محمود قام على الفور بالقبض على أرسلان وسجنه وتتبع أتباعه ونهب خيامهم ثم أمر فى النهاية أن يرحل أتباع أرسلان الى خراسان (٢) .

لكن رشيد الدين والراوندى وغيرهما يذكرون أن ايلك تركستان هو الذى نبه السلطان محمود الى خطر السلاجقة وخاصة اذا قام السلطان محمود بحملة على بلاد الهند فانه لايؤمن خطرهم اذا ماقاموا بغارة على بلاده من الخلف وهو فى بلاد

---

(١) زين الأخبار ، ص ٩٥-٩٦ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٥-٤٧٦ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٢٦-٢٧ ـ البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ٧ ـ وقد ذكر المصدران الأخيران أن المقبوض عليه هو ميكائيل بن سلجوق بدلا من أرسلان بن سلجوق ، وكما قدمنا فى ص بأن ميكائيل كان قد استشهد فى احدى معاركه مع كفار الترك .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٦٤ ـ الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج٥ ، تحقيق محمد محمود وابراهيم سليمان ، بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م ، ص١٠٢ .

الهند ، ولايؤمن أن يكون هؤلاء شوكة فى ظهر الدولة الغزنوية فى المستقبل ، ومن باب الحيطة نصحه الايلك باستئصال شأفة السلاجقة فى ماوراء النهر ونقلهم الى بلاده حتى يكون أولئك تحت سلطته المباشرة ، وقد سمع السلطان محمود تلك النصيحة وقام بالقبض على أرسلان ورحل جماعته الى خراسان .(١)

ومن عرض هذه النصوص يتضح أن أقرب مايكون الى الصواب هو ماروواه الكرديزى لأنه من الناحية العملية يصعب علينا التسليم بأن السلطان محمود تمكن من ترحيل هذه الأعداد الكبيرة الى خراسان رغما عنها ، خاصة وأن هذه المجموعات لم تكن مدنية يسهل ارغامها على الرحيل ، بل هى قبائل بدوية متمرسة فى خوض المعارك والحروب ، ومن الصعب جدا أن تكره على شىء لاتريده ، ولذلك فانه يمكن الاستنتاج أن السلطان محمود قد اطمأن كثيرا لوجود أرسلان فى سجنه ، وفضل السماح لأتباعه بالانتقال الى خراسان حتى يكون هؤلاء تحت سلطته اذا مافكروا فى أى عمل انتقامى ضده بسبب القائه القبض على زعيمهم أرسلان بن سلجوق .

---

(١) رشيد الدين بن فضل الله ، جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٥ ، ص ٦-٧ - الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٤٦-١٤٧ - النظام الحسينى ، العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ص ٢٢ .
وقد ذكرت هذه المصادر فحوى حوار دار بين السلطان محمود وأرسلان بن سلجوق عندما حضر عنده بشأن الامدادات التى يمكن لأرسلان بن سلجوق أن يمد بها السلطان محمود فى حالة احتياجه الى ذلك فأشار أرسلان الى أحد سهامه وقال : (ان هذا السهم هو علامة عند معسكرنا فيمدونا بعشرة آلاف رجل ونظل نسألهم المدد حتى نرسل قوسا وثلاث سهام خشبية فانهم ملتزمون بارسال مائة ألف فارس ...) وظل السلطان محمود يستزيد من أرسلان فى العدد حتى وصل الرقم الى ثلاثمائة ألف فارس يستطيع أرسلان أن يمد بهم السلطان محمود الغزنوى .
وهذه القصة تبدو لى أنها من وضع المؤرخين الفرس المتأخرين لاضافة شىء من العظمة والسطوة للسلاجقة فى تاريخهم المبكر .

ومما يجدر ذكره أن سماح السلطان محمود الغزنوى لاتباع أرسلان بن سلجوق بالرحيل الى خراسان قد لقى معارضة من أمير طوس (١) أرسلان الجاذب (٢) الذى حذر السلطان محمود بقوله : "ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور الى خراسان ، فانهم فرسان كثيرون يملكون العدة والعتاد ، وانى أخشى أن يكونوا سببا فى متاعب لايمكن تلافيها ..." (٣) .

وقد طلب أمير طوس من السلطان محمود أن يقطع أصابع ذكورهم حتى يفقدوا القدرة على الرمى بالسهام ، ووقد رفض السلطان محمود هذا الاقتراح واتهم أمير طوس بعدم الرحمة وقسوة القلب (٤) .

وهكذا انتقل السلاجقة الى خراسان وكانت نقطة تحول فى تاريخهم (٥) ، لتبدأ المرحلة الأولى من صراعهم ضد الغزنويين ، ثم القوى المجاورة لهم وقد قادها أتباع أرسلان بن سلجوق ، وتمتد هذه المرحلة من سنة ٤١٦-٤٢٦هـ/١٠٢٥-١٠٣٤م وهى السنة التى دخلت فيها أفواج جديدة من السلاجقة الى خراسان بقيادة أبناء ميكائيل وهم جغرى بك داود وطغرلبك محمد وبيغو وهى المرحلة التى توجت بقيام دولة السلاجقة .

---

(١) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ وتشتمل على بلدتين هما : طابران ونوقان . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٩) .

(٢) أرسلان الجاذب : من كبار القادة العسكريين الغزنويين فى عهد السلطان محمود وابنه مسعود بن محمود الذى تزوج ابنته (كما ذكر ذلك البيهقى فى تاريخه ص ٧٠٩) وخاض أرسلان الجاذب أولى المعارك ضد السلاجقة أتباع أرسلان بن سلجوق كما سيأتى معنا فى المتن فيما بعد ، ولايعرف شىء عن نهاية هذا القائد فيما بين يدى من مصادر .

(٣) الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٥٣ .

(٤) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ٩٦ – ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٤٧٥-٤٧٦ – أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣ .

(٥) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٣٢-٣٣ .

نشاط أبناء ميكائيل بن سلجوق فى بلاد ماوراء النهر :

ويحسن بنا أن نتابع الأحداث التى شهدها الفرع الثانى من السلاجقة وهم أبناء ميكائيل بن سلجوق فى بلاد ماوراء النهر قبل أن نتحدث عن الحروب التى خاضها أبناء عمومتهم فى خراسان .

فقد ذكرنا أن ميكائيل بن سلجوق استشهد فى أحد معاركه مع كفار الترك ، وقد خلف ميكائيل ثلاثة من الأبناء هم بيغو وجغرى بك داود ، وطغرلبك محمد (١) ، الذين لم تذكر المصادر أى شىء عنهم أو أى نشاط لهم بعد مقتل أبيهم حتى لحظة مجيئهم الى بخارى وهى فترة تمتد من تاريخ وفاة والدهم الى مابعد اجلاء عمهم أرسلان بن سلجوق الى خراسان .

ويبدو من مجريات الحوادث أن أبناء ميكائيل استمروا فى جند بعد وفاته وهناك حدثت خلافات شديدة بينهم وبين حاكم جند شاه ملك انتهت بأن تمكن شاه ملك من اخلائهم عن منطقته (٢) فاضطروا الى الرحيل الى حيث كان يقيم عمهم أرسلان بن سلجوق

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣١ ، ويذكر الحسينى اسم بيغو باسم يبغو ، وماأورده ابن الأثير هو الصحيح لأن البيهقى فى تاريخه وهو المعاصر لهم يذكره باسم بيغو فى كل المواضع التى يأتى ذكرها فيها ، وانظر على سبيل المثال الصفحات : ٥٠٣، ٥٢٨، ٥٧٣، ٦٠٠ الخ . هذا ويذكر عبد النعيم حسنين فى كتابه ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٩ أن السلاجقة درجوا على استخدام اسم قبلى واسم اسلامى .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٧٥٠ . عندما حاول هارون بن التونتاش حاكم خوارزم التوفيق بين شاه ملك وأبناء ميكائيل بن سلجوق رد عليه شاه ملك : أن بينه وبينهم ثأر وسيف (ولسوف أمضى فى قتلهم حتى يفعل الله مايريد) مما يدلنا على أنه كانت بينهم حروب مريرة اضطرتهم فى النهاية الى اللجوء الى بخارى كما ذكرنا فى المتن .

وقد نزلوا على بعد عشرين فرسخا من بخارى (١). وحسب رواية ابن الأثير فان على تكين حاكم بخارى أساء جوارهم ولم يتقبل وجودهم فى بلاده مما أجبرهم على الرحيل الى بغراخان حاكم تركستان ، الذى يبدو أنه الآخر كان يتربص بهم الدوائر ، ولذلك اتفق كل من جغرى بك داود وأخوه طغرلبك محمد ألايجتمعا سويا عند بغراخان ، وأن يتناوبا الحضور عنده خوفا من غدره بهم . وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها بغراخان لجمعهما الا أنه فشل فى ذلك فاضطر أخيرا الى القاء القبض على طغرلبك ، ولم يستسلم أخوه جغرى بك داود لما حدث بل سارع الى جمع عشائره وهاجم بهم معسكر بغراخان وأوقعوا به الهزيمة وتمكن من فك أسر أخيه ليعودوا مرة أخرى الى قرب بخارى (٢).

ومن المرجح أن على تكين خشى مغبة عودة هؤلاء الى دياره ، كما أنه ليس فى مقدوره مواجهتهم عسكريا ، ولذلك عمل على تفريق شملهم بالحيلة عندما قرب اليه يوسف بن موسى ابن سلجوق ونصبه مقدما على جميع الأتراك فى ولايته ، وأقطعه اقطاعات كثيرة ولقبه اينانج بيغو (٣).

والهدف من هذه الاجراءات التى اتخذها حاكم بخارى هو استخدام يوسف بن موسى بن سلجوق فى ضرب بقية السلاجقة وأن يفرق كلمتهم بواسطته ، لكن يوسف خيب آمال حاكم بخارى وأغضبه عليه وكان جزاءه منه أن أمر بقتله ، وكان مقتل

---

(١) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٤ - وانظر أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣ - ابن الوردى ، تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج١ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م ، ص ٥٢٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٦ .

يوسف على يد أحد قادة على تكين ويدعى ألب قرا (١) ، كما كان مقتل يوسف سببا فى ثورة كل من طغرلبك وأخيه جغرى بك اللذين تمكنا بمن جمعاه من أتباعهما من الحاق الهزيمة بجيش على تكين وقتل قاتل ابن عمهما يوسف بن موسى بن سلجوق (٢) وفى المقابل فان حاكم بخارى لم يستسلم لتلك الهزيمة واضطر الى الاستنجاد بالأهالى وسار اليهم بجموعه نحو السلاجقة واستطاع أن يلحق بهم خسائر كبيرة قتل فيها الكثير من اتباع طغرلبك واخوته وذلك سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م (٣) .

وأمام هذه المذبحة الكبيرة التى حدثت لأتباع أبناء ميكائيل لم يكن أمامهم الا مغادرة امارة بخارى الى مكان آخر وهو خوارزم التى استدعاهم اليها حاكمها هارون بن التونتاش خوارزم شاه (٤) ليستعين بهم ضد السلطان مسعود بن محمود الغزنوى (٥) لنزاع بينهما على امارة هذه المنطقة ، ولكن حاكم جند شاه ملك لم يعطهم الفرصة ليستقروا هناك فقام بحملة مفاجئة عليهم سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م وألحق بهم خسائر

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٦ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٧ — ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٢٣ .
(٤) هارون بن التونتاش خوارزم شاه ولى حكم خوارزم بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٢م وتمرد على السلطان مسعود سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فدبر له الغزنويون خطة اغتياله وتم ذلك سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م على يد بعض رجاله الذين قبضوا الثمن من جواسيس الدولة الغزنوية . انظر : (تاريخ البيهقى ، ص ٧٤٧-٧٥٢) .
(٥) السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، حكم من (٤٢١-٤٣٢هـ ١٠٣٠-١٠٤٠م) كان واليا لأصبهان فى عهد أبيه ولما توفى السلطان محمود كان قد أوصى بأن يخلفه فى الحكم ابنه محمد فنازعه مسعود وتغلب عليه سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م وفى عهده دخل السلاجقة الى خراسان وقضوا على نفوذه فيها . انظر : (تاريخ البيهقى الذى أورد كثيرا من جوانب حياته فى هذا المؤلف) .

جسيمة في الأرواح والأموال ليجدوا أنفسهم مرة أخرى مضطرين[1] الى البحث عن مكان آخر يستقبلهم ، وكان اتجاههم هذه المرة نحو خراسان حيث يستقر جماعتهم السابقون في تلك المنطقة .

ومما يجدر ذكره أن المعلومات التي أوردها البيهقي بشأن العلاقة بين على تكين وطغرلبك وجغرى بك يناقض تماما ماذكره ابن الأثير ، اذ يذكر البيهقي : أن على تكين كان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة ويكسبهم "الى جانبه بالقول الطيب والمال ، فقد كان يرى أنهم لو ابتعدوا عنه ضعف مركزه" وعندما توفي على تكين خلفه أبناؤه فأساءوا معاملة السلاجقة مما اضطرهم الى أن يغادروا بخارى الى خراسان[2] .

ويبدو أن البيهقي استقى هذه المعلومات من رسالة السلاجقة الى السلطان مسعود عندما عبروا الى خراسان والتي سنذكرها بعد قليل ان شاء الله تعالى .

وفي رأيي أن ماذكره السلاجقة في رسالتهم تلك من علاقات حسنة بينهم وبين على تكين قد لايمت الى الواقع بصلة ، ولكنهم ذكروا ذلك حتى لايتخذ السلطان مسعود ضدهم أى اجراء من شأنه أن يعيق توطنهم في خراسان ، وهو ماتنبه له السلطان مسعود اذ أنه بحكم تجربته مع أتباع أرسلان بن سلجوق أدرك خطورة هؤلاء القادمين الجدد والمشاكل التي ستزيد على الدولة الغزنوية بسببهم[3] .

---

(١) تاريخ البيهقي ، ص ٧٤٨ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٧ ـ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٢٣ .
(٢) تاريخ البيهقي ، ص ٤٧٤ .
(٣) تاريخ البيهقي ، ص ٥٠٦ .

(ب)حروبهم مع الغزنويين

* نشاط أتباع أرسلان بن سلجوق فى خراسان وموقف الدولة الغزنوية منهم .
* طغرلبك واخوته فى خراسان .
* معركة نسا وهزيمة بكتغدى على يد السلاجقة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م .
* هزيمة القائد الغزنوى سباشى على يد السلاجقة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م .
* موقف السلطان مسعود من استيلاء السلاجقة على خراسان
* معركة سرخس فى شوال ٤٣٠هـ/يونيه ١٠٣٩م .
* معركة داندانقان فى رمضان ٤٣١هـ/مايو ١٠٤٠م .

نشاط اتباع أرسلان بن سلجوق في خراسان :

بعد أن كمل عبور السلاجقة الى خراسان بناءا على أمر السلطان محمود الغزنوى يلاحظ أنه لم يجعل اقامة هؤلاء اللاجئين الرحل فى مكان واحد ، وانما فرقهم فى عدة نواح من خراسان ، وهى صحراء سرخس (١) ، وصحراء فراوة (٢) ، وباورد (٣) ، ووضع عليهم الخراج (٤) . وكان من المتوقع أن يلتزم السلاجقة بماتعهدوا به أمام السلطان الغزنوى قبل عبورهم ، لكن الذى حدث هو عكس ذلك تماما ، اذ يذكر الكرديزى أنه فى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م أى بعد عبورهم بحوالى سنتين توافد بعض أهالى المناطق السالفة الذكر الى غزنة وأنهوا الى السلطان محمود مايعانونه من التركمان (وامتداد أيديهم فى تلك الديار) (٥) .

أما ابن الأثير وغيره فيذكرون أن السلاجقة لزموا جانب السكينة الا أن عمال الدولة الغزنوية جاروا فى تقدير الضرائب عليهم وظلموهم ، وأخذوا أموالهم ومواشيهم (٦) .

---

(١) سرخس : مدينة قديمة من نواحى خراسان ، كبيرة وواسعة وهى بين نيسابور ومرو فى وسط الطريق ، وهى مدينة معطشة ليس لها فى الصيف الا ماء الآبار العذبة ، وليس بها نهر جار ، والغالب على نواحيها المراعى .
(ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٠٨-٢٠٩) .

(٢) فراوة : بليدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٢٤٤) .

(٣) باورد : وهى أبيور أيضا ، بلد بخراسان بين سرخس ونسا (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣٣٣) .

(٤) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ٩٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٤٧٦ ـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٦٤ الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج٥ ، ص ١٠٢ .

(٥) زين الأخبار ، ص ١٠١ .

(٦) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٦ ـ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٣-١٦٤ ـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٥ ، ص ٦٤ .

ونتيجة لهذه السياسة نحوهم توفرت لدى السلاجقة أسباب الخروج على السلطة وامتدت بعد ذلك لتشمل القيام بالسلب والنهب فى الأنحاء التى يقيمون فيها . ويبدو أن السلاجقة بدأوا فى التجمع لمواجهة أى عمل انتقامى تقوم به الدولة الغزنوية تجاههم ، ذلك أن السلطان محمود فور سماعه بما حدث منهم أمر واليه على طوس الأمير أرسلان الجاذب بتجهيز حملة لردعهم (١) . وامتثل الأمير بما طلب منه وقام بمداهمة السلاجقة الذين كانوا على استعداد لمواجهته وتمكنوا من الحاق الهزيمة به (٢) ، كما خسر فى معركته معهم عددا من رجاله ويفهم مما أورده الكرديزى أن السلاجقة لم يكفوا عن أعمالهم السابقة (٣) . ومن المحتمل أنهم زادوا عما كانوا عليه عقب الانتصار الذى حققوه على والى طوس ، وفى نفس الوقت اتهم أرسلان الجاذب بالعجز عن مواجهة السلاجقة من قبل السلطان محمود الغزنوى ، وأمام هذه التهمة كتب اليه أرسلان الجاذب "أن التركمان قد أصبحوا أقوياء أشداء ولايمكن أن يدرأ فسادهم الا برأيه وركابه الخاص" (٤) .

وأمام هذا التقرير لم يجد السلطان محمود بدا من التحرك بنفسه (٥) الى السلاجقة فتحرك من غزنة فى سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م ، ولما وصل الى طوس أشرف بنفسه على تشكيل القوة التى

---

(١) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠١ – ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٣٧٨ .

(٢) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠١ . أما ابن الأثير فلم يذكر حدوث أى مواجهة بين أمير طوس أرسلان الجاذب والسلاجقة ، وانما ذكر أن السلاجقة هربوا من أمامه فظل يتبعهم سنتين ، مما اضطر السلطان محمود الى أن يسير اليهم بنفسه . (الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٨) .

(٣) زين الأخبار ، ص ١٠١ .

(٤) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠١ .

(٥) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠١ .

ستواجه السلاجقة ،وعند رباط فراوة التقى الفريقان فى معركة ضارية انتهت بهزيمة السلاجقة ووقوع عدد كبير منهم قتلى وأسرى (١)، وفر الناجون منهم نحو بلخان (٢) ودهستان (٣). ونجد عند ابن الأثير بعض التفصيل فى مصير هؤلاء بعد هزيمتهم اذ يذكر أن فريقا منهم اتجه صوب أصبهان (٤)، فكتب السلطان محمود الى علاء الدولة بن كاكويه (٥) (٣٩٨-٤٣٤هـ/١٠٠٧-١٠٤٢م) يأمره بقتلهم ، فأرسل اليهم علاء الدولة يدعوهم الى وليمة أعدها لهم مع وعد باثباتهم فى الديوان كجند له ، وذلك من أجل أن يوقعهم فى كمين وهم آمنون وحتى يتخلص منهم جميعا ، لكن خطته باءت بالفشل نتيجة تحذير مملوك تركى أخذته حمية الجنس لقومه (٦). فلما علموا بالمكيدة عادوا أدراجهم ، ورغم أن نائب علاء الدولة حاول منعهم من الرجوع الا أنه لم يستطع ووقع اشتباك بين ديلمى وتركى فقتل التركى الديلمى وثارت الديلم وأعانهم فى ذلك الأهالى ضد الترك فانهزموا من

---

(١) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠١-١٠٢ .
(٢) بلخان : مدينة خلف أبيورد (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٧٩) .
(٣) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠٢ .
أما دهستان : فهى بلد فى طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤٩٢) .
(٤) أصبهان : ويطلق عليها اليوم أصفهان ، مدينة تقع على ضفاف نهر زندة وكانت تضم مدينتين هى جى واليهودية ، واشتهرت أصبهان بعظم خيراتها ووفرة مياهها . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٢٠٦-٢١٠ - لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٣٨) .
(٥) علاء الدولة بن كاكويه : هو أبو جعفر دشمنزيار محمد ابن كاكويه ، وكاكويه كلمة فارسية ومعناها الخال أخو الأم ، وهو خال لمجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، حكم علاء الدولة أصفهان وهمدان وميزد من (٣٩٨-٤٣٤هـ/١٠٠٧-١٠٤٢م) وخلف من الأبناء أبا منصور وفرامرز وكرشاسب وأبا حرب وسيأتى ذكرهم فيما بعد مع السلاجقة انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٩٣) .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٨ .

أمامهم ، وأثناء انسحابهم دمروا القرى التى فى طريقهم حتى وصلوا الى أذربيجان (١) حيث استضافهم أحد أمراء هذه المنطقة ، وصاهرهم ليكسبهم الى جانبه (٢) .

أما الفريق الآخر من السلاجقة فقد اتجه الى جبل بلجان القريب من خوارزم وكعادتهم قاموا بالتخريب والقتل والنهب فى هذه المنطقة مما اضطر السلطان محموداً الى أن يتبعهم بنفسه من نيسابور ، فلما علموا بتحركه توجهوا الى جرجان (٣) هربا من لقائه (٤) . أما السلطان محمود فقد عدل عن متابعتهم وتوجه الى الرى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م بناء على استنجاد مجد الدولة بن بويه الذى طلب مساعدة السلطان محمود ضد جنده (٥) ، وقد رأى السلطان محمود فى ذلك فرصة فى لبسط سيطرته على أحد أملاك الدولة البويهية . وبعد أن وصل السلطان محمود الى الرى قبض على مجد الدولة وأحكم سيطرته على هذه المدينة ، ولما اشتد عليه المرض قرر العودة الى عاصمة ملكه وكلف ابنه مسعوداً (٤٢١-٤٣٢هـ/١٠٣٠-١٠٤٢م) بمتابعة الأمور فى خراسان (٦) .

---

(١) أذربيجان : اقليم واسع ويتصل حده من برذعة شرقا وارزنجان غربا وشمالا بلاد الديلم والجيل والطرم ومن مدنها المراغة القصبة القديمة لأذربيجان ، ومن مدنها المهمة أيضا خوى وسلماس وارمية وأردبيل ومرند ، وأذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة ، الغالب عليها الجبال ، وفيها قلاع كثيرة ، وخيرات واسعة وفواكه جمة ويقول عنها ياقوت أنه لم ير ناحية أكثر بساتين منها ولا أغزر مياها وعيونا لايحتاج السائر بنواحيها الى حمل اناء للماء ، وأهلها صباح الوجوه حمرها ، ولهم لغة يقال لها الأذرية ، وفى أهلها لين وحسن معاملة ، وهى أيضا بلاد فتنة وحروب ماخلت قط منها فلذلك أكثر مدنها خراب وقراها يباب . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ١٢٨) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٨، ٣٨١ .

(٣) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان يقال أن أول من أحدثها هو يزيد بن المهلب بن أبى صفرة . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١١٩) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٨ .

(٥) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠٢ — ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٣٧١ .

(٦) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١٠٣-١٠٤ .

ولـم تطل مدة اقامة السلطان محمود فى غزنة اذ مالبث أن توفى سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م تحت وطأة المرض ، وأوصى أن يخلفه فى الحكم ابنه محمد (٤٢١هـ/١٠٣٠م) الأصغر سنا من مسعود (١). ولم يرتض الأخير هذه الوصية لذلك بدأ فى جمع الحشود ضد أخيه . واقتضت الظروف أن يأخذ فى الاعتبار قوة السلاجقة الموجودين فى خراسان ، فعمل على ضمهم الى جانبه وهنا وفى هذه الظروف المستجدة يذكر البيهقى لأول مرة أسماء زعماء السلاجقة فى هذه الفترة وهم : قزل ، وبوقه ، وكوكتاش ويغمر وغيرهم (٢) ، وقد اشترط هؤلاء على مسعود أن يعفو عن بقية جماعتهم فى المناطق الأخرى فعفا عنهم واستدعاهم الى خراسان (٣) وبعد أن دعم مسعود نفسه فى هذه المنطقة أرسل الى أخيه السلطان محمد يطلب منه الموافقة على الاستقلال بطبرستان (٤) وبلاد الجبل (٥) وأصفهان وأن يقدمه فى الخطبة ، لكن السلطان

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٩٨ .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٢٩٢،٦٨ . هذا ويذكر كل من عبد النعيم حسنين فى كتابه ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣١ ، ومحمد ادريس فى كتابه العراق والمشرق الاسلامى فى العصر السلجوقى الأول ، ص ٧١،٧٠ ، وحسين أمين فى كتابه تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ٤٨ أن الذى تولى قيادة السلاجقة بعد القبض على أرسلان بن سلجوق هو أخوه ميكائيل بن سلجوق وأنه هو الذى عبر بهم الى خراسان وتولى حركة التمرد الأولى ضد الدولة الغزنوية ، وهذا خطأ واضح لأن ميكائيل قتل فى جند قبل عبور السلطان محمود الى بلاد ماوراء النهر كما سبق أن ذكرنا ذلك ص ٨١ ، والبيهقى هنا وهو المعاصر وكذلك الكرديزى لم يذكرا لميكائيل أى دور مما يرجح الرواية التى اعتمدناها فى المتن عن ابن الأثير فى مقتل ميكائيل .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٨-٣٧٩ — ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٦٥ .

(٤) طبرستان : اقليم واسع بين الرى وقومس وبلاد الديلم أهم بلدانه دهستان وجرجان واستراباذ وآمل وساريه ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١٣) .

(٥) بلاد الجبل : أو اقليم الجبال ، اقليم واسع يمتد من سهول العراق والجزيرة ، أطلق عليه فى الفترة التى ندرسها عراق العجم ، وينقسم الى قسمين ، الصغير وهو =

محمد رفض هذا العرض وقاد جيشا كبيرا سار به نحو مسعود (١) ، وفى تكيناباذ (٢) تآمر عليه كبار قادته واتفقوا على القبض عليه وخلعه ، لميلهم الى مسعود ، ثم نفذوا هذا الاتفاق وأرسلوا الى السلطان مسعود يبايعونه ويطلبون منه القدوم الى غزنة لتولى الحكم (٣) .

وبعد أن استقرت الأمور للسلطان مسعود طلب مقدموا التركمان منه أن يأذن لهم فى العودة الى مناطقهم ، فأذن لهم على شريطة أن يلتزموا جانب الطاعة (٤) . وكانت عودتهم بداية لتأزم الموقف بينهم وبين الدولة الغزنوية . اذ يذكر الكرديزى أن السلاجقة عادوا للشر والفساد (٥) دون أن يذكر الأسباب التى أجبرتهم على العودة الى سيرتهم الأولى ، مما أجبر السلطان مسعود الى أن يجهز الحملات ضدهم ، أما البيهقى فيوضح سبب عودتهم للشر والفساد فيذكر أن السلطان مسعود عندما عين تاش فراش واليا على الرى ، أمره بأن يلقى القبض على بوقه ويغمر وكوكتاش زعماء السلاجقة (٦) . وقد حذر

= المناطق الكردية مثل قرميسين ،وكنكور والدينور وحلوان ، والكبير وهو الى الشرق من المناطق التى ذكرناها ، انظر (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٢٠ ومابعدها) .

(١) عصام عبد الرؤوف الفقى ، الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ، ص ٩١ .

(٢) تكيناباذ : مدينة كانت تقع مكان المدينة الحالية كاندغار (لعلها قندهار) فى جمهورية أفغانستان ، انظر (الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٤ حاشية ٣) .

(٣) عصام عبد الرؤوف ، الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ص ٩١-٩٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٦٥ .

(٥) زين الأخبار ، ص ١١١ .

(٦) تاريخ البيهقى ، ص ٢٩٢-٢٩٣ .

الوزير أحمد بن عبد الصمد[(١)] وبعض القادة السلطان مسعود من مغبة هذا العمل لأن فيه اثارة السلاجقة على الدولة سيما وأنهم مازالوا على الطاعة ، لكنه لم يستمع الى نصحهم وأصر على القبض عليهم ، ويضيف ابن الأثير الى ذلك انه لما وصل تاش فراش الى نيسابور قتل منهم زيادة على خمسين رجلا ومنهم يغمر أحد قادتهم[(٢)] . ووقع ماكان يخشاه بعض القادة الغزنويين من التركمان ، اذ كان ردهم عنيفا تجاه ماوقع لهم من تاش فراش فخرجت الجموع الباقية من نيسابور نحو الرى فوصلت طائفة منهم الدامغان[(٣)] ، ولم يستطع الأهالى ومن معهم من العسكر الوقوف أمامهم فنهبوها ثم انتقلوا الى سمنان[(٤)] واسحاق أباد[(٥)] وأعمال الرى[(٦)] دون أن تستطيع القوى المحلية أن تكبح جماحهم أو الوقوف فى وجههم[(٧)] ، مما اضطر السلطان مسعود الى أن يسير بنفسه الى خراسان سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م للاشراف على

---

(١) أحمد بن عبد الصمد الشيرازى : كان يتولى الوزارة فى خوارزم لاتونتاش خوارزم شاه ، ثم استقدمه السلطان مسعود ليتولى وزارته ، وظل يشغل هذا المنصب الى حين القبض على السلطان مسعود ومدة عامين فى عهد مودود بن مسعود ، وتوفى مسموما وهو فى السجن .
انظر : (خواند مير ، دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق حربى أمين سليمان ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٢٤٠) .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٩ .

(٣) الدامغان : بلد كبير بين الرى ونيسابور ، وهو قصبة قومس (معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤٣٣) .

(٤) سمنان : بلدة بين الرى ودامغان (معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٥١) .

(٥) اسحاق أباذ : لم أجد لها تعريفا فى المصادر التى بين يدى .

(٦) الرى : مدينة مشهورة من أمهات وقصبة بلاد الجبل بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخا والى قزوين سبعة وعشرون فرسخا ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ١١٦) . وهى الآن قرية تابعة لمدينة طهران عاصمة جمهورية ايران (عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، ص ١١) .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٩ .

دولة السلاجقة

والدول المعاصرة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)

دولة السلاجقة	قبائل البلغار
سلاجقة الروم	الدولة البيزنطية
قبائل الأتراك القرخانية	الدولة الفاطمية
قبائل الأتراك الكرخطائي	مكران
قبائل الخزر	السند
قبائل البشناق	إرمينية الصغرى

مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

بلاد المجر
بلاد البلغار
بلاد البلغار
بلاد الصرب
بشناق
بحر بنطش
دولة الروم
سلاجقة الروم
بحر الروم
بلاد الخزر
بحر الخزر
الدولة القرخانية
بلاد القراخطاي
ما وراء النهر
دولة الخلافة العباسية
الجزيرة العربية
بحر القلزم
الحجاز
مصر
بحر العرب
خليج عمان
الخليج العربي
عمان
مكران
السند
القسطنطينية
قونية
أنطاكية
حلب
حماة
حمص
دمشق
بيروت
طرابلس
حيفا
القدس
الإسكندرية
القاهرة
المدينة
مكة
بغداد
الموصل
البصرة
الكوفة
أصفهان
الري
همذان
شيراز
هراة
سمرقند
بخارى
خوارزم
غزنة
قندهار
سجستان

→ هجرة السلاجقة إلى ما وراء النهر ثم انتقالهم إلى خراسان زمن السلطان محمود الغزنوي

الأوضاع فى هذه المنطقة والقضاء على فتن التركمان بها (١) . الا أن دخول جموع جديدة منهم خراسان واستقرارهم فى نسا (٢) أضاف الى الدولة الغزنوية متاعب جديدة لم تكن تتوقعها وكانت هذه الجموع بقيادة الاخوة جغرى بك داود وطغرلبك محمد وبيغو ابناء ميكائيل بن سلجوق الذين قدر لهم أن يصلوا الى هذه المنطقة فى وقت تأزم الموقف بين الدولة وأقربائهم مما انعكست آثار الخلاف بين أتباع أرسلان بن سلجوق والدولة الغزنوية عليهم كما سيأتى بيانه .

طغرلبك واخوته فى خراسان :

فر طغرلبك واخوته ومن بقى من جموعهم من خوارزم عقب المذبحة التى أوقعها فيهم شاه ملك حاكم جند ولم يكن أمامهم الا عبور جيحون والدخول الى خراسان التى اضطروا الى المجىء اليها نتيجة لخلافاتهم مع حكام ماوراء النهر قبل ذلك (٣) .

وقد صور لنا البيهقى الحالة التى كانوا عليها أثناء عبورهم الى خراسان بأنهم كانوا يمتطون خيولهم عارية من السروج وليس معهم امرأة ولاولد ولادابة (٤) . أى أنهم تركوا كل شىء وراءهم ، وكانت وجهتهم الى نسا ، فلما استقروا فيها سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م بادروا بالكتابة الى سورى رئيس الديوان

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٤٥٩ – ابن الأثير ، الكامل ، ص ٤٤١
(٢) نسا : مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان وبينها وبين مرو خمسة أيام ، وتبعد عن نيسابور ستة أو سبعة أيام . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٢) .
(٣) انظر ماسبق ، ص ٨٩-٩٠ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٧٤٩ .

بهذه المنطقة (١) ، طالبين منه التوسط لدى الوزير أحمد بن عبد الصمد ليقوم الأخير بالشفاعة لهم عند السلطان للسماح لهم بالبقاء فى نسا وفراوة ، ومما قالوه فى رسالتهم : "جئنا نلوذ بسلطان العالم ولى النعم ليكرمنا الشيخ سورى ويكتب للأستاذ الرئيس أحمد بن عبد الصمد ليكون شفيعا لنا عند السلطان فانه يعرفنا ... لعل السلطان يقبلنا عبيدا له فيقوم أحدنا بالخدمة فى الدركاه وينفذ الآخران مايأمر به السلطان من خدمات فنستريح فى ظله الوارف ويمن علينا بولايتى نسا وفراوة ..." (٢) ، وفى مقابل ذلك يقوم الاخوة بالتصدى لكل أعمال السلب والنهب التى يقوم بها أتباع عمهم أرسلان بن سلجوق فى خراسان (٣) .

وصلت رسالة سورى وفيها رسالة السلاجقة الى الوزير أحمد بن عبد الصمد فى طبرستان حيث كان يتواجد السلطان (٤) مسعود بعد اخضاعها ، وقام الوزير بنقل الرسالة الى السلطان مسعود ليقول كلمته بهذا الشأن . والحقيقة أن الظرف الذى صاحب دخول الاخوة السلاجقة الى الأراضى الغزنوية وارسالهم هذه الرسالة لم يكن ظرفا طبيعيا بالنسبة اليهم ، فقد كانت الرى تعانى من أقربائهم الذين سبقوهم ، وكذلك

---

(١) تاريخ البيهقى ص ٥٠٢-٥٠٣ ، وسورى : هو سورى بن المعتز ، كان رئيسا للديوان فى خراسان فى عصر السلطان مسعود ، يقول عنه البيهقى : (فان سورى كان رجلا مشهورا بالظلم ، فانه حين أطلقت يده فى خراسان استأصل شأفة أعيانها ... وامتد ظلمه الى الضعفاء ... وكان من نتيجة سياسته هذه أن ضاعت خراسان بسبب ظلمه وعدوانه) . انظر : (تاريخ البيهقى ، ص ٤٣٦-٤٣٧) .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥٠٤ .

(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٥٠٤ .

(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٥٠٤ – الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١١٣ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٧ .

بلخان كوة التى جمع فيها ابن يغمر أعدادا من التركمان للانتقام لمقتل أبيه (١)، كما أن الجيش الغزنوى لم يستطع أن يحسم معركته مع التركمان فى فراوة (٢). وبمعنى آخر كانت الدولة الغزنوية تعانى منهم أشد المعاناة، وقبول هذه الأفواج الجديدة منهم فى مثل هذا الظرف رغم تعهدهم بالطاعة والتزامهم بالتصدى لقومهم كان مثارا للشك من الوزير أحمد ابن عبد الصمد، اذ ما أن قرأ رسالتهم حتى قال : "... كنا نتعامل حتى الآن مع الرعاة ولعلك تعرف كم قاسينا منهم وكم نقاسى حتى الآن من بلاياهم، أما اليوم فانهم قد أتوا الينا أمراء ممن يلون الولايات ..." (٣).

ورأى الوزير هذا كانت نتيجة لما طلبوه فى رسالتهم أولا وبحكم تعامله معهم أثناء وزارته فى خوارزم أيام التونتاش خوارزم شاه (٤)، فهو يعرف مكانتهم بين قومهم وطموحهم نحو الرئاسة والامارة، اضافة الى ذلك فان سورى كان قد أرفق مع رسالة السلاجقة تقريرا ذكر فيه أن المهاجرين الجدد يبلغ عددهم عشرة آلاف (٥)، وهو عدد ليس بالهين الذى يمكن استيعابه بسهولة فى ظل الأوضاع التى كانت تعيشها الدولة الغزنوية معهم. وقد عرض الوزير هذا التقرير ورسالة السلاجقة على السلطان مسعود الذى قال حينما

---

(١) تاريخ البيهقى، ص ٣٩٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٧٩.
(٢) تاريخ البيهقى، ص ٤٦٩، ٤٧٣.
(٣) تاريخ البيهقى، ص ٥٠٤-٥٠٥.
(٤) التونتاش : أحد رجالات السلطان محمود، ولاه على خوارزم سنة ٤٠٧هـ ولقب بخوارزم شاه، توفى من أثر جرح أصابه أثناء اغارته على بخارى سنة ٤٢٤هـ. انظر (البيهقى، تاريخ البيهقى، ص ٣٧٠ ومابعدها).
(٥) تاريخ البيهقى، ص ٥٠٣.

اطلع عليه : "ليس هذا أمرا هينا ، لقد جاء عشرة آلاف فارس تركى مع كثير من القادة وأقاموا وسط بلادنا ، ويقولون لم يبق مكان نأوى اليه ، والحق أنهم استضعفوا بلدنا ، لن نمهلهم ليجدوا فى بلادنا مستقرا يترعرعون فيه ، انظروا ماذا كان من هؤلاء التراكمة من البلاء والازعاج ... وهم الآن كما يقول الوزير طالبوا امارة ..." (١) .

استقر رأى الوزير والسلطان مسعود أن يؤجل البت النهائى فى مسألة السلاجقة الى حين وصول السلطان الى نيسابور مع تكليف رئيس الديوان سورى بابلاغ الاخوة بأنهم نزلوا فى بيوتهم والى حيث يأمنون . وكان الهدف من هذا الرأى كسب الوقت ، واتاحة الفرصة للجيش المصاحب للسلطان مسعود ليأخذ الراحة الكاملة عند وصوله الى نيسابور ليكون مستعدا لمواجهة السلاجقة فى نسا (٢) ، ومن ناحية أخرى يضمنون هدوء السلاجقة فى أماكنهم .

معركة نسا ـ شعبان ٤٢٦هـ/يونيه ١٠٣٥م :

شعر السلاجقة من رد سورى لهم أن فى الأمر خدعة ، ورغم ذلك فقد التزموا جانب الحذر ولم يقوموا بأى عمل يخرجهم عن الطاعة مع استعدادهم الكامل لمواجهة أى عمل عسكرى ضدهم (٣) . فلما وصل السلطان مسعود الى نيسابور فى رجب سنة ٤٢٦هـ/ مايو ١٠٣٥م عقد مجلسا مع مستشاريه لاصدار القرار النهائى بشأن السلاجقة ، وقد انتهى المجلس الى ضرورة بعث جيش قوى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٥٠٥-٥٠٦ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥٠٦-٥٠٧ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٥١٠ .

قوامه خمسة عشر ألفا اضافة الى ألفين من غلمان السراى (١) عليهم عشرة قواد وكانت القيادة العليا للحاجب بكتغدى (٢) .

وتوجه هذا الجيش الى مقصده نحو السلاجقة فى نسا . وقد علم السلاجقة بخبر هذه الحملة فأرسلوا الى بكتغدى قبل وصوله اليهم رسالة ذكروا له فيها أنهم عبيد طائعون ولايستلزم الأمر توجهه نحوهم ، لكن بكتغدى قابل رسل السلاجقة بالاهانة وأنه ليس بينه وبينهم الا السيف (٣) . وأخذ بكتغدى يرتب جيشه قبل لقائهم فلما وصل الى نسا ، كان السلاجقة قد خرجوا من خيامهم نحو أطراف الصحراء ، وأعدوا فيها المكامن استعدادا لمواجهة الجيش الغزنوى . وعندما التقى الجمعان فى شعبان سنة ٤٢٦هـ/يونيه ١٠٣٤م دارت بينهم معركة عنيفة لم يثبت لها السلاجقة وولوا منهزمين . وانشغل الجيش الغزنوى بعد ذلك فى نهب خيام السلاجقة ومايملكونه فيها ، وسرت فيهم الفوضى من جراء ذلك (٤) . وقد تنبه جغرى بك داود بن

---

(١) غلمان السراى : هم غلمان القصر السلطانى (تاريخ البيهقى ، ص ٨٠٢) وهم مثل : الحرس الملكى فى العصر الحديث .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥١٥-٥١٦ - وقد ذكر الكرديزى فى زين الأخبار ، ص ١١٣ أن سبب اعداد الجيش هو تظلم الأهالى فى الرى عموما من التركمان ولذلك قرر ارسال الجيش الى السلاجقة ، وهذا يتنافى مع ماورد فى تاريخ البيهقى ص ٥١٠ الذى ذكر أن السلاجقة لم يقوموا بأى عمل تخريبى أو سلب ونهب ، ولزموا جانب السكينة ، بناء على التقارير التى رفعها أصحاب الأخبار الى السلطان مسعود .

(٣) الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١١٣-١١٤ ، ومما يجدر ذكره أن ابن الأثير (الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٧) يذكر اسم بكتغدى باسم ايلتغدى ، وفى (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية للحسينى ، ص ٣٢) ذكره باسم بكطغدى .

(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٠ - الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١١٤-١١٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٨ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٣١-٣٢ - ابن النظام الحسينى ، العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ص ٣٣ .

ميكـائيل لمـا حـصل فـى الجيش الغزنوى ، فجمع رجاله الذين أعدهم فى الكمائن وعاد الى معسكر أعدائه ، وأمام المفاجأة لـم يستطع القائد بكتغدى أن يسيطر على جيشه عقب ذلك وأوقع بهـم داود هزيمـة منكرة لم ينج منها بكتغدى الا بصعوبة بعد أن فقـد كثيرا من رجاله اضافة الى ماخلفه من غنائم متنوعة لم يكن يحلم بها السلاجقة قبل ذلك (١) .

حـقق الاخـوة السلاجقة أول انتصـار لهـم علـى الدولـة الغزنويـة ، ورغم هذا الانتصار الكبير ، فان نشوة النصر لم تلعـب برؤوسـهم ، وانمـا جعلتهم يتدارسون الموقف بروية فى الاجتمـاع الذى عقدوه عقب المعركة وقرروا فيه ارسال اعتذار الـى السلطان مسعود يشـرحون لـه فيه حقيقة موقفهم وأنهم أجـبروا علـى خوض المعركـة دفاعـا عـن أنفسهم وأموالهم (٢) ، وألقـوا باللائمـة على سورى الذى لم يحسن التصرف فى وساطته لهـم ، كمـا ذكـروا فى الرسالة التى أرسلوها فى رمضان سنة ٤٢٦هـ/يوليـه ١٠٣٥م انهـم لايزالون يرغبون فى السلم وأنهم على الطاعة ، وفوق ذلك طلبوا من الوزير أن يرسل اليهم أحد ثقاتـه حـتى يسمع أقـوالهم مباشرة ويتأكد من صدق كلامهم (٣) .

ويذكـر البيهقـى أن الوزير أحمد بن عبد الصمد وصاحب ديوان

---

(١) تـاريخ البيهقـى ، ص ٥٢٤ .

(٢) تـاريخ البيهقـى ، ص ٥٢٥ ، وعنـد ابـن الأثير (الكـامل ، ج٩ ، ص ٤٧٨) أن السلطان هو الـذى بدأ بمراسلة السلاجقة بعـد المعركـة ، حينمـا أرسـل يتهددهم ويتوعدهم فقال طغرلبك لامام ملاته : اكتب الى السلطان (قل اللهم مالك الملك تـؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعـز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، انك على كل شـىء قديـر) ولاتـزد على هذا ، فكتب امامه هذا الرد ، وعنـد ذلك تراجـع السـلطان مسعود عن تهديده ، وأرسل اليهـم بكتـاب مملـوء بـالمواعيد الجميلـة وسير معها الخلـع النفيسة ـ وانظر أيضا فى هذا الصدد الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٣ .

(٣) تـاريخ البيهقـى ، ص ٥٢٥-٥٢٦ .

رجاله المحنكين ويدعى أبا نصر الصينى ليتباحث معهم فى (١) أمور الصلح معه ، وقد عاد موفد السلطان الى نيسابور فى شهر شوال سنة ٤٢٦هـ/أغسطس ١٠٣٥م ومعه مندوبون عن الاخوة الثلاثة لاكمال مابداوه من مفاوضات والتى وصفها البيهقى أنها "تروح وتغدو بينهم وبين السلطان" (٢) دون أن يوضح طبيعة هذه المفاوضات . ولعل ماأورده ابن الأثير يوضح بعض هذه الجوانب اذ يذكر أن الاخوة جغرى بك داود وطغرلبك وبيغو طلبوا من السلطان أن يطلق سراح عمهم أرسلان بن سلجوق من الحبس وقد استقدم السلطان أرسلان الى بلخ وطلب منه أن يرسل الى أبناء أخيه "يأمرهم بالاستقامة والكف عن الشر" (٣) ففعل ذلك . ويبدو أن السلطان مسعودا لم يستجب لمطلبهم فى اطلاق عمهم بل أعاده الى محبسه فى الهند (٤) ، وأمام اصراره رضى الاخوة بما قرره لهم من امتيازات وهى منح كل واحد منهم ولاية حيث منح جغرى بك داود دهستان ، ونسا لطغرلبك ، وفراوة باسم بيغو وأعطوا الخلع على ذلك ، ولقب كل واحد منهم بالدهقان (٥) . وعلى هذا الأساس تم الصلح بينهم وبين

---

(١) أبو نصر الصينى ، يقول عنه البيهقى : (كان من دهاة الرجال ، وكان يجمع الى قليل من الفضل حسن التدبير والحيلة والمكر ...) ولى فى عهد السلطان محمود الاشراف على البلاط واستمر الى أوائل عهد السلطان مسعود ، ثم عزله من منصبه وولى زعيما على طالقان ومرو ، (تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٦-٥٢٧) .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٨ .

(٣) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٩ - وانظر ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٩ - ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٣٨٣ .

(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٢٥٨ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٨ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٣ .
والدهقان : يأتى فى اللغة الفارسية بمعنى رئيس القرية أو الوالى (البيهقى ، تاريخ البيهقى ، ص ٨٠١)

السلطان وأعطوا المواثيق والعهود بالوفاء للسلطان مسعود على يد أبى نصر الصينى .[(١)]

وقد ذكر أبو نصر بعد عودته الى نيسابور للوزير الغزنوى أن الاخوة كانوا اذا خلوا بأنفسهم يدوسون القلنسوات ذات الركنين ويسخرون من الغزنويين ، وأنه يتوقع منهم اذا غادر السلطان نيسابور العودة الى المخالفة والعصيان .[(٢)] لكن السلطان صمم على مغادرة نيسابور معتمدا على القوات العسكرية التى تركها فى نيسابور وسرخس لتتولى أمر السلاجقة اذا خرجوا عن الطاعة ، وواصل مسيره الى بلخ التى وصلها فى محرم ٤٢٧هـ/نوفمبر ١٠٣٥م[(٣)] ويلاحظ أن من بنود الصلح أنه اذا وصل السلطان الى بلخ يأتى أحد الاخوة الى السلطان ليكون فى خدمته[(٤)] ، وهذا مالم يشر البيهقى مصدرنا الى تطبيقه ، وفوق هذا فقد أتت أخبار البريد الى السلطان وهو فى بلخ بأن السلاجقة قد أخذوا فى اثارة الفتنة باخافة الناس والسلب والنهب وغير ذلك من الأعمال ، وقد انضم اليهم فى هذه التحركات تركمان العراق .[(٥)] واذا كان الاخوة ومن يتبعهم لم يشاركوا التركمان الآخرين فى مثل هذه الغارات فانهم بلاشك قد غضوا الطرف عنها وموقفهم هذا كان معناه أنهم لم يوفوا بالمعاهدة التى بينهم وبين السلطان مسعود الذى اتخذ قرارا بارسال جيش قوامه عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل وكلف بمهمة قيادة هذا

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٩-٥٣٠ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٩-٥٣٠ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٥٣١ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٨ .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٥٣٥ ـ الكرديزى ، زين الأخبار ، ص ١١٧-١١٨ .

الجيش كبير الحجاب سباشي ليوقف السلاجقة عند حدهم (١) . وقد استعرض السلطان الجنود ومعداتهم قبل أن يغادروا بلخ في ربيع الثاني سنة ٤٢٧هـ/فبراير ١٠٣٦م في طريقهم الى خراسان (٢) .

هزيمة سباشي في سرخس – شعبان ٤٢٩هـ/مايو ١٠٣٨م :

وصلت الى مسامع جغرى بك داود وطغرلبك أخبار هذه الحملة وشعروا أنها موجهة ضدهم ، فأرسلوا الى السلطان مسعود وهو في بست (٣) في محرم ٤٢٨هـ/أكتوبر ١٠٣٦م رسالة مضمونها "اننا الى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، ولكن في خراسان كما لايخفى تركمان آخرون وهم لايزالون يفدون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوة مفتوحين أمامهم ، وهذه الولاية التي منحها ايانا السلطان قد أخذت تضيق علينا وأصبحت لاتكفي لسكني من معنا من الناس ..." (٤) ، وطالبوا في رسالتهم هذه بأن يمنحهم السلطان مرو وسرخس وباورد على أن يكون صاحب البريد والقضاة والديوان معينين من قبل السطان ، كما ألمحوا في رسالتهم أن من حق سباشي أن يرابط في هراة أو نيسابور ، لكن اذا ماقصدهم فهم مضطرون الى الدفاع عن أنفسهم (٥) . وقد ذكر البيهقي أن السلطان مسعودا غضب حينما عرف مضمون الرسالة وقال : "لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد في

---

(١) تاريخ البيهقي ، ص ٥٣٥ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٩ – الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٧ .

(٢) تاريخ البيهقي ، ص ٥٣٩ .

(٣) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة ، كثيرة الأنهار والبساتين . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤١٤)

(٤) تاريخ البيهقي ، ص ٥٤٤-٥٤٥ .

(٥) تاريخ البيهقي ، ص ٥٤٥ .

تعديهم وتحكمهم فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالمكر وزخرف القول من ناحية أخرى ..." (١) . ويشير أيضا الى أن الوزير كان من وجهة نظره أن يجاب السلاجقة اجابة تجمع بين الشدة واللين حفظا للمجاملة ، وأن يذهب الوزير بعد ذلك الى هراة ويكون السلطان قريبا من سباشي أو الوزير ، فاذا مادعت الضرورة سار اليهم السلطان مددا وبهذه الطريقة يستطيعون القضاء عليهم صلحا أو حربا (٢) . فأبدى السلطان موافقته على هذا الرأى ومن ثم جرت المفاوضات بين الوزير ورسولى السلاجقة ، وبعد الاتفاق فيما بينهم زودا بالخلع وعادا الى خراسان فى محرم سنة ٤٢٨هـ/اكتوبر ١٠٣٦م (٣) .

ومع أن البيهقى لم يذكر لنا على أى شىء تم الاتفاق بينهم الا أن مجرى الحوادث فيما بعد يدلنا على أن هذا الاتفاق كان مجرد حبر على ورق ، اذ شعر السلاجقة أن فى الأمر نية سيئة ضدهم ، ولذلك كان تحركهم سريعا نحو مرو واستولوا عليها (٤) ، ثم ساروا الى مدينة تون (٥) ونهبوها وكذلك فارياب (٦) والطالقان (٧) . وفى المقابل فان سباشى كان قد وصل الى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٥٤٥ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥٤٥ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٥٤٥ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٧٩ .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٥٦٠،٥٨١ .
وتون : مدينة من ناحية قسهتان (معجم البلدان، مجلد ٢ ص ٦٢) ، وهى على بعد نيف وخمسين ميلا من غربى كاين الى شمالها قليلا (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٩٣) .
(٦) فارياب : مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جورجان قرب بلخ غربى جيحون (معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٢٢٩) ، ويظن لسترنج أنها مدينة خير أباد (بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٦٧) .
(٧) طالقان : بلدتان احداهما بين مرو الروذ وبلخ بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل ، ولعلها هى المقصودة فى النص لقربها من فارياب ومرو الروذ ، أما طالقان الأخرى فهى كورة بين قزوين وابهر (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٧) .

نيسابور واتخذها قاعدة للانطلاق منها نحو السلاجقة ، وقد أدرك القائد الغزنوى أن جغرى بك داود وطغرلبك وبيغو هدفوا من تقدمهم نحو مرو والمناطق التى ذكرناها الى تشتيت جهوده العسكرية وارهاق جنده ، من خلال ملاحقته لهم فى مناطق متفرقة ولذلك اكتفى بارسال السرايا الصغيرة لتقوم بمهمة المطاردة واحتفظ بالجزء الأكبر من الجيش معه فى نيسابور الى أن تحين الفرصة المناسبة للانقضاض على أعدائه السلاجقة (١) وكان يمكن أن تحقق خطته هذه هدفها لولا صدور أوامر مشددة من السلطان مسعود الى سباشى بضرورة حسم الموقف مع السلاجقة (٢) ولم يجد القائد الغزنوى بدا من تنفيذ الأمر الصادر اليه فغادر نيسابور فى رجب سنة ٤٢٩هـ/ابريل ١٠٣٨م نحو مرو التى غادرها جغرى بك داود فى شعبان من نفس السنة منهزما أمامه فتبعه أمير جوزجان واشتبك داود معه وتمكن من قتل أمير جوزجان وهزيمة العسكر الذى معه (٣) ، ويذكر البيهقى أن السلاجقة لم يثبتوا أمام الجند الغزنوى فى سرخس ومرو فغادروها الى نسا وفراوة ، وأن سباشى قد سيطر على مرو وأبقى جنده خارج هذه المدينة ، وأن السلاجقة قد أعدوا قوة

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٤٨٣-٤٨٤ .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٥٨٦ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٠ ـ ويجعلها ابن الأثير ، والحسينى (فى أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٨-٣٩) فى حوادث سنة ٤٢٩هـ ، بينما يذكر الكرديزى فى (زين الأخبار ، ص ١١٨-١١٩) لإن السلطان مسعود توجه الى بلخ فى أواخر سنة ٤٢٨هـ ومنها الى مرو ، وأن السلاجقة أرسلوا اليه يطلبون منه الصفح وأنهم عبيد مطيعون ، وأنهم عقدوا معاهدة معه على السمع والطاعة ، وقد اختلط الأمر على الكرديزى فى سياقه لهذه الحوادث ، اذ أن مجىء السلطان مسعود الى بلخ كان أواخر سنة ٤٢٩هـ وأوائل سنة ٤٣٠هـ كما سيأتى معنا .

دفعوا بها باتجاه سرخس للمقاومة حتى اذا ماهزمت هذه القوة يهرب الآخرون الى الرى وتلك النواحى لخلوها من التحصينات القوية (١). وأما ابن الأثير فيذكر أن سباشى أقام بظاهر سرخس وكان طغرلبك ينتظر وصوله عند مرو فلما علم طغرلبك بنزول الجند الغزنوى بظاهر سرخس أسرع اليه طغرلبك ولم يتح لأتباعه أخذ الراحة بل باشر القتال فور وصوله مما أوقع الارتباك فى المعسكر الغزنوى من أثر المفاجأة التى فاجأهم بها السلاجقة . ولم يستطع الجند الغزنوى الثبات فى المعركة طويلا فانهزموا شر هزيمة وولوا مدبرين وعلى رأسهم سباشى (٢). ويضيف البيهقى أن القتال كان عنيفا ، استمر من الصباح حتى صلاة العصر ، وكاد النصر يتم للغزنويين لولا الوهن الذى أصاب الجند ففروا من الميدان تاركين كل شىء وراءهم من الأموال العظيمة غنيمة للسلاجقة (٣).

وكان ذلك انتصارا ساحقا لهم على الدولة الغزنوية وله نتائج مهمة بالنسبة اليهم اذ أدرك الاخوة أن التفوق العسكرى فى خراسان أصبح لصالحهم ، ويجب أن يستغلوه أمثل استغلال ، وبدلا من التفكير فى أماكن للرعى فى المناطق النائية أصبحوا ينظرون الى أنفسهم ولاة أقاليم لايقلون شأنا وخطرا عن غيرهم . وقد أصاب ابن الأثير الحقيقة حينما علق على نتائج هذه المعركة بقوله : ".. فكانت هذه الوقعة هى التى ملك السلجوقية بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد .." (٤).

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٥٦٦ .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ ، وفى ص ٤٨٠-٤٨١ ، يذكر ابن الأثير أن جغرى بك داود قاد المعركة الفاصلة مع سباشى وأرجع حوادثها الى شعبان سنة ٤٢٨هـ - وانظر أيضا : الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٣٨-٣٩

(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٥٩١-٥٩٢ .

(٤) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٠-٤٨١ .

ولم يضيع الاخوة الوقت فقد أخذوا فى الانتشار اذ عاد جغرى بك داود الى مرو فدخلها وخطب له فيها فى شعبان سنة ٤٢٩هـ/مايو ١٠٣٨م (١)، أما طغرلبك فقد وجه أخاه لأمه ابراهيم ينال (٢) على رأس مائتين من أتباعه الى نيسابور لفتحها (٣)، ويبدو أنها كانت تفتقر الى القوة التى تحميها ، وهو ماأدركه ابراهيم ينال حينما أرسل الى أعيان المدينة يطلب منهم التسليم (٤). واجتمع الأعيان عند القاضى صاعد أحد رجالاتها المشهورين ، واستقر الرأى فى هذا الاجتماع على ضرورة التسليم مقابل التعهد لهم بعدم نهب المدينة وهو ماحصلوا عليه من ابراهيم ينال (٥). وعلى اثر ذلك دخل ابراهيم ينال القائد السلجوقى نيسابور ، وبعده بثلاثة أيام قدم طغرلبك اليها وكان فى استقباله أعيانها عدا القاضى صاعد .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٠ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٤٠ ، ويجعلون حوادثها سنة ٤٢٨هـ ، وابن الأثير يذكر فى الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ أنها وقعت فى سنة ٤٢٩هـ وهو مايوافق ماذكره البيهقى فى تاريخه وهو التاريخ الصحيح .

(٢) ابراهيم ينال : أخو طغرلبك لأمه وينال لقب له وليس اسما له ويعنى ولى العهد حسب ماذكره سهيل زكار فى كتابه مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٧ ، بينما جاء فى كتاب تاريخ بخارى لفامبرى ، ص ١٢٨ ، حاشية رقم ١ ، أن السلاجقة يعرفون رئيسهم باسم بيغو وقائد الجيش سوباشى ونبلائهم باسم اينال .

(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠١ - ويذكر ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ - أن طغرلبك وجه أخاه جغرى بك داود ، وأنه هو الذى دخل نيسابور بدلا من ابراهيم ينال .

(٤) القاضى صاعد : هو أبو العلاء صاعد بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، ولد فى احدى نواحى نيسابور سنة ٣٤٣هـ ، وأخذ العلم عن أبيه وعلماء عصره فى خراسان ، رحل الى بغداد حاجا سنة ٣٧٥هـ ، كما وصل الى بلاد ماوراء النهر وسمع من علمائها ، توفى سنة ٤٣١هـ .
انظر ترجمته فى : (عبد الغافر الفارسى ، المنتخب من السياق ، انتخاب الحافظ أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الصريفينى ، أعده محمد كاظم المحمودى ، قم ١٤٠٣هـ/١٣٦٢هـ ش ، ص ٤٠٠-٤٠١) .

(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٢ .

وكان دخوله نيسابور فى رمضان سنة ٤٢٩هـ/يونيه ١٠٣٨م واتخذ من قصر السلطان مسعود مقرا له ، وجلس على سريره وخطب له فيها بالسلطان المعظم (١) . وقد عمل طغرلبك منذ اللحظة التى دخل فيها نيسابور على الاجتماع مع أعيانها ومحاولة كسب ودهم وولائهم ، وأظهر أمام القاضى صاعد الاحترام الزائد له وقبول نصائحه التى أسداها له ومن بينها "... واعدل بين الناس واستمع للمظلومين والمساكين ولاتترك هذا الجيش يظلم الناس فان الظلم شؤم ، ولقد اديت حقك بهذه الزيارة ، ولن آتى بعدها فاننى مشتغل بالقراءة ولاأعدل عن العلم شيئا ..." (٢) . وهدف طغرلبك من ذلك ازالة مارسخ فى أذهان الناس عن قومه من أعمال السلب والنهب . وفى معرض اجابته للقاضى صاعد يتضح لنا ذلك حينما قال : "... اننا قوم جدد غرباء ولادراية لنا بشريعة العرب ، فلايبخلن القاضى بنصائحه على ..." (٣) .

وقد وقف طغرلبك عند وعده فيما يتعلق بنهب المدينة ، وذلك عندما قدم عليه أخوه جغرى بك داود وطالبه بالسماح له بنهب المدينة فرفض طغرلبك واحتج بأنهم فى شهر رمضان ولايجوز القيام فيه بمثل هذه الأعمال وأرجأها الى حين انقضائه (٤) . وفى أثناء الشهر وردت عليه رسالة من الخليفة القائم بأمر الله ينهاه فيها عن أعمال التخريب والنهب الذى أحدثوه فى البلاد (٥) .

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٣-٦٠٤ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٩ - البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٩.
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٤ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٤ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ - البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٩ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ - البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٩ .

فلما كان يوم عيد الفطر عاد جغرى بك داود الى طغرلبك طالبا منه السماح بنهب المدينة فرفض ذلك طغرلبك رفضا مطلقا ، واحتج أنه بعد وصول رسالة الخليفة اليهم فلاسبيل الى ذلك . واحتدم النقاش بينهما عندها قال طغرلبك : "والله لئن نهبت شيئا لأقتلن نفسي ..." (١) . وانتهى الأمر بينهما على تقسيط مبلغ ثلاثين ألف دينار على أهل نيسابور يدفعونها الى السلاجقة (٢) .

وبعد أن استقرت الأمور باشر طغرلبك مهامه كحاكم على أشهر مدينة فى خراسان وأعظمها مكانة سياسية وعلمية ، وخصص يومين فى الأسبوع للنظر فى المظالم ، ووجه أخاه جغرى بك داود لفتح بعض المدن وأهمها سرخس التى استولى عليها . ويذكر ابن الأثير أنه بسط سلطته على سائر بلاد خراسان عدا بلخ (٣) ، ولذلك فليس غريبا أن يرى بعض المورخين المحدثين أن عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م يعد العام الحقيقى لقيام دولة السلاجقة حتى وان لم يكونوا قد حصلوا على اعتراف الخليفة بهم ، لأن الاعتراف كان شكليا نظرا لضعف الخلافة وعدم قدرتها على التدخل فى توجيه سير الأحداث (٤) . وفى رأيى أن قيام دولة السلاجقة لايبدأ سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م وهو تاريخ استيلائهم على

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ – وفى تاريخ دولة آل سلجوق للبندارى ، ص ٩ أن داود هو الذى أخرج السكين وهدد بطعن نفسه ان لم يستجب له طغرلبك .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ – البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٩ ، وفيه أربعين ألف دينار بدلا من ثلاثين ألف دينار .

(٣) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٩ – وانظر البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٩ .

(٤) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٣٦ ، دولة السلاجقة ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٢٨ – وانظر محمد محمود ادريس ، تاريخ العراق والمشرق خلال العصر السلجوقى الأول ، ص ٨٤ .

نيسابور وماتلاه من استيلائهم على معظم مدن خراسان ، وانما يؤرخ قيامها الحقيقى سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م أى سنة انتصارهم الحاسم فى موقعة دنداقان الذى سياتى بيانه . صحيح أن اعتراف الخلافة بهم كان شكليا لكنه فى الواقع كان سلاحا فعالا ، ويعنى الحصول عليه اسقاط حق الدولة الغزنوية فى حكم هذه المنطقة وانتقال هذا الحق الشرعى الى السلاجقة . وكما ذكرنا من قبل كانت رسالة الخليفة الى طغرلبك مجرد نهى عن التخريب والدمار الذى ألحقوه بخراسان وساوى فى ذلك بينهم وبين التركمان الآخرين فى الرى (١) . هذا بالاضافة الى أن السلطان مسعود لم يسلم بضياع خراسان وسيطرة السلاجقة عليها وستكون له مواقفه فى هذا الصدد كما سنوضح فيما بعد .

وأخيرا فان ابن الأثير يؤيد رأينا فيذكر أن الاخوة كانوا يقيمون الخطبة باسم السلطان مسعود وان كان ذلك على سبيل المغالطة (٢) ، وهذا يعنى اعترافهم ولو شكليا بتبعيتهم حتى ذلك التاريخ للسلطان مسعود الغزنوى .

موقف السلطان مسعود من استيلاء السلاجقة على خراسان :

لم تكن خسارة السلطان مسعود فيما حدث فقط فى خراسان على يد السلاجقة ، فقد استطاع تركمان العراق ـ اتباع أرسلان ابن سلجوق ـ الاستيلاء على الرى فى رجب ٤٢٩هـ/ابريل ١٠٣٨م ، وقتل القائد الغزنوى تاش فراش واجلاء البقية من جنوده عن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٨ .
(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٥٩ .

هذه المدينة (١) . وخوارزم خلعت الطاعة بعد أن تمكن اسماعيل ابن التوناشي من قتل ابن الوزير أحمد بن عبد الصمد والتخلص نهائيا من النفوذ الغزنوى منذ سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م (٢) . وهذا يعنى أن الدولة الغزنوية فقدت جناحها الشمالى الغربى بأكمله من حدود هراة الى خوارزم عدا بلخ ، ولذا كان على السلطان مسعود أن يتخذ من الاجراءات مايمكنه من استعادة مافقد منه ، وتأتى فى طليعتها خراسان لأن خطر الاخوة السلاجقة لايزال من أقوى هذه الأخطار التى تهدده .

ويبدو مما ذكره البيهقى (٣) أن السلطان مسعود قبل هزيمة الحاجب سباشى على أبواب سرخس كان مستهينا بهم وانهم كانوا فى نظره ونظر بعض خواصه مجرد بدو خدمتهم الظروف فى هزيمة بكتغدى وانه من السهل اخراجهم من خراسان والرى وطردهم منها ، ولذلك كانت خطته أن يكون الهجوم شاملا فى خراسان والرى وفى وقت متقارب ، وعندما فشلت خطته نتيجة هزيمة أكبر قائدين له ، أدرك الوضع على حقيقته ، وأصبح السلطان يثور فى وجه كل من ينتقص من شأن السلاجقة أو يقلل من أهميتهم (٤) ، وبدا من ذلك الوقت يشعر بفداحة الخسارة التى لقيها ومدى تفريطه فى أمرهم وانصرافه عنهم الى الهند تارة ولهوه فى غزنة تارة أخرى حتى بلغ الأمر مابلغ (٥) .

اذا كان على السلطان مسعود أن يتدارك الموقف ، وفى سبيل ذلك اتخذ عدة خطوات منها انه استقبل قائده سباشى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٥٨١-٥٨٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٩-٣٨٠ (وذكر ابن الأثير ، أن الاستيلاء على الرى تم سنة ٤٢٧هـ) .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٧٥٤ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٥٩٤ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٥٩٤ .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٥٩٤ .

والجند المنهزمين الذين معه أحسن استقبال حتى يستفيد منهم وهم فى معنويات عالية لجولته المقبلة مع السلاجقة ، وثانيا قام بمراسلة أعيان نيسابور سرا يخبرهم بعزمه قريبا الزحف لاجلاء السلاجقة من خراسان ، وحتى لايترك لأعدائه فرصة استمالة قلوب الناس فى هذه المدينة كما يذكر البيهقى (١). ومن جانب آخر أمر السلطان مسعود وزيره أحمد بن عبد الصمد المتواجد آنذاك فى بلخ باعداد المؤن اللازمة التى تكفى احتياجات الجيش اذا ماوصل اليها (٢).

وبعد أن كملت استعداداته غادر غزنة فى الرابع من محرم سنة ٤٣٠هـ/٦أكتوبر١٠٣٨م فى جيش بلغ تعداده خمسين ألف فارس وراجل نحو بلخ التى وصلها فى ١٤ صفر من نفس السنة (٣)، وهنا أخذت حملة السلطان مسعود تاخذ مسارا آخر الى ماوراء النهر (٤) لتأديب أحد الأمراء فى هذه المنطقة ويدعى بورتكين الذى سبق له الاغارة على حدود الدولة الغزنوية (٥). وقد نصح الوزير أحمد بن عبد الصمد سلطانه بعدم القيام بمثل هذه الحملة فى وقت الشتاء ، واذا كان مصرا على تاديب ذلك

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٥،٥٩٣ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٦ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦١٥ – كرديزى ، زين الأخبار ، ص١١٨ ويجعل رحيل السلطان مسعود سنة ٤٢٨هـ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨١ – الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٤٣ (ويقدر ابن الأثير والحسينى عدد الجيش المصاحب للسلطان مسعود مائة ألف سوى الأتباع ، كما يجعلان مغادرة السلطان مسعود لغزنة فى رمضان سنة ٤٢٩هـ) .
(٤) بورتكين : عرفه بارتولد فى كتابه تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٤٤٥ بانه أبو اسحاق ابراهيم بن الايلك الأول نصر ، وأن بورتكين لقب كان يتلقب به فى الفترة التى نتحدث عنها فى المتن ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٦٠٨ – كرديزى ، زين الأخبار ، ص ١١٨ .

الأمير فالأجدى تكليف والي صغانيان (١) وأبناء على تكين للقيام بمثل هذه المهمة (٢) ، الا أن السلطان مسعود أصر على قيادة الجيش بنفسه والتوجه الى ماوراء النهر .

ويبدو أن اصرار السلطان على القيام بمثل هذه العملية كان يهدف الى تحقيق غرضين :

أولهما : ارهاب أمراء هذه المنطقة وردعهم عن التعاون مع السلاجقة ، اذ أن امدادات المال والرجال للسلاجقة كانت تأتي من هذه المنطقة .

وثانيهما : هي عزل السلاجقة وقطع طريق هذه الامدادات عنهم ليسهل القضاء عليهم . وقد تنبه جغري بك داود بن ميكائيل لخطته هذه ، ولذلك ما أن اجتاز السلطان مسعود نهر جيحون متوجها نحو خصمه بورتكين حتى بادر جغري بك داود بالوصول الى جوزجان هادفا الوصول الى ترمذ (٣) لقطع الجسر عليه وقطع خط العودة ليكون السلطان في وضع حرج . هذا بالاضافة الى الجو القارس الشديد البرودة الذي يعاني منه الجيش الغزنوي (٤) . وقد عجل الوزير أحمد بن عبد الصمد بتنبيه السلطان للخطر المحدق به مما أجبر السلطان على العودة سريعا الى ترمذ التي وصلها في ٢٦ ربيع الثاني سنة ٤٣٠هـ/ (٥)

---

(١) صغانيان : ولاية عظيمة بما وراء النهر ، متصلة الأعمال بترمذ ، مشارب أهلها من أنهار تمد الى جيحون (ياقوت معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٤٠٩) .

(٢) بارتولد ، تركستان ، ص ٤٤٦ .

(٣) ترمذ : مدينة مشهورة من أمهات المدن ، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٦) ،وهي الآن في جمهورية أوزبكستان الخاضعة للاتحاد السوفييتي (محمد على البار ، المسلمون في الاتحاد السوفييتي عبر التاريخ ، ج١ ، ص ٣٦٠) .

(٤) بارتولد ، تركستان ، ص ٤٤٦ .

(٥) تاريخ البيهقي ، ص ٦٢٠ - أما الكرديزي في زين الأخبار ص ١١٨ ، فينسب رجوع السلطان الى بلخ بسبب الضغط الذي فرضه داود على بلخ .

٢٣ ديسمبر ١٠٣٨م ومنها الى بلخ دون أن يحقق الهدف من الحملة ، وبعد أن حقق جغرى بك داود غرضه بارغام السلطان مسعود على العودة الى خراسان توجه الى أخيه طغرلبك فى نيسابور وتزود منه بالمال ، حيث ذكر البيهقى انه منحه خمسمائة ألف درهم[(١)] ، وربما أيضا تزود بالرجال ، وبعد أن حصل على مايريد غادر نيسابور وعرج فى طريقه على جوزجان ، ثم على طالقان وفارياب ونهبها[(٢)] . ومن الملاحظ أن الجيش الغزنوى لم يحرك ساكنا ازاء هذه التحركات بل اننا نجد أن جغرى بك داود كان أكثر حركة ونشاطا تحديا للقوات الغزنوية . ففى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الثانى سنة ٤٣٠هـ/١٠ فبراير ١٠٣٩م دخل الى بلخ عشرة من رجاله واستطاعوا سرقة أحد أفيال السلطان واستاقوه مع سائسه معهم الى أن وصلوا الى جغرى بك داود فى شبورقان[(٣)] سالمين ، كما أن أحد قادة جغرى بك داود ويدعى آلتى التركمانى نهب قرية من قرى بلخ فى العشرين من نفس الشهر ، فتصدت له قوات مسعود وهزمته[(٤)] .

وفى وادى عليا باد[(٥)] كان جغرى بك داود قد عبأ قواته فى رجب سنة ٤٣٠هـ/مارس ١٠٣٩م[(٦)] استعدادا للزحف على بلخ ،وقد سمع السلطان مسعود بهذه الاستعدادات ، فقرر أن يبادر بالهجوم

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٠ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٠-٦٢١ .
(٣) شبورقان : من مدن الجوزجان قرب بلخ بينهما ثلاث مراحل (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٢٣) .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢١-٦٢٢ .
(٥) عليا باد : فى معجم البلدان (مجلد ٤ ، ص ١٤٨) علياباذ ومعناها عمارة على ، وهى عدة قرى بنواحى الرى منها واحدة تحت قلعة طبرك ، والباقى متفرق فى نواحيها .
(٦) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٢ .

على خصمه قبل أن يحاصره داخل هذه المدينة ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة خاض غمارها جغرى بك داود ببسالة وشجاعة أثارت اعجاب خصومه (١) .

لكن تدخل السلطان بقوة اضافية أثناء المعركة رجحت كفة الجانب الغزنوى فانسحب جغرى بك داود من ساحة القتال مخلفا عددا من القتلى والأسرى (٢) .

وحسب أقوال الأسرى ، فان جغرى بك داود قد خالف التعليمات الصادرة اليه من أخيه طغرلبك اذ كلفه الأخير بالاكتفاء بمراقبة تحركات السلطان مسعود ورصدها ، ولم يكن مأمورا بالقتال (٣) . وعلى كل فقد رفعت نتيجة هذه المعركة معنويات الجيش الغزنوى فقرر بعدها السلطان مسعود أن يغادر بلخ فى شعبان سنة ٤٣٠هـ/مايو ١٠٣٩م الى سرخس بعد أن وصلته الامدادات من غزنة (٤) .

معركة سرخس فى شوال سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م :

كان جغرى بك داود قد سبق السلطان مسعود الى سرخس ولم يضيع الاخوة وقتا فقرروا أن يجتمعوا سويا لمواجهة السلطان مسعود ، فغادر طغرلبك نيسابور وبيغو مرو وفى لقائهم مع أخيهم جغرى بك داود طرحت مجموعة من الآراء بشأن المواجهة أو عدمها مع الجيش الغزنوى وكان من ضمن هذه الآراء أن يخرجوا من خراسان الى ثغور الروم لقلة من بها من

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٢ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٢-٦٢٣ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٣ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٤ .

المقاتلين ، ولكن جغرى بك داود كان له رأى ملخصه : انهم اذا توجهوا الى أى جهة فان السلطان لن يتركهم وشأنهم بل سيحرض عليهم أمراء الأطراف ، وكان الرأى عنده هو مواجهة الجيش الغزنوى ، لأن هذا الجيش ثقيل فى تحركاته بسبب الأحمال الثقيلة التى معه ، أما هم فخفاف لامتاع لهم وبسبب هذه الميزة كان انتصارهم فيما مضى على بكتغدى وسباشى ، وقد وافقه بقية اخوته على رأيه هذا (١).

واتبع الاخوة خطة محكمة تجاه السلطان مسعود اذ خرجوا من سرخس الى الصحراء لاعاقته وعدم تمكينه من بلوغ سرخس أو الرجوع من حيث اتى . وقد ذكر البيهقى أن عدد جيش السلاجقة بلغ عشرين الف مقاتل (٢)، وفى منتصف رمضان سنة ٤٣٠هـ/١٢ مايو ١٠٣٩م كان السلطان قد بلغ المنطقة التى تمركزوا فيها ، ودارت عدة معارك بين الطرفين تبادلوا فيها النصر والهزيمة ، ولم يخض السلطان مسعود هذه المعارك التى دارت بين جنده والسلاجقة بحجة انه لايريد أن يريق دما فى شهر رمضان المبارك (٣). وفى مطلع شوال كان قد استعد لخوض معركة فاصلة معهم ، ودار بينه وبين السلاجقة قتال عنيف انتهى لصالح السلطان مسعود وفرار الاخوة جغرى بك داود وطغرلبك وبيغو من ساحة القتال الى الصحراء (٤).

وبدلا من أن يستثمر السلطان مسعود هذا النصر ويتابع السلاجقة فى الصحراء تقاعس عن متابعتهم ، مكتفيا بارسال قوة صغيرة لم تستطع التوغل فى الصحراء خلفهم ، وعادت الى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٤-٦٢٥ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٤ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٧ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٢٨-٦٣١ .

السلطان مسعود لتخبره بخلو المنطقة منهم (١). وكان التصور السائد عند الجند الغزنوى أن السلاجقة لن يعودوا للقتال ثانية ، ولن يستطيعوا مواجهتهم مرة أخرى (٢)، فاتخذ الجند الغزنوى اجراءات التحرك نحو سرخس فى الثالث من شوال سنة ٤٣٠هـ/٢٣ يونيه ١٠٣٩م ، وأثناء استراحتهم عند ضفة نهر هراة فوجىء الغزنويون بوجود طلائع السلاجقة تظهر أمامهم على الضفة الأخرى (٣)، وقد عادوا بعد أن جمعوا قواتهم بسبب تلكؤ السلطان مسعود وقادته فى مطاردتهم بعد هزيمتهم . ويذكر البيهقى أنهم أثناء اجتماعهم تدارسوا الموقف وأنهم قالوا : "انه ليس من الصواب مواجهة السلطان فى المصاف وأنه يجب المحافظة على تقاليدنا الحربية ... ولقد أصابتنا هذه الهزيمة ويجب أن نقلقه فيكف عنا راضيا أو كارها ..." (٤).

وكانت عودة الاخوة تقوم على فرض الحصار على الجيش الغزنوى فى مثل هذه المنطقة المكشوفة واعاقته من التقدم نحو سرخس التى لم تكن بعيدة عنهم (٥)، ومنع وصول الامدادات الغذائية أو الحربية الى الجيش الغزنوى المحاصر . ومن الغريب أن الجيش الغزنوى بضخامة عدده لم يستطع اختراق هذا

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٣٢ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٣٣ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٣٣ ، لم يحدد البيهقى اسم النهر الذى استراح عنده الغزنويون وفاجأهم السلاجقة بالقرب منه ، وبالرجوع الى أطلس تاريخ الاسلام لحسين مؤنس ، خارطة رقم ١١١ ، ص ٢١٨ اتضح لى أن هذا النهر هو نهر هراة . وعند لسترنج من كتابه بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٣٧-٤٣٨ ، أن نهر هراة انشعب الى قسمين أحدهما متجه الى سرخس .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٣٣-٦٣٤ .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٦٣٣ .

الحصار ، ولم يتعد الأمر مجرد اشتباك متبادل بين طلائع الفريقين . ويذكر البيهقي أن السأم والملل بدآ يسريان بين الجند وتقاعسوا عن أداء المهام التي توكل اليهم ، بسبب نقص المواد الغذائية للجند والدواب ، وبات موقف السلطان مسعود حرجا ، وهذا يشير الى فاعلية الخطة التي سار عليها السلاجقة ونجاحها في ارغام السلطان مسعود على البحث عن مخرج مشرف للموقف الذي هو فيه (١) . ويضيف البيهقي أن الوزير أحمد بن عبد الصمد هو الذي أقنع السلطان مسعود بطلب الصلح مع الاخوة السلاجقة مع اشعارهم أن هذا الأمر تم دون معرفة السلطان مسعود (٢) .

وحسب ماذكره البيهقي فان الاخوة استقبلوا رسول الغزنويين أحسن استقبال ، وتحت لهجة الوعد والوعيد ، وافق السلاجقة على قبول الصلح ، وانتهت المفاوضات بينهم على أن يخلي الاخوة السلاجقة مدن نيسابور ومرو وسرخس وأن يعودوا الى نسا وباورد وفراوة بتوابعها ، واذا ماوصل السلطان الى هراة يوفدون رسلهم اليها "لتأدية فروض الطاعة للسلطان" وكتابة العهود والمواثيق (٣) .

لكن بعض المصادر الأخرى وان كانت لاتشير الى الحصار الذي فرض على السلطان مسعود قرب سرخس الا أنها تذكر أن السلطان مسعود بعث الى السلاجقة يطلب منهم الصلح ، وأن الاخوة بعثوا بأخيهم بيغو في هذه المهمة التي لم تنجح بسبب عدم ثقتهم في السلطان الغزنوي وتاريخهم معه الذي لن ينسوه (٤)

---

(١) تاريخ البيهقي ، ص ٦٣٤-٦٣٥ .
(٢) تاريخ البيهقي ، ص ٦٣٦ .
(٣) تاريخ البيهقي ، ص ٦٤١-٦٤٣ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨١ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء ، ص ٤٣ .

أما الكرديزي فيذكر أن الاخوة طغرلبك وجغرى بك داود وبيغوهم الذين بعثوا الى السلطان طالبين الصلح ، وقد استجاب السلطان لطلبهم هذا بعد أن أعطوا عهودهم على التزام الطاعة والرضى بما حدده لهم السلطان من مناطق الرعى وصادقوا على وثائق العهود التى كتبت فى هذا الشأن .(١)

ورواية البيهقى من ناحية عرضها للأحداث هى الراجحة على الروايات الأخرى لأنها أتت من شاهد عيان ، ورغم ذلك فان روايته يتطرق اليها الشك فيما يتعلق بالنتائج التى توصل اليها الطرفان ، اذ لايعقل أن يقبل طغرلبك واخوته تسليم حواضر خراسان آنذاك وهى مرو ونيسابور وسرخس تلك المدن التى شهدت اقامة الخطبة لهم لأول مرة على منابرها ، والعودة الى المناطق التى سبق للسلطان مسعود أن منحهم اياها ، ومن المؤكد أن السلاجقة لم ينصرفوا عن المعسكر الغزنوى الا بالشروط التى ترضيهم وهناك دليل على ذلك فيما ذكره البيهقى عن السلطان مسعود بعد أن نقلت اليه مضمون رسالة السلاجقة ، اذ قال : "... ولو أن هذا الذى يجرى يظهر منه عجزنا الا أنه كما يرى الوزير الكبير فيه المصلحة والوقت يقتضيه فليعمل به كما ينبغى ...".(٢)

ومع أن البيهقى لم يذكر لنا نص الرسالة أو مضمونها ، فان السلطان مسعود رضى باتمام ماطلبه السلاجقة ، ولم يكن يهدف من وراء ذلك الا العودة سالما الى هراة ليستعد لجولة جديدة معهم . وكان السلاجقة يدركون هذا الأمر وهو ماوضحوه للحاكم المطوعى رسول الغزنويين اليهم بعد ابلاغهم باتمام

---

(١) زين الأخبار ، ص ١١٩ ، ويجعل حوادثها فى سنة ٤٢٩هـ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٤٢ .

الصلح اذ قالوا له : "انا نطيع أوامر الوزير ولكن يجب أن يكونوا معنا صادقين وألا يغدر بنا غادر من أى مكان ولايمكر أحد بنا ، وذلك حتى نستقر ولانضطر الى امتشاق الحسام مرة أخرى وألا يرجعوا عما قالوا وقرروا ..." (١) .

وعلى أى حال عاد كل الى جهته ، فالسلطان مسعود كان قد وصل الى هراة فى ذى القعدة سنة ٤٣٠هـ/يوليه ١٠٣٩م ، وأخذ يطلب الامدادات العسكرية من غزنة ، وبعث عماله ومعهم براءات لاستخراج ألف ألف دينار من أهالى هراة ونواحيها ، وباذغيس (٢) وغيرها من الأماكن (٣) . ولم ينس السلطان الغزنوى الجانب السىء الذى تركته الاتفاقية مع السلاجقة على الموالين له أمثال حكام جرجان وطبرستان والرى وغيرها ، وحاول من جانبه أن يبقيهم على ولائهم له ، فبعث فى ذى الحجة من سنة ٤٣٠هـ/أغسطس ١٠٣٩م رسلا اليهم يطمئنهم فيها بأنه مايزال فى مركز قوة وأنه يعد نفسه لخوض معركة مع السلاجقة يجليهم بها عن بلاده خاصة وأنه وقف بنفسه على أسلوبهم فى الحرب ، وسيجابههم بنفس طريقتهم ، كما يطلب منهم فى الوقت نفسه القدوم اليه اذا ماوصل الى نيسابور (٤) .

أما السلاجقة ، فقد عادوا الى المدن التى يسيطرون عليها ، فطغرلبك الى نيسابور ، وجغرى بك داود الى سرخس واليناليون أتباع ابراهيم ينال الى نسا وباورد (٥) . ويذكر

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٤٣،٦٤٤ .
(٢) باذغيس : من أعمال هراة ومرو الروذ ، أصلها بالفارسية باذخيز ومعناه هبوب الريح ، وذلك لكثرة الرياح بها (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣١٨-٣١٩) .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٤٤ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٤٧-٦٤٨ .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٦٤٧ .

ابن الأثير أن مرو قد أعلنت العصيان على السلاجقة ، وقد حاصرها جغرى بك داود سبعة أشهر حتى سقطت فى يده (١). ومن ناحية أخرى توالت الامدادات من الرجال من بلاد ماوراء النهر الى السلاجقة بكثرة ، وكان ذلك ثمنا للمعونة التى قدموها الى بورتكين حتى استطاع أن يتغلب على أبناء على تكين وكاد أن يتغلب على معظم مابيدهم من البلاد (٢).

ولاشك أن مثل هذه الأنباء وصلت الى السلطان مسعود وهو فى هراة . ويذكر بعض المؤرخين أن سبب خروجه منها هو سقوط مرو بيد جغرى بك داود (٣)، وكانت قد توالت عليه الامدادات من المال والجند من العاصمة غزنة (٤)، وأصبح مطمئنا الى استعداداته فخرج من هراة فى الثامن عشر من صفر سنة ٤٣١هـ/ ٥ أكتوبر ١٠٣٩م وكانت لديه خطة مواجهة الاخوة منفردين كلا عن الآخر ، وقرر أن يبدأ بزعيمهم طغرلبك ولذلك تجنب السير نحو نيسابور وأقام معسكره فى طوس الى الشمال من نيسابور ، ومنها يتجه الى أستوا (٥) ليقطع أى اتصال لطغرلبك مع بقية السلاجقة فى نسا ، وليصبح الأخير بين خيارين ، اما البقاء داخل نيسابور أو الاتجاه نحو طريق سرخس فتصبح مسألة أسره ميسورة بيد القوات التى تركها لهذه المهمة (٦).

---

(١) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨١-٤٨٢ - وانظر الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٤٣ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٥٤ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٢ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٤٣ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٥٤ .
(٥) أستوا : كورة من نواحى نيسابور تتصل حدودها بحدود نسا ، وتشتمل على نواح وقرى جمة وهى من عيون نواحى نيسابور . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد١ ، ص ١٧٥) .
(٦) تاريخ البيهقى ، ص ٦٦٤ .

وكان هذا التخطيط من جانب السلطان مسعود سليما ، ولكن طغرلبك لم يكن بالسذاجة التى يتصورها عدوه ، اذ ما ان حط السلطان الغزنوى رحاله فى طوس حتى أدرك طغرلبك غرضه ولذلك بادر بالانسحاب من نيسابور واتجه الى أستوا قبل خصمه (١) . وقد اشتد السلطان الغزنوى فى طلبه قبل أن يلحق بجماعته ، ولكن طغرلبك كان أسرع منه وأخف حركة ، فغادرها فى الخامس من ربيع الأول سنة ٤٣١هـ/٥ نوفمبر ١٠٣٩م قبل أن يصلها السلطان مسعود بوقت قصير . وقد اشتد غضب السلطان مسعود على رجاله ولامهم على فوات مثل هذه الفرصة . وفى الحال أرسل فى طلبه قائداً يدعى تكين الديلمى على رأس خمسمائة فارس، فلم يستطع هؤلاء اللحاق به لسلوكه الطرق الوعرة والمضايق الصعبة ، وبلغ طغرلبك مأمنه بوصوله الى باورد عند اخوته واتباعه (٢) ، ولم يجد السلطان مسعود بدا من متابعتهم الى باورد لعله يجد عليهم فرصة يغتنمها ، ولكن السلاجقة خرجوا منها الى صحراء نسا وفراوة (٣) ، نقطة الضعف التى ظل يعانى منها المعسكر الغزنوى دوما بسبب ثقل متاعه وخفة حركة السلاجقة فيها ومرانهم عليها ، ولذلك لم يجرؤ السلطان مسعود على متابعتهم فيها ، فأقام فى باورد فترة ثم توجه الى نسا ومنها الى نيسابور التى وصلها فى منتصف ربيع الثانى سنة ٤٣١هـ/٦ ديسمبر ١٠٣٩م ليقضى بها فترة الشتاء ومنتظرا حلول الربيع (٤) .

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٦٥-٦٦٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٦٣ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٦٥-٦٦٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٣٦ (ويذكر أن السلطان بعث خلف طغرلبك وزيره أحمد بن عبد الصمد) .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٦٦-٦٦٧ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٦٧-٦٦٨ ـ ويذكر ابن الأثير فى الكامل ، ج٩ ، ص ٤٦٤ ، أنه دخل نيسابور فى جمادى الأولى سنة ٤٣١هـ .

وخوفا من عود السلاجقة الى نيسابور أرسل السلطان مسعود بعض قادته الى ضواحي بست (١)، وضواحي بيهق (٢) وخواف (٣) وباخرز (٤) وطوس ليصبح لديه خط دفاعي أمامي (٥). ويذكر البيهقي أن الخليفة القائم بأمر الله أرسل الى السلطان مسعود يطلب منه ألا يغادر خراسان حتى يقضي على فتنة السلاجقة ، فاذا ماتم له ذلك فليواصل سيره الى الري والجبال ، وقد أجابه السلطان مسعود بقوله : "تلقيت الأمر العالي بالسمع والطاعة وكانت عزيمتي مقصودة عليه ، وسأبذل المزيد من الجهد بعد أن تلقيت أمر الخليفة" (٦).

معركة دندانقان (٧) - رمضان سنة ٤٣١هـ/مايو ١٠٤٠م :

ويبدو أن السلاجقة كانوا قد عادوا الى باورد ونسا وسرخس بعد رحيل السلطان عنها ، وقضوا فيها فترة الشتاء ، فلما جاء الربيع خرج السلطان مسعود من نيسابور يوم السبت ليومين بقيا من شهر جمادى الثانية سنة ٤٣١هـ/١٠ مارس ١٠٤٠م ليتابع مابدأه ضد السلاجقة ، وعند مفترق طريق سرخس ونسا ونيسابور عسكر الجيش الغزنوي (٨)، وفي نفس الوقت تقدم اليه السلاجقة من سرخس بطلائعهم ، وقد ذكر البيهقي أنه حدثت

---

(١) بست : مدينة بين سجستان وغزنة وهراة ، كثيرة الأنهار والبساتين ، وهي من البلاد الحارة المزاج (معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤١٤) .
(٢) بيهق : من نواحي نيسابور ، بينها وبين قومس ستون فرسخا (معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٥٣٧) .
(٣) خواف : قصبة كبيرة من أعمال نيسابور . (معجم البلدان مجلد ٢ ، ص ٣٥٥) .
(٤) باخرز : بين نيسابور وهراة ، كورة ذات قرى كبيرة ، قصبتها مالين (معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣١٦) .
(٥) تاريخ البيهقي ، ص ٦٦٩ .
(٦) تاريخ البيهقي ، ص ٦٧٢-٦٧٣ .
(٧) دندانقان : بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها في الرمل وهي بين سرخس ومرو (معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤٧٧) .
(٨) تاريخ البيهقي ، ص ٦٧٤ .

معركة بين العسكرين (١) ، وكانت نتيجتها لصالح السلاجقة فيما يبدو ، لأن البيهقى لم يذكر لنا نتيجتها ، وانما استطرد فى ذكر المشاق التى كان يعانيها الغزنويون من نقص المؤن للجند والعلف للدواب بسبب القحط العام الذى أصاب خراسان (٢) .

وفى رايى ان الذى ذكره البيهقى قد يكون احد الأسباب التى يعانى منها الغزنويون ، أما السبب الرئيسى فى ذلك هو الحصار الذى ضربه السلاجقة حول أعدائهم ، وهو نفس الأسلوب الذى اتبعوه فى صحراء سرخس السنة الماضية ٤٣٠هـ/١٠٣٩م ، وأصبح من المتعذر وصول أى امدادات لهم من نيسابور أوهراة أو غيرها . صحيح أن البيهقى ذكر أن هذه الأزمة كانت موجودة منذ اقامة السلطان فى نيسابور ، وهو حينما تحدث عنها فى نيسابور ، كان الوقت شتاء ، ومن الصعب ايجاد الأقوات لجيش ضخم فى مثل هذا الطقس الشديد البرودة ، أما وأن الوقت ربيع حينا خرج السلطان مسعود فان الأمر يختلف . وابن الأثير يوضح لنا ماغاب عن البيهقى ، اذ يذكر أن جغرى بك داود (كان فى معظم السلجوقية بازائه (السلطان مسعود) وغيره من عشيرته مقابل ساقة عساكره يتخطفون من تخلف منهم) (٣) . وهناك دليل آخر يوضح ماذهبنا اليه ، اذ يذكر البيهقى أن السلطان مسعود خرج من نيسابور أواخر جمادى الثانية ، ولم يبلغ سرخس الا فى أواخر شعبان من نفس السنة وهى فترة استغرقت حوالى الشهرين ، أى انها استغرقت نفس الفترة تقريبا التى قطع بها الجيش الغزنوى المسافة بين هراة وطوس ونسا وباورد

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٤ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٤-٦٧٥ .
(٣) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٢ .

وكان دخول السلطان نيسابور (فيما بين ١٨ صفر ومنتصف ربيع الثانى) ، فلو كان الطريق الى سرخس ميسرا لما استغرق الوصول اليها كل هذه المدة ، وهذا يؤكد ماذكرناه ، من أن السلاجقة كان لهم دور كبير فى قطع الامدادات عن الجيش الغزنوى والحاق الهزائم بطلائعه التى لم تستطع اختراق الطوق الذى فرضوه الا بصعوبة حين وصولهم الى سرخس .

ومن المرجح أن هروب طغرلبك أمام السلطان مسعود عندما تبعه الى أستوا ثم هروبه مع اخوته الى باورد هو الذى دفع السلطان مسعود الى الخروج بكامل جيشه دفعة واحدة من نيسابور دون أن يمهد لذلك بارسال فرقة من جيشه لفتح الطريق أمامه حتى يصل الى المكان الذى يرى أنه أصلح له ولجيشه ، وربما كان يتصور أن ماحدث من السلاجقة من قبل سوف يتكرر معه مرة أخرى ، وهو خطأ استفاد منه السلاجقة واستغلوه أمثل استغلال فى ارهاق خصمهم وتجويع جيشه الذى نفقت كثير من دوابه قبل أن يصل الى سرخس فى أواخر شعبان سنة ٤٣١هـ/أوائل مايو ١٠٤٠م ، ومما زاد الأمر سوءا أن الغزنويين وجدوا هذه المدينة قد ضربها الجدب لدرجة أن كثيرا من سكانها قد هجروها "وكأنما الوديان والجبال قد أحرقت وليس فيها عود من الحشائش" (١) .

وقد طلب السلطان المشورة من رجاله والخطوات اللازمة لتدبير أمر الجيش ، وأجمع رأى هؤلاء على العودة الى هراة ومنها يعودون الى أعدائهم بعد أن يأخذ العسكر راحتهم ومعهم المؤن اللازمة لهم ، لكن السلطان مسعود رفض هذا

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٥ .

الرأى رفضا قاطعا اذ يبدو أنه رأى فيه هزيمة له وأصر على التوجه نحو مرو لانهاء الحرب مع السلاجقة لأنه "لايستطيع أن يأتى كل يوم للحرب" (١) .

وجرت محاولات من كبار رجاله لاثنائه عن رأيه هذا الا أن السلطان مسعود كان قد اتخذ قراره النهائى وهدد كل من يعاود البحث معه فى هذا الأمر . وقد أثار هذا الموقف حفيظة هؤلاء الرجال ، وشاركهم فى ذلك كبار القادة العسكريين ، وأدى ذلك الى فقد الثقة فيما بينهم وبين سلطانهم (٢) . وأمام تصميم السلطان مسعود على التوجه نحو مرو انصاع الجميع لأمره وخرجوا منها يوم الجمعة ثانى أيام رمضان سنة ٤٣١هـ/ ١٨ مايو ١٠٤٠م ، ويصف لنا البيهقى حالة العسكر فى رحيلهم بقوله : "فسار الجند وراءه متخاذلين كأنهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، وكان اليوم شديد القيظ والمؤن قليلة والعلف لاوجود له ، والدواب هزيلة والناس صيام" (٣) .

وزيادة على هذا كان السلاجقة لهم بالمرصاد يتخطفون نعم هذا الجيش البائس ويدخلون معه فى معارك جانبية ليلحقوا به قدر مايستطيعون من خسائر (٤) . أما السلطان مسعود وكبار رجاله فكانوا يصابرون أنفسهم الى حين بلوغهم مرو ليجدوا فيها الراحة ومايكفيهم من الغذاء ، وأصبحوا أكثر حرصا فيما بقى لهم من مسافة اليها (٥) .

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٦ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٧ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٠ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨١ .
(٥) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٢ .

وقد شعر السلاجقة بالخطر عند قرب الغزنويين من مرو ، ولذلك عقدوا اجتماعا عاما حضره الاخوة وأعيان قومهم ، وتدارسوا أمرهم ، وكان رأى طغرلبك فى ذلك الاجتماع الانسحاب أمام السلطان ومغادرة بلاده والتوجه نحو جرجان أو الرى وأصفهان . وقد عارضه أخوه جغرى بك داود فى رأيه هذا ومن ضمن ماقاله : "... لامفر من المقاومة حتى الرمق الأخير ، فان قهرناه صارت الدنيا لنا ، وان غلبنا فلن يفوتنا هذا الفرار ..." (١) . فاستحسن الجميع رأيه ووافقوه عليه (٢) .

ووضح من هذا الاجتماع أن الاخوة السلاجقة قد قرروا الدخول فى معركة حاسمة مع الغزنويين ، ولذلك استعرضوا جيشهم ، واستبعدوا منه صغار السن من المقاتلة ، وبقى لديهم بعد ذلك ستة عشر ألف مقاتل ، وجعلوا لهم طلائع بقيادة الينالين (اتباع ابراهيم ينال) وبورتكين (٣) . كما يبدو أن الاخوة طغرلبك وجغرى بك داود وبيغو تقدموا ببقيتهم الى حصن دندانقان ، واختاروا مكانا للمعركة النهائية ، وقد طمروا آبار هذا الموقع حتى لايستفيد الغزنويون منها (٤) ، ويكونوا هم قد نالوا قسطا من الراحة ، بعكس خصومهم الذين سيصلون اليه منهكين متعبين نتيجة مضايقة الطلائع السلجوقية التى أمرت بمسايرة الجيش الغزنوى واقلاقه طيلة رحلته الى دندانقان . وقد دخلت هذه الطلائع فى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٢ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٣ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٣ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٨ .

معركة قوية مع الغزنويين يوم الخميس ٨ رمضان سنة ٤٣١هـ/٢٤ مايو ١٠٤٠م مما اضطر السلطان مسعود الى أن يخوض غمارها بنفسه ، حينما رأى جنده يقاتلون بروح انهزامية ، ورغم ذلك فقد خرجت هذه الطلائع بغنائم وافرة من الجمال والأقمشة (١) .

وقد نبهت هذه المعركة السلطان مسعوداً الى الخطر الكبير الذى يحدق به ، ولذلك جمع قادته العسكريين ، وطلب منهم تشجيع جنودهم على القتال ببسالة ضد أعدائهم ، وبات ليلة الجمعة يشرف بنفسه على اصلاح مافسد من أمور الجند بتوزيع الأموال والركائب من الخيول عليهم علهم يخلصون فى ملاقاة أعدائه (٢) .

وفى يوم الجمعة ٩ رمضان سنة ٤٣١هـ/٢٥ مايو ١٠٤٠م وصل السلطان مسعود الى مشارف حصن دندانقان ووقع الاضطراب فى جيشه وقت بلوغهم الحصن عندما أمدهم رجال الحصن بالماء وتنافسوا عليه ، وكان السلاجقة متربصين بهم ، فلم يعطوهم الفرصة لالتقاط أنفاسهم ، وقاموا بهجوم سريع ومفاجىء على أعدائهم الذين دب الذعر فيهم ، واختلطت أمورهم ، وقام الكثير منهم بالاستيلاء على الخيول للفرار عليها ، وبعضهم اختار أن ينضم الى السلاجقة فى المعركة بدلا من أن يقع فى أسرهم . وادرك السلطان الذى كان يقاتل بضراوة شديدة أن زمام الأمر قد أفلت من يده ، وحاول ابنه مودود ارجاع الفرسان الى ساحة القتال ليقفوا الى جانب أبيه فلم يجد منهم أذنا صاغية ، الأمر الذى جعل بعض العقلاء يرون أن

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٥ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٦-٦٨٧ .

المقاومة لم تعد تجدى فنصحوا السلطان مسعوداً بالفرار حتى لايقع فى يد أعدائه (١) ، فاتبع نصيحتهم وآثر الانسحاب فارا من السلاجقة لايلوى على شىء حتى بلغ بلاد الغور (٢) فى حالة يرثى لها ، وتبعه كذلك كبار قادته وغيرهم من اكابر دولته ، ووقعت الثروات والأموال الطائلة التى أخذها السلطان مسعود معه فى هذه الحملة غنيمة فى يد السلاجقة ، اضافة الى ماوقع فى أيديهم من الخيول والجمال وغيرها (٣) .

وهكذا تحقق للسلاجقة فى موقعة دندانقان نصر مؤزر على الغزنويين فهم اذا كانوا فى الحروب السابقة قد حققوا الانتصارات على قادة السلطان مسعود ، فانهم فى دندانقان كسبوا معركتهم مع السلطان مسعود نفسه ومعه قادته الذين سبق لهم الانتصار عليهم (٤) ، وبذلك وضع انتصارهم على الغزنويين فى دندانقان نهاية لنفوذ الغزنويين فى خراسان وبالتالى أصبحت سيطرة السلاجقة على خراسان أمرا مطلقا لاينازعهم فيه أحد (٥) .

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٨٩-٦٩٠ - وانظر ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٢ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٤٤-٤٥ .

(٢) بلاد الغور : تمتد من هراة الى تخوم كابل وغزنة وهى جنوب نهر هراة . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٥٨-٤٥٩) .

(٣) تاريخ البيهقى ،ص ٦٩٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٣ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٤٧ .

(٤) أحمد معوض ، أضواء على تاريخ المشرق الاسلامى وحضارته ذروة عصر السلاجقة العظام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ص ٤٨ .

(٥) محمد محمود ادريس ، تاريخ العراق والمشرق الاسلامى ، ص ٨٨ - عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٧ .

(ج) الغزنويون والسلاجقة
بعد معركة دندانقان

بعد هذا العرض الذى قدمنا نستطيع أن نؤكد أن عام ٤٣١هـ/١٠٤٠م هو التاريخ الفعلى لقيام دولة السلاجقة وتثبيت أقدامهم فى خراسان دون أى منازع . وقد دعم هذا الوضع حصولهم على اعتراف الخلافة العباسية بهم سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٢م ، ثم نجاحهم فى دحر الدولة الغزنوية فيما تبقى لها من نفوذ فى بعض مناطق خراسان الأمر الذى دفعها بعد ذلك الى التقوقع فى غزنة وماوالاها من بلاد الهند كما سنبين ذلك فيما بعد .

رجع السلاجقة بعد أن وضعت الحرب أوزارها وتأكد لديهم خلو المنطقة من أعدائهم الى ماتركه الغزنويون من أموال وذخائر وأخذوا فى توزيعها على أتباعهم (١) وكان مما وقع فى أيديهم أيضا وثائق من ديوان البريد وأعلام الجيش الغزنوى استغلوها كبرهان عملى على انتصارهم على السلطان مسعود فبعثوها الى أمراء ماوراء النهر مع رسلهم المبشرين بالنصر الذى حققوه على السلطان مسعود فى دندانقان (٢) .

ويذكر البيهقى أن الاخوة اتفقوا على أن يذهب طغرلبك الى نيسابور مع الف فارس ، وأن يذهب بيغو الى مرو مع الينالين ، ويسير جغرى بك داود بمعظم الجند الى بلخ وطخارستان (٣) لفتحها (٤) . لكن بعض المصادر تذكر أن الاتفاق الذى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٦٩٤،٦٩٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٣ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٤٥ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٩٤-٦٩٥ .
(٣) طخارستان : من نواحى خراسان وهى قسمان طخارستان العليا شرق بلخ وغربى نهر جيحون وبينها وبين بلخ ثمانية وعشرون فرسخا ، والسفلى غربى جيحون الا أنها أبعد من بلخ وأقرب الى الشرق ، (ياقوت معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٢٣ ، وانظر أيضا بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٦٩) .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٦٩٥ .

تم بين السلاجقة أشمل مما ذكره البيهقى ، اذ كان اتفاقهم على توزيع المناطق فيما بينهم ليكون كل منهم الحاكم المطلق فى المنطقة التى يتولاها فاتفقوا على أن لجغرى بك داود من نيسابور الى جيحون الى مايفتحه من ماوراء النهر ، ولابراهيم ينال قهستان وجرجان (١) ، ولأبى على بن الحسن بن موسى ابن سلجوق هراة وبوشنج (٢) وسجستان (٣) وبلاد الغور .

الا أن أهم مسألة اتفق عليها زعماء البيت السلجوقى هى زعامة طغرلبك واختياره (٤) حاكما عاما لهم رغم أنه أصغر من أخيه جغرى بك داود الذى كان له دور كبير فى صراع السلاجقة مع الغزنويين ، وصاحب الآراء السديدة فى كثير من الظروف الصعبة التى مر بها السلاجقة . وهذا الاتفاق على زعامة طغرلبك عليهم هو مجرد تأكيد لما كان يتمتع به طغرلبك من مكانة بينهم قبل ذلك اذ لم تكن وليدة اتفاق مابعد دندانقان وانما كان ذلك قبلها بزمن طويل فى فترة وجودهم فيما وراء النهر ، عندما أقدم بغراخان على القبض عليه . فلو لم يكن طغرلبك كبيرهم لما أقدم بغراخان على هذه الخطوة ، وهو فى ذلك يقتدى بما فعله السلطان محمود قبل ذلك بزعيم السلاجقة

---

(١) الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٥٥-٥٦ - البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠ - فضل الله ، جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج٥ ، ص ١٩-٢٠ ، الا أنه ذكر أن طغرلبك توجه فى فتوحه الى العراق ومعه ابراهيم ينال والأمير ياقوتى بن داود وابن عمه قتلمش بن اسرائيل .

(٢) بوشنج : غرب هراة على مسيرة يوم ، ويرجح لسترنج أنها مدينة غربان الحالية . (بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٥٣) .

(٣) سجستان : ويطلق عليها أيضا سليستان ، وهى اقليم جنوب خراسان ، خصب كثير الطعام والتمور والأعناب . (لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٧٢-٣٧٣) .

(٤) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٤٠ .

أرسلان بن سلجوق . ومما يؤكد زعامة طغرلبك على السلاجقة أيضا ماذكره البيهقي عقب معركة علياباد التي تحدثنا عنها سابقا (١) حينما ذكر أن جغرى بك داود لم يتلق أمرا من طغرلبك بمحاربة السلطان مسعود ومن ثم فان ماتم من اتفاق بين السلاجقة بعد دنداقان بشأن القيادة العليا لطغرلبك انما هو تأكيد لزعامته السابقة .

ولم يتوان الاخوة السلاجقة في استغلال الهزيمة التي حاقت بالسلطان مسعود وتجريده من أملاكه في خراسان ، فقد اتجه بيغو الى هراة واستولى عليها (٢) ، ويبدو أنه توغل في هذه المنطقة اذ يذكر ابن الأثير أن الغزنويين صدوا قوة سلجوقية من الرخج (٣) وقتلوا منهم ثمانمائة رجل ، اضافة الى عدد كبير من الأسرى (٤) ، وتوجهت قوة أخرى نحو هراة وتمكنت من اخراج السلاجقة منها (٥) .

أما الملك جغرى بك داود فقد توجه بقواته نحو بلخ وطوقها بجنده ، ثم أرسل الى حاكمها أميراك البيهقي يطلب منه تسليم البلد (٦) . وقد امتنع الحاكم الغزنوى من اجابة الملك جغرى بك داود وبادر بالكتابة الى السلطان مسعود يطلب منه النجدة حتى يستطيع الصمود أمام السلاجقة . ولم

---

(١) انظر قبل ، ص ١١٩-١٢٠ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٣ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٤٧ .
(٣) الرخج : شرقي بست بامتداد ضفاف النهرين المعروفين اليوم بترنك وأركنداب ، (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٨٥) .
(٤) الكامل ، ص ٤٨٤ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٤ .
(٦) تاريخ البيهقي ، ص ٧٠٩-٧١٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٣ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٤٧ . هذا ويذكر المصدران الأخيران أن حاكم بلخ يدعى التونتاق .

يتوان السلطان مسعود فى امداده بقوة قوامها الف من الفرسان يرأسهم التونتاش (١). وقبل أن يصل الجنود الغزنويون الى بلخ علم بهم الملك جغرى بك داود فتقدم اليهم بعد أن أعد الكمائن اللازمة للمعركة ، وبعد اشتباك قصير تظاهر الملك جغرى بك داود بالهزيمة وولى هاربا فتتبعه الغزنويون لمطاردته فوقعوا فريسة سهلة بين القوات الكامنة لهم التى خرجت عليهم وأوقعت بهم خسائر كبيرة فى الرجال اضافة الى الذين وقعوا أسرى بيد السلاجقة ، ولم يتمكن التونتاش من الدخول الى بلخ الا بصعوبة ومعه مائتان من جنده فقط (٢).

وقد اصيب السلطان مسعود بالهلع والخوف نتيجة لهذه الهزيمة التى منى بها التونتاش ورسخ فى ذهنه أن الملك جغرى بك داود مقبل الى غزنة لامحالة (٣)، ولذلك أخذ يعد عدته لمغادرة العاصمة الغزنوية الى الهند ومعه كل أمواله وذخائره ويصحبه أيضا أهل بيته ، بعد أن أعد جيشا على رأسه ابنه مودود ويرافقه الوزير أحمد بن عبد الصمد (٤). ويبدو أن هذه القوة كانت معدة لتكون خطاً دفاعياً أول عن العاصمة الغزنوية ولم يكن هدفه منها فك الحصار عن بلخ ، لأن ماحدث للسلطان مسعود فى دندانقان ترك فى نفسه أثرا عميقا ، وهو ماوضحه البيهقى ، حينما أورد رد السلطان مسعود على رجاله الذين كانوا يعزونه فى الهزيمة ويمنونه بجولات أخرى يسترد فيها مافقده فقال : "ماهذا الهذيان الذى

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٧١١ — ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٤ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٧١٦-٧١٧ .
(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٧٢٠ .
(٤) تاريخ البيهقى ، ص ٧٠٦ .

يقولون ، لقد أحرزنا الملك فى مرو وضاع منا الملك فى مرو" .(١)

وبهذه الروح الانهزامية غادر السلطان مسعود عاصمته الى الهند بعد أن توجه ابنه مودود نحو مقصده (٢). ويذكر ابن الاثير أن مودود بعث بطلائعه نحو المعسكر السلجوقى المحاصر لبلخ ، وتمكن السلاجقة من صدها والتغلب عليها ، وكان من نتيجة ذلك استسلام مدينة بلخ ودخول حاكمها فى خدمة الملك جغرى بك داود (٣).

ويرى بارتولد أن بلخ ظلت تقاوم ولم تدخل فى حوزة السلاجقة الا فى سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م (٤) ، أى بعد الصلح الذى أبرم بين الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية ، وماذكره بارتولد بشأن بلخ غير صحيح لاسيما وأن بعض المصادر تذكر أنها استسلمت للملك جغرى بك داود سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م بعد أن رأى حاكمها الهزائم التى لحقت بالجيش الغزنوى . ومن الناحية العسكرية لايتصور أن يتركها السلاجقة فترة طويلة فى حوزة الغزنويين لأهميتها وموقعها الهام باعتبارها بوابة خراسان الى ماوراء النهر وبالعكس .

وفى الوقت الذى كان السلاجقة يحكمون سيطرتهم على ماتبقى من خراسان نجد السلطان مسعود يواجه مأزقا آخر من قادته الذين لم يحتملوا "... أن يروا سلطانهم ينحدر بالدولة الغزنوية الى هذه الحال وفقدوا الثقة فيه تماما ،

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٧٠٦ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٧٢٤، ٧٣٠ .
(٣) الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٤ ـ وانظر : الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٤٧ .
(٤) تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٤٥٠.

وتأكدوا من أنه لامجال لاصلاح أو تقويم البلاد طالما كان مسعود على رأسها ...". ولذلك قاموا بالتمرد عليه بعد أن[(١)] نهبوا أمواله وخزائنه في ١٣ ربيع الأول سنة ٤٣٢هـ/٢١ نوفمبر ١٠٤٠م ونادوا بأخيه محمد سلطانا عليهم ، ولم تجد المقاومة من قبله فاضطر الى التسليم وانتهت حياته مقتولا بعد ذلك في قلعة كيكي بالهند[(٢)] .

وقد أجبرت هذه الأحداث الأمير مودود بن مسعود[(٣)] أن يسارع الى العاصمة الغزنوية للثأر لمقتل أبيه واسترداد مايراه حقا له ، وقد نجح في مسعاه عندما هزم عمه محمد بن محمود في شعبان سنة ٤٣٢هـ/ابريل ١٠٤١م وتمكن من قتل كل من له يد في قتل أبيه[(٤)] .

وكان ماحققه مودود من استرداد للسلطنة الغزنوية وتخلصه من أعدائه في البيت الحاكم دافعا لأهل هراة على الثورة على السلاجقة فيها واستطاعوا أن يخرجوهم منها ، وهي المرة الثانية التي يطرد فيها السلاجقة من هذه المدينة التي ظلت تقاومهم طيلة فترة حكم السلطان مودود ، لأن ابن الأثير ذكر في حوادث سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م أن أرتاش ينال (أخو

---

(١) أحمد معوض ، أضواء على تاريخ المشرق ، ص ٥١ .

(٢) كرديزي ، زين الأخبار ، ص ١٢٢-١٢٣ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٤-٤٨٥ - الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص ٤٨-٤٩ - ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج١ ، ص ٥٢٤ - ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٠ .
وقلعة كيكي : لم أجد لها تعريفا فيما بين يدي من مصادر .

(٣) السلطان مودود بن مسعود الغزنوي : ولد سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م ، وحكم بعد تغلبه على عمه محمد بن محمود سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م ، له بعض الفتوح في بلاد الهند ، توفي سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م . انظر : (الزركلي ، الأعلام ، مجلد ٧ ص ٣١٨) .

(٤) الكرديزي ، زين الأخبار ، ص ١٢٤،١٢٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٨ - الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٥١ .

ابـراهيم ينـال) كـان قد حاصرها فقاتله أهلها ودفعوه عنها (١) .
كمـا أن السلطان مودود قد وجدها فرصة حينما استتبت له الأمـور أن يقوم بمحاولة استرداد مايستطيعه من خراسان وذلك سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م اذ أرسل حملة الى خراسان ولم يحدد المصدر جهتها الا أن هذه الحملة فشلت في مهمتها عندما تصدى لها ألب أرسلان بن داود وألحق الهزيمة بها (٢) .

غير أن أخطر محاولة قام بها السلطان مودود قبل وفاته سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م هي عندما قام بمراسلة ملوك ماوراء النهر وأبو كاليجار بن علاء الدولة بن كاكويه وفوض اليهم حكم أعمال خراسان ، وتجهز هو بنفسه من غزنة (٣) . وكان هدف السلطان مودود من ذلك اشغال السلاجقة في كل الجبهات وينصرف كل واحد منهم لحرب من يليه ، طغرلبك مع أبي كاليجار ، وجغرى بك داود مع حكام ماوراء النهر وهي أهم ناحية يقصدها اذ نجده يوجه وزيره عبد الرزاق بن أحمد اليمندى (٤) نحو سجستان التي يحكمها بيغو بينما يتوجه هو فيما يبدو نحو بلخ ، الا أن هذا التخطيط لم يكتب له النجاح التام ، فأبو كاليجار فشلت حملته لسلوكه طرقا صحراوية هلك فيها كثير من عسكره وأصيب هو بالمرض فاضطر الى العودة الى بلاده (٥) . أما

---

(١) الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٦ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥١٨ ـ وانظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥١ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٨ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٧٣ .
(٤) ذكر خواندمير أنه تولى الوزارة في عهد السلطان مودود ابن مسعود ولم يوضح شيئا عن حياته سوى أنه وصفه بالكفاءة في ادارة المنصب ، انظر (دستور الوزراء ، ص ٢٤٠) .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٨ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٧٣ .

حكام ماوراء النهر فان بعضهم قام بمهاجمة ترمذ ونهبها وأخرب فيها ، ويبدو انه اكتفى منها بذلك بينما قام البعض بمهاجمة خوارزم ويبدو أن ذلك الهجوم لم يحقق شيئا ذا بال (١) أما السلطان مودود فانه بعد أن أكمل عدته وأرسل وزيره الى سجستان فانه لم يكد يبتعد عن عاصمته حتى اشتد عليه القولنج (٢) ، فاضطر الى العودة ثانية الى غزنة واشتد به المرض فمات بسببه سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م (٣) .

وقد علق ابن الأثير على ماحدث للسلطان مودود تعليقا لطيفا فقال : "... ودفع الله شر مودود عن داود ، وهذه السعادة التى تقتل الأعداء بغير سلاح ولاأجناد ..." (٤) .

وبموت مودود نشأ نزاع فى الأسرة الحاكمة حتى استقر أمرهم على تولية عبد الرشيد (٥) بن محمود سلطانا للدولة الغزنوية (٦) . ويبدو أن هذه الظروف التى مرت بها الدولة الغزنوية أتاحت لبيغو فرصة العودة الى هراة والاستيلاء

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٨ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٧٣-٧٤ ، ويذكر الحسينى اسم من قام بالهجوم على خوارزم اذ سماه الأمير خشكا ولم أعثر له على ترجمة أو تعريفا فى المصادر التى بين يدى .
وتدل هذه النصوص أيضا على أن ترمذ أيضا قد وقعت تحت حكم السلاجقة قبل سنة ٤٤١هـ .

(٢) القولنج : مرض معوى مؤلم يتعسر معه خروج مايخرج بالطبع (ابن سينا ، القانون فى الطب ، ج٢ ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٤٥٢) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٨-٥٥٩ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٧٣ .

(٤) الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٩ .

(٥) عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين : شمس دين الله سيف الدولة ، كان محبوسا فى عهد السلطان مودود ثم أطلق سراحه بعد وفاته وتولى الحكم سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م ، وكان ضعيفا قليل الحيلة وانتهى به الأمر مقتولا سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م .
(الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٣ ، ص ٣٥٣) .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٩ .

عليهـا كـآخر معقل استطاع السلاجقة اقتطاعه من الغزنويين ، وهـذا مادعـا أحد قادة السلطان عبد الرشيد ويدعى طغرل الى أن يطالبـه بالموافقـة عـلى ارساله على رأس الجيش لاسترداد بعض المناطق التى فقدوها من خراسان ، وقد وافق عبد الرشيد على هـذا الطلب بعد الالحاح الشديد من جانب طغرل (١) ، فأمده بـألف فـارس لتنفيـذ مطلبـه ، ورغـم النجاح الذى حققه هذا القـائد فـى حملتـه عندما هزم بيغو قرب سجستان وأجبره على التحصن فـى هراة (٢) . الا أن طغرل استغل الامدادات التى وصلته مـن غزنـة فـى مطامعه الخاصة عندما وجهها لمحاربة السلطان عبـد الرشـيد واسـتولى عـلى غزنـة وجعل من نفسه حاكما على الدولـة الغزنويـة . هـذا ويذكـر ابن الأثير أنه ظهر لطغرل منـافس فـى الهنـد ويـدعى خرخـيز الـذى كـاتب كبار القادة الغزنويين ينكر عليهم طاعة طغرل ويحثهم على الأخذ بثأر عبد الرشيد بـن محـمود ، وقد استجاب القادة الغزنويون لخرخيز وقـامت مجموعـة منهـم بقتل طغرل ، وعلى اثر ذلك وصل خرخيز الـى غزنـة واسـتقر أهل الرأى على تولية فرخ زاد بن مسعود السـلطنة ، وكان معتقلا فى أحد السجون فأخرجوه وولوه الحكم فتـابع المشـاركين لطغـرل وقتلهم ، وهكذا كانت نهايته على يده سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م (٣) .

وبعـد أن قضـى على طغرل وتولى فرخ زاد بن مسعود (٤) حدثت

---

(١) ابـن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٢ .
(٢) ابـن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٢-٥٨٣ .
(٣) ابـن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٣-٥٨٤ .
(٤) فـرخ زاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين : سيف الدولة حـكم (٤٤٤-٤٥١هـ/١٠٥٢-١٠٥٩م) ، انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدولة الاسلامية ، ج٢ ، ص ٥٩٢) . وذكـر ابـن الأثير أنـه تعـرض لمحاولـة قتـل سـنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ولكنـه نجـا منها وزهد فى الدنيا بعدها حتى توفى مريضا بالقولنج (الكامل ، ج٣ ، ص ٥) .

بعض المواجهات بين الغزنويين والسلاجقة ولم يستطع كلاهما أن يرجح كفته على الآخر (١). ورأى بعض العقلاء أن مثل هذه الحروب تستنزف كلا الطرفين فى الأموال والرجال ومن الخير أن يقنع كل منهم بما فى حوزته من بلاد (٢)، وانتهى الأمر الى توقيع اتفاقية بين الدولة الغزنوية والسلاجقة يتعهد فيها الطرفان بعدم الاعتداء على الآخر (٣). وبهذه الاتفاقية أقر الغزنويون بالأمر الواقع واعترفوا بسيادة السلاجقة على خراسان، وان كانوا قد ظلوا يحنون الى ماضيهم فى هذه المنطقة وذلك بتدخلهم فى الصراع الذى دار فى البيت السلجوقى بعد وفاة جغرى بك داود وطغرلبك، كما سنرى فى الفصل السادس من هذا البحث.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥٨٥.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٥ — الحسينى، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص ٧٤ — الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج٣، تحقيق فؤاد سيد، الطبعة الثانية، الكويت ١٩٨٤، ص ٢٢٧ — السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٧.

الفصل الثانی

توسع السلاجقة فی المشرق
قبل دخولهم بغداد

* نهاية الأسرة الزيارية فی جرجان وطبرستان .
* سقوط خوارزم .
* النفوذ السلجوقی فی اقليم الجبال (الكاكويه – بنوعناز)
* التقدم السلجوقی نحو العراق .

العلاقات السلجوقية البويهية قبل دخولهم بغداد .

(أ) بسط النفوذ السلجوقى على جرجان وطبرستان وخوارزم واقليم الجبال

نهاية الأسرة الزيارية فى جرجان وطبرستان :

فى الوقت الذى تفرغ فيه الملك جغرى بك داود لحرب الدولة الغزنوية بالمشاركة مع أخيه بيغو ، كان السلطان طغرلبك يعمل على الفتح والتوسع فى المناطق الشمالية والغربية من خراسان .

ويبدو انه أراد أن يتأكد من أن العيارين (١) لن يقوموا بأعمال السلب والنهب فى نيسابور ، وكان العيارون قد زاد نشاطهم أثناء الحروب المتكررة بين السلاجقة والغزنويين واستفحل أمرهم فى هذه المنطقة "... فهم ينهبون الأموال ويقتلون النفوس ، ويرتكبون الفروج الحرام ويفعلون كل مايريدونه ، لايردعهم عن ذلك رادع ..." فلما دخل طغرلبك نيسابور خافه العيارون الذين وجدوا أنفسهم أمام قوة جديدة وقوية ، فكفوا عن أعمالهم الاجرامية ، واستتب الأمن فى هذه المنطقة ولم يعد لهم نشاط يذكر (٢) .

---

(١) العيارون : العيار لغة الكثير المجىء والذهاب فى الأرض (ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، طبعة بولاق ١٣٠١هـ ، ص ٦٢٠) . والعيارة أو الفتوة من النزعات الاجتماعية التى ظهرت فى المجتمع الاسلامى فى مرحلة مبكرة ، واتخذ معانى باختلاف الأزمنة والعصور فى الدولة الاسلامية ، وقد عرف ابن المعمار الفتوة بقوله (مجموعة الصفات التى يتحلى بها الفتى من الشجاعة والسخاء والايثار والعصبية الدينية والصدق والوفاء والحياء واتباع الحق واخلاص العبادة واغاثة المضطر ورعاية النساء واليتامى ...) انظر : ابن المعمار ، محمد بن أبى المكارم الحنبلى ، كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وآخرين ، بغداد ١٩٦٠م ، ص ١٣٩ . وهذه الصفات المذكورة أعلاه عكس الصفات التى وصف بها العيارون المذكورون فى المتن والتى أصبحوا يعرفون بها فى هذه الفترة موضوع الدراسة .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٨٣ .

وقد سنحت أولى الفرص للسلطان طغرلبك لفتح جرجان وطبرستان سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م (١) بسبب خلاف نشأ بين أنوشروان بن منوجهر (٢) حاكم جرجان وبين قائد جيشه المدعو أبو كاليجار بن ويهان القوهى أدى الى أن يسجن أنوشروان قائد جيشه . وقد استغل السلطان طغرلبك هذا الظرف وقام بمهاجمة جرجان ، ولم يستطع أنوشروان الثبات أمام هذا الهجوم فغادرها الى سارية (٣) التى لم تصمد طويلا أمام السلطان طغرلبك ، اذ قام المسئول عنها بفتح أبوابها له ، فدخلها وفرض على سكانها مائة ألف دينار (٤) ، ثم غادرها الى نيسابور بعد أن عين عليها أميرا من قبله يدعى مرداويج بن بسو ، وأمره بمتابعة أنوشروان الى ساريه . وقد تمكن مرداويج من اجبار أنوشروان على طلب الصلح بعد ضمان ثلاثين ألف دينار ، والاقرار بتبعيته لطغرلبك ، واقامة الخطبة له فى جرجان وطبرستان (٥) ، وبذلك خضعت منطقة كانت حليفة للدولة الغزنوية

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٦ – ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٤٩ – النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٦ ص ٢٧٨ – ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٢٥ .

(٢) أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن شمكير الزيارى ، حكم ابتداء من سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م الى ٤٤١هـ/١٠٤٩م (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٨٥).

(٣) سارية : قصبة طبرستان ويقال لها اليوم سارى ، كانت عامرة وخربها المغول فى القرن السابع الهجرى، (بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤١١) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٧ – النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٦ ، ص ٢٧٩ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٧ .
يذكر استانلى لين بول فى طبقات سلاطين الاسلام ص ١٣٢ أن نهاية الأسرة الزيارية كانت على يد الغزنويين بدلا من السلاجقة . =

وسبق لأمرائها مشاركة السلطان مسعود فى حروبه ضد السلاجقة .

سقوط خوارزم :

أما خوارزم فقد سبق أن ذكرنا تمرد أميرها اسماعيل بن التونتاش على الدولة الغزنوية منذ سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م .

وفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م وجد السلطان مسعود نفسه بين جبهات متعددة ، كلها تتربص به ، ومن ضمنها اسماعيل بن خوارزم شاه ، وحتى يتخلص منه ، فانه أرسل عهدا بولاية خوارزم الى شاه ملك الجندى (١) . وبهذه الحجة تقدم شاه ملك الى أمير خوارزم طالبا منه تسليم البلد اليه للعهد الذى أعطاه اياه السلطان مسعود (٢) . وبالطبع فان اسماعيل ليس من السذاجة حتى يسلم امارته الى شاه ملك لمجرد أنه حصل على تفويض بولاية خوارزم ، واحتكم الخصمان الى السيف ، وحدثت

= وفى تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة للدكتور أحمد السعيد السليمان ص ٢٨٣ ، أن الدولة الزيارية انتهت سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م بوفاة كيلان شاه بن كاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشكمير . وفى دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١٠ ، ص ٤٧٢ ، مايقارب هذا الرأى وان كان يحصر حكم كيلان شاه (ملك شاه فى دائرة المعارف) فى المنطقة الجبلية فقط ولم تحدد هذه المنطقة فى هذا المرجع .
وأما ابن الأثير فيسوق لنا فى الكامل ج٩ ، ص ٥٠٩ مايؤكد نهاية هذه الأسرة سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م اذ يذكر أن مرداويج بن بسو كان نائب طغرلبك على جرجان وطبرستان فلما توفى مرداويج سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م خلفه فى حكمها ابنه جستان مما اضطر السلطان طغرلبك الى المسير اليها وعزل جستان بن مرداويج عنها وتسليم هذه الولاية الى أحد خواص منوجهر بن قابوس بن وشمكير ويدعى اسفار وهذا الصنيع من طغرلبك يدل على عدم رغبته فى أن يلى جرجان أسر تتوارث منصبها ، وعلى ذلك يكون أولى ألا تليها أسرة عريقة كالأسرة الزيارية .

(١) بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٤٤٧ .
(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٧٥٧ .

بينهما معركة رهيبة سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م استمرت ثلاثة أيام كانت الجولة الحاسمة فيها لشاه ملك ، باستيلائه على خوارزم وهروب ابن التونتاش الى خراسان ملتجئا الى حلفائه السلاجقة طالبا منهم العون لاسترداد امارته ، وذلك بعد انتصارهم على السلطان مسعود فى دنداقان ، وقد خطب شاه ملك فى خوارزم باسم السلطان مسعود دون أن يعلم بقتله سنة ٤٣٢هـ/١٠٤١م فضلا عن هزيمته (١) .

وتذكر بعض المصادر أن جغرى بك داود بادر بمهاجمة شاه ملك فى خوارزم ، الا أنه هزم أمامه فاضطر الى العودة الى خراسان (٢) .

فلما كانت سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م عاد طغرلبك الى خوارزم وحاصرها ، واستطاع أن يجبر شاه ملك على الفرار من هذه الامارة حاملا معه أمواله وذخائره متجها الى الدولة الغزنوية ، فلما وصل الى مكران (٣) علم أرتاش بن اينال - أخو ابراهيم ينال - بمكان شاه ملك ، فتوجه اليه على رأس أربعة آلاف فارس ، وتمكن من أسره وتجريده من أملاكه التى معه ، ثم سلمه الى الملك جغرى بك داود (٤) . أما اسماعيل بن التونتاش الذى استنجد بالسلاجقة لاسترداد امارته ، فان البيهقى يذكر أن السلاجقة أكرموه ومن معه عدة أيام ، ثم مالبثوا أن

---

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٧٥٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٦ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٦ .
(٣) مكران : ناحية واسعة تحدها من الغرب كرمان وسجستان من الشمال والهند من الشرق والبحر من الجنوب . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٧٩،١٨٠) .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٦ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣٨٦ .
يذكر بارتولد فى تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٤٤٩ نقلا عن البيهقى فى تاريخ بيهق أن شاه ملك انتهى محبوسا فى مكران وتوفى وهو فى الحبس .

قبضوا عليهم وقيدوهم . هذا ولم يتوصل البيهقى الى معرفة سبب قيامهم بذلك[(١)] . وهكذا أصبحت خوارزم ولاية تخضع مباشرة للسلاجقة يتحكمون فى ادارتها ، وبهذا يكون طغرلبك قد أحكم سيطرته على مناطق شرق وجنوب بحر الخزر (قزوين) ولم يبق له منها الا الاستيلاء على مدينة قزوين التى هاجمها سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م ، ولم يتركها الا بعد أن خضع له حاكمها ودفع له ثمانين ألف دينار[(٢)] ، وعاد طغرلبك الى الرى ليتفرغ بعدها لفتوحه فى اقليم الجبل أو العراق العجمى .

الامارة الكاكوية :

كانت الرى وأصفهان ، وهمذان ونهاوند تتبع الفرع الثالث من الأسرة البويهية ، وهو فرع فخر الدولة بن بويه[(٣)] . وفى عهد مجد الدولة أبى طالب رستم[(٤)] (٣٨٧-٤٢٠هـ/٩٩٧-١٠٢٩م) الذى امتاز بالضعف لانصرافه الى اللهو والمجون برز أحد القادة الديالمة ، وهو علاء الدولة كاكويه (٣٩٨-٤٣٣هـ/١٠٠٧-١٠٤١م) الذى استولى على معظم مايملكه مجد الدولة ، وكانت نهاية مجد الدولة بن بويه على يد محمود الغزنوى ، الذى قبض عليه عندما استنجد به وهو فى الرى[(٥)] ، وبذلك دخلت

(١) تاريخ البيهقى ، ص ٧٥٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٨ .
(٣) أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ومعجم الأسر الحاكمة ، ج١ ، ص ٢٨٨ – ستانلى بول ، طبقات سلاطين الاسلام ، ص ١٣٧ .
(٤) مجد الدولة أبو طالب رستم بن فخر الدولة بن بويه (٣٨٧-٤٢٠هـ/٩٩٧-١٠٢٩م) كان ضعيفا فى حكمه مشتغلا بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها ووالدته تدبر أمور دولته وبعد وفاتها طمع فيه جنده واضطربت أمور الدولة عليه ، ولذلك استنجد بالسلطان محمود الغزنوى . انظر (ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧١-٣٧٢ – أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٩١) .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨١ .

الرى فى حكم الغزنويين ، ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها علاء الدولة بن كاكويه لبسط سيطرته على الرى ، الا انه فشل فى ذلك وصادفت هذه الفترة دخول السلاجقة خراسان ، كما شرحناه سابقا ، فأراد علاء الدولة استخدام هذه الطائفة لتحقيق أغراضه ضد الدولة الغزنوية ،(١) ولكن هؤلاء كانوا وبالا عليه ، وخاضوا معه حروبا كان النصر فى أغلبها لهم .(٢) ولما دخل الفرع الأخير من السلاجقة (طغرلبك واخوته) واستطاعوا تحقيق كيان دولتهم بعد دندانقان ، انحصر نشاط الطائفة الأولى من السلاجقة ، فى امارة علاء الدولة وأذربيجان ، وعجز الأمير الكاكوى عن وضع حد لأعمال التخريب التى قاموا بها فى بلاده الى أن توفى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م ،(٣) وتنافس أبناؤه فيما بينهم من أجل السيطرة الكاملة على مناطق نفوذ والدهم ، فالابن الأكبر فرامرز بن علاء الدولة اختص بمنطقة أصبهان ،(٤) بينما أبو كاليجار كرشاسف كان نصيبه همذان ونهاوند ،(٥) أما الابن الثالث أبو حرب فلم يستطع أن يمد نفوذه الا على قلعة(٦)

---

(١) عصام الدين عبد الرؤوف ، الحياة السياسية فى بلاد الجبل ويزد فى عهد الكاكويه الديالمة ، بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشر ، بغداد سنة ١٩٨١م ، ص ٢٥٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٤،٣٨٣،٣٧٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٥ .

(٤) فرامرز بن علاء الدولة بن كاكويه : أبو منصور ظهير الدين حكم أصبهان من سنة (٤٣٣-٤٤٣هـ/١٠٤١-١٠٥١م) ثم سقطت فى يد السلاجقة كما سنوضح ذلك فى المتن انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٩٤،٢٩٣) .

(٥) أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة : كان واليا أيام أبيه على همذان ونهاوند ، ولذلك بقى على حكمها بعد وفاة أبيه وتوفى فى الأهواز سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م طريدا من السلاجقة كما سنوضحه فى المتن ، انظر : (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٩٣).

(٦) أبو حرب بن علاء الدولة : لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

نطنز القريبة من أصبهان[1] . وبالطبع فان مثل هذه الأوضاع التى تمر بها الامارة الكاكويه لم تكن خافية على السلطان طغرلبك ، ولم يصرفه انشغاله بفتح جرجان وطبرستان ، عن أن يبعث ابراهيم ينال للاستيلاء على الرى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م التى كان يسيطر عليها الغز أتباع أرسلان بن سلجوق ، ولم يجد ابراهيم ينال صعوبة فى الاستيلاء عليها لهروب الغز منه وعدم مواجهته[2] .

وعندما عاد السلطان طغرلبك بعد فتح جرجان وطبرستان عرج على الرى سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م واتخذها عاصمة له وأمر بعمارتها بعد الخراب الذى أصابها على يد الغز وقد عثر أثناء ترميم قصر الامارة على دفائن من الذهب والجواهر وأشياء كثيرة كانت تخص الأمراء البويهيين[3] .

ومن الملاحظ أن السلاجقة فى حروبهم مع بنى كاكويه كان تركيزهم على مابيد كرشاسف بن علاء الدولة وهى منطقة همذان لاتخاذها قاعدة للانطلاق نحو الغرب أى الى العراق .

وكانت أولى المناطق التى استولى عليها ابراهيم ينال هى بروجرد[4] ، ومنها انطلق الى همذان سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م ، ولم يقاوم كرشاسف هذا الهجوم بل هرب منها الى سابور خواست[5] ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٤٩٥ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٦ ـ ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٢٦٠ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٨،٥٠٧ ـ البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠ .
(٤) بروجرد : من أهم مدن اللر الصغرى ، جنوب همذان ، مدينة حسنة طولها أكثر من عرضها ، وطولها قريب نصف فرسخ ، وفيها يزرع الزعفران (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٣٥) .
(٥) سابور خواست : مدينة جنوب بروجرد كانت عظيمة آهله وفيها أخلاط من الشعوب ، ثم تضاءل شأنها (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٣٦-٢٣٧) .

اما اهالى همذان فقد ابدوا استعدادهم لفتح المدينة له اذا استطاع أن يقهر خصمه ، ويضمن لهم عدم عودته اليهم ثانية (١) . وأمام هذا الطلب انصرف ابراهيم ينال عن همذان نحو سابور خواست التى اعتصم كرشاسف فى قلعتها ، اما المدينة فقد تمكن ابراهيم ينال من دخولها عنوة ونهب سكانها نهبا فظيعا الا أنه لم يستطع فتح القلعة التى يعتصم بها الأمير الكاكوى (٢) ولذلك قفل عائدا الى الرى باستدعاء من السلطان طغرلبك الذى طلب منه تسليم مابيده من المناطق التى فتحها وتوجه بعدها الى سجستان (٣) . أما كرشاسف فيبدو أنه أراد أن يظهر حسن النية تجاه السلاجقة ووضع نفسه تحت تصرفهم مقابل تركه فى امارته ، ولذلك نراه يتوجه الى الرى بعد مراسلة السلطان طغرلبك له (٤) .

وحينما توجه السلطان طغرلبك نحو همذان سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م وتمكن من دخولها طالب كرشاسف بتسليم قلعة كنكور (٥) ، وقد رفض حماة القلعة تسليمها على الرغم من الأوامر التى أصدرها اليهم كرشاسف . حتى وان أدى رفضهم الى قتله ، مما حمل السلطان طغرلبك على الظن أن هذا الموقف منهم كان بمواطاة منه معهم ، ولذلك أمره بالصعود الى القلعة والبقاء فيها الى أن يأتيه أمره (٦) ، ومن ثم عاد الى الرى بعد أن ولى على همذان أميرا من قبله (٧) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٦-٥٠٧ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٩ .
(٥) كنكور : بليدة بين همذان وقرميسين (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٨٤) .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٩ .
(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٩ .

ولم يكن هذا العمل من السلطان السلجوقى محل رضا من كرشاسف ولذلك استغل عودة السلطان طغرلبك الى الرى ثم انشغاله بحصار دهستان وقام بالهجوم على همذان سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م وتمكن منها ثم أخرج نواب السلطان طغرلبك منها ، وأعلن ولاءه للملك أبى كاليجار البويهى (١) انتقاما من السلاجقة (٢) وليتخذ من البويهيين سندا ضدهم ، وهو اجراء اتخذه أيضا أخوه فرامرز بن علاء الدولة (٣) .

ولم ينتظر السلطان طغرلبك لكى يتم هذا التحالف بين هذه الأطراف ، ولذلك بادر بالهجوم على أصبهان فى الوقت الذى كان قد أمر فيه ابراهيم ينال بالتوجه من كرمان الى همذان ، لتأديب كرشاسف وذلك سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وعندما وصل الى همذان خرج منها كرشاسف فاستولى عليها ابراهيم ينال ، ثم تابع كرشاسف فى كل المناطق التى لجأ اليها فى المناطق الكردية وبعد أن أمن عودته رجع لمتابعة الاستيلاء على ماتبقى لكرشاسف من امارته وأهمها قلعة كنكور التى استسلمت له سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م عقب حصار طويل ، ونفاذ الأقوات الموجودة داخلها ونزل الحفيظ عليها بالأمان هو ومن معه ، اضافة الى أموال كرشاسف بن علاء الدولة (٤) .

---

(١) أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة : عماد الدين (٤١٥-٤٤٠هـ/١٠٢٤-١٠٤٨م) كان يحكم فارس واستولى على بغداد سنة ٤٣٥هـ بعد ابن عمه جلال الدولة بن بويه سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م . توفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م . انظر : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٧ ، ص ٦٣١ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٩٠).

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٦،٥٠٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٤،٥٢٨ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥٤ - النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٦ ، ص ٢٨١ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٨ .

وبهذا فقد كرشاسف كل أملاكه فى بلاد الجبل ، ولجأ الى أبى الشوك الكردى الذى سنعرض ماآلت اليه امارته هو الآخر (١) فيما بعد ، وعندما وجد أن أبا الشوك لايغنيه شيئا ، توجه الى خوزستان حيث قابل الملك الرحيم ، وكان آخر العهد به (٢) هناك .

أما أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة ، فيذكر البيهقى أنه كان من ضمن الأسرى الذين وقعوا فى يد السلطان طغرلبك عقب معركة دندانقان ، ولعل والده كان قد بعث به عونا للسلطان مسعود ضد السلاجقة ، وقد قابله طغرلبك بالاحسان ثم أطلقه واعترف طغرلبك له بحقهم فى امارة الرى وأصفهان (٣) .

وعندما استولى ابراهيم ينال على الرى سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م من الغز - أتباع أرسلان سلجوق - طلب من فرامرز الهدنة ، ويبدو أنه طلب ذلك حتى يستطيع تعقب الخارجين من الغز ، الا أن فرامرز رفض ذلك (٤) . وربما كان يعتقد أن ابراهيم ينال يخادعه ليستولى على بلاده ، وبعدها أخذ فرامرز يستشعر الخطر المحدق به ، ولذلك بادر الى التصالح مع أخيه كرشاسف وأقر له بحكم همذان (٥) ، حتى لايصرف طاقته العسكرية فى مواجهة أخيه بدلا من السلاجقة . وفى سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م اضطر فرامرز الى مراسلة السلطان طغرلبك ودفع له

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٩ .
أما أبو الشوك فهو : فارس بن محمد بن عناز الكردى ، كان حاكما على حلوان والدينور (٤٠١-٤٣٧هـ / ١٠١٠-١٠٣٨م) توفى فى قلعة السيروان . انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٢٩ - ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٥٣١،٢٢٥) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥١ ، وانظر تعريف خوزستان ص باسم الأهواز .

(٣) تاريخ البيهقى ، ص ٦٩٤ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٦ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٩٦ .

مبلغا من المال عندما علم أنه ينوى مهاجمة أصبهان (١) ، لكن الذى حدث لأخيه فى همذان سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م جعلته يتوجس خيفة على نفسه من السلاجقة مما حمل السلطان طغرلبك على التوجه سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م اليه ويحاصره فى أصبهان ويجبره على اعلان الخطبة له فى أصبهان وفرض عليه أداء بعض المال (٢) .

وفى سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م صمم السلطان طغرلبك على التخلص نهائيا من فرامرز وأخذ امارته منه بسبب تلونه فى ولائه تارة للسلاجقة وأخرى للبويهيين . وفى محرم سنة ٤٤٢هـ/مايو ١٠٥٠م كان السلطان طغرلبك أمام أسوار أصبهان ، وأطال حصاره عليها بعد أن أخرب ماحولها ، واستمر حصاره لها قرابة السنة (٣) ، مما أجبر فرامرز على القبول بالتسليم بعد محاولات منه بصرف السلطان السلجوقى عن أصبهان بالأموال والتعهد بولائه له الا أن محاولاته باءت بالفشل ، وفتحت له أصبهان ودخلها فى المحرم سنة ٤٤٣هـ/مايو ١٠٥١م . وقد راقت المدينة للسلطان طغرلبك واستحسن المقام فيها ، فاتخذها عاصمة بدلا من الرى ، وأمر بنقل أمواله وذخائره اليها كما أمر باسقاط الخراج عن أهلها ثلاث سنين واعادة المهاجرين منها اليها (٤) . وبذلك تكون أصبهان هى المدينة الثالثة التى ينتقل اليها السلطان طغرلبك بعد نيسابور والرى . أما

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٩ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٩ ـ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٦ ، ص ٢٨٠ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٦٢-٥٦٣ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٦٣ ـ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص ٢٠٣ ـ ناصر خسرو ، سفر نامه الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠م ، ص ١٥٤ .

فرامرز بن علاء الدولة فان السلطان طغرلبك أقطعه ناحية يزد (١) وآبرقويه (٢) كبديل لما أخذه منه (٣) ، ويبدو أنه ظل بها حتى وفاته وبذلك تنتهى الأسرة الكاكوية كأسرة سياسية حاكمه فى بلاد الجبل فى العصر السلجوقى .

التقدم السلجوقى نحو العراق :

عقب التجاء كرشاسف بن علاء الدولة الى أبى الشوك خشى أبو الشوك فارس بن محمد بن عناز أمير حلوان (٤) ، والدينور (٥) ، وقرميسين (٦) ، من امتداد غارات الأمير السلجوقى ابراهيم ينال الى امارته ، ولذلك أسرع أبو الشوك بالانتقال من الدينور الى قرميسين (٧) .

ولم يتردد ابراهيم ينال فى التقدم اليها بعد أن اتضح له خلوها من القوة العسكرية ، ثم تقدم الى قرميسين بعد

---

(١) يزد : مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان ، معدودة فى أعمال فارس ، بينها وبين شيراز سبعون فرسخا ، انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٤٣٥) .

(٢) أبرقويه : ويقال لها أبرقوه ، ويسميها أهل فارس وركوه ومعناه فوق الجبل ، بلد مشهور بأرض فارس من كوره اصطخر ، قرب يزد ، وربما تطلق على بليدة بنواحى أصبهان على عشرين فرسخا منها . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٦٩) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٦٣ .

(٤) حلوان : هى حلوان العراق فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد يقال أنها سميت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعه ، وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٩٠، ٢٩١ .

(٥) الدينور : مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخا . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٥٤٥) .

(٦) قرميسين : بلد بين همذان وحلوان تبعد عن همذان ثلاثين فرسخا وهى معربة عن الفارسية كرمان شاهان ، انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣٣٠) .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٨ .

ذلك ، بعد أن هرب منها أبو الشوك أيضا الى حلوان تاركا بها حامية اكتسحها ابراهيم ينال ليتابع أبا الشوك الى حلوان التي كان قد هرب منها أبو الشوك الى السيروان (١) وهرب منها كذلك أهلوها خوفا من السلاجقة (٢) . وعندما وصل ابراهيم ينال الى حلوان وجدها خاوية ، فأصدر أمره الى جنده بنهب المدينة ، كما أمر بأن تحرق دور أبي الشوك ، وطال الحريق أيضا دور أهل حلوان ، الذين أرسل اليهم فرقة من جنده للحاق بهم فأدركوهم قبل وصولهم الى خانقين (٣) ، واستولوا على مامعهم من أموال وذخائر (٤) .

أما أبو الشوك فانه كان قد توفي في رمضان سنة ٤٣٧هـ/ مارس ١٠٤٦م وهو طريد (٥) ، وخلفه في الامارة أخوه مهلهل بن محمد بن عناز (٦) . وقد استغل مهلهل عودة ابراهيم ينال الى همذان وانشغاله بمحاصرة قلعة كنكور التابعة لكرشاسف بن علاء الدولة ، واسترد الدينور وقرميسين سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م بعد أن تغلب على الوالي السلجوقي بدر بن طاهر بن هلال

---

(١) السيروان : كورة بالجبل ويطلق عليها أيضا كورة ماسبذان . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٩٦) .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج٨ ، ص ١٢٨ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٨ - ابن كثير البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥٤ .

(٣) خانقين : بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٤٠) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٩ - في البداية والنهاية لابن كثير ، ج١٢ ، ص ٤ أنه أحرق دار أبي الشوك فقط .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٢٩ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣١ - البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠ - ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٢ ، ص ٥٤ .

(٦) مهلهل بن محمد بن عناز : لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر .

المعين من قبل ابراهيم ينال ثم اتبعهما بالاستيلاء على حلوان .(١)

غير أن مهلهلا لم يهنأ بالامارة منفردا فقد نازعه ابن أخيه سعدى بن أبى الشوك(٢) الذى التجأ الى ابراهيم ينال فى همذان فى ربيع الأول سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م(٣) وطلب مساعدته ضد عمه فأمده بثلة من الجند السلجوقى ودخل مع عمه مهلهل فى حروب متكررة كان محورها مدينة حلوان للسيطرة عليها حتى تمكن سعدى أخيرا من الاستيلاء عليها ، وطرد عمه منها بعد أن دفع أهل حلوان ثمن الشقاق بين سعدى وعمه من حرق المساكن وقتل الأنفس وافتراش النساء على يد الجند السلجوقى(٤) . وانتقل سعدى بعد ذلك الى عمه سرخاب بن محمد بن عناز لمحاصرته فى قلعة يمتلكها تدعى دز ديلويه غير أن سعدى وقع فى كمين قد أعده عمه سرخاب ووقع أسيرا بعد هزيمة جيشه سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م(٥) ، وبذلك آلت الامارة الى سرخاب الذى لم يحسن سياسة قومه .فغدروا به عندما قبضوا عليه وسلموه الى ابراهيم ينال وقد طالبه ابراهيم ينال باطلاق سراح ابن أخيه سعدى صنيعته المعتقل فى احدى قلاع سرخاب(٦) . ومع كون سرخاب أسيرا الا أنه رفض تنفيذ طلب ابراهيم ينال ، مما جعله يعامله معاملة وحشية زائدة عندما اقتلع احدى عينيه(٧) ، واتبع هذا الفعل

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٢،٥٣٣ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥٥ .
(٢) لم أجد لسعدى بن أبى الشوك ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٢-٥٣٣ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٣-٥٣٤ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٤ .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٦ ـ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٣١-١٣٢ .
(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٦ ـ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٣٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٢ ، ص ٥٦ .

بتوجيه أحد قادته ومعه سرخاب ليفتح به القلاع التى يملكها ويبدو أن الجيش السلجوقى لم يحقق هدفه الا فى البندنيجين (١) فقط واستعصمت عليه سواها مثل قلعة كلكان ودزديلويه (٢) .

أما سعدى فان ابن عمه أبا العسكر بن سرخاب كان قد أطلقه واشترط عليه اطلاق والده وتناسى خلافات الماضى ، وقد وفى الأخير بوعده عندما توجه الى ابراهيم ينال وطلب منه اطلاق سراح عمه ، ولكن مطلبه هذا جوبه الرفض (٣) . ويبدو أن هذا الصنيع من الأمير السلجوقى جاء بعد أن فرغ من همذان وأصبح فى نيته التقدم بنفسه صوب بغداد دون الاعتماد على سعدى أو غيره من الأمراء الأكراد ، وهذا ماجعل سعدى يرتمى فى أحضان الدولة البويهية بعد مراسلته للخليفة والملك البويهى أبا كاليجار داخلا فى طاعتهم (٤) ليجد منهم المساندة ضد ابراهيم ينال . لكن البويهيين كانوا اضعف مما كان يتصور وخسر نتيجة ذلك امارته عندما تعقبته القوات السلجوقية فى رجب سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م وذلك بعد أن استولى ابراهيم ينال على جميع أعماله وطارده الى السيروان وباجسرا (٥) وغنمت أمواله المخزنة فى السيروان ونهبت كذلك الدسكرة (٦)

---

(١) البندنيجين : بلدة مشهورة فى طرف النهروان من ناحية الجبل ، من أعمال بغداد ، انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٩٩) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٨ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٧ .
(٥) باجسرا : بليدة شرق بغداد بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣١٣) .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٨-٥٣٩ .
والدسكرة هى : قرية كبيرة بنواحى نهر الملك من غربى بغداد ، والدسكرة أيضا موضع لقرية فى طريق خراسان ، ويطلق عليها دسكرة الملك نسبة الى هرمز بن سابور بن أردشير لكثرة مقامه بها . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤٥٥) .

وباجسرا والهارونية (١) وقصر سابور (٢) بالاضافة الى ما استولى عليه السلاجقة من مناطق مهمة مثل سرماج (٣) وشهرزور (٤) وقلعة تيرانشاه (٥) من مهلهل بن محمد بن عناز (٦). وكان صدى هذه الأنباء يتردد فى بغداد وسرى فى أوساط الناس خبر أن ابراهيم ينال قادم اليها . وقد أيقن أهل بغداد بعجز القوات البويهية فى مواجهة السلاجقة وعدم اجتماع كلمة قادة البويهيين على اتخاذ التدابير اللازمة فى مثل هذه المواقف ، رغم تدفق أهالى تلك المواضع التى استولى عليها السلاجقة وماذكروه من حالهم مما أبكى العيون كما أورد ابن الأثير (٧).

وتذكر المصادر أن الملك البويهى أباكاليجار كان قد بعث الى السلطان طغرلبك سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م طالبا منه الصلح (٨) وليس من شك أن هذا الطلب قد جاء عقب التقدم السريع الذى أحرزه ابراهيم ينال فى العراق ، وأصبح على الجانب الشرقى لنهر دجلة مقابل بغداد .

---

(١) الهارونية : من قرى بغداد فى طريق خراسان (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٨) .

(٢) قصر سابور : لم أجد لها تعريفا فيما بين يدى من مصادر ومراجع لكن يبدوا أنها من مواضع شرق نهر الفرات .

(٣) سرماج : لم أجد لها تعريفا فيما بين يدى من مصادر ومراجع .

(٤) شهرزور : كورة واسعة فى الجبال بين اربل وهمذان وأهلها أكراد ولأهلها بطش وشدة يمنعون أنفسهم ويجمعون حوزتهم (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٤-٣٧٥) ويرى مترجم بلدان الخلافة الشرقية كوركيس عواد أنها قرب حلبجه من محافظة السليمانية ، ص ٢٢٦ ، حاشية ١٠.

(٥) تيرانشاه : مدينة من نواحى شهرزور . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٦٥) .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٩ .

(٧) الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٨-٥٣٩ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٦ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥٦ .

ورغم ذلك فان السلطان السلجوقى لم يخيب أمل أبى كاليجار بشأن الصلح الذى طلبه وتعداه الى المصاهرة بينهما حينما تزوج السلطان طغرلبك بابنه أبى كاليجار بينما تزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك جغرى بك داود وجرى العقد بذلك فى ربيع الآخر سنة ٤٣٩هـ/سبتمبر ١٠٤٧م ، ومن ثم صدرت الأوامر الى ابراهيم ينال تكفه عن الفتح فى العراق (١) .

وفى رأيى أن السلطان طغرلبك لم يصدر أمره هذا نتيجة صلحه مع أبى كاليجار وانما كان مدفوعا بدوافع سياسية ارتبطت بمخاوفه من ابراهيم ينال الذى توسعت فتوحه الى أن بلغت الضفة الشرقية لنهر دجلة وأصبح أقرب مايكون الى بغداد ، ومن أجل ذلك جاءت أوامره بكف ابراهيم ينال عن التقدم فى العراق أكثر من ذلك ، ومع أن ابراهيم ينال التزم هذا الأمر الا أنه انتهز عودة سعدى بن أبى الشوك اليه طالبا العود الى طاعته ، واشترط عليه أن لايطالب بالمناطق التى كانت تحت حوزته وأصبحت تحت نفوذه ، ولسعدى أن يفتح لنفسه مناطق أخرى (٢) ، وهو بهذا يمتثل أوامر طغرلبك . وفى نفس الوقت كان سعدى يتوسع فى بعض المناطق جنوب بغداد وهزم القوات البويهية فى الدسكرة (٣) ، ثم تابع تقدمه الى بعقوبا وخطب لابراهيم ينال فيها سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م (٤) ، ويبدوا أن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٦ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥١ .

(٣) بعقوبا : قرية كبيرة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ كثيرة الأنهار والبساتين ، ويقال لها أيضا باعقوبا ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٥٣) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥١ .

السلطان طغرلبك نظر الى صنيع أخيه بغير ارتياح ولذلك جرده من هذه المناطق سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م (١) وأصبحت تخضع لاشرافه المباشر . ومما لاشك فيه أن تمرد أخيه ثم انشغال أخيه الملك جغرى بك داود فى الجناح الشرقى لدولة السلاجقة مع الغزنويين أجبرت السلطان طغرلبك أن يتأخر بضع سنوات فى الوصول الى بغداد ، اضافة الى ذلك فان الوضع كان يقتضى منه عقب هذه الأحداث أن يأخذ فى الاعتبار وجود بنى عناز كأسرة حاكمة فى المنطقة الكردية فأقر مهلهل فى حكم بعض المناطق مثل السيروان ودقوقا (٢) وشهرزور ، والصامغان (٣) وشفعه فى أخيه سرخاب وأطلقه من سجنه بعد أن منحه احدى القلاع كاقطاع له (٤) . أما سعدى بن أبى الشوك فقد منحه الراوندين ، أما حلوان وقرميسين والدينور فيبدوا أنه جعل عليها واليا سلجوقيا ، وانصرف للاستيلاء على اصبهان ثم بدأ يواجه من اصبهان الفتوح فى فارس وكرمان وأرمينية حتى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ليعود فيدخل بغداد كما سنبينه .

---

(١) انظر الفصل الرابع ص

(٢) دقوقاء : مدينة بين اربيل وبغداد ، انظر (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٥٩) .

(٣) الصامغان : لم أجد لها تعريفا فيما بين يدى من مصادر

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٧٠ .

دولة السلاجقة
والدول المعاصرة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)

دولة السلاجقة	قبائل البلغار
سلاجقة الروم	الدولة البيزنطية
قبائل الأتراك القرخانية	الدولة الفاطمية
قبائل الأتراك الكرخطاى	مكران
قبائل الخزر	السند
قبائل البشناق	إرمينية الصغرى

مقياس الرسم ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

⊙ المناطق التي استولى عليها السلاجقة والتي خضعت لنفوذهم قبل دخولهم بغداد ٤٤٧هـ

(ب) العلاقات السلجوقية البويهية قبل دخول طغرلبك بغداد

بدأت العلاقات البويهية السلجوقية منذ أن استولى السلطان طغرلبك على الرى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م ، وأرسل رسله الى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه الاعتراف بالدولة السلجوقية الناشئة ، وقد ثنى السلطان طغرلبك برسالة الى الملك البويهى جلال الدولة بن بهاء الدولة (١) بحكم سيطرته على بغداد مقر الخلافة العباسية وخاطبه فى هذه الرسالة بالملك الجليل تقديرا له (٢) .

وقد انتهز جلال الدولة فرصة مبادأة السلطان طغرلبك بهذه الرسالة واظهاره الاحترام والتقدير نحوه ليطلب منه كف التركمان الذين أنزلوا بالجزيرة الفراتية والموصل خرابا شاملا وعجز أمراء هذه المناطق عن ايقافهم عند حدهم ، وأن يبادر بمنعهم عن هذه الأعمال التدميرية (٣) .

ومكاتبة جلال الدولة طغرلبك بشأن هؤلاء التركمان تبين لنا عدم وضوح الرؤية من جانب الملك البويهى بشأن السلاجقة عموما ، فلم يفرق بين هؤلاء الذين بعث بشكواه منهم ، وبين السلاجقة الذين يخضعون لطغرلبك واخوته ، وقد أزال السلطان

---

(١) جلال الدولة فيروز جرد بن بهاء الدولة البويهى (٤١٦-٤٣٥هـ/١٠٢٥-١٠٤١م) قال عنه الذهبى : كان شيعيا كأهل بيته وفيه جبن وعسكره مع قلتهم طامعون فيه ، عاش نيفا وخمسين سنة (سير أعلام النبلاء ، ج١٧ ، ص ٥٧٧ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٥٧٧) .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١١٦ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٩ - الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج١٣ ، ورقة ١٤٥أ - ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص ٤٥٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٩ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٢ .

طغرلبك للملك البويهي في رده اليه هذا اللبس ، واعتذر اليه من صنيعهم حينما قال في رسالته : "بأن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيدا وخدما ورعايا وتبعا يمتثلون الأمر ويخدمون الباب ، ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سبكتكين وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم انحازوا الى الري فعاثوا فيها وأفسدوا ، فزحفنا بجنودنا من خراسان اليهم مقدرين أنهم يلجأون الى الأمان ، ويلوذون بالعفو والغفران ، فملكتهم الهيبة وزحزحتهم الحشمة ، ولابد أن نردهم الى رايتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين ، قربوا أم بعدوا أغاروا أم انجدوا " (١).

ولم يعش جلال الدولة طويلا فقد توفي سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م (٢) وتحققت بوفاته مطامع ابن أخيه الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بعن بويه في بغداد ليضم العراق الى نفوذه بجانب فارس وكرمان (٣). أما الملك العزيز بن جلال الدولة فان جنده كانوا قد غدروا به مقابل الأموال التي تعهد بها أبو كاليجار لهم ووجد نفسه محروما من خلافة والده ففر الى الحلة (٤) أولا ثم توجه الى صهره أبي الشوك فارس بن محمد بن عناز وكان يتوقع منه المساعدة ضد أبي كاليجار ، الا أنه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٩ - ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص ٤٥٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥١٦ - ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص ٤٥٣ .

(٣) حسن منيمنة ، تاريخ الدولة البويهية ، ص ١٥٧ .

(٤) الحلة : علم لعدة مواضع ، أشهرها حلة بني مزيد ، وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كان تسمى الجامعين . وهناك حلة بني قيله بين واسط والبصرة . انظر (ياقوت معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٩٥) .

قلب له ظهر المجن وأجبره على طلاق ابنته (١) ، فعول الملك العزيز على مساندة السلاجقة وذلك عندما توجه الى ابراهيم ينال الذى كان يوالى فتوحه فى بلاد الجبل سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م لكن يبدو أن ابراهيم ينال لم يرحب بوجوده عنده ربما لأنه لايريد أن تربطه فتوحه فى العراق بوجود الأمير البويهى ، مما اضطر الأخير الى أن ينتقل فى عدة مناطق ، وانتهى به الأمر متوفيا فى ميافارقين (٢) سنة ٤٤١هـ (٣) .

الا أن أهم ماواجهه أبو كاليجار من مصاعب هو توغل النفوذ السلجوقى فى بلاد العراق وتجاوز السلاجقة حلوان الى قرميسين وكنكور ووصولهم الى دجلة كما بيناه سابقا . ولم تسجل المصادر أى رد فعل يناسب هذا التوغل سوى التجمهر والانفعال دون أن يتبع ذلك قيام حملات عسكرية للتصدى للقوات السلجوقية . ومثال ذلك ماحدث سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م عندما دخل ابراهيم ينال حلوان وقرميسين وغيرها من المناطق فان الملك البويهى أبا كاليجار كان موجودا فى خوزستان وأمر عساكره بالتجهز لقتال السلاجقة ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ أمره لحاجتهم الى الخيول التى فقدوا الكثير منها بسبب موتها وتوجه بهم الى فارس بدلا من العراق (٤) .

كذلك عندما استنجد بهم مهلهل بن محمد بن عناز سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م ضد ابن أخيه سعدى بن أبى الشوك التابع لابراهيم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥١٧ .
(٢) ميافارقين : من أشهر مدن ديار بكر ، وهو بلد طيب حصين مبنى بالحجر الأبيض زنة الواحد منه طن ونصف ، انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٣٥ — لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٣) .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥١٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢٩ — ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٥٤ .

ينال صدرت الأوامر الى الجند البويهى بالتجهز لصد أبى الشوك ووقف الجند السلجوقى الذين معه عن النهب والدمار الذى الحقوه بحلوان فلم يمتثل العسكر لهذه الأوامر (١) . وهذه أمثلة لما حدث أيضا سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م (٢) وهى تعكس صورة الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية فى ظل حكم بنى بويه المتأخرين مثل جلال الدولة وأبى كاليجار وانفلات زمام القيادة على العسكر الذين كانوا دائمى الشغب على الخلافة والدولة (٣) .

ولذلك فان الملك أبا كاليجار لجأ الى أسلوب آخر وهو الأسلوب السياسى بدلا من العسكرى فكتب الى السلطان طغرلبك سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م طالبا منه الصلح ، ويبدوا أن من ضمن مطالبه أيضا نهى ابراهيم ينال عن التقدم فى اقليم العراق وقد استجاب له السلطان طغرلبك لأسباب قد بينا بعضها فيما سبق (٤) .

وقد تركت وفاة أبى كاليجار سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م (٥) وهو فى طريقه الى كرمان أى بعد صلحه مع طغرلبك بقريب من السنة آثارها على الدولة البويهية وزادت من مشاكلها ، لأن أبناء أبى كاليجار تنازعوا على مناطق نفوذه ، فابنه أبو نصر خره فيروز (٦) أتاح له وجوده فى بغداد أن يستميل الجند اليه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٣-٥٣٤ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٣٩ .
(٣) حسن منيمنة ، تاريخ الدولة البويهية ، ص ١٦٠ .
(٤) انظر ص ١٦٣ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٨ – ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٥٧ .
(٦) الملك الرحيم أبو نصر خرة فيروز (٤٤٠-٤٤٧هـ/١٠٤٨-١٠٥٥م) آخر حكام البويهيين وفى عهده دخل طغرلبك الى بغداد ثم انتهى مقبوضا عليه بأمر السلطان طغرلبك كما سنرى ذلك فيما بعد ، وانظر : (أحمد السعيد السليمان تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٩٠) ويسميه خسرو فيروز .

ويستحلفهم على الطاعة له . كما راسل الخليفة القائم بأمر الله في اقامة الخطبة والسماح له باتخاذ لقب الملك الرحيم وقد وافق القائم بأمر الله على اقامة الخطبة له وامتنع من اقراره على اللقب ، ورغم ذلك فان الملك الرحيم ضرب باعتراض الخليفة عرض الحائط .(١)

أما أبومنصور فلاستون بن أبى كاليجار فقد استولى على شيراز بينما استحوذ أبو على على البصرة(٢) ، وأمام هذه الأوضاع أخذ الملك الرحيم على عاتقه اجبار اخوته على تسليم ما استولوا عليه ، وارغامهم على الخضوع له . ولسنا هنا بصدد عرض مادار بين أبناء أبى كاليجار من حروب ، ولكن الذى يهمنا من هذا التنافس فيما بينهم هو لجوء المهزوم منهم الى السلاجقة كقوة مرجحة لهم على أخيهم الملك الرحيم(٣) كما يبدو أن الخلافات فى البيت البويهى الحاكم أعادت اهتمام السلاجقة الى فارس وكرمان والمنطقة الجنوبية للعراق ان لم يكن بهدف الاستيلاء عليها فعلى الأقل منع وقوعها تحت سلطة موحدة مع العراق فى يد الملك الرحيم لأن مثل هذا الاتحاد سيعيق تقدم السلاجقة نحو بغداد التى أضحوا بالقرب منها لولا انشغال السلطان طغرلبك فى الفترة ٤٤١-٤٤٣هـ/ ١٠٤٩-١٠٥١م بفتنة أخيه ابراهيم ينال والجبهة الغزنوية ثم انشغاله بحصار أصبهان سنة ٤٤٢-٤٤٣هـ/١٠٥٠-١٠٥١م عن التقدم الى مقر الخلافة ، فلما فرغ من مشاكله انصرف الى تنفيذ سياسته تلك وساعدته هذه الأحوال عليها .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٨ .
(٣) حسن منيمنة ، تاريخ الدولة البويهية ، ص ١٦٠ .

ويذكر ابن الأثير أن أولى الحملات السلجوقية المباشرة نحو فارس كانت سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م بقيادة ألب أرسلان ، وكما يتضح مما أورده ابن الأثير فى هذا الصدد أنه قام بحملته دون علم من عمه طغرلبك أثناء انشغاله بحصار أصبهان ووصلت حملته فسا (١) ، وتغلب على جندها كما قتل كثيرا من عامة الناس وخرج منها محملا بالغنائم التى قدرت بألف دينار ، ثم عادت الحملة أدراجها الى مرو قبل أن تبلغ أخبارها السلطان طغرلبك (٢) .

وكانت الحملة الثانية سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م بتوجيه من السلطان طغرلبك ووصلت البيضاء (٣) بالقرب من شيراز (٤) واستولى أفراد الحملة على ثلاث قلاع من هذه الناحية ،ويذكر ابن الأثير أن مائتين من الغز انضموا الى أبى سعد أخى الملك الرحيم ، كما أنه استمال الآخرين الذين استولوا على القلاع فاطاعوه ودخلوا فى خدمته (٥) ، ولم يبين لنا ابن الأثير الأسباب التى أدت بهم الى هذا العمل ، ويبدوا لى أن افتقار هؤلاء الى نقطة ارتكاز فى هذه المنطقة وصعوبة التقهقر الى بلاد الجبل اضطرتهم الى قبول الانضمام الى أبى سعد ، أما الذين رفضوا الانقياد له فقد تغلب عليهم البويهيون وهزموهم (٦) ،

---

(١) فسا : ويقال لها بسا ، مدينة بفارس وأنزه مدينة بها بينها وبين شيراز أربع مراحل . (معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٢٦٠-٢٦١) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٦٥ .
(٣) البيضاء : من أكبر مدن اصطخر ، وسميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بعد بياضها ، انظر (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٥٢٩) .
(٤) شيراز : قصبة بلاد فارس ، قيل أن أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم بن أبى عقيل الثقفى ، ابن عم الحجاج ابن يوسف الثقفى ، انظر (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٨٠) .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٥ .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٦ .

وبذلك فشلت حملة طغرلبك على هذه المنطقة .

وفي سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م نجد الأمير أبا منصور فلاستون بن ابي كاليجار يستولي على شيراز من أخيه أبي سعد ويخطب فيها للسلطان طغرلبك ثم للملك الرحيم ثم لنفسه بعدهما (١) ، ولم تذكر لنا المصادر سبب اقامة الخطبة باسم السلطان طغرلبك ، ويبدو أنها كانت لحماية امارته من غزوات السلاجقة اضافة الى ردع أخيه الملك الرحيم من محاولة استرداد نفوذه في هذه المنطقة .

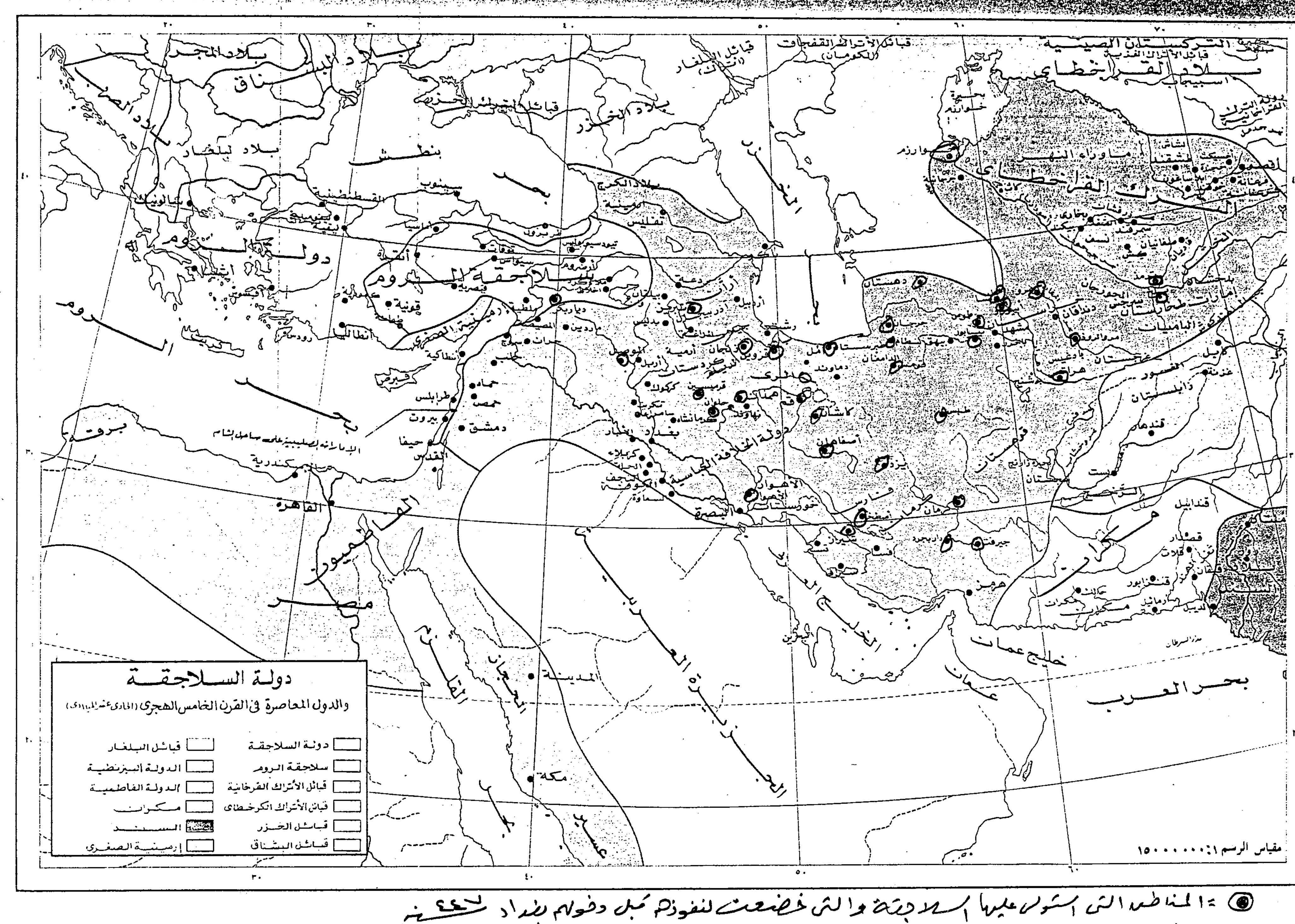
ومن جانب آخر نجد أن الأمير أبا علي بن أبي كاليجار يلجأ الى السلطان طغرلبك سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م (٢) عندما تغلب عليه أخوه الملك الرحيم وأخرجه من البصرة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م . وقد وجد أبو علي من السلطان طغرلبك استقبالا حسنا تمثل في تزويجه احدى قريباته واقطاعه عدة قلاع (٣) من أعمال جرباذقان (٤) . وفي السنة التالية سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م نراه يرسله على رأس حملة الى الأهواز (٥) واستولى عليها بعد أن نهبها الجند المصاحبون له (٦) ، وبذلك أصبحت المناطق الواقعة جنوب العراق تحت سيطرة السلاجقة . وفي ذات الوقت كان السلطان طغرلبك قد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٥ ـ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٣٥ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٩ ـ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج٣ ، ص ٢٠٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٩ .
(٤) جرباذقان : ناحية خصبة بين كرج أبي دلف وأصبهان (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٤٥-٢٤٦) .
(٥) الأهواز : جمع هوز ، وأصل الكلمة حوز ، غيرها الفرس الى هوز بسبب عدم نطقهم للحاء المهملة ، كان اسمها خوزستان ، وسماها العرب الأهواز ، وهي كورة بين البصرة وفارس ، كثيرة الحمى (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٢٨٤) .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٣ .

دان له حكام الجزيرة الفراتية سواء الامارة المروانية سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م(١) أو الامارة العقيلية سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م(٢) ولم يبق(٣) الا بغداد التي تهيأت الظروف المناسبة باستدعاء الخليفة القائم بأمر الله للسلطان طغرلبك لدخولها .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٦ .
(٢) انظر عن هاتين الامارتين في الفصل الخامس .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٠ .



◉ = المناطق التي استولى عليها السلاجقة والتي خضعت لنفوذهم قبل دخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ

الفصل الثالث

السلاجقة والخلافة العباسية في عهد طغرلبك

(أ) اعتراف الخلافة العباسية بالسلاجقة .

(ب) دخول السلطان طغرلبك بغداد فى رمضان سنة ٤٤٧هـ/ ديسمبر ١٠٥٥م .

(ج) فتنة البساسيرى .

(د) دخول البساسيرى بغداد فى ذى القعدة ٤٥٠هـ/يناير ١٠٥٩م والقبض على الخليفة العباسى القائم بأمر الله .

(هـ) الخطبة للفاطميين فى بغداد وموقفهم من البساسيرى .

(و) عودة الخليفة العباسى القائم بأمر الله الى بغداد وقضاء السلطان طغرلبك على البساسيرى .

(أ) اعتراف الخلافة العباسية بالسلاجقة

تتفق بعض المصادر على بداية علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية حينما تمكن الاخوة السلاجقة من الاستيلاء على سرخس ومرو ونيسابور سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م (١). وقد تألم الخليفة العباسي القائم بأمر الله من آثار الحروب التى نشبت بين السلاجقة والغزنويين، وللضرر البليغ الذى أصاب أهل خراسان بسبب تلك الحروب، ويذكر ابن الأثير أن الخليفة القائم بأمر الله ارسل الى طغرلبك وهو فى نيسابور رسالة ينهاه فيها عن أعمال السلب والنهب والقتل والاخراب، ولم يخص الخليفة القائم بأمر الله طغرلبك بهذه الرسالة، وانما أرسل أيضا الى بقية زعماء التركمان أتباع أرسلان بن سلجوق مثل بوقه وناصغلى وكوكتاش وغيرهم، يأمرهم بمثل ماأمر به طغرلبك (٢).

هذا ويذكر البندارى أن طغرلبك انتهز فرصة مراسلة الخليفة له وأرسل اليه أحد رجاله ويدعى أبا اسحاق الفقاعى (٣) برسالة جاء فيها : "انهم لما وجدوا ابن يمين الدولة مائلا عن الخير والسمو، مشتغلا بالشر والعتو، فغاروا للمسلمين والبلاد، وهم عبيد أمير المؤمنين فى حفظ البلاد والعباد،

---

(١) ابن العمرانى، الانباء فى تاريخ الخلفاء، ص ١٨٦ — وذكر أن طغرلبك كان يخاطب من ديوان القادر بالله ب"الدهقان الجليل محمد بن ميكائيل" ومن الواضح أن ابن العمرانى مخطىء بذكره للخليفة القادر بالله فى هذه الأحداث، اذ أن طغرلبك واخوته عبروا الى خراسان بعد وفاة القادر بالله — ابن الأثير، ج٩، ص ٤٥٨ — البندارى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٩ .

(٢) الكامل، ج٩، ص ٤٥٨ .

(٣) لم أعثر لأبى اسحاق الفقاعى على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

وقد سنوا سنة العدل ، وأسنوا سنا الفضل ، وأبطلوا مراسم العسف ، وعطلوا مواسم الحيف ..." .(١)

وطلب طغرلبك من الخليفة أن يفوضهم حكم خراسان ، ويذكر البنداري أن الخليفة القائم بأمر الله قضى سؤلهم .

ومن جانب آخر يذكر ابن العمراني أن الخليفة القادر بالله بعث الى السلطان مسعود الغزنوى متوسطا بين السلاجقة وبينه كي يخصص لهم بلدا من بلاد خراسان ليكفوا شرهم عن بلاد المسلمين ، غير أن رسالته هذه لم تصل الا بعد مقتل السلطان مسعود . ومن الواضح أن ابن العمراني وهم في اسم الخليفة اذ أنه القائم بأمر الله وليس القادر بالله كما ذكره .(٢)

والبيهقي يذكر في تاريخه خلاف ماذكره ابن العمراني وهو مطالبة الخليفة للسلطان مسعود الغزنوى أثناء اقامته في نيسابور سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م بألا يبرح خراسان حتى يقضي على السلاجقة .(٣) وهذا أقرب الى الواقع ، لأنه يعكس نظرة الخلافة العباسية الى السلاجقة بصفتهم أولا : بداة مخربين ، وثانيا للقلق المتزايد من جانب الخليفة القائم بأمر الله وهو يرى أقوى دولة في المشرق الاسلامي مشغولة في حروب داخلية استنزفت جهدها ورجالها وأموالها وأعاقتها عن أهدافها الكبرى وهي الفتح والجهاد في الهند ، وثالثا : لأن هذه الحروب مع السلاجقة أعاقت الغزنويين عن الوصول الى العراق وهو ماكان يهدف اليه دوما السلطان محمود ثم من بعده ابنه مسعود ، وأخيرا لأن الخلافة العباسية ، حسبما اقتضته(٤)

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٩ .
(٢) الانباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٦ .
(٣) تاريخ البيهقي ، ص ٦٧٢ .
(٤) تاريخ البيهقي ، ص ٨٠ .

ظروف العصر منذ أن ضعف نفوذها وتغلب عليها

المتغلبون كانت تسارع بالاعتراف بالأقوى كما كان حالها مع الدول التي قامت في المشرق قبل السلاجقة ، وقد وضعت معركة دنداقان حدا نهائيا لسلطة الغزنويين على خراسان وأصبح السلاجقة سادتها الجدد ، ومن ثم تطلعوا الى الحصول على اعتراف من خليفة المسلمين بحقهم في حكمها بدلا من الغزنويين الذين ثبت عجزهم عن حمايتها ، ووصلت رسلهم الى بغداد تتضمن مطالبهم هذه ، ورغم ذلك فاننا نجد الخليفة القائم بأمر الله ينتقد أعمال السلاجقة في خراسان ، ويأمر السلطان طغرلبك بالاحسان الى الرعية ، وذلك عندما بعث بقاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد الماوردي (١) سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م رسولا الى طغرلبك ومحملا أيضا بخلع التشريف التي منحها الخليفة لطغرلبك . وقد وصل الماوردي الي طغرلبك وهو في جرجان سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م وعندما علم السلطان طغرلبك

---

(١) الماوردي : هو الفقيه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي ، ولد في حدود سنة ٣٦٤هـ/٨٧٧م ، وتفقه على أبي القاسم الصيمري وأبي حامد الاسفراييني ، ودرس في البصرة وبغداد وولي القضاء في عدة مواضع ، ثم استقر به المقام في بغداد .
حدث عن الحسن بن علي الجبلي ، وعن محمد بن عدي المنقري ، ومحمد بن معلى ، جعفر بن محمد بن الفضل ، كما حدث عنه الخطيب البغدادي ووثقه ، له من التصانيف كتاب النكت في تفسير القرآن الكريم ، وأدب الدنيا والدين ، والأحكام السلطانية ، وقانون الوزارة وسياسة الملك ، والاقناع في الفقه ، وأعلام النبوة ، وكتاب الحاوي الكبير ، وغير ذلك من المؤلفات .
توفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م عن ست وثمانين سنة .
انظر ترجمته ومصادرها في (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج١٨ ، ص ٦٤-٦٥) .

بقدومه خرج لاستقباله على بعد أربعة فراسخ منها تقديرا (١) للخليفة (٢) .

ويبدو أن القائم بأمر الله كلف الماوردى أيضا بدراسة أحوال السلاجقة والتعرف على حقيقتهم عن كثب وهو مايفسر لنا سبب تأخره عند السلطان طغرلبك مدة ثلاث سنين . وقد كشف الماوردى عن طبيعة مهمته حينما روى كيف أنه كتب رسالة الى الخليفة القائم بأمر الله يذكر له فيها (سيرته وخراب بلاده واطعن عليه بكل وجه) (٣) .

ورغم أن السلطان طغرلبك وقع فى يده نسخة هذا الكتاب الا أنه تغاضى عن الماوردى ولم يغير من اكرامه له ، وكافأ الخليفة بعد ذلك على منحه خلع التشريف بعشرين ألف دينار وعشرة آلاف منحها لحواشيه (٤) .

ومع أن المصادر تسكت عن مدى تطور العلاقة بين الخلافة والسلاجقة فى الفترة الممتدة من ٤٣٥هـ/١٠٤٣م وحتى ٤٤٥هـ/١٠٥٣م الا أنه يبدو من خلال الحوادث أن السلطان طغرلبك كان على علم بمجريات الحوادث فى بغداد رغم انشغاله بفتوحه فى اقليم الجبل ووصول قوات السلاجقة الى حلوان ، وأبرز مثال على ذلك ماحدث سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م عندما تدخل السلطان طغرلبك لدى الدولة البيزنطية حينما علم باحتجاز رسول المعز بن

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٣ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٨ — البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٨ الحسينى ، العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ص ٣٧ — الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ص ١٠٩ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٣ .

بادیس الی الخلیفة العباسی وهو فی طریق عودته الی افریقیة (١) حاملا عن الخلیفة العباسی الخلع والتشریفات الی المعز بن بادیس بعدما قطع خطبة الفاطمیین فی أفریقیة ، وقد أثمر تدخل السلطان طغرلبك لدی الامبراطور قسطنطین التاسع (٤٣٤-٤٤٧هـ/١٠٤٢-١٠٥٥م) (٢) فی اطلاق رسول المعز وارساله الیه وبعد ذلك عندما طلب من الامبراطورة تیودورا (٤٤٧-٤٤٩هـ/١٠٥٥-١٠٥٧م) سنة ٤٤٧هـ أن تقیم الجمعة والخطبة فی مسجد القسطنطینیة للخلیفة القائم بأمر الله بدلا من اقامتها للمستنصر بالله (٣) الفاطمی (٤) فاستجابت لمطلبه هذا ، وكان ذلك سببا فی افساد العلاقات السیاسیة بین الفاطمیین والبیزنطیین .

ویبدو أن الخلیفة العباسی القائم بأمر الله قد سر من هذه الخطوة التی ذكرناها فأرسل الی السلطان طغرلبك مزیدا

---

(١) المعز بن بادیس بن منصور بن بلكین الزیری الصنهاجی (٤٠٦-٤٥٣هـ/١٠١٥-١٠٦١م) ، ولد سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م كان ملكا مهیبا سریا شجاعا عالی الهمة محبا للعلم ، كثیر البذل مدحته الشعراء ، وكان یرجع الی اسلام فخلع طاعة العبیدیة وخطب للقائم بأمر الله العباسی ، وحمل أهل بلاده علی مذهب الامام مالك .
عن ترجمته ومصادرها انظر : (الذهبی ، سیر أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١٤٠-١٤١) .

(٢) المقریزی ، اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطمیین الخلفا ، ج٢ ، تحقیق محمد حلمی أحمد ، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣) المستنصر بالله الفاطمی : أبو تمیم معد بن الظاهر بن الحاكم (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) ، ولد سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، وهو من أطول الحكام الفاطمیین زمنا فی الحكم وشهدت خلافته كثیرا من الأزمات من خروج المغرب عن طاعته ، والمجاعة ، والفتنة بین الجند الأتراك والسودان التی أضرت بمصر ، وفتح السلاجقة لبلاد الشام وسلخها من دولته ، الی غیر ذلك من الأمور .
انظر : (ابن خلكان ، وفیات الأعیان ، مجلد ٥ ، ص ٢٢٩-٢٣٠) .

(٤) ابن خلكان ، وفیات الأعیان ، ج٥ ، ص ٦٦ ـ الذهبی ، سیر أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١٠٩ .

من الخلع والألقاب قوبلت بالاستحسان من جانب السلطان طغرلبك فبعث الى الخليفة بعشرة آلاف دينار عيناً ، وأعلاقا نفيسة من الجواهر والثياب والطيب اضافة الى ذلك بعث بخمسة آلاف دينار للحاشية وألفى دينار لرئيس الرؤساء على بن المسلمة (١) (٢) .

وقد اثار هذا التقارب الشديد بين طغرلبك والخليفة العباسى القائم بأمر الله فزع وخوف أحد كبار القادة البويهيين الأتراك وهو أبو الحارث أرسلان البساسيرى الذى كان فى مبتدا حياته مملوكا لبهاء الدولة البويهى ، ثم تنقلت به الأحوال الى أن أصبح كبير القادة الأتراك والمقدم عليهم ونال مكانة مرموقة فى الدولة العباسية ، وفى ظل السيطرة البويهية (٣) ، وخطب له على منابر العراق وخوزستان والأهواز ونواحيها ، بل ان أحد المؤرخين يصور لنا نفوذ البساسيرى بأن الخليفة القائم بأمر الله "كان لايقطع أمرا دونه ، وغلبته عليه وقهر نوابه وامتهان خاصته وامتداد يده (٤) الى جباية الأموال" (٥) . وفى ظل مكانة كهذه هل كان البساسيرى سيقف موقف المتفرج من التقارب بين الخلافة والسلاجقة ؟ اذا لابد له من البحث عن المبررات لمحاولة الضغط على الخليفة لابعاد هؤلاء الذين ان تمكنوا من دخول بغداد فانه سيفقد

---

(١) رئيس الرؤساء على بن الحسن بن المسلمة : أبو القاسم ولد سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م وسنورد بعضا من سيرته وحياته فى المتن فى الصفحات التالية .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٠ .

(٣) محمد بن سالم بن شديد العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى ٤٤٧-٥٦٧هـ/١٠٥٥-١١٧١م ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٨٨،٨٩ .
ونسب البساسيرى الى مدينة بسا أو نسا احدى مدن اقليم فارس (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ١ ، ص ١٩٢) .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ .

مكاسبه السياسية التى كان يتمتع بها وسيدافع عن مكانته هذه بكل ما أوتى من قوة ، ولذا فانه ليس من الانصاف اتهام رئيس الرؤساء على بن المسلمة بأنه كان ينظر بعين الحقد والحسد الى مكانة البساسيرى فى الدولة العباسية (١) ، وأنه كان يعمل على القضاء عليه .

فابن المسلمة تذكر عنه المصادر أنه كان أحد العلماء الذين يتقنون عددا من العلوم الشرعية ، فقد وثقه الخطيب البغدادى وحدث عنه وقال فيه : "اجتمع فيه من الآلات مالم يجتمع فى أحد قبله مع سداد مذهب ووفور عقل وأصالة رأى) (٢) ، وقال فيه الذهبى : (كان من علماء الكبراء ونبلائهم" (٣) وقد بدأ ابن المسلمة حياته كأحد الشهود المعدلين استكتبه الخليفة القائم بأمر الله مدة ثم أسند اليه الوزارة سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م ولقبه رئيس الرؤساء شرف الوزراء جمال الورى (٤) . ومامن شك بأن شخصية هذه صفاتها يأمن اليها الخليفة القائم بأمر الله فى التخطيط والنظرة المستقبلية لمصير الخلافة فى ظل قوة فتية أصبحت قاب قوسين من بغداد ، والتخطيط أيضا للقضاء نهائيا على الدولة البويهية التى

---

(١) محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ١٨٥ – العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ، ص ٩٠ – محمود ادريس ، تاريخ العراق والمشرق الاسلامى خلال العصر السلجوقى الأول ، ص ١٠٠ – أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م ، ص ٣٥٣ .

(٢) تاريخ بغداد ، ج١١ ، المدينة المنورة ، بدون تاريخ الطبع ، ص ٣٩١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٢١٧ .

(٤) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج١١ ، ص ٣٩١ – ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٥١ – الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٢١٦-٢١٧ .

تنامت فى عهدها قوة الشيعة سواء كانت امامية أو اسماعيلية وتطلعات الخلافة الى القضاء على البويهيين كانت قائمة منذ أيام الخليفة القادر بالله ، ثم زاد هذا التوجه ابان حكم القائم بأمر الله حينما كان يلح على السلطان مسعود الغزنوى بالقدوم الى العراق ، وبانحسار النفوذ الغزنوى حل السلاجقة محلهم فى هذه التطلعات . ولم يكن ابن المسلمة الا أداة استخدمها القائم بأمر الله فى تحقيق هذه الأهداف ، ولعل مما ساعد الخليفة القائم بأمر الله أن فترة الملك الرحيم ٤٤٠-٤٤٧هـ/١٠٤٨-١٠٥٥م كانت فترة مليئة بالحروب والفتن بين الملك الرحيم واخوته ، وكانت هذه الحروب عاملا فى زيادة التدهور الاقتصادى الذى كانت تعانى منه العراق وقتذاك .

اذا فمن مصلحة الخليفة القائم بأمر الله التنسيق مع السلاجقة لاختيار الوقت الملائم لدخولهم بغداد بعد ازالة آخر عائق أمامهم وهو قوة البساسيرى ومن يتبعه من الأتراك وسنرى أن الوزير ابن المسلمة سيكون هو واجهة هذا الصراع الذى بدأت أولى بوادره حينما قبل الخليفة سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م حماية أبى الغنائم وأبى سعد ابنى المحلبان (١) بالرغم من تعديهما على أصحاب البساسيرى والقيام بالنهب والسرقة والقتل واهلاك الناس (٢). وقد حاول البساسيرى أن يلقى القبض عليهما بالرغم من حماية الخليفة القائم بأمر الله لهما الا أنه فشل فى ذلك (٣) ، فغادر بغداد الى حربى مغاضبا ثم عاد

---

(١) لم أجد لهما ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٣) حربى : بالألف المقصورة ، بليدة فى أقصى دجيل بين بغداد وتكريت . (معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٧) .

اليها مرة أخرى دون أن يمر على الخليفة كما هى عادته (١) . ثم انتهز البساسيرى فرصة مرور سفينة أحد أقارب ابن المسلمة وقام بحجزها مطالبا بالضريبة التى عليها (٢) ، ولم يكتف بذلك اذ قام فى خطوة تالية باسقاط مشاهرات (٣) الخليفة من دار الضرب وكذلك الوزير (٤) ، لعله يستطيع بذلك تنفيذ مايريده من ابن المحلبان . ثم قام البساسيرى بخطوة أخرى لاختبار موقف الخلافة من هذه الاجراءات فأمر بهدم دور ابنى المحلبان الا أنه منع من ذلك ، وهنا أفصح البساسيرى عن السبب الحقيقى من كل الغضب الذى كان يشعر به حينما نسب خلافه مع الخليفة الى سعى ابن المسلمة فى ذلك وأن الوزير أطمع السلاجقة وكاتبهم (٥) . ولعل البساسيرى لم يستطع أن يتهم الخليفة مباشرة بهذا الاتهام فاتهم وزيره بذلك .

ولكى يبرهن البساسيرى على أنه يستطيع أن ينفذ مايريده من الخليفة وغيره فانه تتبع أبا الغنائم وأبا سعد الى الأنبار (٦) بعد أن غادروا بغداد ، وهناك حاصرهم فى هذه المنطقة وتمكن فى النهاية من أسر أبى الغنائم واقتاده الى

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٠ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٠ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٣) المشاهرات : جمع مشاهرة وتعنى المعاملة شهرا بشهر ، وهذا يعنى دفع الأرزاق أو الأعطيات أو تقدير النفقات أو جباية الأتاوات شهرا بشهر .
انظر : (ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص ٤٣٢) .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٦) الانبار : مدينة تقع على الفرات فى خط عرض بغداد وكانت أكبر المدن الآهلة فى اقليم العراق زمن العباسيين . انظر : (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧) .

بغداد مقيدا فى صورة مشينة[(١)] . ورغم عمله هذا فقد حاول البساسيرى أن يخفف من حدة الغضب من جانب الخليفة القائم بأمر الله حينما تظاهر بالخضوع والطاعة له وهو يجتاز بدار الخلافة[(٢)] . ويبدو أن تظاهره بالخضوع هذا لم يلق قبولا من جانب الخليفة اذ يذكر ابن الجوزى أن البساسيرى أحضر الى دار الخلافة فى أوائل سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وأحلف على اخلاص الطاعة[(٣)] .

ومن جانب آخر كان ابن المسلمة يمهد عقب هذه الأحداث لايجاد انقسام فى صفوف الموالين للبساسيرى من الجند الأتراك ، كما أنه استعدى عليه طائفة لها ثقلها فى المجتمع البغدادى ولها أيضا مكانتها عند الخليفة القائم بأمر الله وأعنى بها طائفة الفقهاء الذين قاموا بتحرك فى ربيع الثانى سنة ٤٤٧هـ/يونيه ١٠٥٥م هدفه اقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحصلوا على الاذن من ديوان الخليفة فى اقامة هذه الشعيرة . وكان أول ماوقع فى يدهم هى سفينة كانت مملوءة ستمائة جرة خمر مملوكة لأبى سعد النصرانى متوجهة الى واسط لتوصل الى البساسيرى ، فقاموا باراقة هذه الخمور وتكسير جرارها .

ومما لاريب فيه أن عثور الفقهاء على هذه الكمية من الخمور لم يكن مصادفة وانما بتتبع ومراقبة ابن المسلمة لكل مايخص البساسيرى . وقد تحرك البساسيرى أيضا فى نفس الاتجاه حينما جمع مجموعة من الفقهاء الأحناف وأخذ

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .
(٣) المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٧-٦٠٨ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٨ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٣ ، وذكر أنها تحمل تمرا بدلا من خمر .

فتاويهم بأن ماحدث من اراقة الخمور وتكسير الجرار كان غير واجب لأن هذه ملك رجل نصراني لايجوز التعدى عليها (١) .

الا أن الجانب المؤثر في ذلك الخلاف بين ابن المسلمة والبساسيرى تمثل في تمكن ابن المسلمة من ضرب البساسيرى بواسطة مجموعة من اتباعه الاتراك واستمالتهم الى جانبه . ويذكر في هذا الصدد أن السبب في انحراف هؤلاء الاتراك عن قائدهم البساسيرى هو عدم توصيل البساسيرى حقوقهم المالية اليهم (٢) . لكن الأسباب الحقيقية غير ماذكر ، اذ أن من بين هؤلاء من كان يطمع في الحصول على مركز البساسيرى ونفوذه ، وهذا أحد الأسباب ، أما السبب الآخر فهو التعهد أمام الخليفة بالقضاء على البساسيرى مقابل أن يتعهد الخليفة أمامهم بعدم تمكين السلاجقة من دخول بغداد .

وتتكشف لنا هذه الأسباب من خلال نقاش جرى بين هؤلاء الاتراك والخليفة القائم بأمر الله قرب وصول طغرلبك الى بغداد ومحاولتهم اثناءه عن هذا الأمر - كما سيأتى فيما بعد - ويبدو أن الخليفة أو وزيره ابن المسلمة قد أعطاهم مايريدون من تعهد (٣) ، ومن ثم طلبوا من الخليفة السماح لهم بنهب دور البساسيرى ودور الموالين له فأذن لهم الخليفة في ذلك (٤) ، خاصة بعد أن أكد ابن المسلمة للخليفة أن البساسيرى قد كاتب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وخلع مافي عنقه للخليفة القائم بأمر الله (٥) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٨ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٨ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٨ .
(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ .

وقد طلب بعض هؤلاء المنشقين عن البساسيي الاذن لهم في الفتك به الا أن الخليفة لم يكن متعجلا في الحكم عليه وقال كما يقول المصدر : "ليس الآن اهلاكه" (١) .

وعلى كل فان ماأشار الخليفة ودعاه الى التعجيل بطلب حماية السلاجقة كان وصول عدد من الجند الأتراك الذين عادوا من واسط وذكروا للخليفة أن البساسيري أخبرهم وهو في واسط أنه ينوي نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة القائم بأمر الله (٢) . وقد تمت استجابة طغرلبك لنداء الخليفة القائم بأمر الله بسرعة فائقة مما يؤكد أن التخطيط لهذه المرحلة كان مسبقا وكان ينتظر الفرصة المناسبة وقد حانت بالكتابة الى طغرلبك بالدخول الى بغداد .

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ .

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج١ ، ص ٤٠٠ – ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٣ – ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة عني بنشره وعلق عليه علي سويم ، أنقره ١٩٧٦م ، ص ٥ – ابن ظافر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية) تحقيق محمد مسفر الزهراني ، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٢٦٧ – السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج٥ ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ص ٢٤٨ – السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٥ .

(ب) دخول طغرلبك بغداد فى رمضان سنة ٤٤٧هـ / ديسمبر ١٠٥٥م

وصل طلب الاستدعاء من الخليفة القائم بأمر الله الى السلطان طغرلبك بعد وصول الأخير الى همذان قادما من الرى فى محرم سنة ٤٤٧هـ/ابريل ١٠٥٥م ، وعلى أثر وصول رسالة الخليفة طلب السلطان طغرلبك من قادته فى الدينور وقرميسين وحلوان باعداد العلوفات والأقوات والاستعداد لمصاحبته الى بغداد (١). وفى همذان أعلن سياسته التى سينتهجها فى المرحلة المقبلة وهى أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة المكرمة (٢)، والمسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر بالله الخليفة الفاطمى .

وبعد اكتمال استعداداته تقدم الى حلوان ومنها أرسل رسولا الى الخليفة القائم بأمر الله يظهر طاعته وموالاته له (٣) ومن جانب آخر لم يهمل السلطان طغرلبك البقية الباقية من الجند الأتراك الذين انحازوا الى الخليفة فى بغداد ، وانشقوا عن البساسيرى فوعدهم فى رسالته بالجميل والاحسان (٤)، الا أن هؤلاء الجند لم ترضهم هذه الوعود ، ومن ثم أرسلوا الى الخليفة قائلين : "اننا فعلنا بالبساسيرى مافعلناه وهو كبيرنا ومقدمنا بتقدم أمير المؤمنين ووعدنا أمير

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٩ .
(٢) هو طريق الحاج العراقى والمعروف بدرب زبيدة ـ عن هذا الطريق انظر : (سيد عبد المجيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٧) .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٤ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٩ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ .

المؤمنين بابعاد هذا الخصم عنا ، ونراه قد قرب منا ولم يمنع من المجيء ..." (١) ، وطلبوا من الخليفة في نهاية رسالتهم أن يبعد السلاجقة عن بغداد كثمن لما فعلوه بالبساسيرى . ولم يدرك هؤلاء أن الخليفة هو الذى استدعى السلاجقة ، ومن ثم فان الخليفة ووزيره ابن المسلمة تهربا عن اجابة مطالب هؤلاء الأتراك (٢) . أما الملك الرحيم فقد وصلت الى مسامعه أنباء تقدم السلطان طغرلبك نحو بغداد ، كما وصلت اليه رسالة من الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه فيها ابعاد البساسيرى الذى خلع الطاعة وكاتب الفاطميين وذكره في رسالته هذه أن بين الخليفة والملك الرحيم عهوداً فاذا كان يود الابقاء عليها فعليه الالتزام بتنفيذ الأوامر الموجهة اليه ، بشأن البساسيرى (٣) .

وكان الملك الرحيم في موقف لايحسد عليه ، ففى نفس السنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م كان الأمير أبو على بن أبى كاليجار ، قد استولى على الأهواز لصالح السلطان طغرلبك وقطع خط الامدادات القادمة الى العراق من اقليم فارس (٤) . أما المناطق الشمالية من العراق فقد كانت تحت سيطرة السلاجقة . هذا فضلا عن أن القوى الداخلية كانت مفككة ، ولذلك لم يكن أمام الملك الرحيم الا الاذعان للخليفة ليبقى على ماتبقى له من نفوذ فى العراق ، وقام بطرد البساسيرى ، ثم توجه من واسط فورا الى بغداد التى وصلها فى منتصف رمضان سنة ٤٤٧هـ/أوائل ديسمبر ١٠٥٥م ، وعلى الفور أرسل الى الخليفة القائم بأمر الله

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٩ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٣ .

يجدد ولاءه له وأنه قد سلم أمره اليه ، كما أنه فوضه فى أخذ الضمانات اللازمة تجاهه وتجاه قادته من السلطان طغرلبك ورد عليه الخليفة بأنه من الأفضل للملك الرحيم "... أن يدخل الأجناد خيامهم من ظاهر بغداد ، وينصبوها بالحريم .." (١) وأن يبعث الى السلطان طغرلبك رسولا ينقل طاعته له والموافقة على اقامة الخطبة فى بغداد باسم السلطان طغرلبك وهو مافعله الملك الرحيم اذ أرسل الى السلطان السلجوقى بما اقترحه الخليفة ولقد لقيت هذه الخطوة من السلطان طغرلبك قبولا ووعدا من جانبه بالاحسان اليهم مقابل ما أظهره الملك الرحيم تجاه الوضع الجديد (٢) .

وعلى أثر هذه الأحداث وأمر الخليفة الخطباء بجوامع بغداد بالخطبة للسلطان طغرلبك ابتداء من يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة ٤٤٧هـ/١٦ ديسمبر ١٠٥٥م (٣) .

كما أن السلطان طغرلبك أرسل الى القائم بأمر الله يستأذنه فى دخول بغداد ، فأذن له فى ذلك وخرج لاستقباله رئيس الرؤساء بن المسلمة فى موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم وأعيان الدولة ، وصحبه أعيان الأمراء من عسكر الرحيم . والملاحظ أن الخليفة كلف وزيره بأخذ العهود والمواثيق من السلطان طغرلبك للخليفة وللملك الرحيم وسائر الأجناد ، وبعد أن حمل عليها دخل السلطان السلجوقى بغداد يوم الاثنين لخمس بقين من رمضان سنة ٤٤٧هـ (٤) ، وبدخوله بغداد تحققت أعظم أمانيه

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٩ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٩ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٩ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٤ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٠ .

التى سعى من أجلها وهو ماعبر عنه السلطان طغرلبك حينما دخل عليه رئيس الرؤساء ابن مسلمة كى ينبهه الى المراسم الواجب القيام بها أمام الخليفة القائم بقوله : "ماوردت الامنصرفا عن الأوامر السامية وممتثلا للمراسم العالية ومتميزا عن ملوك خراسان بالدنو من الخدمة الشريفة ومنتقما من أعدائها ، وسائر الى بلاد الشام لفتحها واصلاح طريق الحج" (١) . وهو بهذا القول يجدد أمام الوزير ماسبق أن تعهد به وهو فى همذان من ايضاح لسياسته المقبلة تجاه الدولة الفاطمية واصلاح طريق الحج .

ويحسن بنا أن نتابع بعض الحوادث التى جرت فى بغداد بعد دخول السلاجقة لما لها من نتائج مهمة ، سواء بالنسبة للدولة البويهية ، أو بتعضيد فتنة البساسيرى وشد أزرها . ولعل أهم حدث وقع بعد دخول السلاجقة بغداد هو ماحصل من فتنة بين سكانها والجند السلجوقى ، وسبب ذلك أن بعض الجند السلجوقى نزلوا الى الأسواق فى نفس اليوم الذى دخلوا فيه لقضاء بعض حاجاتهم وكانت معاملتهم للأهالى حسنة (٢) ، وفى اليوم التالى ذهب أحدهم الى باب الأزج (٣) للامتيار وقضاء بعض حوائجه ، ولجهله باللغة العربية فقد اقتاد أحد المارة ليعرفه بما يريد ، الا أن ذلك المقتاد ظن أن السلجوقى يريد به شرا فاستغاث بمن حوله من العامة ، وانقلب الموقف من الهدوء والسكينة الى النقيض تماما ، اذ ثار سكان حى باب

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٤ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١١ .
(٣) باب الأزج : الأزج محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال كبار فى شرقى بغداد . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان مجلد ١ ، ص ١٦٨) .

الأزج على من فيه من جنود وقتلوهم (١). وسرت شائعة في بغداد أن الملك الرحيم وقادته يقاومون السلاجقة فهب أهل بغداد يقتلون كل من صادفوه من الجند السلجوقي (٢)، وازداد بهم الحماس الى الخروج من بغداد لمقاتلة الجند السلاجقة خارج بغداد ، وظن أهل بغداد أن مواجهة الجيش السلجوقي خارج بغداد ستكون سهلة كما حدث معهم داخل المدينة . وحدثت معركة رهيبة بين الجانبين قتل فيها الكثير من الطرفين علاوة على الجرحى منهم ، وأسفرت هذه المعركة عن تغلب السلاجقة على الأهالي (٣). وقد شجعهم هذا الانتصار على متابعة سيرهم الى داخل بغداد والقيام بأعمال السلب والنهب ومصادرة أموال الناس بعد أن كانوا منتظمين ، ولم يفرق هؤلاء الجنود بين منازل علية القوم الموالين لهم وبين منازل العامة ، اذ طال نشاطهم دور الوزير ابن المسلمة وغيره من الأعيان في غالب أحياء بغداد (٤).

ومما ينبغي ملاحظته هنا أن سكان الكرخ (٥) الشيعة كانوا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١١ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١١ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١١-٦١٢ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٩ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٢ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٥٩ .

(٥) الكرخ : المقصود بهذا الموضع كرخ بغداد ويذكر ياقوت أنها كانت أولا في وسط بغداد وأصبحت في وقته مفردة وحدها وسط الخراب ، وأهل الكرخ كلهم شيعة امامية لايوجد فيهم سني . انظر : (معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٤٨) وهي المحلة الجنوبية في الجانب الغربي من بغداد (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٩) .

استثناء من هذه الحوادث ، اذ أنهم قاموا منذ بداية الفتنة بايواء من لجأ اليهم من الجند السلجوقى وحموهم ، مما دفع بالسلطان طغرلبك الى أن يبعث الى نقيب العلويين ليشكره بنفسه على هذا الموقف ويأمر بتسيير عدد من الجند لحماية أهل الكرخ . وهذا الموقف من سكان محلة الكرخ لايمكن تفسيره بأنه موالاة للسلطة الجديدة بقدر ماهو ادراك منهم بالنتائج المترتبة من مثل هذه الأعمال لو اشتركوا فيها ، خصوصا أنهم مخالفون لمذهب السلاجقة السنة ، وسنرى فيما بعد كيف عامل سكان هذا الحى أهل السنة عقب دخول البساسيرى بغداد سنة ٤٥٠هـ (١) .

أما الملك الرحيم وقادته فانهم تواروا عن الأنظار فى خضم هذه الأحداث دفعا عن أنفسهم عما راج فى بغداد من ضلوعهم فى اثارة الناس ضد السلاجقة ولزموا دار الخلافة . ويعلق ابن الأثير على هذا الموقف بقوله : "... فلو تبعهم - أى العامة - الملك الرحيم وعسكره لبلغوا ما أرادوا ولكن تخلفوا ودخل أعيان أصحابه الى دار الخلافة وأقاموا بها نفيا للتهمة عن أنفسهم ظنا أن ذلك ينفعهم ..." (٢) .

أما فيما يتعلق بالسلطان طغرلبك فانه أرسل الى الخليفة يعتب عليه فى هذه الأحداث وطالبه بحضور الملك الرحيم ورفاقه حتى يتأكد من خلو ساحتهم من هذه الأحداث ، واذا لم يلتزموا بالحضور تأكد لديه مواطئتهم لأهل بغداد (٣) .

---

(١) انظر : ص ٢٢٣ .
(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٦١١-٦١٢ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٢ .

وفى سبيل استدراج هؤلاء أرسل اليهم أمانا لهم حتى يطمئنوا ، مما شجع الخليفة على أن يطلب من الملك الرحيم واتباعه المثول أمام السلطان طغرلبك (١) . وأرسل الخليفة معهم من يؤكد براءتهم مما نسب اليهم ، لكن السلطان كان قد أضمر القبض على هؤلاء النفر ، ولعله قد وجدها فرصة فى مثل هذا الحدث ليتخلص نهائيا من الملك الرحيم ليقضى على آخر أمل للبويهيين ومن يتعاطف معهم من الجند والأهالى .

وقد وصل الملك الرحيم وقادته الى معسكر السلطان ، وكانت أولى بوادر سوء النية تجاههم هو ماقام به الجند السلجوقى من نهب لدوابهم وثيابهم ومعهم رسول الخليفة أيضا وعقب ذلك أمر السلطان طغرلبك بالقبض على الملك الرحيم ومن كانوا معه ، ثم أمر باعتقاله فى قلعة السيروان (٢) ، وبهذا طويت صفحة الدولة البويهية بنهاية آخر ملوكها الملك الرحيم على هذا النحو .

أما الخليفة القائم بأمر الله فقد أعلن غضبه مما جرى للملك الرحيم ، وأرسل الى السلطان طغرلبك رسالة قال فيها "انما خرجوا اليك بأمرى وأمانى فان أطلقتهم والا فانا أفارق بغداد ، فانى انما اخترتك واستدعيتك اعتقادا منى أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد والحرمة تعظم وأرى الأمر بالضد ..." (٣) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٢ – ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٦٠ – أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٧٣ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٣ .

ورغم هذا التهديد فان تجاوب طغرلبك مع الخليفة كان محدودا ، فقد أمر باطلاق سراح بعض من كان فى معية الملك الرحيم ، وفى نفس الوقت وسع من اجراءات المصادرة لكل ماله علاقة بالملك الرحيم أو قادته وأمر الجند الأتراك الذين كانوا قد انشقوا عن البساسيرى وانحازوا الى الخليفة والذين كانوا قوام القوة فى بغداد بالبحث عن أعمال أخرى غير الجندية ، بعد أن أخذ أموالهم (١) ، وأمام هذه الظروف التى وجدوا أنفسهم فيها لم يجدوا سوى اللجوء الى قائدهم القديم البساسيرى الذى استفاد من معظمهم فى حروبه ضد السلاجقة كما سيأتى بيانه .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٣ .

(ج) فتنة البساسيرى

بعد طرد الملك الرحيم للبساسيرى توجه الأخير الى دبيس ابن مزيد فى الحلة لمصاهرة بينهما (١) . وعقب دخول السلطان طغرلبك بغداد ، أمر دبيسا بابعاد البساسيرى من بلاده فاستجاب لهذا الأمر (٢) . ولم يجد القائد التركى الفار سوى اللجوء الى الدولة الفاطمية حيث نزل الرحبة (٣) ، ومن هناك بعث الى المستنصر بالله الفاطمى يستأذنه فى القدوم الى مصر .

وتذكر بعض المصادر أن بعض رجال الدولة الفاطمية أشار على المستنصر بالله ألا يمكنه من دخول الديار المصرية ، كما أشير عليه بأن يعد البساسيرى بما يرضيه وأن يسير اليه الخلع ، وقد استجاب المستنصر بالله لهذه المشورة (٤) . ويبدو أن هذا الموقف الأولى الذى اتخذه المسؤولون الفاطميون كان بمثابة اختبار للبساسيرى فى مدى جدية وولاء ورغبة هذا القائد فى الانضمام الى الفاطميين ، ولذلك نرى البساسيرى

---

(١) هو نور الدولة دبيس بن على بن مزيد الأسدى ٣٩٤-٤٧٤هـ/ ١٠٠٤-١٠٨١م ، أمير العرب فى الحلة ووليها بعد وفاة أبيه ، كان ممدوح السيرة جوادا فارسا وفيه تشيع ، انظر ترجمته ومصادرها فى : الذهبى ، سير أعلام النبلاء ج١٨ ، ص ٥٧ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٣ .

(٣) الرحبة : هى رحبة مالك بن طوق التغلبى ، بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام وهى بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات . (معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٤) .

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٣ ـ ابن منجب الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤م ، ص ٤٤ ، وذكر أنه كاتب اليازورى بدلا من المستنصر بالله .

يكرر رسائله اليهم متعهدا لهم بأخذ بغداد واقامة الخطبة بها للمستنصر بالله وازالة الدولة العباسية ، وانه سيكون ندا للسلطان طغرلبك ، وسيرده عن قصد الديار الشامية (١) .

لذا فتحت الدولة الفاطمية خزائنها وجاءت بأموال ضخمة اختلفت المصادر فى تقديرها . فابن تغرى بردى يذكر أن الفاطميين بعثوا الى البساسيرى بخمسمائة الف دينار ، ومن الثياب ماقيمته مثل ذلك ، وخمسمائة فرس ، وعشرة آلاف قوس ، ومن السيوف الوف ، ومن الرماح ، والنشاب شىء كثير (٢) . بينما يذكر المقريزى أن مابعثه الفاطميون كان الفى الف ، وثلثمائة الف دينار . العين الف الف وتسعمائة الف دينار ، والعروض أربعمائة الف دينار (٣) . ويؤكد المقريزى على ضخامة مابعثه الفاطميون الى البساسيرى قائلا : "فجهزت اليه خزائن الأموال العظيمة على يد المؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله ابن موسى فى سنة ثمان وأربعين حيث لم يترك فى خزائن أموال القصر شىء البتة" (٤) .

ورغم المبالغة من جانب هذه المصادر فى تقدير هذه الأموال فانها تتفق فى خلو هذه المعونة من امداده بالجند النظامية (٥) ، ولعل أهم ماكان يحتاجه البساسيرى بجانب الأموال التى بعثت اليه هو القوات النظامية .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٣ – القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ٨٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ، ج٥ ، تعليقات محمد رمزى ، القاهرة ص ١١-١٢ .
(٣) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٢ .
(٤) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٣ .
(٥) العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ، ص ١٠٠ .

لكن الفاطميين اكتفوا بالأموال فقط . وقد حاول العوفى طرح تفسير لهذه السياسة الفاطمية فعزاها "الى تردد الفاطميين فى اخلاص البساسيرى وشكهم فى مدى نجاحه (١) .

يضاف الى ذلك خروج المعز بن باديس فى المغرب عن طاعة الفاطميين سنة ٤٤٣هـ وقطع الخطبة لهم نهائيا فى بلاده واقامتها للخليفة القائم بأمر الله العباسى (٢) .

ولم يتوقف المعز بن باديس عند هذا الحد بل انه

---

(١) العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة لافاطمية والدولة العباسية ، ص ١٠١ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٢١ ، وذكرها فى حوادث سنة ٤٣٥هـ ، وفى ص ٥٦٦ ذكر أن التحول الى خطبة العباسيين تم سنة ٤٤٤هـ . وعند النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب (تاريخ المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط) تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد ، الدار البيضاء بدون تاريخ ، ص ٣٤١ ذكرها فى سنة ٤٣٥هـ - وفى العبر لابن خلدون ، مجلد ٤ ، ص ٦٢ يؤكد أن قطع الخطبة للفاطميين تم سنة ٤٤٠هـ ، وأن المستنصر بعث الى المعز يهدده . أما المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٠ فيذكر أن قطع الخطبة للفاطميين واقامتها للعباسيين كان سنة ٤٣٥هـ ، وفى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى ، ج١ ، تحقيق ج.س. كولان وليفى بروفنسال ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٢٧٥ ، أن قطع الخطبة كان سنة ٤٣٣هـ ، وفى ص ٢٧٧ يذكر أنها كانت فى سنة ٤٤٠هـ . الا أن هذه المصادر تجمع على أن القطيعة =

كان قد سمح لأهل السنة بالقضاء على الشيعة وقتلهم أينما وجدوا (١) ، واعتمد مذهب الامام مالك مذهبا رسميا (٢) ، ولم يتردد الفاطميون فى مواجهة هذا الخطر اذ عمد الوزير اليازورى الى اصلاح ذات البين بين قبيلتى زغبة ورياح وأنفق فيهم الأموال وجهزهم لقتال المعز بن باديس ، وأباح بلاده لهم (٣) .

ورغم الحروب الطويلة بين هاتين القبيلتين وجند المعز ابن باديس فان هذه المعارك لم تحسم فى الوقت الذى تقدم فيه البساسيرى بطلب المعونة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، ولذا استجابت الدولة الفاطمية فى تدعيم مواجهة البساسيرى

= النهائية كانت سنة ٤٤٣هـ أى بعد أن تولى الوزارة الفاطمية أبو محمد الحسن بن على اليازورى ، وانتقاص المعز بن باديس له فى مخاطبته ، مما دفع باليازورى الى أن يهدده اذا لم يلتزم الأدب معه ، فكان أن ازداد المعز فى عناده ، وانتهزها فرصة ليقطع كل علاقة بالدولة الفاطمية .
وانظر حول هذه القضية عند (ابن منجب الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٤١-٢٤٢) .
وانظر : (العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ، ص ٢٥٦-٢٦٨ ، فقد تكلم عن خلفية هذا الصراع باسهاب ومبينا جذوره الأولى ومحللا لهذه القضية من المصادر التى اعتمد عليها فى هذا الموضوع) .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج١ ، ص ٢٧٤ - النويرى ، نهاية الأرب (تاريخ المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط ، ص ٣٣٥-٣٣٦) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج١ ، ص ٢٧٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٦٦ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٦٢ - المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٢٤ - ابن منجب الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٤٢ - ولم أجد تعريفا واضحا لقبيلتى زعبه ورياح لكن ابن خلدون يذكر أنهما من قبيلة بنى هلال (العبر ، مجلد ٤ ، ص ٦٢) .

للسلاجقة ، وان كانت قد اكتفت بتزويده بالأموال والعتاد لأن جناحها الغربي وهو افريقية كان مسرحا للقتال مع المعز بن باديس . ولم تتردد الدولة الفاطمية في مساندة البساسيري على هذا النحو بسبب العداء الشديد بين العباسيين والفاطميين ، والتنافس بينهما على زعامة العالم الاسلامي . وهو مازداد خطورة بعد أن علم الفاطميون عن طريق جواسيسهم بما تعهد به السلطان طغرلبك قبل دخول بغداد وبعد دخوله بغزو بلاد الشام ومصر ، وانهاء الحكم الفاطمي .

ويذكر لنا المقريزي فحوى رسالة بعث بها الوزير الفاطمي اليازوري الى السلطان طغرلبك يهنئه بدخوله بغداد واستعداده لمبايعته وتسليم الدولة الفاطمية اليه ، لكنه طلب ايضا من السلطان السلجوقي عدم التوجه الى بلاد الشام لأن هذه البلاد لاتحتمل أن يطئها السلطان بعساكره ، وتخرب مواردها ولاينتفع منها السلطان ، والأولى انتظار الفرصة المناسبة لدخول هذه البلاد . وقد أثنى السلطان طغرلبك على اليازوري ووصفه بأنه رجل عاقل بعد اطلاعه على رسالته (١) ، الا أن الوزير الفاطمي لم يكن من السهولة التي تصورها السلطان طغرلبك ، فقد استطاع برسالته هذه وأن يثبط من عزم السلاجقة في التقدم نحو الشام (٢) .

ويذكر لنا المقريزي أيضا فحوى رسالة أخرى لليازوري الى طغرلبك يتهدده فيها ، وأنه ليس من السذاجة الى درجة أن يسلم الأعمال التي أؤتمن عليها ، وفي نهاية الرسالة

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .
(٢) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

يعرض عليه عقد هدنة بين الطرفين ، والا فان السيف هو الحكم (١).

ومع أن المقريزى ذكر مناسبة رسالة اليازورى الأولى الى السلطان طغرلبك وهى مناسبة دخوله بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م الا أنه لم يذكر توقيت رسالته الثانية لكنه ذكر مناسبتها عندما انتهز الوزير الفاطمى عودة غالب الجند السلجوقى الى ديارهم ، ومما لاشك فيه أيضا أن تلك الرسالة كتبت بعد أن تأكد الفاطميون من ولاء البساسيرى لهم ، ومن هذا يتضح أن الدولة الفاطمية كانت بين خطرين كلاهما كان ينوى القضاء عليها المعز بن باديس فى المغرب ، والسلاجقة من المشرق ، علاوة على التوتر الذى طرأ بين البيزنطيين والفاطميين بسبب قبول الدولة البيزنطية اقامة الخطبة فى مساجد القسطنطينية للخليفة العباسى القائم بأمر الله بدلا من المستنصر بالله الفاطمى ، وحدوث اشتباك مسلح بينهما فى أواخر سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م (٢). ولذا فان قرار الفاطميين هو

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) كانت بداية التوتر بين البيزنطيين والدولة الفاطمية عندما طلب الخليفة الفاطمى من الامبراطور قسطنطين التاسع امداد مصر بأربعمائة ألف اردب من القمح ووافق الامبراطور على هذا الطلب وتوفى قبل شحنها ، فخلفته تيودورا فى الحكم سنة ١٠٥٥م واشترطت على الدولة الفاطمية مقابل امدادات القمح امدادها بعساكر مصر اذا ثار عليها أحد وتعرضت الدولة البيزنطية لأى هجوم فرفضت الدولة الفاطمية هذا الشرط ، ثم زاد الأمور تعقيدا بينهما عندما استقبلت الامبراطورة تيودورا رسل السلطان طغرلبك وسمحت باقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله فى مساجد القسطنطينية .
انظر حول هذا الموضوع : (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٠-٢٣١ - حسنين محمد ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ١٨٢-١٨٤ - على عودة الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٩٣) .

استغلال البساسيرى ومن انضم اليه من الترك والديلم والأكراد والعرب واستثمار خبرتهم فى اقليم العراق وايثارهم بالأموال لاجتذابهم اليها .

ومن جانب آخر يبقى الفاطميون طاقتهم العسكرية لحين الحاجة الحقيقية لها بانتظار ماتسفر عنه الأحداث فى المغرب والمشرق .

وقد اختار الوزير الفاطمى لمهمة توصيل الأموال والعتاد للبساسيرى والاتصال مع بعض قبائل العرب وكسبهم الى جانب الفاطميين الداعى الاسماعيلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (١) ، ومما لاشك فيه أن هذا الاختيار جاء لمعرفة اليازورى بخبرة ومعرفة هذا الداعى لكثير من الأمراء العرب وخاصة قريش بن بدران العقيلى (٢) ودبيس بن مزيد الأسدى لاستثمار هذه المعرفة فى ضم هؤلاء الأمراء ، رغم أن المؤيد حاول فى مذكراته أن يرجع تكليفه بهذه المهمة الى ابعاده عن مصر خوفا من منافسته لليازورى فى منصب الوزارة التى كان يتولاها (٣) .

ومهما يكن من أمر فقد وصل المؤيد الى الرحبة التى جعلت قاعدة للهجوم على السلاجقة ، وكان مع المؤيد اضافة الى الأموال التى كانت بصحبته خلع وتقاليد للأمراء العرب (٤) ،

---

(١) المؤيد هبة الله الشيرازى ، مذكرات داعى دعاة الدولة الفاطمية ، ص ١٢٨ .
(٢) قريش بن بدران العقيلى : علم الدين أبو المعالى أمير بنى عقيل من (٤٤٣-٤٥٣هـ/١٠٥١-١٠٦١م) وصفه سبط ابن الجوزى بأنه كان داهية بخيلا سفاكا للدماء بعيد الغور غدارا ، وذكر وفاته فى حوادث سنة ٤٥١هـ .
انظر : (مرآة الزمان ، ص ٧٠-٧١) .
(٣) المؤيد هبة الله الشيرازى ، مذكرات داعى دعاة الدولة الفاطمية ، ص ١٢٧ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٥-٦٢٦ .

الذين لم يكن قد اتضح موقفهم من الفاطميين وكانوا وقتذاك يخضعون للسلطان طغرلبك . وأهم هذه القيادات هو قريش بن بدران العقيلى ودبيس بن مزيد الأسدى . وكان هدف الفاطميين من ذلك هو محاولة كسب هؤلاء القادة الى جانبهم فاذا لم تنجح مساعيهم فى هذا الصدد فان الأموال المصاحبة لداعيهم المؤيد كانت قمينة بأن تجذب اليهم رعايا هؤلاء الأمراء وبذلك تجردهم من أنصارهم وقبائلهم .

وقد نجحت سياسة الاغراء بالنسبة للعقيليين وكيفية ذلك أن البساسيرى كان قد سبق له قبل طرده من بغداد أن قرب اليه مقلد بن بدران العقيلى (١) وعزم على تسليمه المناطق التى يحكمها أخوه قريش الا أنه لم يتمكن من تنفيذ ماعزم عليه بسبب دخول السلطان طغرلبك بغداد (٢) ، فلما هرب البساسيرى الى الرحبة تبعه الأمير مقلد بن بدران خوفا من أخيه ، وبعد ذلك حدث خلاف بين قريش وقومه بسبب بقائه على ولائه للسلاجقة وذكروه بمعركتهم منهم مع الغز (٣) سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م وقتل أعدادا كبيرة منهم ، وأن السلطان طغرلبك يسعى للأخذ بثأرهم (٤) الا أن قريشا لم يستجب لتحذيرهم ، ولاشك أن هذا الخلاف كان بتأثير الأموال التى بذلها لهم المؤيد وبتحريض من مقلد بن بدران ، ويبدو أن اخلاصه لدولة السلاجقة لم يكن عن قناعة وانما انتقاما من البساسيرى الذى عمل على اقصائه عن الامرة

---

(١) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٤ .
(٣) هم أتباع أرسلان بن سلجوق والذين تحدثنا عنهم فى الفصل الأول ، ص ٩٢ ، وسنكمل حديثنا عنهم فى الفصل الخامس ، ص ٣٣٤ ومابعدها .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٤ ، ويشيرون بذلك الى مافعله قرواش بن المقلد فى تلك السنة من قتل طائفة كبيرة من التركمان وانظر حول هذا الموضوع فى الفصل الخامس ، ص ٣٣٩ .

كما أنه لم يكن مقتنعا بوعود الفاطميين الذين خصوه من بين أمراء العرب برسالة بعثها الوزير اليازورى اليه ، وتعجب فيها من قريش كيف وهو الشيعى الذى يدين لآل البيت بالطاعة ورغم ذلك ينحاز الى السلاجقة ولاينظم الى البساسيرى (١) ، وعلى كل حال فان قريشا رغم محافظته على ولائه للسلاجقة الا أنه فشل فى ابقاء قبيلته معه فى هذا الاخلاص والولاء للسلاجقة وسيكون لموقفهم هذا أثر فى معركة سنجار التى سنتحدث عنها فيما بعد .

أما دبيس بن مزيد الأسدى فانه كان يسير فى نفس الاتجاه الذى سار عليه قريش غير أن أحداثا استجدت أجبرته على الانحياز الى البساسيرى عندما أرسل السلطان طغرلبك جنوده الى مناطق نفوذ كل من قريش ودبيس ربما كنوع من بسط السيادة أو للحماية من هجمات متوقعة للبساسيرى عليها . غير أن هؤلاء الجنود تعدوا المهام التى كلفوا بها الى القيام بالسلب والنهب (٢) ، مما دفع بقريش ودبيس الى أن يكاتبا السلطان طغرلبك ويشكوان اليه من جنوده وطلبا منه السماح لهما الاجتماع بوزيره عميد الملك الكندرى (٣) فى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٤-٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧-٨ .

(٣) عميد الملك الكندرى : أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الكندرى نسبة الى قرية من قرى نيسابور تدعى كندر التى ولد بها سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وكان سبب اتصاله بالسلاجقة أن السلطان طغرلبك حينما دخل نيسابور طلب رجلا يكتب له ويكون فصيحا بالعربية فدل على محمد بن منصور الكندرى ، فاستخدمه ثم ولاه الوزارة وحين دخل مع السلطان طغرلبك سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م لقبه الخليفة القائم بأمر الله سيد الوزراء ، قتل سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م انظر ترجمته ومصادرها فى : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١١٣-١١٤ ـ كذلك فى ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣١-٣٤ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٦٧-٧٠) .

فــى تكــريت لـيتفقا معه على سحب الجنود من بلادهما أسوة بما فعلوه مع بعض الأمراء الأكراد[1] .[2]

ولتقريــر ذلــك أمر السلطان عميد الملك بمقابلتهما فى تكريت ، وعند توجههما اليه اصطحبا عددا من اتباعهما ، وقد أثار هذا الجمع الريبة فى نفس عميد الملك الذى ظن أن هناك مؤامــرة بيــن الأمــيرين الغــربيين والبساسيرى للايقاع بعميد الملـــك ، وهنـــا أمر الوزير السلجوقى الجنود بنهب بلادهما[3] ، وكـــانت الامـــارة المزيديـــة الأكـــثر تضررا ، ويذكر المصدر أن البـلاد خـربت (واندرست آثار القرى وهج من كان بقى فيها)[4] . ولــولا أن قريشا تدارك الأمر بارسال مبعوثيه الى عميد الملك يؤكـد لــه طاعتــه وطاعة ابن مزيد ، لما أمر الكندرى الجند بــالكف عــن السلب والنهب . واجتمع قريش وابن مزيد مع عميد الملك فــى تكــريت حــيث أخبرهمـــا بنية السلطان التوجه الى شــيراز بسـبب ســوء الموارد فى العراق وأنه يرغب فى جعلهما نــائبين عنــه فــى العراق على أن يحلفا بالطاعة له ، فتقدم قــريش وجــعل أحد أبنائه رهينة ، وعندما طلب عميد الملك من دبيس أن يقــدم أحد أبنائه رهينة رفض الأخير أن يستجيب لهذا الطلــب وأكــد أنه مازال على الطاعة ، وأن من نقض العهد هم السلاجقة الــذين نهبــوا بــلاده وكسروا جاهه وقطعوا معاشه ، وانصــرف مــن الاجتماع مغاضبا الى البساسيرى[5] . ويذكر المؤيد

---

(١) تكــريت : بلـد بين بغداد والموصل وهى الى بغداد أقرب وبينهما ثلاثون فرسخا . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٢ ، ص ٣٨) .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨ .

هبة الله الشيرازى ، أن انضمام دبيس بن مزيد الى البساسيرى كان باتفاق مع قريش بن بدران ليكون أحدهما ردءا للآخر اذا انتصر أحد الطرفين على الآخر (١) ، وهو استنتاج فى غير محله اذ أن ماذكره سبط ابن الجوزى أقرب الى الواقع مما ذكره المؤيد .

وبجانب انضمام دبيس الى الفاطميين فان هناك أطرافا أخرى انحازت اليهم وأعلنت تبعيتها باقامة الخطبة لهم ومنهم أبو الغنائم بن فسانجس (٢) الذى سبق لرئيس الرؤساء بن المسلمة أن سعى فى توليته فضمنه عميد الملك الكندرى واسط سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ولكنه فى ربيع الثانى سنة ٤٤٨هـ/يونيه ١٠٥٦م أقام الخطبة للمستنصر بالله بها حينما سمع بعزم السلاجقة على عزله ومصادرته (٣) ، وقد تقوى فى عصيانه عندما استعان بالترك القدامى والديلم الساخطين على الأوضاع الجديدة التى أضحوا فيها وخاصة عقب اسقاط جند بغداد من الديوان فاستمالهم ابن فسانجس الى جانبه ليشكلوا معه قوة ضد السلاجقة (٤) . وبجانب تمرد أبى الغنائم بن فسانجس فان محمود بن الأخرم الخفاجى (٥) كان قد سبق له الانضمام الى البساسيرى وأعلن الخطبة للمستنصر بالله فى شفاثا (٦) والعين (٧) .

---

(١) المؤيد هبة الله الشيرازى ، مذكرات داعى دعاة الدولة الفاطمية ، ص ١٦١ .
(٢) أبو الغنائم بن فسانجس لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧ .
(٥) محمود بن الأخرم الخفاجى : لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٦) شفاثا : موضع بالقرب من عين التمر ومنه كان يحمل التمر الى سائر البلاد (معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص١٧٦ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٩٠) .
(٧) العين : هى عين التمر ، بلدة قريبة من الانبار غربى الكوفة وهى على طرف البرية . (معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١٧٦) .

وبذلك تكون المناطق التى دخلت فى حوزة الفاطميين فى جنوب العراق هى الكوفة ، والحلة ، وواسط ، والعين ، وشفاثا ، وسوارا (١) ، والوقف (٢) ولم يبق غير بغداد كما تقول المصادر (٣) .

ومما لاشك فيه أن هذا التحالف الذى تشكل من القبائل العربية وغيرها مع البساسيرى سيزيد من المتاعب التى كان يعانى منها السلطان طغرلبك ، وأهم هذه المتاعب سوء الموارد الاقتصادية فى بغداد التى أصبحت تقلقه أمام مطالب جنده . ولعل خير مثال على ذلك هو عندما طلب السلطان طغرلبك فى ربيع الأول سنة ٤٤٨هـ/مايو ١٠٥٦م من جنده التجهز للاتجاه الى الرحبة للقضاء على البساسيرى ثم عبور الفرات الى الشام ، تمرد الجند عليه وقالوا له : "ان هذه بلاد خربة وليس بها أقوات ولاعلوفات ولم يبق معنا نفقات ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا فكيف اذا جاز أهلونا وخيولنا ودوابنا ..." (٤) ، وأصروا على عدم التوجه معه لمقصده مما جعله يقوم بالقاء القبض على عدد من زعمائهم ولم يطلقهم الا بوساطة وأمرهم بالعودة الى الرى واصطحاب الملك الرحيم معهم لسجنه فى قلعة طبرك (٥) ، ويبدو أن عودة هؤلاء

---

(١) سوارا : لعلى ابن الأثير يقصد سورا ، موضع بالعراق من أرض بابل وهى مدينة السريانيين ، وهى قريبة من الوقف والحلة المزيدة (معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٨) .

(٢) الوقف : عرفها ياقوت (معجم البلدان ، مجلد ، ص بأنها موضع فى بلاد عامر ، ولم أجد أى تعريف آخر فيما بين يدى من مصادر .

(٣) انظر : ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧٣ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤ – ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٦١٥ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٦ .

(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٦ .
وطبرك : قلعة على رأس جبيل قرب مدينة الرى (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١٧) .

الجند الى الرى شجعت كثيرا من العرب الذين كانوا يبدون الحياد على الانضمام الى البساسيرى ، وخاصة بعد البدء فى توزيع المال والخلع على الأتباع الذين انضموا اليه ، وراج بين الناس أنه على عزم المسير الى بغداد (١) .

ويبدو أن غياب كثير من جنود طغرلبك شجع خصومه على القيام بتحركات حربية هدفها الضغط على ماتبقى من مناطق تخضع للنفوذ السلجوقى ، وأهم هذه المناطق هى الموصل التى سبق لقريش أن عاد اليها بعد انصرافه من تكريت وكلف بحمايتها (٢) ، بينما تقدم البساسيرى بعسكره من الرحبة نحو الخابور (٣) فى رمضان سنة ٤٤٨هـ/نوفمبر ١٠٥٦م وأدرك قريش بن بدران أن هذا التقدم المقصود به هو السيطرة على الجزيرة الفراتية بالكامل ومن ثم يسهل على البساسيرى الاستيلاء على الموصل ، ولذلك نراه يبادر بالخروج من الموصل ويتقدم الى تل أعفر (٤) ويرسل فى طلب الامدادات العسكرية من السلطان طغرلبك .

ومن ناحية أخرى فان ابن فسانجس بدأ يمارس ضغطه على المناطق الجنوبية من العراق ابتداء من واسط اذ أنه من هذا الموقع يستطيع أن يقطع أى امدادات تصل الى بغداد من

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٦ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٠ .
(٣) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، وأصل هذا النهر من العيون التى برأس عين ، وينضاف اليه نهر نصيبين فيصير نهرا كبيرا (معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٤-٢٣٥) . ويقع الآن فى الشرق من أرض الجمهورية العربية السورية ، انظر : (سعيد الصباغ ، الأطلس العربى العام ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٢١) .
(٤) تل أعفر : اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل فى وسط وادجار وهى على جبل منفرد حصينة محكمة . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٩) .

البصرة أو الأهواز . وخوفا من احكام الطوق على القوات السلجوقية المتمركزة في بغداد ، نرى السلطان طغرلبك يبادر الى جلب عدد من العساكر الذين كانوا في الجبل أو الري ويجهز حملة بقيادة قتلمش بن اسرائيل (١) للقضاء على أبي الغنائم بن فسانجس في واسط غير أن استغاثة قريش أوقفت حملة قتلمش في بغداد وأرسل بدلا منها حملة بقيادة عميد العراق أبو نصر أحمد المستوفي (٢) الذي تمكن من اقتحام واسط واجبار ابن فسانجس على الهرب منها وتفرق شمل أتباعه (٣) .

معركة سنجار (٤) :

بعد استغاثة قريش بن بدران وتوقف قتلمش بن أرسلان في بغداد أمر الأخير بالتوجه الى الموصل في ألفين من الجند ، وزود أيضا بعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب لتسلم الى قريش ليوزعها على قومه اضافة الى خلعة حسنة لقريش وابنه مسلم (٥) . ومن الواضح أن هذه الأموال التي أرسلت كان هدفها كسب ولاء من تبقى من بني عقيل الى جانب زعيمهم .

(١) قتلمش بن اسرائيل (أرسلان) بن سلجوق بن دقاق : شهاب الدولة ، ابن عم السلطان طغرلبك ، كان واليا على بعض القلاع في بلاد الجبل وأظهر تمرده على السلطان أواخر عهد السلطان طغرلبك ونازع السلطان ألب أرسلان على السلطنة وقتل في هذا النزاع سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م . (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١١٢) .
(٢) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٤ .
(٤) سنجار : مدينة من نواحي الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي من قحف جبل عال (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٦٢) ، وهي الى الغرب من الموصل داخل الحدود العراقية وعلى مقربة من الحدود السورية (انظر : الصباغ ، الأطلس العربي العام ، ص ٢١) .
(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٠ .

غير أن هذه الاجراءات السلجوقية أفسدتها تصرفات رجال قتلمش الذين نهبوا بلاد العرب وسبوا نساءهم (١)، ولقد استغل دبيس بن مزيد ماحصل من جانب الجند السلجوقي فراسل قريشا سرا لينضم اليه ، وحين وجده مصرا على البقاء في جانب السلاجقة راسل العقيليين واستطاع افسادهم بالاغراءات المادية (٢).

ويبدو مما أورده سبط ابن الجوزي أنه اتفق معهم على الانضمام الى جيش البساسيري في أول مواجهة بينه وبين قتلمش وقريش (٣)، وفي أوائل ذي القعدة سنة ٤٤٨هـ/يناير ١٠٥٦م برزت طلائع جيش البساسيري بالقرب من سنجار وبدلا من مواجهته فوجئ قريش وقتلمش بانضمام العرب العقيليين الى معسكر البساسيري فوجا بعد فوج (٤). وفي هذه الأثناء قاد البساسيري هجوما سريعا على معسكر قتلمش فألحق به هزيمة منكرة ، كثر فيها عدد القتلى من الجانب السلجوقي اضافة الى ماغنمه من أموال كثيرة ، ولاذ قتلمش بالفرار من الميدان (٥). أما قريش ابن بدران فقد أصيب في المعركة بجروح وانسحب الى حيث مخيم دبيس بن مزيد ولجأ اليه فقبل حمايته وأعطاه خلعة كانت مرسلة اليه من قبل الفاطميين (٦).

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١١ .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١١ .
(٣) مرآة الزمان ، ص ١١ .
(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١١ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٥ ـ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١١-١٢ ـ البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٤ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٦٩ ـ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٤ .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٥-٦٢٦ ـ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١١ .

وكان من نتائج هذه المعركة انضمام قريش بن بدران الى البساسيرى بسعى ابن مزيد فى ذلك ، وعقب ذلك توجه الجميع الى الموصل التى دخلها البساسيرى وأقام فيها الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى .(١)

أما السلطان طغرلبك الذى كان يواجه مشاكل مع الخليفة بسبب عدم الانضباط بين جنوده وتعديهم على أهل بغداد مماجعل الخليفة يأمر السلطان باخراجهم من بغداد ،(٢) وحين وصلته أنباء هزيمة قتلمش فى سنجار ودخول البساسيرى الموصل اضطرب لذلك واستدعى اليه فورا عميد العراق أبا نصر أحمد من واسط كما جمع الديلم الموجودين فى بغداد وأنفق فيهم الأموال ليستخدمهم معه ،(٣) وسارع الى مكاتبة أخيه ابراهيم ينال يستمده بالعساكر ،(٤) وأخذ يتجهز للتصدى للخطر الداهم من قبل البساسيرى .

وفى العاشر من ذى القعدة سنة ٤٤٨هـ/٢٠ يناير ١٠٥٧م خرج السلطان طغرلبك من بغداد صوب الموصل ، وفى طريقه اليها نهب عسكره أوانا(٥) وعكبرا(٦) ، كما أخضع تكريت ، ثم حط

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٥-٦٢٦ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٩ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٦ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٧ – . رغم أن ابن الجوزى وابن الأثير يذكران خلاف الخليفة مع السلطان بسبب جنده ، الا أن سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان ، ص ١٢-١٣ يورد لنا أن الخليفة القائم بأمر الله كان يمنع السلطان طغرلبك من التوجه الى البساسيرى حينما تحرك من الرحبة ،وأنه كان يأمره بالبقاء فى بغداد وتكليف أحد القادة لمواجهة البساسيرى .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢ .
(٥) أوانا : بليدة من نواحى دجيل بغداد بينها وبين بغداد عشرة فراسخ (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٢٧٤)
(٦) عكبرا : بليدة من نواحى دجيل قرب صريفين وأوانا (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١٤٢) .

رحاله فى البوازيج (١) ينتظر المدد الذى طلبه من ابراهيم ينال الا أن ابراهيم ينال أرسل الى السلطان طغرلبك (٢) يعتذر اليه من عدم تمكنه من ارسال الامدادات التى طلبها (٣) ، فاستعاض عنه السلطان طغرلبك بابن أخيه ياقوتى بن داود الذى كان قادما من أراضى الدولة البيزنطية غازيا فاستدعاه اليه وضم جيشه الى جيشه (٤) .

وفى أوائل سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م واصل السلطان طغرلبك سيره الى الموصل ، وعندما سمع أهلها بقدومه غادروها وخلت من سكانها عدا بعض العجزة والفقراء ، كذلك خرج منها البساسيرى الذى لم يرد أن يكون محاصرا داخل الموصل وفضل أن يكون سريع الحركة فى مواجهة السلاجقة (٥) . ورغم أن المصادر لم تذكر لنا مافعله السلطان طغرلبك بعد اقراره الأمور فى الموصل الا أنه من الواضح من خلال النصوص التى أوردها لنا كل من سبط ابن الجوزى وابن الأثير أنه حدثت مطاردة من قبل السلطان طغرلبك للبساسيرى وقريش ودبيس ، وأن الأخيرين

---

(١) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة ويقال لها بوازيج الملك ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٥٠٣) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٨ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٧ ، وفى سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦ يذكر أن الذى قدم على طغرلبك هو داود ابن أخى طغرلبك وهو خطأ واضح فى النص وقد كان ياقوتى بن داود قادما من غزوة فى آسيا الصغرى لامتوجها اليها ، بدليل أن رسول البيزنطيين المحتجز فى ميافارقين كتب الى زوجة السلطان طغرلبك يشكو اليها مما فعله ياقوتى ببلاد الروم ، كما ذكر ذلك سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان ، ص ١٩ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦ .

توجهوا الى الشمال من الموصل حتى وصلوا نصيبين (١) . وهذا الهروب بهذا الاتجاه كان بلاشك القصد منه ابعاد السلطان طغرلبك عن حدود الدولة الفاطمية فى بلاد الشام .

وفى نصيبين اقترح هزارسب بن بنكير (٢) على السلطان طغرلبك أن يمده بألف فارس ليقوم بهجوم مفاجىء على معسكر البساسيرى وحلفائه فأمده السلطان بما طلب (٣) ، وحين رأى العرب طلائع جيش هزارسب ظنوا أن السلطان قادم اليهم بجيشه فلم يكن منهم الا أن هرب معظمهم ووقع البعض الآخر قتيلا وأسيرا (٤) ، وقد انتقم السلطان من هؤلاء الأسرى أشد انتقام حيث أمر بالقائهم تحت أرجل الفيلة لتدوسهم وهم أحياء (٥) .

وفرضت هذه الهزيمة على الأمراء العرب الى أن يسارعوا فى طلب الصلح مع السلطان طغرلبك والعودة الى طاعته ، وقد سعى للتوفيق بين الطرفين هزار سب بن بنكير ، واشترط دبيس ابن مزيد وقريش بن بدران أن يدخل البساسيرى معهم فى هذا الصلح وقد رحب السلطان بصلحهما أما البساسيرى فانه أرجع أمره الى الخليفة القائم بأمر الله ليحكم فيه ان شاء عفا وان شاء رفض ذلك (٦) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٨ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦ .
ونصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة الفراتية على طريق القوافل من الموصل الى الشام بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وتبعد عن الموصل ستة أيام (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٨) .
(٢) عن هزارسب بن بنكير انظر الفصل الخامس ، ص ٣٥٣ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٨ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦-١٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٨ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧ .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٢٩ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧ .

وحين علم البساسيرى بما تم بين السلطان والأميرين العربيين عاتبهما على عقد مثل هذا الصلح ، وكان يرى أن السلطان طغرلبك لم يرد صلحهما بقدر ماكان يريد أن يفرق جمعهم (١) ، وانسحب من معسكرهما عائدا الى الرحبة بحجة أنه صاحب سلطان بعيد عنه - ويقصد بذلك المستنصر بالله الفاطمى - ولابد أن يأخذ أمره فيما يفعل (٢) .

وبعد الصلح الذى تم بين السلطان طغرلبك والأمراء العرب توجه الى الامارة المروانية الكردية ، فنهب ميافارقين وغيرها من الأماكن تأديبا للأمير أبى نصر بن مروان (٣) ، الذى كان يتظاهر بالحياد بين السلاجقة والفاطميين وكان قد سبق له أن حبس رسول السلاجقة القادم من الدولة البيزنطية مما جعل السلطان طغرلبك يعتبر تصرفه هذا خروجا عن الطاعة ، وخرقا للحياد الذى كان يتظاهر به (٤) . ولم يخرج السلاجقة من بلاده الا بعد أن تشفع بابراهيم ينال الذى كان قد وصل الى السلطان طغرلبك وتشفع كذلك بالخاتون زوجة السلطان طغرلبك (٥) ، وبعد أن رضى السلطان طغرلبك عن الأمير الكردى قفل عائدا الى الموصل وفى طريقه اليها عرج على سنجار لتأديب أهلها على ما اتخذوه بشأن قتلمش وجنده أثناء هروبه من البساسيرى فى معركة سنجار . ورغم أن السكان فى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨ .
(٣) نصر الدولة أحمد بن مروان بن دوستك الكردى (٣٦٧-٤٥٣هـ/٩٧٧-١٠٦١م) حكم ديار بكر وميافارقين منذ سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م ، وكان مسعودا عالى الهمة حازما عادلا محافظا على الطاعات مع اقباله على اللهو ، انظر ترجمته فى : (ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧ - الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١١٧-١١٨ - الزركلى ، الأعلام ، مجلد ١ ، ص ٢٥٦-٢٥٧) .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩، ٢٠ .

سنجار كانوا محاصرين من قبل الجيش السلجوقى ، الا انهم أظهروا للقوات المحاصرة ثباتا على موقفهم منهم ، وكالوا لهم الشتائم كما أخرجوا لهم رؤوس القتلى من السلاجقة التى كانوا قد احتفظوا بها لديهم (١) . وازاء تحديهم هذا صمم السلطان طغرلبك على اقتحام سنجار ونجحت قواته فى اختراق أسوارها . وعندها أخذ السلاجقة فى القتل والتنكيل بأهل سنجار ونهب أموالهم والحاق الخراب بها (٢) . ثم غادرها السلطان طغرلبك عائدا الى الموصل التى سلم ادارتها لأخيه ابراهيم ينال (٣) ، وواصل سيره نحو بغداد التى وصلها فى أواخر شوال من سنة ٤٤٩هـ/ديسمبر ١٠٥٧م ليقابل بعدها الخليفة لأول مرة منذ دخوله بغداد فى رمضان سنة ٤٤٧هـ/ديسمبر ١٠٥٥م .

وجرت فى هذه المقابلة مراسم التفويض بحكم المشرق والمغرب من قبل الخليفة القائم بأمر الله للسلطان طغرلبك كتتويج لما قام به من تصد للبساسيرى والدولة الفاطمية (٤) .

ومن جانب آخر فقد تركت الهزيمة التى حلت بالبساسيرى آثارها فى الدولة الفاطمية ، فقد عمد المستنصر بالله الفاطمى الى القبض على وزيره اليازورى الذى غامر ببذل الأموال الطائلة فى سبيل دعم البساسيرى ضد السلاجقة (٥) ، فرغم تلك الأموال الطائلة فانها لم تحقق أيا من الأهداف التى كان

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٠ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣١ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣١ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٣-٦٣٤ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤ .

(٥) ابن منجب الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٨ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

يرجوها المستنصر بالله من مثل هذا الدعم . وقد عبر المؤيد هبة الله الشيرازى الذى صرفت تلك المبالغ الهائلة على يديه عن مدى الخسارة التى منى بها الفاطميون ، وذلك فى مكاتبته للبساسيرى عقب الهزيمة ، وأنه - أى المؤيد - يشعر بحرج شديد فى نقل خبر هذه الهزيمة الى مصر وقال : "... والله العظيم أننى أردت مكاتبة المجلس الوزيرى فى هذا المعنى ، فلم أدر ما الذى يخطه قلمى ، وأى عذر يخرجه كلمى بينما كنا نكتب اليه ألف كتاب أن التركمانى ذليل مكسور مغلول ، حتى تبعه الآن ثانيا ، وكنا مالمحناه من شرقى دجلة حتى انهزمنا من غربها مخافة أن يطير الينا ..." (١) .

وفى كتاب المؤيد هبة الله الشيرازى الى دبيس بن مزيد يذكر نتائج هذه الهزيمة بأنها جعلت أعماله هباء منثورا بعد أن أضاع مال المستنصر بالله وصرف عداوة السلاجقة اليه (٢) .

ومع أن المستنصر بالله قبض على اليازورى وولى بدلا منه أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى (٣) ، فان الفاطميين رأوا أنهم مازالوا فى حاجة الى ابقاء البساسيرى فى الرحبة وضرورة دعمه ماليا وسياسيا لمواجهة أى رد فعل من قبل السلاجقة (٤) . فقد أقطع المستنصر بالله الرحبة للبساسيرى . ويغل هذا الاقطاع ثمانين ألف دينار سنويا ، اضافة الى ستين

---

(١) مذكرات داعى دعاة الدولة الفاطمية ، ص ١٨٠ .
(٢) مذكرات داعى دعاة الدولة الفاطمية ، ص ١٨١ .
(٣) أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى : ولى الوزارة بعد وزارة أبى الفرج عبد الله بن محمد البابلى القصيرة بعد اليازورى ، وذلك سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، وظل فى الوزارة سنتين وأشهرا ، توفى أبو الفرج المغربى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م . انظر : (ابن منجب الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٤٠-٤١) .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٧ .

الف دينار وعد بارسالها اليه كل سنة ، كما صدرت اليه أوامر مشددة الا يتعرض لأعمال العراق حتى تأتيه الأوامر من مصر (١) .

هذا في الوقت الذي كان فيه السلطان طغرلبك يواجه مشكلة خطيرة من جانب اخيه ابراهيم ينال الذي سبق أن اعتذر اليه بعدم قدرته على الحضور لانجاده كما سبق أن ذكرنا ، ونراه حين حضر الى السلطان في الموصل سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م بعد هروب البساسيري ، يعمل على اثارة الخوف والفزع في نفوس الأمراء العرب قريش بن بدران ، ودبيس بن مزيد ، عندما أظهر غضبه على الكندري وزير السلطان طغرلبك لقيامه بمصالحة هؤلاء الأمراء مما دفع الأخيرين الى الهروب منه (٢) ، فقد توجه دبيس الى الحلة بينما توجه قريش الى البساسيري في الرحبة رغم صلحه مع السلطان (٣) .

وحين سلم السلطان طغرلبك ابراهيم ينال الموصل وعاد الى بغداد بدأت المشاكل بينهما وحاول الخليفة اصلاح ذات بينهما بكل مايستطيع الا أنه فشل في ذلك رغم أن ابراهيم

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢١ ، ومما قاله المصدر : أن ابراهيم ينال قال : (... صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلا لذلك وانما يكون الصلح بين النظراء ، ومن هؤلاء الكلاب حتى لايقلع أصلهم ...) . وفي الكامل لابن الأثير ، ج٩ ، ص ٦٣٠ أنه قال للكندري (من هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان وتصلح بينهم ؟)
ومع اختلاف النصين في الصيغة التي تلفظ بها الأمير السلجوقي ابراهيم ينال فانها تحمل طابع الغضب من جهة ابراهيم ينال لاتمام الصلح بين الأمراء العرب وبين السلطان ، ربما لأنه فشل في احراج موقف السلطان العسكري ، ومن جهة ثانية فان قوله السابق يبين مدى العنصرية من جانب هذا الأمير تجاه الأمراء العرب وينسحب هذا بلاشك على أتباعهم من العرب .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٠ .

ينال تظاهر بعودته الى الانضواء تحت لواء أخيه السلطان طغرلبك .(١)

وبالطبع فان هذه الخلافات قد شجعت البساسيرى وحليفه قريش بن بدران على عبور الفرات والاغارة على الجزيرة الفراتية فى صفر سنة ٤٥٠هـ/مارس ١٠٥٨م ، ولولا شغب جنوده عليه الذين كانوا يعانون من نقص الأموال وانسحابهم الى بلاد الشام ، لكان قد توغل فى هجومه داخل العراق ،(٢) الا انه اضطر الى الانسحاب بسبب تمرد جنده الى حين تنظيم أموره مرة أخرى .

وقد واتته الفرصة فى ربيع الآخر من نفس السنة عندما عاد الى منطقة الجزيرة واتجه مباشرة الى الموصل التى كانت غير مستعدة الاستعداد الكافى لمواجهته لخلوها من القوة المصاحبة لابراهيم ينال الذى سبق وأن استدعى الى بغداد لمصالحته مع السلطان طغرلبك ، مما مكن البساسيرى من الاستيلاء عليها وهدم قلعتها .(٣)

وقد وصلت أنباء استيلاء البساسيرى على الموصل الى السلطان طغرلبك فأخذ يتجهز للمسير اليه بنفسه ، لكن الخليفة طلب منه البقاء فى بغداد وارسال ابراهيم ينال ليقوم بهذه المهمة . وقد غادر الأخير بغداد فى جمادى الأولى من نفس السنة بعد أن زوده الخليفة القائم بأمر الله بثياب وخلع وفرس من مراكبه الخاصة لكسب ولائه من جهة ،(٤) وتطييب

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٧-٢٨،٢٩ ، وانظر حول الخلاف بين ابراهيم ينال والسلطان طغرلبك الفصل الرابع .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٨-٢٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٩ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٩ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٩ .

قلبه مع أخيه وبعث الثقة فيه بابراز مكانته عند الخليفة القائم بأمر الله من جهة أخرى .

ورغم كل هذه المحاولات التى بذلها الخليفة مع ابراهيم ينال الا انه كان فيما يبدو متخاذلا فى مواجهة البساسيرى وبطيئا فى تحركه ، بدليل أن السلطان طغرلبك لم يركن الى ذهاب أخيه للتصدى للبساسيرى وأخذ يستعد بنفسه لملاحقته وتحرك السلطان طغرلبك نحو الموصل فى رجب من نفس العام (١) .

وهنا لم تزودنا المصادر بالعمل الذى قام به ابراهيم ينال منذ خروجه من بغداد الى توجه السلطان طغرلبك فى التاريخ المشار اليه مما يؤكد أن ابراهيم ينال لم يفعل شيئا تجاه خصوم الخلافة والدولة السلجوقية .

وقد ترتب على خروج السلطان طغرلبك الى الموصل انسحاب البساسيرى ومعه قريش بن بدران منها تاركين الأهالى الذين سبق وأن تورطوا مع السلاجقة عندما انضموا للبساسيرى وقريش وقرروا فى النهاية مغادرتها اسوة بما فعل زعماؤهم خوفا مما قد يلحق بهم من جند السلطان طغرلبك (٢) ، ولم يضيع السلطان وقته وأخذ يتتبع البساسيرى الى نصيبين ، وقبل أن يصل اليها فوجىء طغرلبك بانسحاب ابراهيم ينال الى همذان فى عدد كبير من اتباعه (٣) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٩ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٠ — سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٠-٣١ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٠ — سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣١ — الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٦٠ — ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٧٦ — ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٨ .

ولم يتردد السلطان السلجوقى فى ترك متابعة البساسيرى لادراكه لما يمثله عصيان ابراهيم ينال من خطر كبير يفوق خطر البساسيرى . اذ لو قدر لابراهيم ينال النجاح فى الاستيلاء على همذان بما تحويه من ذخائر وأموال فانه سيحرم السلطان طغرلبك من قدرة اقتصادية وعسكرية مهمة ، وعندها سيقع الأخير بين شقى الرحى ، قوة ابراهيم ينال من الشرق ، والبساسيرى ومعه الفاطميون من الغرب . ولذا اختار السلطان طغرلبك أن يقضى على خطر أخيه قبل أن يستفحل لعلمه بضعف موقف البساسيرى . (١)

لكن السؤال هنا هل كان انسحاب ابراهيم ينال مخططا له مع البساسيرى ؟ أم أن الانسحاب كان نتيجة عوامل أخرى ؟ وللاجابة على الشق الأول من هذا التساؤل فان كثيرا من المصادر تشير الى أن انسحاب ابراهيم وخروجه عن الطاعة كان بتأثير من مكاتبات وردت اليه من البساسيرى تطمعه فى تأييده ومعاضدته حتى يتفرد بالملك بدلا من السلطان طغرلبك وأن ابراهيم ينال استجاب لهذا الاغراء ، (٢) واختار فرصة تتبع السلطان للبساسيرى ، وانشغاله به حتى يتمكن من تنفيذ أطماعه فى السلطنة .

---

(١) العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ، ص ١١٢-١١٣ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩٠-١٩١ ـ ابن الأثير الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٠ ـ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨م ، ص ٨٧-٨٨ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٦٠ ـ البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧ ـ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص ٢٢٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٧٦ ـ السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج٥ ، ص ٢٤٩ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٨ .

غير أن سبط ابن الجوزى يذكر لنا رواية مهمة عن سبب تمرد ابراهيم ينال وهو أن وزير الخليفة ابن المسلمة تمكن من القبض على جاسوس للمستنصر بالله الفاطمى والبساسيرى ومعه رسالة الى ابراهيم ينال يحرضانه فيها على العصيان واطماعه بالانفراد بالملك دون أخيه . وقد رأى ابن المسلمة أن يخفى خبر هذه الواقعة فأطلق سراح الرسول الفاطمى وأخفى خبرها عن السلطان طغرلبك حتى لاتذهب جهوده وجهود الخليفة سدى فى اصلاح ذات البين بين الأخوين (١). لكن تقديره للموقف كان قاصرا وانعكس عليه اجتهاده بسبب أن الرسول الفاطمى انطلق مباشرة بعد اطلاق سراحه الى ابراهيم ينال وأخبره بالواقعة ، فما كان من ابراهيم ينال الا أن ينسحب فجأة من المعسكر السلجوقى .

وهذا النص الذى أورده سبط ابن الجوزى وان كان يعزز ماذكرته المصادر الأخرى الا أنه تفرد بذكر تمكن ابن المسلمة من القبض على رسول البساسيرى ، ولكن مما ينبغى ملاحظته هو أنه لماذا اختار الفاطميون ومعهم البساسيرى أن يعبر رسولهم طريق بغداد ثم يتجه شمالا الى الموصل ليوصل رسالتهم ؟ وكيفما كان الأمر فان هذه الواقعة توحى أنه كانت هناك مراسلات سابقة بين ابراهيم ينال والفاطميين وأن جهودهم كانت فاشلة فى ضمه اليهم ، ومن ثم فقد اختاروا طريق الدس والخديعة لايقاع الانقسام والفرقة فى الصف السلجوقى ، وقد تحقق لهم ذلك حينما انفصل ابراهيم ينال عن أخيه طغرلبك ، ربما خوفا منه كى لايؤاخذه بتهمة التواطؤ مع

---

(١) مرآة الزمان ، ص ٣١ .

الفاطميين ، وهي الرواية الأرجح في رأيي لأنها تستند على رواية معاصر هو محمد بن هلال الصابي التي نقلها منه سبط ابن الجوزي . وقد تحقق للفاطميين التوقيت المناسب لضرب وحدة السلاجقة واشغالهم بخلافاتهم الأسرية مؤقتا ، وترتب على هذا الانقسام أن تمكن البساسيري من دخول بغداد واقامة الخطبة للفاطميين في بغداد لأول مرة في تاريخ الصراع العباسي الفاطمي .

(د) دخول البساسيرى بغداد فى ذى القعدة ٤٥٠هـ/يناير ١٠٥٩م والقبض على الخليفة العباسى القائم بأمر الله

بعد رحيل السلطان طغرلبك الى همذان أصبح وضع الخليفة وبقايا الجند السلجوقى فى بغداد حرجا ، ذلك لأن هؤلاء كانوا يفتقدون القيادة الموحدة التى تستطيع الوقوف أمام الظروف الجديدة التى أصبحوا فيها . وقد حاول عميد الملك الكندرى وزير السلطان أن يسد هذه الثغرة عندما رشح ربيب السلطان طغرلبك وابن زوجته وهو انوشروان بن خوارزم شاه (١) ليتولى القيادة العامة فى بغداد (٢) . غير أن هذا الترشيح لم ينل القبول لدى بعض القادة السلاجقة لأنهم يرون أنه غير مؤهل لمثل هذه المهمة ، ويبدو أن عميد الملك أصر على موقفه مما دعاهم الى منابذته وتحديه (٣) . بل ان بعضهم فضل اللحاق بالسلطان ولحق بهؤلاء أيضا معظم الجند السلجوقى أنفا من تأمير أنو شروان عليهم (٤) .

---

(١) لم أعثر على ترجمة خاصة لانوشروان بن خوارزم شاه فيما بين يدى من مصادر ، وحسب المعلومات التى أوردها سبط ابن الجوزى عنه فى مواضع متفرقة أنه كان يتمتع بمكانة خاصة عند السلطان طغرلبك بحكم مكانة والدته من السلطان ، وقد أقطعه السلطان طغرلبك سفانا سنة ٤٥٠هـ ، كما شارك أنوشروان فى قيادة الجيش الذى قض على البساسيرى ، وفى سنة ٤٥٥هـ تمرد على السلطان طغرلبك وقبض عليه وظل مسجونا حتى توفى السلطان طغرلبك وحاول هو الهروب من السجن الا أنه فشل فى ذلك وقتل فى أثناء هذه المحاولة .
انظر : سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٨، ١٠٠، ١٠٩

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٢ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٢ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٣ .

ومما زاد الأمر سوءا فى بغداد أن الخاتون زوجة طغرلبك انسحبت هى الأخرى بمن يتبعها من بغداد ولحقت بزوجها رغم تحذير الخليفة وعميد الملك الكندرى لها لما يترتب على ذلك من خطورة عليها وعلى الأوضاع فى بغداد (١) .

ومعنى ذلك أن الخليفة وجد أن عاصمته أصبحت خالية من الجند المدافعين عنها ولذلك اضطر الى استدعاء دبيس بن مزيد من الحلة ليساهم فى الدفاع عنه وعن عاصمته ، وحين قدم دبيس الى بغداد رأى عدم جدوى مواجهة البساسيرى واقترح على الخليفة التوجه معه الى الحلة ليتولى هناك حمايته بمساندة من حاكم الأهواز هزارسب بن بنكير (٢) ، ولم يستجب الخليفة لنصيحة دبيس وآثر البقاء فى عاصمة ملكه ، واستحسن خطة عميد العراق (٣) التى ترى ضرورة الاعتماد على الدفاع عن الجانب الشرقى لبغداد حيث مقر الخليفة وانتظار ماتسفر عنه الأحداث بين السلطان طغرلبك وأخيه (٤) ، ومن أجل هذه الغاية طلب الخليفة من أهل الجانب الغربى لبغداد العبور الى

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩١ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٣٤ - وفى ص ٣٣ يذكر أن سبب رحيل الخاتون هو سماعها بخبر دخول السلطان طغرلبك بابنة الملك البويهى أبى كاليجار ، وفى نفس الوقت خافت أن يظن السلطان أنها هى التى سعت الى تأمير ابنها أنوشروان على الجند السلجوقى فى بغداد - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤١ .

(٣) هو أبو نصر أحمد بن على أول من ولى هذا المنصب فى بغداد ، وتنحصر مهمة العميد فى ادارة الشئون الادارية وقد يكلف بقيادة الجيوش . حول هذا الموضوع انظر : (عزام عبد الله باشا ، النظام الادارى فى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ٤٣٢-٤٨٥هـ/١٠٤٠-١٠٩٢م رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ٢٥٠ ومابعدها) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤١ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٨ .

شرقها ليستعين بهم فى الدفاع عنها (١) .

وفى يوم الأحد الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ/٢٨ ديسمبر ١٠٥٨م وصل البساسيرى الى الجانب الغربى من بغداد حيث وجد ترحيبا قويا من أهل الكرخ الذين أصروا على بقاء البساسيرى فى محلتهم ونثروا عليه الدنانير والدراهم ، مستغلين سير الأحداث الذى أصبح فى صالحهم فى الحاق الأذى والنهب والسلب بأهل السنة فى باب البصرة وغيره من بغداد (٢) . وأثناء وجود البساسيرى فى بغداد دارت معارك متعددة دون أن تحسم ، وكان يمكن لخطة عميد العراق أن تنجح خاصة وأنه قد استطاع أن يلحق الهزيمة بالبساسيرى عند باب الأزج (٣) لولا تسرع ابن المسلمة الذى سمح لمجموعة من المتطوعين الذين لاخبرة لهم فى القتال العسكرى المنظم بمقاتلة البساسيرى وفتح لهم باب الحلبة (٤) للعبور منه لمقاتلة البساسيرى . وقد استغل الأخير هذا الخطأ الذى وقع فيه ابن المسلمة وتظاهر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٧ ، وفى هذا الصدد يقول سبط ابن الجوزى : (... وأوصى البساسيرى الغلمان أن لاينهبوا ويحسنوا العشرة مع الناس ، وطرحت النار فى باب البصرة ، وكان أكثر أهلها قد عبروا الى دار الخليفة ، فنهبت وأحرقت ، واجتهد البساسيرى فى منع ذلك فلم يقدر ، لأن أهل الكرخ ، أظهروا ماكان فى قلوبهم ، وخرج من بقى من أهل باب البصرة عراة ومعهم النساء والأطفال ، وقعدوا على الطرق والدكاكين ، وكان الزمان شتاء والبرد شديدا فمات أكثرهم وأعاد أهل الكرخ الأذان بحى على خير العمل ، وأظهروا الفرح والسرور والتشفى بازاء ماقاسوه من الخوف والذل ، وعملوا راية بيضاء عليها اسم المستنصر ونصبوها فى وسط الكرخ ...) .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٨ .

(٤) باب الحلبة : أحد أبواب سور بغداد الشرقى وكان يسمى باب الطلسم ، (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥٠ حاشية المحقق رقم ١) .

بالتراجع امام أولئك المتطوعين ثم فاجأهم بهجوم كاسح اضطروا معه الى الانسحاب والتدافع بقوة نحو باب الحلبة الذى بقى مفتوحا وتمكن اثر هذه الهزيمة من الدخول الى الجانب الشرقى من بغداد فى ٢٩ ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ/١٨ يناير ١٠٥٩م (١) ، وأباح للعوام نهب دورها مما ولد فوضى شاملة فى صفوف الموالين للخليفة من الجنود وغيرهم .

وازاء هذه المستجدات قرر الخليفة القائم بأمر الله ووزيره ابن المسلمة أن يدخلا فى جوار قريش بن بدران وأن يطلبا حمايته (٢) ، وقد لبى قريش طلب الخليفة والتزم حمايته ومن معه . وأثار هذا التصرف من جانب قريش بن بدران غضب البساسيرى وحنقه وأرسل اليه يلومه على تصرفه وقبوله حماية الخليفة وبخرقه الاتفاق المبرم بينهما ، كما طلب منه تسليم الخليفة القائم بأمر الله (٣) . لكن قريش رفض أن يستجيب للبساسيرى ، وبدلا من تسليمه الخليفة سلمه الوزير رئيس الرؤساء ابن المسلمة لأنه عدوه (٤) ، وقد تم الاتفاق بينهما على أن يسجن الخليفة فى الحديثة (٥) ، عند مهارش بن المجلى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٣٨ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٢ .

(٢) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، مجلد ٩ ، ص ٤٠٢ ـ ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٣ ـ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩٤ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٣٩ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٢ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٥٢-٢٥٣ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٩ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩٤ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٣٩ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٢ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩٤ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٣ .

(٥) الحديثة : يطلق هذا الموضع على عدة نواح منها حديثة الموصل بليدة على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى ، وحديثة الفرات تعرف بحديثة النورة وهى بقرب الانبار وهى المقصودة فى المتن . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٠-٢٣١) .

العقيلى[1] الى حين الاتفاق بينهما فى كيفية التصرف فيه[2] . أما ابن المسلمة فقد قام البساسيرى بالانتقام منه وذلك بتشهيره فى شوارع بغداد ثم قتله بعد ذلك فى يوم الاثنين ٢٨ ذى الحجة سنة ٤٥٠هـ/١٦ فبراير ١٠٥٩م[3] .

---

(١) مهارش العقيلى : هو مهارش بن المجلى بن عكيث ، من حفدة المهنا العقيلى ، أبو الحارث مجد الدين ، أمير حديثة عانة (٤٢٠-٤٩٩هـ/١٠٢٩-١١٠٥م) كان ذا مروءة ودين وشجاعة ، وله معرفة بالأدب وله شعر ، انظر : (الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٧ ، ص ٣١٠-٣١١) .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩٤ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٩٦-١٩٧ – ويذكر لنا ابن الجوزى كيفية مقتل ابن المسلمة فيقول : (وفى يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة أخرج أبو القاسم بن المسلمة من محبسه بالحريم الطاهرى ، وعليه جبة صوف وطنطور من لبد أحمر وفى رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ وأركب جملا وطيف به فى محال الجانب الغربى ووراءه من يصفعه بقطعة من جلد وابن المسلمة يقرأ {قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء} الآية . وشهر فى البلد ونثر عليه أهل الكرخ لما اجتاز بهم خلقان المداسات وبصقوا فى وجهه ولعن وسب فى جميع المحال .. وقد نصبت له خشبة بباب خراسان فحط من الجمل وخيط عليه جلد ثور قد سلخ فى الحال وجعلت قرونه على رأسه وعلق بكلابين من حديد فى كتفيه ... ولبث الى آخر النهار يضطرب ثم مات ...) .
وانظر أيضا : ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٣-١٩٤ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٣-٦٤٤ – الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٣١٢-٣١٣ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٩-١٠ .

(هـ) الخطبة للفاطميين في بغداد وموقفهم من البساسيري

تحقق للفاطميين أعظم انتصار لهم على الخلافة العباسية بدخول البساسيري بغداد عاصمة الخلافة العباسية واقامته الدعوة والخطبة للمستنصر بالله (١) واشاعة الأذان الشيعي بحي على خير العمل في أرجائها واجبار أعيانها وعلمائها على المبايعة للمستنصر بالله ، كما تزينت القاهرة عاصمة الفاطميين بحلل الأفراح لهذا النصر الذي تحقق لهم على يد البساسيري .

وكان المستنصر بالله ينتظر اللحظة التي يقدم عليه الخليفة العباسي القائم بأمر الله أسيرا مقيدا (٢) ، لكن نشوة النصر هذه لم تدم طويلا حينما جاءت الأخبار بواسطة جواسيسهم بخروج الخليفة الى الحديثة مع مهارش بن المجلي العقيلي وفكاكه من قبضة البساسيري . كما أن التصرفات التي قام بها البساسيري في بغداد من قتل لابن المسلمة ونهب الأموال والمصادرة لأعيانها جعلت المسؤولين الفاطميين وعلى رأسهم المستنصر بالله ووزيره ابن المغربي يتأكدون أن الرجل الذي ساعدوه وأمدوه بالأموال قد أخذ يتصرف باستقلالية تامة ضاربا عرض الحائط الولاء والتبعية التي كانوا يتوقعونها منه .

وقد ذكر سبط ابن الجوزي هذا الموقف حينما استدعى رسول البساسيري في القاهرة وخاطبه أحد أعيان المسؤولين عما

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٩٢،٢٠٢ ـ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٤٧ .

(٢) محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

يتجوفونه من البساسيري وقال له : "... لما وصل الخبر بفتح بغداد لم يصل من صاحبك كتاب بصورة الحال على الفور ، انما سمعناه من نوابنا بالشام ، وليست العادة جارية بهذا ، وهذا الرجل قد التجأ الينا فآويناه ونصرناه وأمددناه واعطيناه وكان العسكر منه شاكين والرعية في الأعمال عنه نافرين ، لما استعمله معهم في طريق العراقين من الظلم والعسف ، واستبد برأيه فيما يفعله وكنا نكاتبه ولايفعل الا مايريد ، ولايجيب عن شيء ومضى بغير أمرنا وكتبنا له : سالم أهل العراق الى ان نأمرك فما التفت وسار الى العراق بغير اذن ، ثم فتح دار العباسي (١) التي هي قلعة أموال العباسيين والناس وذخيرة أهل الدنيا في سائر الأقطار ، وأخذ أموالهم ونهب الرعية وصادرهم وفعل مالايحل ولايسوغ ولايحمل عليه ، واحتجز الأموال لنفسه وأخذ منه ماعظم خطره ، وأخذ العباسي واعتقله بحيث لايد لنا عليه ولا أمر ينفذ لنا فيه ، وقتل أصحابه وصلبهم من غير استئمار ولا استئذان ، ولارأى على نفسه أن يعيد بعض الأموال التي حملت اليه ، ونحن انما نطلق الأموال لنفتح البلاد ثم نستعيدها وأضعافها ، وكل هذا جميعه داخل في حكم العصيان ، خارج عما ألفناه من أوليائنا وقد بلغنا أن حاجبه ختكين واصل الينا واذا وصل أنفذنا صحبته الجواب ..." (٢) .

ويتضح من هذا النص الذي أورده سبط ابن الجوزي كثرة المآخذ التي سجلها الفاطميون على البساسيري ، الا أن أعظم أخطاء البساسيري في نظر الفاطميين هو تآمره عليهم

---

(١) يقصد بذلك الخليفة القائم بأمر الله .
(٢) مرآة الزمان ، ص ٥٢-٥٣ .

بالمشاركة مع قريش بن بدران فى الاحتفاظ بالخليفة القائم بأمر الله فى العراق واحتجاجه لهم بأن قريشا لم يمكنه من ارساله اليهم وأن الأخير قد أعطى ذمامه له[١] ، مما ولد انطباعا لدى الفاطميين أن البساسيرى استغلهم لصالحه بدلا من أن يعمل لصالحهم ، بما أظهره من استقلالية فى اتخاذ القرارات التى نفذها فى العراق عقب دخوله بغداد .

ويبدو أن البساسيرى كان فى قرارة نفسه ينظر الى أنه هو المتفرد بهذا الانجاز الكبير الذى تحقق للدولة الفاطمية ويكفيهم منه أن يقيم لهم الخطبة فى العراق فى مقابل الأموال والدعم الذى قدموه له ، وهو غير مستعد أن يكون ثمن المساعدة رضوخا كاملا لسلطتهم ، وكان بامكانه أن يساوم الخليفة العباسى والسلطان طغرلبك ليعود الى بعض مكانته التى كانت قبل دخول السلاجقة بغداد ، لكن طموحه أبى عليه أن يفعل ذلك ، وبالتالى فهو لم يكن مستعدا أن يستبدل نفوذا بنفوذ وهيمنة بهيمنة ، وربما يكون أيضا شعورا منه بأنه أول من سيدفع ثمن هذه المغامرة من قبل السلاجقة ولذلك استحسن فكرة بقاء الخليفة القائم بأمر الله فى الحديثة ليساوم عليه السلاجقة فيما بعد .

وهناك جانب مهم أيضا لعب دورا فى القطيعة بين البساسيرى والدولة الفاطمية ألا وهو دور الوزير الفاطمى أبى الفرج بن المغربى الذى تذكر بعض المصادر أنه خوف المستنصر بالله من النتائج التى تترتب على دعمه للبساسيرى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٥ .

وأن الدولة الفاطمية ستدفع ثمن مافعل البساسيرى بالدولة العباسية ، كما أنه لاتؤمن عاقبة ازدياد نفوذ هذا القائد فى العراق الذى قد يمتد ليصل الى الفاطميين ، وأعطاه دليلا عمليا على ذلك بامتناع البساسيرى من ارسال الأموال وغيرها من الأمور التى نقم بها على البساسيرى . وقد أرجعت المصادر سبب موقف الوزير المغربى الى عداء سابق بين الاثنين قبل أن يلى ابن المغربى الوزارة (١) .

وعلى كل فكما ساهم الفاطميون بدعمهم للبساسيرى وانجاح مساعيه بالاستيلاء على بغداد ، كانوا هم من أهم الأسباب فى فشله والقضاء عليه بسهولة من قبل السلطان طغرلبك .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٥ — ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٥٤ .

(و) عودة الخليفة العباسى القائم بأمر الله الى بغداد وقضاء السلطان طغرلبك على البساسيرى .

تمكن السلطان طغرلبك من الحاق الهزيمة بأخيه ابراهيم ينال قرب الرى وقتله بيده جزاء ماسببه له من المتاعب التى انعكست آثارها على الخلافة العباسية (١) . وحين فرغ من أخيه توجه الى همذان ومنها أرسل فى ربيع الثانى سنة ٤٥١هـ/مايو ١٠٥٩م الى قريش بن بدران يطلب منه ارسال ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة القائم بأمر الله ، ومع هذا الطلب لمح لقريش اعادة الخليفة القائم بأمر الله الى بغداد .

ويبدو كذلك أنه أرسل بمثل هذه الرغبة الى البساسيرى لأن الأخير طلب من قريش أن ينفذ رغبة طغرلبك بارسال ابنة أخيه وهو الذى جهزها بثلثمائة دينار (٢) . وفى مقابل اعادة الخليفة يبقى البساسيرى على ماهو عليه فى العراق ويرضى السلطان طغرلبك منهم نقش العملة باسمه واقامة الخطبة له .

ويبدو أن البساسيرى لم يجب السلطان طغرلبك بشىء فى أمر الخليفة ، ولذلك نرى طغرلبك يعيد مراسلة قريش بن بدران يشكره على ماأبداه تجاه ابنة أخيه ويهدده فى نفس الوقت اذا لم ينفذ ماطلبه بشأن اعادة الخليفة الى بغداد واقامة الدعوة له ويكرر السلطان طغرلبك ماسبق أن تعهد به بأنه يرضى منهم اقامة الخطبة له ونقش السكة باسمه (٣) .

---

(١) انظر الفصل السادس ص ٣٨٨ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٠ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٢ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٥١ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ص ٢٥٦ .

وقد شعر قريش هذه المرة بجدية التهديد الذى ذكره السلطان فى رسالته أولا لقرب منطقة نفوذه من عساكر السلطان وثانيا لأنه والبساسيرى فقدا الدعم المادى والمعنوى من قبل الفاطميين ، وقد نقل مخاوفه هذه الى البساسيرى ، فقال له "... ان السلطان قد التمس كذا وكذا ، فاياك والمخالفة ، ونحن قد خدمنا سلطانا بيننا وبينه ستمائة فرسخ ، وفعلنا معه مالم يظنه ، وقد مضى لنا منذ ستة أشهر منذ فتحنا العراق ماكتب الينا حرفا ولاالتفت الينا ، وقد عادت رسلنا بعد سنة منه صفرا ، ولم ينفذ لنا رسالة فضلا عن مال ورجال ومتى تجدد أمر فما يشقى به الا أنا وأنت وما المطلوب سواى وسواك والصواب المهادنة ورد الخليفة الى أمره وتستكتب له من تأمنه ونحقن الدماء ونحفظ الأموال ونعيش باقى العمر فى سكون" (١) .

لكن البساسيرى ، رغم قبوله بعود الخليفة القائم بأمر الله الا أنه كان رافضا بشدة أن يخطب للسلطان طغرلبك فى بغداد بل انه أرسل الى الخليفة من يأخذ عليه العهود بصرف السلطان طغرلبك عن العراق فى مقابل اعادته الى بغداد (٢) ، ونحن لانستغرب هذا الموقف من البساسيرى وتشدده ، اذا علمنا أن الخليفة القائم بأمر الله لم يكن له ولى عهد بالغ فقد توفى ابنه الوحيد وولى عهده أبو العباس محمد بن القائم سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م (٣) ، ولم يخلف أبا العباس الا ولدا أكرم الله به القائم بأمر الله بعد وفاة أبيه بستة أشهر (٤) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥١ .
(٢) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، مجلد ٩ ، ص ٤٠٣ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٥ ــ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٥ .
(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٩٠ .

وفى خضم هذه الأحداث كان ذخيرة الدين عبد الله بن محمد حفيد القائم بأمر الله لم يتجاوز سنواته الأربع ، ومن هنا يتبين لنا سبب تصلب البساسيرى فى موقفه ، وكذلك سبب عدم اقدام السلطان طغرلبك على المجازفة بعمل عسكرى ضد البساسيرى أو ضد قريش بن بدران .

وفى خضم هذه المطالبة الحثيثة والترقب من كلا الطرفين توفى الملك جغرى بك داود أخو السلطان طغرلبك فى رجب سنة ٤٥١هـ/أغسطس ١٠٥٩م مما اضطر السلطان الى العودة الى خراسان ليقسم مناطق النفوذ بين أبناء أخيه ويصلح من أمورهم حتى لايحدث مالايتوقع وهو بعيد عنهم (١) ، ولما اطمأن عاد أدراجه الى اقليم الجبال ليرسل الى قريش بن بدران رسالة فى شوال سنة ٤٥١هـ/نوفمبر ١٠٥٩م يبين له فيها حرصه الشديد على اعادة الخليفة القائم بأمر الله الى بغداد دون أى تأخير لأن ذلك فى نظره هو أهم مهماته التى يحرص عليها ولن يتهاون فيها ، وطرح أمام قريش خيارين أحدهما أن يتولى قريش اعادة الخليفة الى بغداد ويكون هو النائب عن السلطان فى العراق بأسرها ولايدخلها الجند السلجوقى الا باذنه ولمعاونته ومناصرته (٢) . وأما الخيار الآخر فهو أن يقوم قريش باستقدام الخليفة الى بلاده ويحفظه عنده الى أن يقدم عليه

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٧ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦١ ، (وقد ذكر سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان ، ص ٥٣ أن السلطان طغرلبك توجه الى أصبهان اطماعا للبساسيرى ، واظهارا منه بعده عن العراق ليكون ذلك داعيا الى خلاص الخليفة القائم ورده الى بغداد ، وماذكرناه فى المتن هو الراجح بأن سبب عودته الى خراسان هو وفاة أخيه الملك جغرى بك داود فى رجب سنة ٤٥١هـ) - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٧ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٣ .

السلطان ليقوم هو باعادته الى مقر خلافته (١) .

ويلاحظ فى هذه الرسالة التى أوردها ابن الجوزى كاملة أن السلطان طغرلبك التزم العفو عن كل من شايع قريشا من العرب والعجم والأكراد الذين شايعوه فى السابق وناصروه وأنه استثنى من ذلك البساسيرى ... "فانه لاعهد له ولاأمان وهو موكول الى الشيطان وتساويله ، وقد ارتكب فى أمر الله عظيما" (٢) .

كما يتضح من هذه الرسالة أيضا الاغراء الذى قدمه السلطان طغرلبك لقريش بالبقاء محايدا فى هذه الفترة وعزله عن البساسيرى الذى يئس منه السلطان فى الاستجابة الى مطالبه باعادة الخليفة وتشدد معه فى اقامة الخطبة له فى بغداد التى رفضها رفضا باتا .

وقد أضحت سياسة السلطان تجاه البساسيرى أكثر تشددا وسعيا الى التخلص منه . أما قريش بن بدران فعلى الرغم من الوعود التى بذلها له السلطان السلجوقى فانه لم يكن واثقا من تلك الوعود التى ضمنها السلطان طغرلبك فى رسالته له بدليل أنه أرسل الى ابن عمه مهارش يطلب منه ارسال الخليفة اليه وتسليمه له ، ومن ضمن ماقاله له : "وقد عادوا الآن - السلاجقة - وأطلوا علينا وربما قصدوك وحاصروك وأخذوه منك فخذه وارحل به وبأهلك وولدك الى فانهم اذا علموا حصوله فى أيدينا لم يقدموا علينا خوفا على نفسه فاذا طلبوه منا اشترطنا عليهم أن لايتعرضوا لبلادنا ولالعشائرنا ونقترح

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٣ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٤ .

عليهم ماشئنا من المال والبلاد ..." (١). لكن مهارشا لم يقبل ماعرضه عليه قريش بن بدران بحجة أن البساسيرى غدر به ولم يف بما ضمن له ولم يبق فى رقبته أيمان لهم وقد استحلفه الخليفة لنفسه .

ويرى الخطيب البغدادى أن السلطان طغرلبك التف على قريش والبساسيرى وكاتب مهارشا العقيلى بشأن الخليفة ، وبسبب هذه المكاتبة أخرج مهارش الخليفة من محبسه وعبر به الفرات حتى لايصل اليه كل من قريش أو البساسيرى (٢)، أما السلطان طغرلبك فيبدو أنه أصبح أكثر اطمئنانا على الخليفة القائم بأمر الله ، ولذلك نراه يتقدم نحو بغداد التى دخلها دونما أى مواجهة فى أوائل ذى القعدة سنة ٤٥١هـ/٢٣ ديسمبر ١٠٥٩م (٣) وأضحى ينتظر فيها أخبار الخليفة الذى وصل الى تل عكبرا (٤) في أواخر ذى القعدة (٥)، وكان فى استقباله ابن فورك (٦) الذى أسرع باخبار السلطان بوصول الخليفة الى هذه المنطقة . ويذكر ابن فورك عن السلطان حينما سمع بهذا النبأ : "لما وقف على كتابى طار فرحا وجاءه مالم يكن فى حسابه ولم يخطر بباله" (٧).

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٨-٥٩ – وانظر أيضا ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٥-٢٠٦ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٦-٦٤٧ .

(٢) تاريخ بغداد ، مجلد ٩ ، ص ٤٠٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٨ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٦ .

(٤) تل عكبرا : موضع على بعد عشرة فراسخ من بغداد على الجانب الشرقى من نهر دجلة . انظر : (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٧٢) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٧ .

(٦) ابن فورك : عرفه ابن الأثير ج٩ ، ص ٦٤٦ بأنه الامام أبو بكر أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك ، ولم أجد له ترجمة فيما بين يدى من المصادر .

(٧) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٩ .

وعلى الفور توجه السلطان الى النهروان (١) ليكون على رأس مستقبلي الخليفة من أعيان الدولة ، وحين وصل الخليفة قبل السلطان طغرلبك الأرض وهنأه بالسلامة ثم اعتذر اليه عن تأخره بسبب ابراهيم ينال ثم موت أخيه جغرى بك داود بعد ذلك وتعهد للخليفة بتتبع البساسيرى وقصد الشام "وافعل فى حق صاحب مصر ماأجازى به فعله" (٢) ، ومن النهروان توجه الجميع الى بغداد التى دخلوها فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ٤٥١هـ/٤ يناير ١٠٦٠م (٣) .

أما البساسيرى فكان قد توجه الى البصرة قبل دخول السلطان طغرلبك بغداد وظل بها يجمع أمواله وغلاله (٤) ، ويبدو أنه لم يكن يريد المواجهة مع السلاجقة وانما يريد أن يجمع أكبر قدر ممكن من الأموال ليهرب بها من العراق ، لكن وصول الخليفة المبكر الى بغداد وتفرغ السلطان طغرلبك له أربكه ولم يدع له فرصة الحصول على ماكان ينويه خاصة بعد خروج السلطان طغرلبك لقصده وقطع عليه طريق الكوفة حتى يمنعه من الهرب الى بلاد الشام (٥) ، فلم يجد البساسيرى بدا من الالتجاء

---

(١) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط ، حدها الأعلى متصل ببغداد ، (ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، ص ٣٢٤-٣٢٥) .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٨ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٧ .

(٣) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، مجلد ٩ ، ص ٤٥٣ - ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٨ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٧ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٩ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦٥ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٨ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦٤ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٨ . وتذكر هذه المصادر أن شيخ بنى جناجة سرايا ابن منيع الخفاجى هو الذى أشار على السلطان طغرلبك بارسال فرقة من الجيش لتقطع الطريق على البساسيرى ومنعه من الهروب الى الشام .

الى دبيس بن مزيد فى الحله ، وفوجىء الجميع بوصول القوات السلجوقية تحيط بهم من كل جانب .

ولافساح المجال أمام القوات السلجوقية للايقاع بالبساسيرى طلب أنو شروان بن خوارزم بن دبيس بن مزيد أن يجتمع به (١) ، وحين تم الاجتماع طلب أنو شروان من دبيس أن يسلم البساسيرى اليه وأن لايحتج بذمام العربية واذا لم يقبل بهذا الأمر فان عليه أن يخلى بين البساسيرى وبين السلاجقة وأن يلتزم الحياد بينهما ، لكن دبيسا لم يستجب لأحد هذه المطالب ورأى أن ذلك عيب فى حقه واقترح فى نهاية اللقاء أن يسعى أنوشروان لمصالحة البساسيرى مع السلطان (٢) . وقد تظاهر أنوشروان بأنه سيفعل ذلك ، وعاد دبيس الى حلته (٣) وأخبر البساسيرى ماقترحه على أنوشروان فأظهر البساسيرى له موافقته على مافعل (٤) . وبينما كان معسكر دبيس يجهز حلله استعدادا للرحيل بأغتهم السلاجقة بالهجوم وأكثروا فيهم قتلا وبينما كان البساسيرى يحاول ركوب فرسه بادره أحد الجنود بضربة بالسيف على وجهه ونزل اليه آخر واحتز رأسه وأرسل به الى السلطان طغرلبك لتنتهى بمقتله فتنة البساسيرى فى الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٤٥١هـ/١٩يناير ١٠٥٩م (٥) تلك الفتنة التى حملت عوامل نجاحها بدعم الفاطميين وتمرد ابراهيم ينال ، كما خسرت مقوماتها بمقتل ابراهيم ينال ، وتوقف دعم الفاطميين .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٩ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦٥ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٩ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦٥ .

(٣) حله : الحلة بالكسر ثم التشديد فى اللغة القوم النزول وفيهم كثرة . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ٢٩٤) ، وفى القاموس المحيط للفيروز ابادى ، ج٣ ، ص ٣٤٨ حل : بالفتح ثم التشديد المكان وبه يحل ويحل حلا وحلولا وحللا محركة نادر نزل به كاحتله وبه فهو حال

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٩ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦٦ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٩ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٦٧ – ابن الاثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٩ .

الفصل الرابع

الدولة السلجوقية في أقصى اتساعها غربا وشرقا

(أ) حملات السلاجقة في أرمينية وبلاد الكرج .

* حملات السلاجقة الأولى على أرمينية .
* حملة ابراهيم ينال على أرمينية ٤٣٩هـ/١٠٤٧م .
* حملة السلطان طغرلبك ٤٤٦هـ/١٠٥٤م .
* حملات السلطان ألب أرسلان في أرمينية وبلاد الكرج ٤٥٦هـ/١٠٦٤م .
* حملة السلطان ألب أرسلان على بلاد الكرج ٤٦٠هـ/١٠٦٨م .

(ب) معركة ملاذكرد وامتداد سلطان السلاجقة الى بلاد الروم .

* غزوات السلاجقة في آسيا الصغرى قبل معركة ملاذكرد .
* موقعة ملاذكرد ٤٦٣هـ/١٠٧١م .
* توغل السلاجقة في آسيا الصغرى .

(ج) امتداد النفوذ السلجوقي الى بلاد الشام .

* الأوضاع السياسية والاقتصادية في مصر وأثرها على بلاد الشام .
* الحملات التركمانية الأولى على بلاد الشام .
* سيطرة أتسز بن أوق على فلسطين والمناطق الوسطى من بلاد الشام .
* بلاد الشام في ظل حكم تتش بن ألب أرسلان ٤٧١-٤٨٥هـ/١٠٧٨-١٠٩٢م .

(د) اخضاع بلاد ماوراء النهر .

(أ) حملات السلاجقة فى أرمينية وبلاد الكرج

حملات السلاجقة الأولى على أرمينية (١) :

من المرجح أن الحدود الأرمنية حسبما ورد عند ابن الاثير شهدت أول غزوات السلاجقة بعد سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م حينما تمرد سلاجقة العراق – اتباع أرسلان بن سلجوق – على الدولة الغزنوية وأجبرهم السلطان محمود الغزنوى على الهروب الى الرى وأذربيجان حيث أصبحوا على مقربة من أرمينية التى أصبحت مهددة من قبلهم منذ ذلك الحين (٢) .

وقد وصف بعض مؤرخى الأرمن هؤلاء الغزاة بأن شعورهم كانت طويلة مرسلة وأنهم يرمون بالسهام من فوق صهوة الجياد دون أن يحددوا هوية هؤلاء الذين غزوهم (٣) ، وكانت هذه الغزوات تأتى من شمال غربى ايران – أذربيجان – ويرجح كلود كاهن أن

(١) أرمينية : يحد أرمينية من الشرق والجنوب الشرقى والشمال الشرقى أذربيجان والران ومن الشمال والغرب بلاد الكرج ، ومن الغرب والجنوب الغربى اقليم الجزيرة انظر (كى لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١١٦ الخارطة رقم ٣) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٣ .

(٣) Claude Cahen, Pre-Ottoman Turkey, London 1968,p.67
فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٠٠-١٠٧١م/٣٩٢-٤٦٣هـ) فى مصنف أريستاكيس الليستفرتى ، الاسكندرية ١٩٨٣م ، ص ٤٥ . وينقل فايز نجيب اسكندر فى نفس الصفحة عن متى الرهاوى ، أن أول غزوات الاتراك على أرمينية كانت سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م ، وهو تاريخ مبكر نسبيا عن فترة ظهور السلاجقة فى تلك المنطقة ، ومن المحتمل أن أذربيجان شهدت غزوات قام بها اتراك آخرون فى تلك الفترة وعن طريقها عبروا الى أرمينية .

الأمراء الأكراد هم الذين كانوا يقودون تلك الغزوات (١).

وعلى كل فان نشاط سلاجقة العراق فى أرمينية بدأت تتضح معالمه بعد سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م ففى هذه السنة استولى ابراهيم ينال على الرى ، وهرب منها أولئك السلاجقة ، وكان هروبهم نحو اقليم الجزيرة الفراتية ، ومن هذه المنطقة ومن أذربيجان أخذوا يغيرون على أرمينية دون أن يحدد لنا ابن الأثير الأماكن التى غزاها سلاجقة العراق ، اذ يذكر أنهم كانوا يقصدون بلد الأرمن من أرمية (٢) ، فأوقعوا بهم وأثخنوا فيهم وغنموا وسبوا ، وفى موضع آخر يذكر أنهم كانوا يقصدون بلاد الأرمن وينهبون ويسبون حتى أن الجارية الحسناء بلغت قيمتها خمسة دنانير ، وأما الغلمان فلايرادون (٣).

وعقب أحداث هذه الغارات تذكر المصادر البيزنطية ، أن الدولة البيزنطية تأمينا لحدودها مع المسلمين قامت بضم المملكة البقرادونية (٤)(٥) ،

---

(1) Claud, Cahan : Op.cit, p68 .

(٢) أرمية : مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان بينها وبين البحيرة (بحيرة أرمية) نحو ثلاثة أميال أو أربعة ، وهى مدينة حسنة كثيرة الخيرات واسعة الفواكه والبساتين صحيحة الهواء (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٥٩) . وهى الآن فى جمهورية ايران فى أقصى حدودها الشمالية الغربية المتاخمة لحدود تركيا ، انظر (سعيد الصباغ ، الأطلس العربى العام ، ص ٤٤-٤٥).

(٣) الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٣،٣٨٩ .

(4) Claud, Cahan : Op.cit, p68 .

(٥) المملكة أو الامارة البقرادونية : يرجع استارجيان فى كتابه تاريخ الأمة الأرمنية ، الموصل ، ١٩٥٣م ، ص ١٨٦-١٨٧ نشأتها الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) على يد أسرة تدعى أسرة باقرادونى وهى أسرة تعود فى أصولها الى الكرج واحتفل الأرمن بتنصيب أشوط أميرا لأمراء الأرمن والكرج سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م وحصل على اعتراف الخلافة العباسية بذلك . لمزيد من المعلومات عن هذه الامارة والامارات الارمنية الأخرى انظر : بول آميل تاريخ أرمينيا ، ترجمة شكرى علاوى ، بيروت بدون تاريخ =

وعاصمتها آنى[1] ، وعوضت حاكمها سمباد بن كاكيك (٤١١-٤٣٢هـ/١٠٢٠-١٠٤٠م) مقاطعة كبيرة قليقية[2] ، مما يدل على الخطر الذى شعرت به الدولة البيزنطية من أولئك السلاجقة الذين كثرت غاراتهم على الحدود الأرمنية البيزنطية وماترتب عليها من آثار .

لكن تلك الهجمات التى شهدتها أرمينية لم تكن تمثل الا مرحلة من المراحل التى شهدتها تلك المنطقة ، اذ أنه بعد أن بسط السلطان طغرلبك نفوذه على اقليم الجبل ومعظم اذربيجان ، بدات الغزوات المتوالية على أرمينية من قبل الدولة السلجوقية ذاتها ، فنرى ابراهيم ينال يتصدى للقيام بأول هجوم سلجوقى على أرمينية فى سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م .

ومن الملاحظ أن دوافع ابراهيم ينال للقيام بغزوته - التى سنتحدث عنها بعد قليل - كانت دوافع طارئة ، اذ أنه اندفعت أعداد غفيرة من الغز من اقليم ماوراء النهر لتستقر عنده فى اقليم الجبل ، ولذلك فانه أصبح عاجزا عن القيام بمؤونة تلك الجموع الكثيرة منهم ، وربما خشى مغبة بقائهم عنده ، خاصة وأنه كان قد تلقى أمرا فى تلك السنة من

= ص ٢٤-٣٠ - خانجى ، مختصر تواريخ الأرمن ، القدس ١٨٦٨م ، ص ١٧٠-٢٠٠ - أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، الطبعة الأولى ، حلب ١٩٧٢م ، ص ١٧٧-١٩٠ - صابر دياب ، أرمينية من الفتح الاسلامى الى مستهل القرن الخامس الهجرى ، ص ١٤٧-٢٠١ .

(١) آنى : قلعة حصينة فى أرمينية بين خلاط وكنجة (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٥٩) وكانت عاصمة للأسرة البقرادونية فى هذه الفترة .

(٢) قيليقية : مقاطعة كبيرة تحدها من الشرق جبال أمانوس ومن الشمال والغرب جبال طوروس أما الجنوب فالبحر الأبيض المتوسط ، انظر : (استار جيان ، تاريخ الأمة الأرمنية ، ص ٢٠٣) .

السلطان طغرلبك بالتوقف عن مهاجمة مناطق النفوذ البويهى ، ولذلك هداه تفكيره الى توجيه أولئك الغز الى مناطق جديدة تصلح لتكون ميدان جهاد لهم ، وكان اختياره لأرمينية حيث خاطبهم بقوله : "بلادى تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون اليه ، والرأى أن تمضوا الى غزو الروم وتجاهدوا فى سبيل الله وتغنموا ، وأنا سائر على اثركم ومساعد لكم على أمركم" (١) .

وهكذا انطلق ابراهيم ينال بذلك الجمع الى أرمينية حيث اجتاحوا ملاذكرد (٢) وأرزن (٣) التى كانت تعد آنذاك من المراكز التجارية المهمة (٤) ، ويذكر البعض عن مؤرخى الأرمن أن القوات السلجوقية لقيت مقاومة شديدة من سكان أرزن الذين اتخذوا من أسطح منازلهم ودروب شوارعهم مراكز دفاعية ضد الجيش السلجوقى ، وأن القتال استمر بين الطرفين ستة أيام ، ولذلك أمر ابراهيم ينال بعضا من قواته رشق منازل المدينة بالسهام النارية ، فانهالت قذائف اللهب على المنازل ، مما فت من عزائم المقاتلين فى طول المدينة وعرضها ، وأمام تلك المفاجأة بحث المقاتلون من الأرمن وغيرهم عن النجاة فرارا بأنفسهم ، واختل نظامهم فأصبحوا فريسة سهلة أمام القوات

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٦ ــ وانظر ابن الجوزى المنتظم ، ج٨ ، ص ١٣٧ .

(٢) ملاذكرد : وتعرف أيضا باسم منازجرد ومنزكرت وملاسكرد ، وهى مدينة على مقربة من نهر ارسناس شمال بحيرة وان ، حصينة طيبة الهواء وأرضها خصبة . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٨) .

(٣) أرزن : مدينة قرب خلاط وكانت أعمر نواحى أرمينية ثم طالها الخراب . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٥٠) ، وهى على مقربة من ميافارقين على ضفة نهر أواد يقال سربط . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٤) .

(٤) أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، ص ١٩٥ .

السلجوقية التى كانت لهم بالمرصاد أثناء فرارهم (١) .

وقد بالغ بعض المؤرخين فى تقدير عدد القتلى فى هذه الموقعة ، فبعضهم يجعل عدد القتلى مائة وخمسين الفا (٢) ، بينما يجعلهم البعض مائة وأربعين الفا (٣) ، وهناك رواية تقول أن عدد القتلى هو خمسون الفا (٤) . وهذا الاختلاف وان كان يثبت ضخامة أعداد القتلى من الأرمن الا أنه يدل من جانب آخر على المبالغة الكبيرة فى تقدير عدد القتلى بدليل الاحصاء الأخير الذى ذكر عن عدد القتلى .

أما الجانب السلجوقى بعد ذلك النصر المؤزر فقد أخذ أفراده فى جمع الغنائم من أرزن ، من الذهب والأشياء الثمينة ، والخيول والبهائم والأسلحة (٥) . ويبدو أن ماحدث لمدينة أرزن قد نبه القوات البيزنطية الى خطورة القوات السلجوقية ، وأنه ليس فى مقدرتها وحدها مواجهتها ، ولذلك طلب القائد البيزنطى فى أرمينية المساعدة من بعض الأمراء

---

(١) فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٢٣٧-٢٣٨ ، الحاشية رقم ٥٨٧ .
(٢) فايز نجيب اسكحندر ، نفس المرجع والصفحة والحاشية .
(٣) أنطون خانجى ، مختصر تواريخ الأرمن ، ص ٢٠٧ (ويجعل السلطان طغرلبك قائد الحملة التى أحرقت أرزن بدلا من ابراهيم ينال) – أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، ص ١٩٦ – عبد الله عنان ، مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م ، ص ١٠٦ .
(٤) فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٢٣٩ ، الحاشية رقم ٥٨٨ .
(٥) فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٢٣٨ ، الحاشية رقم ٥٨٧ .

الأرمن مثل حاكم البسفرجان هارون بن البلغارى (١) ، والحاكم الابخازى قاريط (ليباريت) . وبعد أن تجمع من القوات البيزنطية والأرمنية والابخازية خمسون ألف مقاتل (٢) ، قرروا مواجهة القوات السلجوقية فى وادى باسين القريب من أرزن ، وبعد معارك عنيفة خرج السلاجقة فى نهايتها منتصرين انتصارا ساحقا على القوات المتحالفة ضدها ، ووقع الأمير الابخازى قاريط (ليباريت) فى الأسر وسلم لابراهيم ينال (٣) .

ويبدو أن هذا النصر شجع الأمير السلجوقى على المضى قدما فى غزوته حيث وصل الى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى (٤) وبلغ طرابيزون على ساحل البحر الأسود (٥) .

---

(١) البسفرجان : كورة بأرض أران ، ومدينتها النشوى ، وهى نقجوان ، وتعد فى أرمينية الثالثة (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٢٢) .

(٢) فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٨٨ ، والحاشية رقم ٥٩٠ ، ويذكر أن مجموع المقاتلين الأرمن وحلفائهم البيزنطيين والكرج هو : ستون ألفا .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٦ – وانظر فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٨٩ – أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، ص ١٩٥ – فتحية النبراوى ، العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى (١٠٠٠-١٣٠٠م) الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٦٣ – أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجرى – التاسع والعاشر الميلادى ، ج١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٢٢١ ، ويجعل المعركة بين ابراهيم ينال والقوى المتحالفة بعد رجوع ابراهيم ينال من آسيا الصغرى عائدا الى بلاده .

(٤) أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، رسالة دكتوراه من جامعة المنيا ، كلية الآداب ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٦ .

(٥) طرابيزون : مدينة بأرمينية على ساحل البحر الأسود ، كانت ملتقى التجار من الروم والمسلمين ، (أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ٦) .

ويذكر ابن الأثير أن ابراهيم ينال لم يزل يجوس تلك الديار (آسيا الصغرى) الى أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما (١) ، مما يدل على ضعف التحصينات البيزنطية وعدم توقع البيزنطيين لعنف هذا الهجوم فى جوف أراضيها . كما يبدو أن ابراهيم ينال لم يشأ التوغل أكثر مما بلغه فى أراضى الدولة البيزنطية حتى لايتورط فيما لاتحمد عقباه ولذلك قرر العودة الى اقليم الجبل حاملا معه غنائم كثيرة ، قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف من السبى عدا الدواب والبغال ، والغنائم المحمولة على عشرة آلاف عجلة من ضمنها تسعة عشر ألف درع (٢) .

أما فيما يتعلق بالأمير الابخازى قاريط (ليباريت) فانه تعهد لابراهيم ينال بدفع فدية عن نفسه وهى ثلاثمائة ألف دينار نقدا ، وبما قيمته مائة ألف دينار كهدايا ، غير أن ابراهيم ينال رفض عرضه (٣) ، وسار به الى السلطان طغرلبك بعد عودته .

وفيما يتعلق بالدولة البيزنطية ، فانها وقفت مكتوفة الأيدى أمام هجوم السلاجقة فى أرمينية وآسيا الصغرى . ويعزو البعض سبب ذلك الى أن الدولة البيزنطية قد تعرضت خلال تلك الفترة لهجوم أتاها من الشمال من قبل البشناق (٤) ، واضطر

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٦ ، وانظر ابن الجوزى المنتظم ، ج٨ ، ص ١٣٧ — الذهبى ، العبر ، ج٣ ، ص ١٩٤

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٦ .

(٤) البجنك : من قبائل الغز التى هاجرت الى شبه جزيرة البلقان فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وأخذوا يهددون فيه الدولة البيزنطية من الشمال فى الوقت الذى كانت فيه الدولة البيزنطية تهاجم من قبل السلاجقة ، انظر (بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٠٢-١٠٣) .

الامبراطور قسطنطين التاسع - موناماخوس - (٤٣٤-٤٤٧هـ/١٠٤٢-١٠٥٥م) الى نقل أفضل الوحدات العسكرية من الأناضول الى الشمال لايقاف هجمات البجنك (١).

ويبدو أن الامبراطور قسطنطين التاسع اختار أن يهدىء من المشاكل فى الجبهات الشرقية وايقافها ان أمكن ، وذلك من خلال عقد هدنة مع السلطان طغرلبك . ولم يلجأ الامبراطور البيزنطى الى هذا الطلب مباشرة ، وانما مهد لذلك بأن أرسل الى نصر الدولة بن مروان طالبا منه التوسط لدى السلطان طغرلبك فى اطلاق سراح الأسير الابخازى .

وقام نصر الدولة بالدور المطلوب منه حينما أرسل الى السلطان طغرلبك سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م يبين له رغبة الامبراطور البيزنطى فى فكاك الأسير الابخازى ، وقد استجاب السلطان طغرلبك لرغبة الامبراطور قسطنطين التاسع وأطلق ليباريت بدون أى مقابل (٢) ، وهذا مالم يكن يتوقعه الامبراطور البيزنطى فيما يبدو ، ولذلك أراد أن يرد الجميل للسلطان السلجوقى على صنيعه ذلك ، فأرسل اليه هدايا متنوعة من الثياب والخيول وغير ذلك ، كما أنه أمر بعمارة الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمارة منارته وعلق فيه القناديل ، وأقيمت الصلاة مجددا فى الجامع وخطب للسلطان طغرلبك فيه (٣) .

---

(١) أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٢١ - أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٦-٥٥٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٧ ، ج١٠ ، ص ٢٨ - أبو الفدا ، المختصر من أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٩ - الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١١٠ .

وقد استغل الامبراطور قسطنطين التاسع هذه البادرة الطيبة من قبل السلطان طغرلبك وطلب منه المهادنة بين الدولتين ، فلبى السلطان طغرلبك طلبه فى هذا الشأن أيضا (١) .

ومما يجدر ذكره أن أرمينية تعرضت لهجوم كاسح قبل هذه الهدنة وذلك عندما هاجم أبو الأسوار حاكم دوين ، (جنجة) بغزو ماليليه من أرمينية فى اقليم البسفرجان سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م مما اضطر سكان بعض نواحى تلك الولاية الى الالتجاء الى مدينة آنى من شدة الهجوم الذى قام به أبو الأسوار ، ولم تسلم مدينة آنى نفسها من غزوة حاكم دوين الذى تتبع فلول الهاربين اليها واستطاعت قواته أن تدخلها عن طريق استغلال الفوضى التى دبت فيها وهى تستقبل المهاجرين الأرمن اليها ، وقتلت القوات التابعة لحاكم دوين كثيرا من أهل مدينة آنى ثم عادت الى بلادها (٢) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٦ - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٩ - الذهبى ، سير اعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١١٠ - ويذكر سعيد عاشور فى كتابه الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨١ ، أن السلطان طغرلبك هو الذى بدأ فى طلب الهدنة ، وقد عقب عليه الباحث أحمد تونى عبد اللطيف فى بحثه الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ص ٧ وذكر ما أثبتناه فى المتن . مع ملاحظة أن سعيد عاشور أشار فى الحاشية الى رواية المقريزى فى السلوك ، ج١ قسم١ ، ص ٣٢ التى تبين أن الامبراطور البيزنطى كان هو البادىء فى طلب الهدنة من السلطان طغرلبك .

(٢) Claude cahens, Op. Cit, p.68 .
ويذكر أن هذه الغارة من قبل أبى الأسوار على أرمينية كانت بداية التعاون بينه وبين السلاجقة فى هجومهم على آسيا الصغرى . ولم أعثر لأبى الأسوار على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

أما الحملة الأخرى فقد قام بها الأمير قتلمش بن اسرائيل واستهدفت مدينة قارص[(١)]، وذلك سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م وقد تمكنت القوات السلجوقية من دخولها بعد أن فر منها سكانها الى القلعة التى تحصنوا فيها، وتفرغ السلاجقة لجمع الغنائم من المدينة الخاوية وعادوا أدراجهم الى نقطة انطلاقهم[(٢)].

---

(١) قارص : عند ياقوت فى معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٣ قرص ، وهى من أرمينية من نواحى تفليس على بعد يومين منها .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨١ – أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٢٤ – فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٩٠ .

حملة السلطان طغرلبك على أرمينية ٤٤٦هـ/١٠٥٤م :

ولأسباب نجهلها قام السلطان طغرلبك بقيادة حملة كبيرة على أرمينية ، حيث استولى على بعض المناطق شمال بحيرة وان (فان) مثل أرجيش(١) وخلاط(٢) ، ثم واصل تقدمه نحو ملاذكرد(٣) ، التى استعصت عليه بسبب تحصيناتها ، وتصميم القوة العسكرية التى بها على المقاومة(٤) . ومع ذلك فان السلطان أبقى جزءا من قواته على محاصرتها ، وتوجه قسم آخر الى مدينة أرزن .

وينقل عن أحد مؤرخى الأرمن أن السلاجقة سحقوا كل

---

(١) بحيرة وان : من أشهر بحيرات أرمينية لعلها نسبت الى قلعة وان بين خلاط ونواحى تفليس من عمل قاليقلا .
انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٣٥٥ – لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٧) .

(٢) أرجيش : مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٤٤) .

(٣) خلاط : ويقال لها أخلاط تقع فى طرف بحيرة وان الغربى وهى مدينة سهلة تحف بها البساتين . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٨) .
وقارص وأرجيش وخلاط وبحيرة وان تقع فى شرق جمهورية تركيا الآن ، انظر (سعيد الصباغ ، الأطلس العربى العام ص ٤٥) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٩ – فايز نجيب اسكندر أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٩٠ ، ويذكر المؤرخ الأرمنى الذى نقل عنه فايز نجيب اسكندر أخبار حملة السلطان طغرلبك أن هذه الحملة كانت شاملة لكل اقليم أرمينية حتى بلغت حدود القوقاز وبلاد الابخاز ، وهى مبالغة كبيرة منه فى تقدير الجيش السلجوقى المصاحب للسلطان طغرلبك حتى يغطى المنطقة كلها بغزواته فى وقت واحد .
ويضيف كلود كاهن على أخبار هذه الحملة أنه كان من بين الأمراء الأتراك السلاجقة الذين اشتركوا مع السلطان طغرلبك فيها ابن عمه قتلمش بن اسرائيل ، وكان هذا بداية ظهور الأمير قتلمش على مسرح الأحداث فى آسيا الصغرى ، انظر : (Claud Cahen , Op. Cit, p69) وقارن ذلك مع ماسبق أن ذكرناه فى المتن من أن بداية دور قتلمش فى حروب السلاجقة فى آسيا الصغرى كان سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م ، وربما يرجع هذا الى التضارب فى التواريخ الهجرية عند مقارنتها بالتواريخ الميلادية .

مقاومة ضدهم فى أرزن (كأنهم رجال حصاد يحصدون ثمار حقولهم) ، وهرب نتيجة هذه الحملات السلجوقية أعداد كبيرة[1] من السكان الى المناطق المحصنة الواقعة الى الغرب من ملاذكرد ، ومع ذلك لم تنفع تلك المناطق المحصنة أولئك الهاربين الذين لحق بهم السلاجقة وحطموا تلك التحصينات فوقعت بسهولة فى يدهم[2] .

أما ملاذكرد فقد ظلت تقاوم المحاصرين لها من السلاجقة حتى حل فصل الشتاء وهبطت الثلوج فأصبح من المتعذر على السلاجقة البقاء فى مثل هذا الجو ، ولذلك قرر السلطان العودة الى الرى ومعه عدد كبير من الأسرى ، عدا ماغنمه من أموال فى غزوته تلك مقررا العودة الى ملاذكرد فيما بعد[3] . ولم يقدر للسلطان طغرلبك العودة الى أرمينية بسبب دخوله بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وانشغاله بالمشاكل التى تحدثنا عنها فيما سبق[4] .

ويذكر كلود كاهن أن المنطقة الواقعة حول بحيرة وان شهدت غزوات متكررة للسلاجقة أنهكت فيها القوات البيزنطية والأرمنية ، كما تعرضت تلك المنطقة لعمليات تدمير وتخريب

---

(١) فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٩٠، الحاشية رقم ٦١٥ .

(٢) فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٩١ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٩ - فايز نجيب اسكندر أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ٩١ - أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٢٤ -
Claud Cahen : Op. Cit, p.69 .

(٤) انظر الفصل الثالث ، ص ١٨٦ ومابعدها .

واسعة منذ أن غادرها السلطان طغرلبك سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م الى حين وفاته سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م (١) لتبدأ مرحلة جديدة فى عهد خلفه السلطان ألب أرسلان الذى سار على نهج عمه السلطان طغرلبك فى هذا الاقليم ، ولكن بدلا من الغزووالعودة الى قواعد الانطلاق كانت أهدافه هى ضم هذا الاقليم الى الدولة الاسلامية وتوطين القبائل السلجوقية فيه .

حملة السلطان ألب أرسلان فى أرمينية وبلاد الكرج :

سار السلطان ألب أرسلان على سياسة سلفه السلطان طغرلبك فى الغزو والجهاد فى أرمينية ، اذ أنه افتتح عهده بالقيام بأولى حملاته فى ربيع الأول سنة ٤٥٦هـ/فبراير ١٠٦٤م عندما توجه من الرى الى أذربيجان . وعندما وصل الى مرند (٢) قابله أحد الأمراء التركمان الذين أمضوا حياتهم هناك فى الجهاد ويدعى طغدكين الذى اكتسب خبرة كبيرة فى سلوك المسالك المؤدية الى أرمينية أوبلاد الكرج ، وقد عرض طغدكين نفسه وأتباعه من التركمان على السلطان ألب أرسلان ليدله على المسالك الآمنة فى تلك المنطقة ، وقد قبل السلطان منه هذه الخدمة (٣) ، ومن ثم توجه الجميع الى قرب

---

(1) Claud Cahen : Op. Cit, p.69 .

(٢) مرند : من مشاهير مدن أذربيجان بينها وبين تبريز يومان (معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١١٠) ، وتقع الى الشمال الشرقى من بحيرة أرمية ، انظر (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، خارطة رقم ٣ ، ص ١١٦) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٧ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٧ ، ويسمى المجاهد التركمانى طغتكين .

نخجوان[١]. وهناك نصح البعض السلطان ألب أرسلان ألا يمضي بالجيش حتى يخضع أهل خوى[٢] وسلماس[٣] الذين كانوا قد امتنعوا بحصونهم خوفا من الحملة السلجوقية والذين فيما يبدو اظهروا موقفا عدائيا منها ، ولذلك أرسل اليهم السلطان قوة اجبرتهم على الخضوع والولاء له[٤].

ويذكر ابن الأثير : أن السلطان وصل الى نخجوان ومنها بدا في عمل السفن لعبور نهر الأرس[٥] مع أن نخجوان في شمال النهر ولايمكن العبور اليها الا بعد اجتياز النهر ، ولذا فانه من المرجح أن الاستعدادات بعمل السفن كانت قبل الوصول لتلك المدينة ، كما يذكر كل من ابن الأثير والحسيني أن السلطان ألب أرسلان اتجه بقسم من جيشه الى بلاد الكرج من نخجوان بينما ترك القسم الآخر بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره

---

(١) نخجوان : ويطلق عليها أيضا نقجوان ، بلد بأقصى أذربيجان (معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٦) ، وهى من اقليم الران على الضفة اليمنى شمال نهر أرس (انظر لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠١ ، وانظر الخارطة فيه رقم ٣ ، ص ١١٦) .

(٢) خوى : بلد مشهور من أعمال أذربيجان كثير الخير والفواكه وينسب اليها الثياب الخوية (معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤٠٨) ، وهى الى الشمال الغربى من بحيرة أرمية (انظر لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، خارطة رقم ٣ ، ص ١١٦) .

(٣) سلماس : من مدن أذربيجان بينها وبين أرمية يومان وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام (معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٢٣٨-٢٣٩) ، وهى غرب الطرف الشمالى لبحيرة أرمية (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، خارطة ٣ ، ص ١١٦).

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ .

(٥) الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ .

ونهر الأرس : ينبع نهر الأرس أو أرس فى بلاد قاليقلا فى غربى أرمينية ويجرى بمحاذاة حدود أذربيجان الشمالية حتى يلتقى بنهر الكر ، (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٣) .

نظام الملك[1] دون أن يحددا لنا الاتجاه الذى سار فيه ملكشاه[2] كما ذكرا لنا أماكن فتحها ملكشاه لم نجد لها تعريفا فى المصادر التى بين أيدينا سوى مدينة واحدة هى سرمارى ، وحسب التعريف بها من ياقوت اتضح أنها مدينة تقع بين خلاط وتفليس[3] ، وعلى هذا فان المناطق أو المدن التى سنذكرها فيما يلى تقع فى أرمينية الكبرى الى الشمال من بحيرة (وان) وهو استنتاج يمكن أن نطمئن اليه ، ومن خلاله نستطيع أن نعرف هدف السلطان ألب أرسلان من تقسيم جيشه ، اذ أن مهمة جيش ملكشاه هو شغل القوات البيزنطية والأرمنية فى

---

(١) نظام الملك : الحسن بن على بن اسحاق بن العباس الطوسى (٤٠٨-٤٨٥هـ/١٠١٧-١٠٩٢م) ولد نظام الملك بطوس وحفظ القرآن وهو صغير ، ثم اشتغل بالفقه ، وتوجه بعدها الى غزنة وعمل فى ديوان السلطان محمود الغزنوى ثم انتقل الى خراسان وتتلمذ على يد أبى على بن شاذان الذى كان يعمل لألب أرسلان قبل أن يلى السلطنة ، وعند وفاة ابن شاذان أوصى ألب أرسلان بنظام الملك وذكر له كفاءته وأمانته ، فولاه ألب أرسلان ماكان يتولاه ابن شاذان .
وبعدما تولى ألب أرسلان السلطنة أصبح نظام الملك الوزير الأول لدولة السلاجقة واستمر على هذه المكانة فى عهد ملكشاه حتى لحظة مقتله على يد الباطنية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وسنذكر بعضا من دوره فى ادارة الدولة السلجوقية فى الفصل السادس .
عن ترجمته انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص٦٤-٦٨ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٤-٢١٠ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، الجزء الأول ، طبعة معهد البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ، ص ١٦٢-١٨٢ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٣٩-١٤٦ - السبكى ، طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٣٠٩-٣٢٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٢ ص ١٢٨-١٣١) - الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٩٤-٩٦ .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨ - أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٨ .

(٣) معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢١٥ .

تلك المنطقة عن الانضمام الى القوات الكرجية ويواجه كل منهما (السلطان وابنه) قوات الخصوم من الكرج والأرمن كل على حده .

وقد تمكنت قوات ملكشاه من الاستيلاء على احدى القلاع الحصينة بعد تكبد خسائر كبيرة من القتلى ، وبعد أن تركوا بهاحامية ، واصلوا زحفهم الى مدينة سرمارى فاستولوا على قلاعها وشحنوها بقوة كافية من الجند والسلاح ليواصلوا تقدمهم فى الأراضى الأرمنية حتى وصلوا الى مدينة سماها كل من ابن الأثير والحسينى باسم (مريم نشين)(١) ، وكانت هذه المدينة قوية بتحصيناتها "سورها من الأحجار الكبار الصلبة المشدودة بالرصاص والحديد وعندها نهر كبير"(٢) ، كما تتمتع هذه المدينة بمكانة خاصة لدى النصارى ، نظرا لكثرة الرهبان والقسيسين فيها الذين يحظون باحترام ملوك الأرمن لهم(٣) . وقد أتبع ملكشاه والوزير نظام الملك خطة حربية محكمة للاستيلاء على هذه المدينة ، وذلك بأن قسموا الجيش السلجوقى الى عدة فرق تتولى كل فرقة منها القتال فترة معينة ثم تعود ليأتى غيرها وهكذا(٤) ، مما أضجر المدافعين عن مدينة مريم نشين ، وأصبح من السهل على القوات السلجوقية أن تصعد بالسلالم على الأسوار ليفاجئوا من بداخلها بظهورهم فوق الأسوار ، وقد تمكن الجند السلجوقى من دخول المدينة

---

(١) الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ - أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٩ - هذا ولم أجد تعريفا لهذه المدينة فيما بين يدى من مصادر ومراجع .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ - وانظر الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٩ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٩ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨-٣٩ .

وفتحها ليدخلها ملكشاه والوزير نظام الملك (١) ، ويبدو أن قتالا ضاريا حدث داخل المدينة بين السلاجقة والسكان ، أدى الى مقتل أعداد كبيرة من السكان بينما أسلمت أعداد كبيرة من السكان حقنا لدمائهم وهربا من الرق الذى ينتظرهم (٢) .

وعقب هذا الفتح ورد استدعاء لملكشاه من والده السلطان ألب أرسلان الذى لم تورد لنا المصادر ماصنعه منذ أن افترق عن ابنه ، ويبدو أنه واجه مشاكل عديدة فى بلاد الكرج فرضت عليه أن يستدعى بقية جيشه اليه . وعلى كل فان ملكشاه فى أثناء توجهه الى أبيه فتح بعض الحصون التى كانت فى طريقه حتى وصل الى والده فى بلاد الكرج (٣) .

ثم توجه السلطان ألب أرسلان بجموع الجيش الى مدينة تدعى (سبيذ شهر) (٤) التى أبدى أهلها مقاومة شديدة أوقعوا فيها خسائر كبيرة فى أفراد الجيش السلجوقى ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام القوات السلجوقية فسقطت مدينتهم فى يد المهاجمين السلاجقة (٥) .

ثم توجه السلطان بعد ذلك الى مدينة أخرى تدعى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - ويذكر الحسينى فى أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٩ أن زلزلة ضربت مدينة مريم نشين وتهدم السور مما مكن السلاجقة من دخولها .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٩ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٠ ، ويذكر محقق أخبار الأمراء أن سبيذ شهر هى آق شهر وتقع على الطريق من قرمس الى أخالقالا . انظر الحاشية رقم ١ من نفس الصفحة فى أخبار الأمراء .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٠ .

(أعال لآل) وكانت تتميز بحصانة طبيعية وقوة أسوارها لدرجة (١) أن الجند السلجوقى حينما رأوها يئسوا من فتحها ، ولكن السلطان ألب أرسلان صمم على محاصرتها وفتحها ، وبعد قتال شديد بين الكرج والسلاجقة يبدو أن خلافا حدث داخل المدينة أدى الى أن يلجأ اثنان من أهلها الى السلطان ويطلبا منه ارسال فرقة من جيشه معهما (٢) . وقد تنبه الكرجيون لتلك الفرقة التى أرسلها السلطان واشتبكوا معها فى قتال اشتد وطيسه بينهما ، وقد وصل الصريخ بما حدث الى السلطان وهو يصلى فلم يقطع صلاته حتى أتمها ومن ثم توجه لنجدة جنده (٣) ، وقد ولى الكرجيون على أدبارهم بعد وصول القوات السلجوقية المساندة ، وتبع الجند السلجوقى الفارون حتى دخلوا معهم المدينة واستطاعوا اقتحامها والاستيلاء على مدينة (أعال لآل) بينما اعتصم كثير من الكرجيين باحدى القلاع ، فما كان من السلطان ألب أرسلان الا أن أمر بجمع كثير من الحطب والقائه على القلعة واضرام النار فيه ، فأتت النار على الحصن وعلى المعتصمين فيه (٤) .

ويذكر ابن الأثير أن بقية تلك النار حول الحصن المحترق جاءتها ريح أطارت شررها فى المدينة فاحترقت المدينة بأسرها (٥) وذلك فى رجب سنة ٤٥٦هـ/يونيه ١٠٦٣م ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٠ وسماها أغاك لال ، ويذكر محقق الكتاب فى الحاشية رقم ٢ أنها مدينة أخالقالا فى جمهورية جورجيا السوفياتية .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩-٤٠ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٠-٩١ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٠ - الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩١ .

(٥) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩١ حاشية رقم ٣ ، البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٣

ويضيف الحسينى أن ملك الكرج بقراط بن كيوركى (٤١٩-٤٦٥هـ/ ١٠٤٨-١٠٧٢م) [(١)] طلب من السلطان ألب أرسلان الهدنة ، وكان رد السلطان ألب أرسلان عليه أنه لاصلح الا بقبول الاسلام أو دفع الجزية فرضى الملك الكرجى أن يدفع الجزية [(٢)] ، ويزيد البندارى : بأن الملك الكرجى زوج ابنته من السلطان ألب أرسلان وانه بعد أن تزوجها طلقها وزوجها لوزيره نظام الملك [(٣)] .

وبعد ذلك الصلح أخذ السلطان طريقه الى مدينة آنى ، وفى طريقه اليها وجد ناحيتين تدعى أحدهما سيل ورده والأخرى نورة (وهما بين قارص وآنى) خرج اليه أهلها مذعنين بالاسلام كما قاموا بتخريب كنائسهم وأحلوا محلها المساجد [(٤)] ، فانصرف عنهم السلطان الى هدفه الأساسى وهى مدينة آنى . وكانت هذه المدينة تخضع للبيزنطيين خضوعا مباشرا منذ أن تنازل عنها أميرها الأرمنى سمباط بن جاجيك (٤١١-٤٣٢هـ/١٠٢٠-١٠٤٠م) [(٥)] للامبراطور باسيل الثانى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م وعوض عنها بسيواس [(٦)] ومدينة آنى تتمتع بموقع فريد على نهر الأرس .

---

(١) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩١ حاشية رقم ٣ ، البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٣

(٢) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩١ .

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٠ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٣ .

(٥) سيواس : مدينة حسنة العمارة فى آسيا الصغرى بنيت على نهر هلس (أقزل ايرماق) وكانت مشهورة بثياب الصوف التى تحمل منها (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٧٩-١٨٠) ، وهى الآن فى جمهورية تركيا (انظر سعيد الصباغ ، الأطلس العربى ، ص ٤٥) .

(٦) أديب السيد ، أرمينية فى التاريخ العربى ، ص ١٩٠ ـ استارجيان ، تاريخ الأمة الأرمنية ، ص ١٩٤ .

وقد وصف لنا مناعتها أبو الفوارس طراد الزينبي[(١)] الذى كان فى معسكر السلطان الب أرسلان فقال عنها : "شاهدت من هذا البلد منظرا هائلا وأنه لايخطر بالبال فتحه ولايذكر أن احدا من الملوك قصده ، فان ثلاثة أرباعه على نهر الأرس الكبير وربعه الآخر على خندق قد استخرج من الأرس والماء ينزل اليه من علو بعيد بدوى شديد ، وله جرية قوية بحيث لو طرحت فيه الحجارة العظيمة لدحاها وقطعها ، والطريق الى بابه على قنطرة بازائه وأسواره من الحجر الأصم الشديد ومرامه بعيد"[(٢)] .

وكانت مدينة آنى تمتاز بكثرة عدد سكانها وكثرة كنائسها ، كما ذكر أبو الفوارس طراد الزينبى[(٣)] أن الجنود السلاجقة بعد قتالهم الشديد مع الحامية البيزنطية وكثر القتلى منهم ملوا القتال وضجروا وتيقنوا الا أمل لهم فى فتحها ، ولكن الأمور سارت لصالح السلاجقة اذ أن أحد جوانب سور المدينة المحاصرة انهار فجأة بدون اى سبب[(٤)] ، وأعقب هذا الانهيار دخول السلاجقة مدينة آنى وقتل من أهلها الكثير بحيث أن أبا الفوارس طراد الزينبى عندما أراد التجول فى شوارعها لم يمكنه المرور منها الا على جثثهم ،

---

(١) انظر ترجمة طراد الزينبى ، الفصل الخامس ، ص
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٧-١١٨ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٨ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٠ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٨ ، وانظر ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٠-٤١ - أما الحسينى ، فى أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٣-٩٤ ، فيذكر أن سكان آنى طلبوا الهدنة ودفعوا الجزية ، ثم انهم تراجعوا عن موقفهم من الهدنة مما فرض على السلطان أن يعاود الهجوم على مدينة آنى واسقاط سورها ومن ثم دخولها فتحا من قبل السلاجقة .

كما قدر عدد الأسرى حوالى خمسمائة ألف انسان ، ولعل هناك مبالغة من الزينبى فى تقدير عدد الأسرى ، أما الغنائم فقد وقعت أموال أهل آنى كلها غنائم للجيش الفاتح ، ويبدو أن هذا الفتح تم فى شهر رمضان من سنة ٤٥٦هـ/أغسطس ١٠٦٤م (١).

ولم يغادرها السلطان ألب أرسلان الا بعد أن وضع فيها حامية سلجوقية كبيرة ونصب عليها أميرا لادارة أمورها بعد رحيله (٢).

وقد لقيت أنباء هذه الانتصارات صداها الطيب فى العراق والبلدان الاسلامية وذكرتهم بأمجاد الفتوحات والجهاد فى سبيل الله بعد أن توقفت لفترات طويلة فى العهود الماضية . أما الخليفة القائم بأمر الله فقد سر هو الآخر بتلك الفتوح التى قام بها السلطان ألب أرسلان وأرسل اليه رسالة يثنى عليه فيها ويشكره على ماقام به من فتح وجهاد فى سبيل الله (٣).

ويذكر كلود كاهن أن مدينة قارص سقطت بيد السلاجقة سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م ، ثم يعلق على ذلك أن الجبهة السلجوقية فى أرمينية أصبحت تمثل قاعدة صلبة للتركمان فى غاراتهم على عمق آسيا الصغرى (٤).

ويلاحظ من خلال سردنا لتلك الأحداث أن السلطان ألب أرسلان كان يضع الحاميات السلجوقية فى المدن المفتوحة ويعنى ذلك قطع أى أمل لدى القوى الأرمنية المحلية أو القوى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤١ – الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٥-٩٦ – يذكر كلود كاهن فى تعليقه على أحداث هذه الحملة أن ألب أرسلان منح مدينة آنى بعد وقوعها فى قبضة قواته الى أحد أمرائه من بنى شداد .
Cloude Cahin ; Op. Cit. p.70 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤١ .

(4) Cloude Cahin ; Op. Cit. p.70-71 .

البيزنطية فى عودة هذه البلدان اليهم مرة أخرى ، وهو بهذا الفتح قد استكمل السيطرة على أرمينية كلها من حدود آسيا الصغرى الى بلاد الكرج التى قبلت هى الأخرى بأن تكون تابعة للسلطان السلجوقى حينما تعهد ملكها بقراط بدفع الجزية للسلطان ألب أرسلان .

ولم يحافظ ملك الكرج بقراط على تلك المعاهدة بينه وبين السلطان ألب أرسلان حيث قام بمهاجمة مدينة بردعة (١) ، ولم يتوان السلطان ألب أرسلان فى معاقبته على عمله ذلك ، اذ قام بحملة كبيرة على بلاد الكرج سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م ، ويبدو انه اخذ طريقه اليها عبر اقليم أران (٢) بمحاذاة نهر الكر (٣) حتى وصل الى قرب مدينة تدعى شكى (٤) التى تكثر فى نواحيها الغياض والآجام (٥) ، ولم يخاطر السلطان ألب أرسلان بجيشه فى المرور منها ولذلك أمر النفاطين باحراق تلك الغابات والغياض ،فأتم النفاطون مهمتهم وكشفت له عن القلاع

---

(١) بردعة : بلد فى أقصى أذربيجان وهى آخر حدودها (معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣٧٩) ، وهى مدينة (باردا) فى جمهورية أذربيجان ، الخاضعة للاتحاد السوفييتى الآن (الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٣ حاشية رقم ١) .

(٢) أران : اسم أعجمى لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة وبرذعة وشمكور وبيلقان ، وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس ، كل ماجاوره من ناحية المغرب والشمال فهومن أران وماكان من جهة المشرق فهو من أذربيجان . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٣٦) .

(٣) نهر الكر : يخرج هذا النهر من الجبال الواقعة غرب تفليس بجورجيا ، ثم يمر بتفليس لينحدر بعدها الى شمكور وفيها يتفرع منه نهر يصب فى بحيرة وشمكور العظيمة ويلتقى نهر الكر مع أرس بعد ذلك بالقرب من بردعة ويصب فى بحر قزوين . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٣) .

(٤) شكى : هى مدينة شكى الواقعة فى أذربيجان المعاصرة الخاضعة للاتحاد السوفييتى اليوم (الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٣ ، حاشية رقم ٢) .

(٥) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٣ .

والتحصينات التى كانت قائمة خلف تلك الأشجار (١) ، ولذلك سرعان ماسقطت تلك القلاع فى يد القوات السلجوقية بدون قتال ، ويذكر الحسينى أن المسؤول عن القلعتين اللتين استسلمتا فى البداية أسلم أمام السلطان الب أرسلان (٢) .

وواصل السلطان سيره حتى وصل الى مدينة شكى ، التى بادر أميرها المدعو أخستان بن جاجيك (٤٥٠-٤٧٧هـ/١٠٥٨-١٠٨٤م) بالخروج مع بعض فرسانه وطلب مقابلة السلطان الب أرسلان ، وعند مقابلته له أعلن الأمير الكرجى اسلامه أمام السلطان السلجوقى الذى نزل من على سريره وضمه وقبل رأسه اكبارا له وفرحة باسلامه (٣) ، وقد أقيم احتفال بهذه المناسبة حيث أركب الأمير الكرجى على فرس خاص بالسلطان الب أرسلان ومشى الأمراء والحجاب بين يديه حتى وصل الى السرادق الذى أقيم له ، وزيادة فى تكريمه وتأليفه فقد أمر السلطان الب أرسلان بنشر مافى خزائنه من الجواهر عليه (٤) . وبهذا الصنيع يثبت لدينا أن السلطان الب أرسلان كان يهمه نشر الاسلام قبل الفتح والهيمنة ، اذ نلحظ اضافة الى ماسبق أن السلطان الب أرسلان أعاد الأمير الكرجى والمسلم الجديد واليا على ولايته السابقة ان لم يكن أضاف اليه بعض المناطق التى استولى عليها (٥) .

وبعد أن كلف السلطان الب أرسلان ملك الكرج أخستان

---

(١) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٣ .
(٢) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٣-١٠٤ .
(٣) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٤ ، وانظر الحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة .
(٤) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٤ .
(٥) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٤ .

بالعودة الى امارته تابع سيره الى مدينة تفليس (١) التى كانت تحتل مكانة خاصة عند الكرج ، ويبدو أن القوات السلجوقية لم تجد صعوبة فى فتحها وربما أيضا بسبب هروب الملك الكرجى بقراط منها مما سهل على السلاجقة الاستيلاء عليها ، ويذكر الحسينى أن السلطان أمر ببناء جامع للمسلمين فيها . ثم بعد ذلك اتجهت القوات السلجوقية الى قلعة تدعى الصليب وتحتوى تلك القلعة على كثير من الكنائس ، ومنها الكنيسة التى يوجد بها المائدة - كما يزعم النصارى - التى نزلت كمعجزة لعيسى بن مريم عليه السلام ، وقد تمكن السلاجقة من الاستيلاء على تلك القلعة وغنموا مافيها (٣) . وتابع السلاجقة تقدمهم الى قلعة أخرى - يرجح مينورسكى أنها مدينة غردبان فى جورجيا السوفيتية المعاصرة - وقد تمكن السلاجقة أيضا من فتحها والاستيلاء عليها ، وبنى فيها السلطان ألب أرسلان بلدة للمسلمين كما بنى فيها أيضا جامعا لهم (٤) . وقد أمضى السلطان فى غزوته تلك خمسة أشهر، وعاد أدراجه الى أذربيجان ثم الى فارس (٥) ، وبهذه الغزوة فاننا نستطيع أن نقول أن الدولة السلجوقية فى عهد السلطان ألب أرسلان سيطرت على معظم

---

(١) تفليس : مدينة قديمة كانت تعد من أرمينية الأولى ،وهى قصبة ناحية جرزان ، وهى مدينة لا اسلام ورائها ، ويجرى فى وسطها نهر الكر ، افتتحت فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه . (معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٦)

(٢) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٤ .

(٣) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٤- ١٠٥ ، ويعتقد محقق كتاب الحسينى محمد نور الدين أن قلعة الصليب ربما تكون هى قلعة ميتسخت حيث يقع معبد (سفيتى تسخوفلى) (عامود خالق الحياة) .

(٤) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٥ ، والحاشية رقم ١ من نفس الصفحة .

(٥) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص١٠٥- ١٠٦ .

أرمينية ، ولم يبق منها الا أرجيش وخلاط وملاذكرد الواقعة في الشمال الشرقي من بحيرة وان والتي أخضعها اثناء حملته على بلاد الشام أواخر سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م ، وأوائل سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م ، كما أن هذه المنطقة ستشهد المعركة الحاسمة بين السلاجقة والبيزنطيين ألا وهي معركة ملاذكرد والتي وضعت حدا نهائيا للنفوذ البيزنطي ليس في أرمينية فحسب ، بل في معظم آسيا الصغرى كما سيتبين ذلك في المبحث الآتي ان شاء الله تعالى .

(ب) معركة ملاذكرد وامتداد سلطان السلاجقة الى بلاد الروم

غزوات السلاجقة فى آسيا الصغرى قبيل معركة ملاذكرد ٤٦٣هـ/١٠٧١م :

على الرغم من الحملات التى قام بها السلطان الب أرسلان فى أرمينية وبلاد الكرج سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م وضم معظم أرمينية الى الدولة السلجوقية نهائيا ، فاننا لم نلحظ أى رد فعل من قبل الدولة البيزنطية . وكل ماهنالك أن الامبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر (٤٥٢-٤٦٠هـ/١٠٦٠-١٠٦٧م) بعث برسالة الى الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م يعتب عليه فى عدم تجديد المكاتبة بين الخلافة والدولة البيزنطية ، كما أرسل برسالة أخرى الى السلطان الب أرسلان ومعها هدية ، وقد قام الوزير بالكتابة الى السلطان الب أرسلان يذكر له مضمون رسالة الامبراطور البيزنطى والهدية التى أرسلها ، ويطلب منه الرد على تلك الرسالة (١) .

ونلحظ هنا أن الامبراطور قسطنطين العاشر (دوكاس) يتصل بالسلطان الب أرسلان عن طريق وزير الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، ويبدو أنه من خلال تلك المراسلة كان يسعى الى تأمين الحدود الشرقية لآسيا الصغرى التى شهدت أول الغزوات

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢٢ .
Claude Cahen : Op. Cit, p.69 .

بعد ضم السلاجقة لأرمينية عندماقام الأمير ياقوتى بن الب أرسلان بمهاجمة الرها سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م (١). ويبدو أن السلطان الب أرسلان قبل عقد الهدنة مع البيزنطيين حتى يتفرغ لشئون دولته الداخلية .

لكن هذه الهدنة لم تستمر طويلا أما سبب ذلك فان أحد قادة السلطان الب أرسلان ويدعى الأفشين بن بكجى تسبب فى مقتل أحد القادة التركمان المقربين من السلطان ، وخشى من مغبة عمله هذا ، فهرب بأتباعه الى آسيا الصغرى أواخر سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م واستطاع دخول عمورية (٢) بمساعدة من أحد قادتها البيزنطيين (٣) .

وفى الوقت الذى كان فيه الافشين بن بكجى يتوغل داخل الامبراطورية البيزنطية ، كانت هناك حملة يقودها الامبراطور رومانوس ديوجنيس على بلاد الشام انتقاما من أمير حلب والتركمان المتحالفين معه (٤) الذين استولوا على حصن أرتاح سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م ، وقد تمكن البيزنطيون من استعادة ذلك الحصن فى محرم سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م (٥) ، ولكن رومانوس ديوجنيس (٤٦١-٤٦٤هـ/١٠٦٨-١٠٧١م) لم يستطع الاستمرار فى حملته لورود

---

(١) احمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٢٨ .

(٢) عمورية : مدينة من أهم معاقل البيزنطيين فى الشرق ، وهى عند قلعة أسار الحديثة جنوبى مدينة سورى حصار (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٨٦،٧٠) . فتحها الخليفة المعتصم بالله سنة ٢٢٣هـ انتقاما من الامبراطور البيزنطى الذى هاجم زبطرة وقتل رجالها وسبى نساءها فاختار المعتصم مدينة عمورية هدفا لانتقامه لأنها كانت أمنع وأحصن وهى عين النصرانية وبنكها وأشرف عندهم من القسطنطينية وعندما فتحها المسلمون أمر المعتصم بهدم عمورية واحراقها . انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج١٠ ، ص ٣٣٤-٣٤٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٤٨٠-٤٨٨ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٥٤ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص١٣٩ – ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٣٧٥ ويجعل هذه الحادثة سنة ٤٥٩هـ .

(٤) أرتاح : حصن منيع من أعمال حلب (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١٤٠) .

(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٣٦-١٣٧ – ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٧٧-٣٧٨ – ابن الوردى تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٦١ .

(٤٦١-٤٦٤هـ/١٠٦٨-١٠٧١م) لم يستطع الاستمرار فى حملته لورود الأخبار اليه باقتراب الافشين من مضايق القسطنطينية فقفل راجعا لحماية عاصمته .(١)

أما الافشين فيبدو أنه سمع بعودة الامبراطور البيزنطى فانسحب هو الآخر ، وسلك طريقا مغايرا للقوات البيزنطية حتى وصل الى انطاكية سالما بقواته ، وضرب حصاره عليها بعد أن نهب ماحولها ، وأجبر واليها على دفع عشرين ألف دينار . وعندما قبض ذلك المال اتجه بغنائمه من الأسرى الى نواحى حلب فباعها هناك وقد كانت من الكثرة بحيث كانت الجارية تباع بدينارين والصبى بتطبيقة نعال للخيل .(٢)

ومما لاشك فيه أن آثار هذه الحملة التى قام بها الافشين بن بكجى قد تركت انطباعا سيئا عند البيزنطيين تجاه الدولة البيزنطية ، وعلى رأسها الامبراطور رومانوس ديوجنيس الذى حشد جمعا كبيرا من الجيوش قدرته بعض المصادر بثلاثمائة ألف مقاتل - وهى مبالغة واضحة من تلك المصادر - واتجه بتلك القوات الكبيرة الى شمال الشام سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ، وهو بمثل هذا العمل اختار الجانب الأضعف من النواحى الاسلامية لينتقم بما حل ببلاده من أولئك السلاجقة الذين لم تستطع قواته مواجهتهم ، ولم يجرؤ هو

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٥٤-٢٥٥ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٣٧ - ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٧٥ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٥٥ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٣٩ - ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٣٧٥-٣٧٦ ، ويذكر ابن العديم أن أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل فى دفاترهم نحو سبعين ألف مملوك ومملوكة ، سوى مابيع بغير مؤونة فى بلد الروم وسائر البلدان ، وأخذ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار ومثلها من ثياب الديباج والآلة وسار الى العراق فى جمادى الآخرة سنة ٤٦٠هـ/١٠٧٠م بعد أن رضى عنه السلطان ألب أرسلان .

على الانتقام منهم ، فأغار على منبج (١) فأحرق القرى وقتل الرجال وسبى النساء ، ثم عاد أدراجه الى القسطنطينية (٢) .

اما أهل تلك النواحى التى تضررت من الحملة البيزنطية ، فقد اتجهوا الى السلطان الب أرسلان لكى يضع حدا لحملات البيزنطيين على المسلمين (٣) ، فى الوقت الذى كان فيه السلطان الب ارسلان يعد قواته للاتجاه الى بلاد الشام ثم الى مصر لنجدة ناصر الدولة الحسين بن حمدان (٤) الذى طلب معونة الدولة السلجوقية لاسقاط الخلافة الفاطمية .

لكن عملية الغزو الواسعة التى قام بها الافشين تكررت من قائد تركمانى آخر عصى السلطان الب ارسلان لأسباب نجهلها وهو أريسغى زوج احدى أخوات السلطان ، ولم يجد له من مهرب الا فى أراضى الدولة البيزنطية ربما أواخر سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م حيث تصدت له القوات البيزنطية بقيادة مانويل كومنين بالقرب من سيواسى (٥) .

---

(١) منبج : مدينة كبيرة واسعة بينها وبين حلب عشرة فراسخ (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٠٦) .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٥٦ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٩٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٢ .
(٤) انظر ترجمته فيما بعد ، ص
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ وذكر أن اسم القائد الذى بعثه الامبراطور رومانوس ديوجنيس للتصدى لاريسغى هو ميخائيل ، بينما تذكر بعض المراجع نقلا عن المصادر البيزنطية أن الذى تولى القيادة ضد السلاجقة هو مانويل كومنين ، ولذلك اثبتنا اسم القائد مانويل فى المتن اعتمادا على المراجع التى نقلت من المصادر البيزنطية (انظر فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ١٠٧١م/٤٦٣هـ فى مصنف نقفور برينيوس دراسة مقارنة للمصادر ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م ، ص ٣٢ – زبيدة عطا ، بلاد الترك فى العصور الوسطى ، ص ٥٠ ، ولم تذكر أن مانويل كومنين واجه أريسغى) .

وقد حاول أريسغى أن يشرح للقائد البيزنطى موقفه من السلطان وأنه هارب منه لكن مانويل كومنين لم يصدق أن أريسغى متمرد هارب من سلطانه ، ودارت معركة بين الطرفين كانت نهايتها لصالح القوات التركمانية ووقع القائد البيزنطى أسيرا فى قبضة أريسغى ، اضافة الى أعداد كبيرة من البيزنطيين سقطوا قتلى فى هذه المعركة وعادت على الدولة البيزنطية بأفدح الخسائر .

وفى فترة الأسر اقتنع مانويل كومنين بصدق المعلومات التى ذكرها له أريسغى خاصة مع اقتراب القوة التى أرسلها السلطان ألب أرسلان بقيادة الافشين بن بكجى منهم ، ولذلك قام بالتوسط لدى الامبراطور رومانوس ديوجنيس وأقنعه بضرورة ايواء القوات التركمانية الهاربة من السلطان اسلجوقى ألب أرسلان وقد قبل الامبراطور رومانوس ديوجنيس استقبال هذه القوات وحمايتها فى دولته (١) .

أما فيما يتعلق بالسلطان ألب أرسلان الذى كان قد خرج من همدان فى ذى القعدة ٤٦٢هـ/أغسطس ١٠٧٠م الى أرمينية حيث فتح كلا من مدينتى ارجيش وملاذكرد آخر المعاقل البيزنطية فى هذه المنطقة ، فقد أرسل القائد التركمانى الافشين بن بكجى صاحب الخبرة السابقة فى مسالك آسيا الصغرى على رأس قوة لمطاردة صهر السلطان أرليسغى والقبض عليه (٢) .

وحينما علم الافشين بخبر ايواء الامبراطور البيزنطى لتلك المجموعة التركمانية الهاربة واصل سيره الى أن اقترب

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦-١٤٧ - فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٣٩ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٤،١٤٧ .

من القسطنطينية ومن ثم أرسل الى الامبراطور رومانوس طالبا منه تسليم أريسغى اليه وذكره فى رسالته تلك بالهدنة التى بينه وبين السلطان بهذه العبارة : (بيننا وبينك هدنة ولما دخلت بلادك ماتعرضت لأحد ، وهؤلاء الناوكية أعداء السلطان وقد نهبوا بلادك واخربوها ويجب أن تسلمهم الينا والا أخربت بلادك ولاهدنة بيننا) (١) .

وقد رفض الامبراطور رومانوس الاستجابة لمطلب الافشين رغم التهديد بالغاء الهدنة وتخريب البلاد ، وعلى هذا فقد أتبع الافشين تهديده بالعمل (فدرس الروم كان لم تكن فلم يسلم منه الا حصن منيع وبلد كبير) ، وقضى بالقرب من سيواس فترة من الوقت حتى زالت الثلوج فواصل سيره الى مدينة خلاط (٢) .

وبطبيعة الحال فان البيزنطيين لم يكونوا يجهلون خروج السلطان الب أرسلان الى بلاد الشام واستيلاءه فى طريقه اليها على أرجيش وخلاط وملاذكرد ، كما كانوا يدركون الآثار التى ترتبت على غزوة كل من الافشين وأريسغى ومايمكن أن تتركه من آثار فى المستقبل على آسيا الصغرى والخوف من أن تصبح ميدانا للصراع بين الطوائف التركمانية .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٧ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٧ .

معركة ملاذكرد – القعدة سنة ٤٦٣هـ :

في الوقت الذى كان فيه السلطان ألب أرسلان يواصل تقدمه نحو بلاد الشام ، كان الامبراطور رومانوس ديوجنيس يعد في القسطنطينية قوة كبيرة متعددة الأجناس ليضع حدا لقوة السلاجقة في معركة حاسمة معهم ، فلما اكتملت استعداداته خرج من القسطنطينية بتلك القوات التى جمعها في ٧ جمادى الثانية ٤٦٣هـ/١٣ مارس ١٠٧١م بينما كان السلطان ألب أرسلان على حصار حلب .(١)

وقد اختلفت المصادر في تعداد الجيش البيزنطى ، فسبط ابن الجوزى يذكر أنه مائة ألف مقاتل ، وثلاثمائة ألف مابين نقاب وصانع عدا مايحمله من عدد وعتاد كثيرة .(٢)

وبعض المؤرخين يذكرون أنه كان في ثلثمائة ألف اجمالا (٣) أما ابن الأثير وغيره فقد ذكروا أنهم كانوا في مائتى ألف ، (٤) وكان هذا الجيش خليطا من الأجناس المتعددة من الروس والأرمن والغز والافرنج اضافة الى الجند النظامى البيزنطى .(٥)

وقد توقف الامبراطور بهذه الجموع في ضوريليوم (٦) حيث

---

(1) Cluade Cahen, pre-ottoman turk. Op. Cit. p.72 .

(٢) مرآة الزمان ، ص ١٤٨ ، وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦١ .

(٣) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٨ – البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٤٠ – الفارقى ، تاريخ الفارقى ، تحقيق بدوى عبد اللطيف عوض ، بيروت ١٩٧٤م ، ص ١٨٩ .

(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥ – ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٣١ .

(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٨-١٤٩ .

(٦) ضوريليوم : هى دروليه الحالية تبعد عن حصن غروبلى خمسة عشر ميلا (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٧) .

أجرى الجيش البيزنطى تمرينات عسكرية لتكون مؤهلة تأهيلا جيدا أمام خصومهم السلاجقة (١). وكان الامبراطور رومانوس ديوجنيس يمتلىء زهوا وعجبا بهذا الجيش متعهدا أمام قادته بأنه سيهزم الأتراك السلاجقة وسيقبض على السلطان ألب أرسلان ويحرقه حرقا (٢).

وتضيف بعض المصادر الاسلامية التى تؤكد الثقة فى نفس الامبراطور البيزنطى بالنصر بانه "كان قد أقطع البطارقة بلاد مصر والشام وخراسان والرى والعراق ، واستثنى بغداد وقال لاتتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فانه صديقنا (يعنى الخليفة) وكان عزمه أن يشتى بالعراق ويصيف بالعجم" (٣).

جرت تلك الاستعدادات البيزنطية والسلطان ألب أرسلان مشغول فى حصار حلب ، وقد وفد عليه وهو على أواخر أيام حصارها رسول من قبل الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجنيس يحمل معه مطالب سيده وهى : اعادة منبج وأرجيش وملاذكرد ومعه أيضا هدية له (٤). ولم يذكر سبط ابن الجوزى الذى نقل الينا هذا الخبر رد السلطان ألب أرسلان على الامبراطور البيزنطى بشأن تلك المطالب (٥)، لكن الذى أثبته من هذه

---

(١) فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ١٣ .
(٢) فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٤٤ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٨-١٤٩ . وانظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٩ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٨ ـ ابن كثير البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١٠٠ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ .
(٥) يذكر سهيل زكار فى كتابه مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، ١٩٧٥م ، ص ١٤٦ نقلا عن ابن العبرى دون أن يذكر أى من كتب ابن العبرى =

السفارة هو اطلاع الرسول البيزنطي على الأوضاع العسكرية للجيش السلجوقى وسوء الحالة التى كان فيها السلطان الب ارسلان ، كما لاحظ عملية مغادرة السلطان لبلاد الشام بعد خضوع أميرها محمود المرداسى له (١) ، ويقول سبط ابن الجوزى فى هذا الشأن : "وضجر السلطان من المقام بحلب فكر راجعا ، فقطع الفرات وهلكت أكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه الهارب ، ولم يلتفت الى ماذهب من الأرواح والدواب ، وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه (٢) " .

ولهذا النص أيضا أهمية أخرى بالنسبة للباحث وهو كونه يثبت أن مغادرة السلطان الب ارسلان لبلاد الشام وعبوره الفرات الى الجزيرة لم يكن بسبب وصول القوات البيزنطية الى الحدود الاسلامية ، وانما كان بسبب تفرق الجند عنه والذين تعودوا على النصر السريع فى معارك مكشوفة ، اضافة الى ذلك أن الجند السلجوقى قد امتد غيابهم عن أهلهم قرابة السنة وكانوا يطالبون السلطان بالعودة الى ذويهم ولايستطيع السلطان حرمانهم من ذلك (٣) .

= أى من كتبه فى التاريخ ، أن الامبراطور راسل السلطان الب أرسلان واقترح عليه أن يتنازل له السلطان عن ملاذكر وأرجيش مقابل أن يتنازل له الامبراطور عن منبج وأن يدفع للسلطان جزية سنوية اذا ماأوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضى البيزنطية ، كما يذكر سهيل زكار عن ابن العبرى أن السلطان وافق على مااقترحه الامبراطور البيزنطى .

(١) انظر ترجمته فى الفصل الخامس ، ص

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ .

(٣) شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، بحث فى المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام المنعقد فى الجامعة الأردنية سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، بيروت ، بدون ذكر لتاريخ الطبع ، ص ٣٥٧ ـ على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ١٢٩ .

ولذلك فان رواية ابن الأثير وغيره ممن ذكروا أن السلطان كان فى مدينة خوى من أذربيجان عندما دهمت القوات البيزنطية أرمينية هى الرواية الصحيحة (١) التى حاول أحد الباحثين تضعيفها (٢) اعتمادا على رواية لابن الجوزى ، هذا نصها : (وكان السلطان فى فل من العسكر لأنهم عادوا من الشام جافلين الى خراسان للغلاء الذى استنفد أموالهم) (٣). ويلاحظ أن هذه الرواية ورواية سبط ابن الجوزى المشابهة لها لم تحدد مكان وجود السلطان ألب أرسلان آنذاك لافى الشام ولاغيره ، ومن ثم فان هذا الرأى لاتضعيف رواية ابن الأثير القائلة بأنه كان فى أذربيجان .

وهناك أمر آخر لابد من التنبيه اليه وهو الفارق الزمنى بين مغادرة السلطان ألب أرسلان لبلاد الشام ووقوع معركة ملاذكرد ، فابن العديم يذكر فى احدى روايتيه أن السلطان غادر حلب فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٤٦٣هـ/٢٩ مارس ١٠٧١م (٤) ، وفى روايته الأخرى انه غادرها فى شعبان سنة ٤٦٣هـ/ مايو ١٠٧١م (٥) ووقوع معركة ملاذكرد كان يوم الجمعة ٢٠ من ذى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥ – الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٨ – ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٨٨ – الذهبى ، سير أعلام النبلاء ج١٨ ، ص ٤١٥ .

(٢) أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة ، (٤٣٥-٥٧٠هـ) ، عمان ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص ٥٢ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٠ – وانظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ١٩ .

(٥) ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٢٤ ، وله أيضا رواية أخرى فى ص ١٩ عن سبب خروج السلطان ألب أرسلان من حلب قرأها بخط أبى الفوارس حمدان بن عبد الرحيم ويذكر فيها أن السلطان سمع بخروج الامبراطور رومانوس من القسطنطينية على طريق الثغور والدروب فرحل عن حلب بعد خروج محمود المرداسى اليه بخمسة أيام ، وقصده حتى لحقه على منازكرد فحاربه حتى هزمه وأسر ملك الروم وكانت عدة الترك ستمائة ألف رجل .
وفى نفس الصفحة رواية أن عدد القوات البيزنطية كان ستمائة ألف رجل ، والسلاجقة فى أربعمائة ألف من الأتراك .

القعدة سنة ٤٦٣هـ/١٩ أغسطس ١٠٧١م ، والفارق بين الزمنين هو قرابة ثلاثة اشهر وهى مدة تكفى لجمع اى عدد من التركمان وغيرهم من الأكراد والعرب لمواجهة البيزنطيين وأعدادهم الضخمة .

هذا وأن عملية الاتجاه السريع للسلطان الب أرسلان الى ارمينية تدل على انه لم يكن لديه متسع من الوقت أو الانتظار حتى يجمع قواته نظرا لبعده عن مراكز تواجد القوات السلجوقية فى خراسان والعراق وغيرها . وفوق هذا فان المؤرخ البيزنطى اتالياتس (١) شاهد العيان لمعركة ملاذكرد ذكر أن الامبراطور رومانوس ديوجنيس غادر ضوريليوم فى شهر يوليه سنة ١٠٧١م (٢) الموافق لشهر شوال سنة ٤٦٣هـ (٣) ، وقد وصلت القوات البيزنطية الى أرمينية فى ذى القعدة/أغسطس حيث قام الامبراطور رومانوس بالاستيلاء على ملاذكرد ، كما أرسل فرقة اخرى للاستيلاء على خلاط الوى ووجهت بمقاومة شديدة من قبل القوات السلجوقية المرابطة هناك ومنعتها من الاستيلاء عليها (٤) .

وصلت اخبار وصول الجيوش البيزنطية الى أرمينية الى

---

(١) فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٥٣ .

(٢) Attaliates, M., Historia, ed . Bekker, in C.S.H.B Bonn, 1839, p.145 .
نقلا عن :
فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٤٤ .

(٣) محمد مختار باشا ، التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ، دراسة وتحقيق وتكملة محمد عمارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ٤٩٥ .

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٤-٨٥ – أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٢٤ .

السلطان ألب أرسلان وهو في أذربيجان كما قدمنا ، ورأى السلطان نفسه مضطرا الى الاسراع الى أرمينية فورا ومواجهة الموقف مهما كانت النتائج ولذلك أمر وزيره نظام الملك باصطحاب زوجته خاتون العزية الى همذان ، كما أمره بأن يجمع العساكر وأن يرسلها اليه لمواجهة البيزنطيين (١). هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد ألزم السلطان نفسه بموقفين لاثالث لهما ، اما نصر أو شهادة في سبيل الله ، وقد أوصى جنده بأن يولوا ابنه ملكشاه مكانه اذا كتبت له الشهادة (٢).

وبعد تلك الوصية توجه السلطان ألب أرسلان لمواجهة خصمه في أربعة آلاف من التركمان وانضم اليه عشرة آلاف من الأكراد وصل بهم الى موقع يدعى الرهوة (٣) تقع بين خلاط وملاذكرد (٤). ويبدو أنه اختار هذا الموقع لتخفيف الضغط عن خلاط التي كانت تواجهها القوات السلجوقية المرابطة هناك من قبل البيزنطيين ، والأمر الآخر ليكون هذا الموقع الصحراوي مجالا للحركة والمناورة لفرسانه أمام القوات البيزنطية .

وكانت أولى المواجهات بين الطرفين حينما تصدت طليعة سلجوقية لمثيلتها البيزنطية واستطاعت أن تهزمها وتأسر

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٨-١٠٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٠ ـ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ، ص ١٤٧ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠٩ ـ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٤١٥ ـ ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص ٤٧١ .

(٣) الرهوة : صحراء قرب خلاط ، هكذا عرفها ياقوت في معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦١ ـ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ، ص ١٤٨ وسمى الموقع الزهوة ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١١٠ ، وسمى الموقع بالزهرة ، وماأثبتناه في المتن هو الصحيح .

قائدها الذى حمل الى السلطان ألب أرسلان ومعه مليبه الذى يعتز به .

وقد فرح السلطان بهذه النتيجة واستبشر بها كمقدمة للنصر (١) ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ١٧ من ذى القعدة سنة ٤٦٣هـ/ ١٦ أغسطس ١٠٧١م (٢) ومع هذا النصر الذى أحرزه فانه رغب فى مراسلة الامبراطور البيزنطى طالبا منه اتمام عقد الهدنة التى سبق له أن وسط الخليفة القائم بأمر الله لابرامها مع السلطان . وكان رد الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجنيس الذى وصل الى نفس الموقع الذى يرابط فيه السلطان ألب أرسلان هو "... فقد أنفقت الأموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول الى مثل هذه الحالة ، فاذا ظفرت بها فكيف أتركها هيهات لاهدنة الا بالرى ولارجوع الا بعد أن أفعل ببلاد الاسلام مثل مافعل ببلاد الروم" (٣) .

وتبعا لهذه الاجابة فقد كان كل منهما يعد نفسه للقاء حاسم ، أحدهما يملك التفوق العددى والثقة المفرطة باحراز النصر وهو الامبراطور البيزنطى ، بينما السلطان ألب أرسلان يملك الايمان بأن النصر والهزيمة انما هى بيد الله سبحانه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٤ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥ – ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٣٨٩-٣٩٠ وذكر أن قائد الطليعة السلجوقية هو صندق التركى – الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٤١٥ .

(٢) فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٧٥ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦١ – وانظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٨ – ابن الأثير ، الكامل ج١٠ ، ص ٦٥ – الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١١٠ – ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٩٠ وأضاف ابن العديم (فظن الرومى أنه انما أرسله عن ضرورة فأبى واستكبر وأجاب بأنى سوف أجيب عن هذا الرأى بالرى ...) – الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ص ٤١٥ – القرمانى ، أخبار الدول ، ص ٢٧٢ .

وتعالى قبل أى شىء آخر . ولعل مما قوى من هذا الجانب فى نفس السلطان قول امامه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى : "انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال فى الساعة التى يكون الخطباء على المنابر ، فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاء مقرون بالاجابة ..." (١) .

ويتضح من النصوص التى بين أيدينا من المصادر الاسلامية أن توقيت يوم وساعة المعركة كان من قبل السلطان الب ارسلان بناء على رأى امامه أبى نصر البخارى . ومما لاشك فيه أن السلطان أخذ منذ أن وصله رد الامبراطور البيزنطى برفض الصلح يعبىء قواته تعبئة معنوية ، ويضع الخطط الملائمة لمواجهة التفوق العددى للمعسكر البيزنطى الذى يفوق عدد الجند السلاجقة خمسة أضعاف اذا اعتبرنا رواية سبط ابن الجوزى أنهم مائة ألف مقاتل ، وباقى عدد البيزنطيين كان من الصناع وغيرهم بينما عدد السلاجقة هو أربعة عشر الف رجل وربما انضمت اليهم قوات اضافية فى الفترة بين وصول السلطان الى الرهوة ويوم المعركة لايعلم عددها ، ومع ذلك فان ميزان القوة يشير الى أن المعركة كانت فى صالح البيزنطيين بكل المقاييس المادية .

وفى يوم المعركة يوم الجمعة ٢٠ ذى القعدة ٤٦٣هـ/ ١٩

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥-٦٦ ـ وانظر الحسينى أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١١١ ـ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٤١٥ .

أغسطس ١٠٧١م[1] وبعد الزوال كان السلطان قد جهز قواته لمباغتة البيزنطيين بعد أن بث فيهم الحماسة وطلب الشهادة ودعا الله سبحانه وتعالى وأكثر من البكاء والتضرع ، وبعد أن فرغ من دعائه التفت الى جنوده وقال لهم : "نحن مع القوم تحت الناقص وأريد أن أطرح نفسى عليهم فى هذه الساعة التى يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر فأما أن ابلغ الغرض ، وأما أن أمضى شهيدا الى الجنة ، فمن أحب أن يتبعنى منكم فليتبعنى ، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحبا عنى فما هاهنا سلطان يأمر ولاعسكر يؤمر فانا فانما اليوم واحد منكم وغاز معكم فمن تبعنى ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة" ، وكانت اجابة جنده له لاتقل عنه حماسة فى مواجهة البيزنطيين[2] .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٥ - سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٤٤ (يذكر أن المعركة وقعت يوم ١٩ أغسطس) ويرى حسنين محمد ربيع فى كتابه دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٨٨ أن المعركة وقعت يوم الجمعة ٧ من ذى القعدة ٤٦٣هـ الموافق ٦ أغسطس ١٠٧١م بينما يرجح فايز نجيب اسكندر فى كتابه ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد ، ص ٩٩ حاشية رقم ١١١ أن الراجح فى تاريخ المعركة هو ١٤ من ذى القعدة سنة ٤٦٣هـ الموافق ٢٦ أغسطس ١٠٧١م ، وبالرجوع الى التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية لمحمد مختار باشا ، مجلد ١ ، ص ٤٩٥ نجد أن استهلال شهر القعدة كان بيوم الأحد سنة ٤٦٣هـ ، الموافق ٣١ يوليه ١٠٧١م ، والمصادر الاسلامية تجمع على أن معركة ملاذكرد وقعت يوم الجمعة وهذا اليوم لايوافق يوم ٦ أو ٢٦ فى شهر أغسطس وانما يوافق ماذكره سعيد عاشور وهو مااعتمدنا عليه فى المتن ، ويقابله فى التقويم الهجرى يوم ٢٠ ذى القعدة .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦١-٢٦٢ وانظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٨ ويضيف أن السلطان قال أيضا : (وقد فتحنا على المسلمين ماكانوا عنه فى غناء) .

وإذا نظرنا الى الجانب البيزنطى فقد كان الامبراطور رومانوس ديوجنيس هو الآخر يعد نفسه وجنده معنويا "وبين يديه بشر كثير من الرهبانيين والقسيسين يتلون الانجيل" (١). ومع ذلك فان بعض المؤرخين يذكرون أنه فى صبيحة يوم المعركة أى يوم الجمعة خرجت الكتيبة الغزية من صفوف البيزنطيين وانضموا الى السلاجقة (٢). وإذا كان تخلى الغز عن الامبراطور رومانوس ديوجنيس قبل المعركة حقيقة لامراء فيها فان مسألة انضمامهم الى السلاجقة فيها نظر، لأنه لم نجد لها فيما بين أيدينا من المصادر الاسلامية مايعززها ويؤكدها وحدث كهذا لابد أن يكون له صداه فى المصادر الاسلامية التى فاقت معلوماتها عن هذه المعركة كثيرا من نظيراتها البيزنطية، خاصة وأن أولئك الغز المنسحبين لم يكونوا من القلة بحيث تتجاهلهم المصادر، اذ يذكر ابن الجوزى أنهم كانوا "خمسة عشر ألفا من الغز الذين من وراء القسطنطينية" (٣) ومن المحتمل أن هؤلاء الغز عادوا أدراجهم الى بلادهم بعد صنيعهم ذلك. وعلى أى حال فان القوات البيزنطية لم تجد لديها الفرصة لتنظيم صفوفها من جديد اذ انقض عليهم السلاجقة بكل قوة فى هجوم مباغت حطموا فيه المعنويات

---

(١) الحسينى، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص ١١١ .

(٢) فايز نجيب اسكندر، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد، ص ٨١ .
وانظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٨٥ — سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ، ص ٤٤ — أحمد عبد الكريم سليمان، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط، ج١، ص ٢٣٧ — زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، ص ٥٠ عصمت غنيم، معركة منزيكرت فى ضوء وثائق بسيللوس، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، ١٩٨١م، ص ٢١٥-٢١٧

(٣) المنتظم، ج٨، ص ٢٦١ .

المتبقية للجيش البيزنطي وظلوا طيلة يوم الجمعة وليلة السبت يقتلون منهم ويأسرون (١) ، وعلى رأس الأسرى الامبراطور رومانوس ديوجنيس . وحينما علم السلطان بهذا الخبر لم يصدقه في البداية ، لولا أن أكد له أحد غلمانه الذين كانوا يعرفون الامبراطور البيزنطي من قبل حقيقة الخبر (٢) ، وعلى الفور أمر السلطان بأن تعد له خيمة خاصة به ووكل به من يحرسه الى حين استدعائه ، ويبدو مما ذكرته بعض المصادر الاسلامية أن السلطان ألب أرسلان كان في فورة غضبه على الامبراطور رومانوس عندما أمر باحضاره ليس لأنه وقع في الأسر فحسب بل لأن الامبراطور كانت أمامه كل الفرص للعودة الى بلاده وعاصمته دون أن يتعرض الى هذه الهزيمة والخسائر البشرية والأموال التي ضاعت على الدولة البيزنطية ، ولهذا فان السلطان حينما أحضر اليه الامبراطور أسيرا "ضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل اليك الافشين أطلب أعدائي فمنعتهم ؟ ألم تغدرني وقد حلفت لي ؟: ألم ابعث اليك بالأمس أسألك الرجوع فقلت : قد انفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت فكيف أرجع الى أن افعل ببلاد المسلمين مثل مافعلوا ببلادي ؟ وكيف رأيت أثر البغي ..." (٣) .

ومع أن الامبراطور كان أسيرا فانه لم يقبل هذا التوبيخ ، وكانت اجابته صريحة عندما سأله السلطان عن

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٢ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٦ – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ص ١٤٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٢ – سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٢-٢٦٣ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٦-٦٧ – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٤٩-١٥٠ .

تصرفه لو كان السلطان هو الأسير فأجاب بأنه سيفعل به القبيح (١) . ونستخلص من النقاش الذى دار بينهما أن الامبراطور بين للسلطان أهمية ابقائه حيا ليعود الى العرش فى مقابل أن يكون تابعا للسلطان ألب أرسلان واستعد أن ينفذ كل مطالبه المالية كتعويض عن الحرب التى شنها ، وانتهى الأمر بين الاثنين على الأمور التالية :

(١) أن يدفع الامبراطور مليون وخمسمائة ألف دينار كفدية مقابل اطلاق سراحه فور عودته الى بلاده .

(٢) يتعهد الامبراطور رومانوس ديوجنيس أن يدفع ثلاثمائة وستون ألف دينار جزية سنوية .

(٣) أن يلبى طلب السلطان ألب أرسلان اذا احتاج الى جنود الدولة البيزنطية .

(٤) أن يتعهد الامبراطور باطلاق أسرى المسلمين فى الدولة البيزنطية واعادتهم الى بلادهم .

(٥) يتعهد الامبراطور فور رجوعه الى الحكم أن يرسل قوات بيزنطية تستولى على انطاكية والرها ومنبج وتعيدها الى الدولة الاسلامية وذلك بناء على طلب من السلطان فى هذا الشأن (٢) .

وحتى يتم تنفيذ هذه الاتفاقية طلب الامبراطور رومانوس ديوجنيس من السلطان أن يسرع فى فكاكه حتى لايستولى أحد على السلطة بسبب بقائه فى الأسر ، ولذلك جهزه السلطان بعشرة

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٣ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٧ — سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ص ١٥٠ .

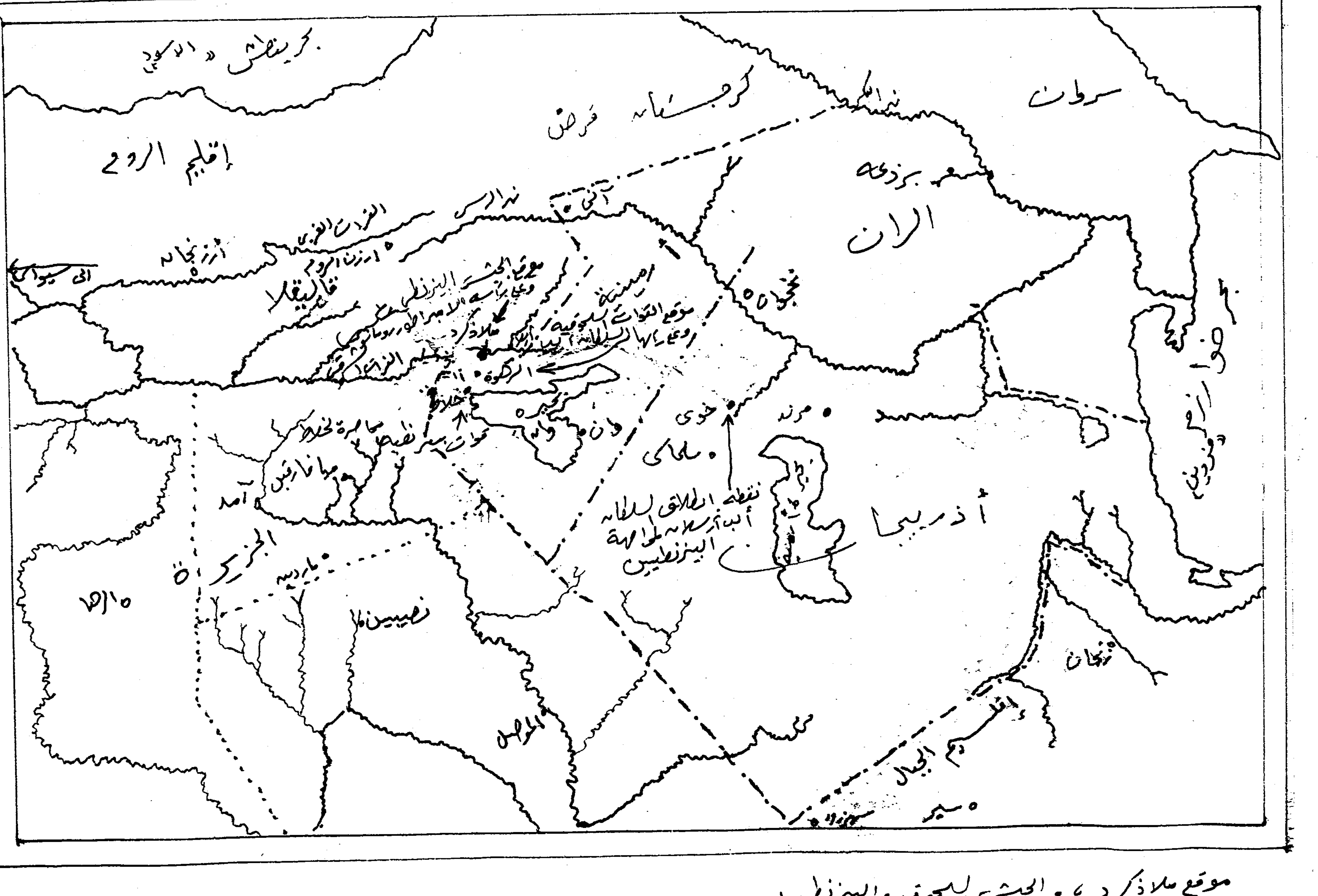
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٦٣-٢٦٤ — ابن الأثير الكامل ج١٠ ، ص ٦٧ — سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٠-١٥١ .

آلاف دينار وأطلق له عددا من القادة البيزنطيين وأصحبه فرقة سلجوقية ترافقه الى حدود الدولة البيزنطية ، وكان السلطان في وداعه لحظة مغادرته مخيم السلطان وشيعة مسافة فرسخ تكريما له (١) .

وهكذا انتهت معركة ملاذكرد ، وبصرف النظر عن كل التحليلات في أسباب هزيمة البيزنطيين التي ساقها بعض المؤرخين المحدثين كعدم التجانس في الجيش البيزنطي أو حدوث خيانة بعض القادة الى غير ذلك من الأسباب (٢) ، فان هذه المبررات لم تكن موجودة الى ماقبل المعركة بيومين ، وعلى أساس أن الجيش البيزنطي كان قويا متفوقا عددا وعدة رفض الامبراطور قبول الصلح مع السلطان . ولو كان الامبراطور يرى أي خلل في جيشه لما خاطر كل هذه المخاطرة في مواجهة السلاجقة ، كما أبرزت هذه المعركة شجاعة وتصميم السلطان ألب أرسلان في الأزمات الكبيرة ، وقد كان بامكانه أن يختلق لنفسه المعاذير بالانسحاب الى خراسان حتى يجمع جنوده ثم يواجه خصمه بعد ذلك وهو في أتم استعداداته العسكرية ، لكنه رفض هذا المنطق ، ولذلك قبل جنوده التضحية في سبيل الله معه حينما وجدوا قائدهم أول المضحين والمجاهدين في سبيل الله .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٧ .
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٥ ـ سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٤٤ ـ أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص ٥٠ ـ حسنين ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٨٩-١٩٠ ـ عصمت غنيم ، معركة منزيكرت في ضوء وثائق بسيللوس ، ص ٢١٥-٢١٦ .



موقع ملاذكرد ، والجيش السلجوقي والبيزنطي .

الخارطة : كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦ .

أما عن أسباب عدم استغلال السلطان ألب أرسلان لهذا النصر والاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية أو على الأقل السيطرة على آسيا الصغرى ، وكانت هذه النقطة موضع تساؤل بعض المؤرخين المحدثين (١) ، فالاجابة عنها موجودة فى الاتفاقية التى ذكرناها قبل قليل . فهذه الاتفاقية وضعت مقدرات الدولة البيزنطية تحت تصرف الدولة السلجوقية ، بصرف النظر عن كونها نفذت أو لم تنفذ لأن السلطان ألب أرسلان حينما اتجه الى بلاد ماوراء النهر عقب ملاذكرد لم يكن يعلم بما حدث فى القسطنطينية من عزل لرومانوس ديوجنيس وتولى ميخائيل السابع الحكم بدلا منه .

ومع ذلك فان السلاجقة لم يحرموا من نتائج هذه المعركة فقد فتحت أمامهم آسيا الصغرى على مصراعيها .

توغل السلاجقة فى آسيا الصغرى :

كان لمعركة ملاذكرد نتائج خطيرة سواء بالنسبة لتاريخنا الاسلامى أو بالنسبة لتاريخ النصرانية ، ففى أوربا كانوا ينظرون الى الدولة البيزنطية على أنها كانت تقف حاجزا من جهة الشرق أمام المد الاسلامى ، وقد تعرض هذا الحاجز الى هزة عنيفة غيرت من مفهوم تلك النظرة التى كان

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٦ – سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥ – أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٣٧ – سعيد أحمد برجاوى الحروب الصليبية فى المشرق ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٦٥-٦٦ .

ينظر بها الى الدولة البيزنطية (١) ، وذلك عندما أخذت جموع السلاجقة تنشىء لها كيانات وبدأت تتكون امارات اسلامية في وسط آسيا الصغرى لأول مرة منذ الفتوح الاسلامية الأولى (٢) .

والامبراطور ميخائيل السابع (٤٦٣-٤٧١هـ/١٠٧١-١٠٧٨م) الذى استولى على الحكم بعد أسر الامبراطور رومانوس ديوجنيس أدرك حقيقة الخطورة التى تمر بها دولته ، ولذلك بدأ يستنجد بأوربا مطالبا اياهم الوقوف معه أمام الأخطار التى تتعرض لها دولته . وركز ميخائيل السابع مطلبه هذا أمام البابوية وأصبح على استعداد بالتعاون معها على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية فى سبيل ايجاد تحالف نصرانى ضد الاسلام (٣) . ولذلك يرى البعض أن الحروب الصليبية كانت نتيجة طبيعية لمعركة ملاذكرد (٤) .

اضافة الى ماسبق فقد كان من نتائج معركة ملاذكرد المباشرة على الدولة البيزنطية أنها بدأت تفقد وحدتها لكثرة التمرد وحركات العصيان ، وانهيار القدرة العسكرية نتيجة مطامع القادة البيزنطيين ، مما أتاح للسلاجقة استغلال

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٤٤ - أحمد الشامى ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٤ - زبيدة عطا ، بلاد الترك فى العصور الوسطى ، ص ٥١ .

(٢) حسنين محمد ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٩٤-١٩٦ .

(٣) حسنين محمد ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٩٤-١٩٦ - هـ.ج.ولز ، معالم تاريخ الانسانية ، المجلد ٣ ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٨٧٦-٨٧٨ - سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٤ .

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٥-٨٦ - تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥ - زبيدة عطا بلاد الترك فى العصور الوسطى ، ص ٥١ .

هذه الفرصة أفضل استغلال وبدأوا فى الانسياح داخل الدولة البيزنطية واقتطاع أهم أجزائها (١) .

وعلى اى حال فقد وضع السلطان الب أرسلان خيرة قادته التركمان على مشارف الدولة البيزنطية وربما كان مدركا ماستؤول اليه الأحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية وأنها ستكون بحجم الخسارة التى منيت بها فى معركة ملاذكرد .

ويذكر لنا المولوى أن القادة التركمان الذين وضعوا فى أطراف الدولة البيزنطية الشرقية والشمالية الشرقية هم الأمير أرتق (٢) والأمير سلتق والأمير طغدكتين والأمير منكوجك ، اضافة الى أحمد غازى دانشمند وقد أوصاهم بالتعاضد والتكاتف فيما بينهم (٣) . وقد اشتهر هؤلاء القادة الذين نسبت بعض الامارات فى آسيا الصغرى اليهم (٤) ، فأحمد غازى دانشمند بسط سيطرته على سيواسى وقيصرية وملطية (٥) .

أما منكوجك (٦) فقد أسس امارته فى غربى الفرات ، وفتح

---

(١) أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ١٢ .

(٢) انظر ترجمة أرتق فيما بعد ، ص ٣١٠ .

(٣) أحمد بن لطف الله المولوى ، صحائف الأخبار فى وقائع الاعصار ، مخطوطة مكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم ٢٩٥٤/١ ومصورة على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى برقم ١٠٤٢ تاريخ تراجم ، ورقة ٥٩٤أ .

(٤) ذكره المولوى باسم اسماعيل دانشمند طايلوا التركمانى وذكر أنه كان معلما لأبناء التركمان ، ولذلك قيل له دانشمند ، أما أحمد السعيد سليمان فى كتابه ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٣٢٦ ، فذكره باسم أحمد غازى وانظر كذلك دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ٩ ، ص ١١٣ .

(٥) ملطية : بلدة من بلاد الروم تتاخم الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٥٢) .

(٦) بنو منكوجك (٤٦٤-٦٥٠هـ/١٠٧١-١٢٥٢م) لايعرف شىء عن تاريخ بنى منكوجك الا من خلال ماعثر عليه من نقوشهم ومسكوكاتهم ، وقد انقسمت هذه الأسرة الى شعبتين أحدهما فى أرزنجان وكمخ والشعبة الأخرى فى ديوركى .
انظر : أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٣٣٠ .

أرزنجان (١) وكمخ (٢) وديوريكى (٣) وقراحصار (٤)، بينما أسس سلدق (٥) لنفسه امارة فى أرضروم (٦).

أما الأمير ارتق فقد وقع عليه عبء قيادة السلاجقة الذين أخذوا يتوغلون باتجاه الغرب فى عمق آسيا الصغرى، وقد وفق أرتق بك الى حد بعيد فى تثبيت أقدام السلاجقة عندما تمكن من هزيمة الحملتين اللتين جردتا ضده من قبل الامبراطور ميخائيل السابع بقيادة كل من اسحاق كومنين ويوحنا دوكاس (٧). وقد اضطر ارتق بك الى الرحيل الى خراسان بعد مقتل السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م للوقوف الى جانب السلطان ملكشاه ضد خصومه (٨) تاركا مهمة قيادة السلاجقة

---

(١) أرزنجان : ويطلق عليه أرزنكان، مدينة تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات الشمالى، وهى بلدة طيبة نزهة كثيرة الخيرات. (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٥٠).

(٢) كمخ : مدينة تبعد مسافة يوم أسفل أرزنجان على ضفة الفرات الجنوبية. (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٥١).

(٣) ديوريكى : وهى عند العرب مدينة ابريق وسكانهاكان يطلق عليهم البيالقة وهى جنوب مدينة سيواس. انظر (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٥١-١٥٢ والخارطة رقم ٣).

(٤) قراحصار : قلعة تابعة لقونيه تقع الى الشرق منها. (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٨١).

(٥) بنو سلدق : (٤٦٤-٥٩٨هـ/١٠٧١-١٢٠١م) ويجهل كثير من تواريخ هذه الأسرة، ومن الملاحظ أنه وردت صيغ متعددة لبنى سلدق فهم بنو سلتق، صالتق ملتق وصلاق وصليق أما فى السكة فهى كلمة سلدق وهى التى اعتمدها أحمد السعيد سليمان فى كتابه تاريخ الدول الاسلامية، ج١، ص ٣٣٣.

(٦) أرضروم : هى أرزن الروم من أكبر بلاد قاليقلا، وقد خرب أكثرها. (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٤٩-١٥٠).

(٧) Claude Cahen, Ottoman Turkey. Op. Cit. p.44 .
زبيدة عطا، بلاد الترك فى العصور الوسطى، ص ٥٥-٥٦ — أحمد تونى عبد اللطيف، الحياة السياسية، ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم، ص ١٢-١٣ — أحمد عبد الكريم سليمان، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط، ج١، ص ٢٤١.

(٨) زبيدة عطا، بلاد الترك فى العصور الوسطى، ص ٥٦ .

فى آسيا الصغرى الى الأمير تتش بن ألب أرسلان الذى سرعان ما اتجهت اليه انظار القائد البيزنطى اليكسيوس كومنين المكلف باخماد ثورة المتمرد النورمانى روسيل باليل ، اذ طلب الكسيوس كومنين الأمير تتش مساعدته فى القضاء عليه ، وقد نجح تتش فى أسر روسيل بالليل وتسليمه الى البيزنطيين (١) وقد فرضت أحداث بلاد الشام عقب هزيمة أتسز بن أوق الخوارزمى فى مصر على السلطان ملكشاه ، أن يكلف أخاه تتش بتولى أمور بلاد الشام سنة ٤٧٠-٤٧١هـ (٢) وقد خلف تتش فى آسيا الصغرى ابن عمه الأمير سليمان بن قتلمش بن اسرائيل (٣) الذى كان وصوله الى هذه المنطقة فى فترة شهدت زيادة الانقسامات بين البيزنطيين فى تنازعهم على كرسى السلطة ، اذ أنه قد ظهر منافسان للامبراطور ميخائيل السابع أحدهما من الغرب وهو نقفور برينيوس ، أما الآخر فهو نقفور بوتنياتس فى الشرق ، وقد طلب الأخير من سليمان بن قتلمش وأخيه منصور (٤) مساعدته فى الهجوم على القسطنطينية . ولبى سليمان طلبه هذا ، وتقدموا بقواتهم عبر آسيا الصغرى ليجد الامبراطور ميخائيل السابع نفسه فى وضع لايسمح له بالمقاومة ، فتنازل

---

(١) أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٤٢ - أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ١٣ .

(٢) انظر فيما بعد ، ص ٣٠٨ .

(٣) هو سليمان بن قتلمش بن أرسلان (اسرائيل) بن سلجوق ، من الأمراء السلاجقة الذين ظهروا فى آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرد ، واستطاع سليمان أن يثبت أقدامه فيها وينشىء له ولعقبه فيها امارة سلجوقية وسنرى فى المتن جهوده فى سبيل ذلك .
عن ترجمته انظر : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٤٤٩) .

(٤) أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ١٣-١٤ .

عن الحكم لنقفور بوتنياتس الذى لقب نفسه الامبراطور نقفور الثالث سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م (١) . وقد استفاد السلاجقة من مؤازرتهم للامبراطور الجديد واحتلوا لهم مواقع فى آسيا الصغرى . ويبدو أن سليمان بن قتلمش رأى أن تفرد نقفور الثالث بالحكم فى غير صالحه ، ولذلك سرعان ما انقلب عليه ليدعم ثائرا جديدا هو نقفور ملسينوس وقد شرط عليه سليمان أن يحتفظ بنصف المدن والأقاليم التى يفتحها معه ، وقبل ملسينوس هذا الشرط ، وسار الجميع نحو القسطنطينية فاستوليا على نيقيه (٢) وساحل بثينيا (٣) ووصلا بقواتهما الى ساحل بحر مرمرة (٤) .

وعلى الرغم من اخفاق حملة سليمان وحليفه نقفور ملسينوس من تحقيق هدف اسقاط الامبراطور نقفور الثالث الا أن سليمان بن قتلمش ثبت أقدامه فى المواضع التى استولى عليها وضمها اليه ، ولم يستطع البيزنطيون اخراجه منها ، بل انه تمكن من ضم كل من اقليم ليديا وأيونيه المطلة على السواحل الغربية لآسيا الصغرى ، ليصبح تحت نفوذه منطقة شاسعة تمتد

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٨ .

(٢) نيقيه : مدينة قديمة من مدن بثينيا فى آسيا الصغرى ، تقع قبالة مدينة استانبول الى الجنوب من اسكودار . (تاماراريس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص ٤٧ ، حاشية رقم ٩) .

(٣) بثينيا : اقليم تاريخى قديم يقع غربى آسيا الصغرى وتحيط به أقاليم سارديس من الشمال وفريجيا من الشرق وقاريا من الجنوب وايونيا من الغرب ، انظر (تاماراايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص ٤٨ ، حاشية رقم ١١) .

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٨٩ - العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٨ - أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٤٤ - أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ١٥-١٦ - زبيدة عطا ، بلاد الترك فى العصور الوسطى ، ص ٥٨ .

من حدود أرمينيا شرقا الى شواطىء البسفور غربا (١) . وأعلن نفسه حينها سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م سلطانا على السلاجقة بآسيا الصغرى ، واختار مدينة نيقيه عاصمة له ، واضطرت الدولة البيزنطية الى الاعتراف بوجود هذه الامارة رغما عنها ، وثبت هذا الاعتراف الامبراطور الجديد الكسيوس كومنين (٤٧٤-٥١٢هـ/١٠٨١-١١١٨م) حينما جعل من وادى مالنيه حدا فاصلا بين الدولتين (٢) .

وقد أتاح هذا الاتفاق لسليمان بن قتلمش أن يعود مرة أخرى الى الشرق ليفتح بعض الجيوب البيزنطية التى بقيت لهم هناك ، فاستولى على حصن طرسوس (٣) وأذنه (٤) والمصيصة (٥) سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م (٦) كما ضم اليه عين زربى (٧) سنة ٤٧٦هـ (٨) ، وتوج

---

(١) أحمد عبد الكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط ، ج١ ، ص ٢٤٤ ـ أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ١٦ .

(٢) أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ١٦ .
Claude Cahen. Op. Cit, p. 75-76 .
تامارا رايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص ٤٩ ـ ابن البيبى ، مختصر سلجوق نامه ، باعتناء هوتسما ، ليدن ١٩٠٢ ، ص المقدمة ، هفتاد وهشت ٨٧ .

(٣) طرسوس : من أجل الثغور وتشرف على المدخل الجنوبى للدرب عبر طوروس المعروف بأبواب قيليقيه ، وكانت هذه المدينة رباطا للجهاد يأتى اليها معظم المجاهدين للمرابطة فيها . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٤) .

(٤) أذنة : مدينة تقع على نهر سيحان الى الغرب منه وهى مدينة خصبة عامرة . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٣) .

(٥) المصيصة : مدينة على شاطىء جيحان وهى من الثغور . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٤٤-١٤٥) .

(٦) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٩ ـ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٧ .

(٧) عين زربى : بلد من الثغور من نواحى المصيصة بنيت سنة ١٩٠هـ . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١٧٧) .

(٨) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٩ ـ أحمد تونى عبد اللطيف ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، ص ٢١ .

فتوحاته باستيلائه على أنطاكية سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٣م نتيجة خلافات قامت بين سكانها وحاكمها الأرمني فيلايتوس الذى أجحف في مصادره التجار وقتل كثيرا من المعارضين له وسجن ابنه الذى كان من ضمنهم . وازاء هذا الوضع ، طلب الأهالى من سليمان القدوم عليهم للاستيلاء على المدينة وفعلا فتح له أهل أنطاكية أبوابها حين قدومه واستولى عليها وفرض سلطته فيها وقد أمر عسكره بألا يتعرضوا لأحد من النصارى ، وألا ينزل أحد في دور الناس وأحسن سيرته فيهم حتى أحبه أهلها وبدأت هذه المدينة تشهد عودة الازدهار التجارى اليها نتيجة لسياسته العادلة فى أهلها .(١)

غير أن اتجاه سليمان بن قتلمش الى الشرق قد أدخله فى الصراعات مع الحكام المسلمين على النفوذ وأول من عارضه مسلم بن قريش العقيلى الذى كان فلاريتوس يؤدى له الجزية فنفذ باستيلاء سليمان عليها موردا من موارده المالية ونفوذه السياسى . واضطر سليمان بن قتلمش لمواجهة مسلم بن قريش وقتله سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٤م ليدخل بعدها فى نزاع مع الأمير تتش بن ألب أرسلان من أجل حلب وينتهى الأمر بمقتل سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٥م(٢) وقد استطاع نائبه المدعو أبا القاسم والقيم على أبنائه أن يحافظ على سلطنة سلاجقة الروم بعد مقتل سيده سليمان بن قتلمش حتى تولاها ابنه قليج أرسلان .

ونخلص من هذا العرض الى أن دولة السلاجقة استطاعت أن تستفيد من معركة ملاذكرد الى أقصى الحدود ، فقد أصبح

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٨ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢٢٩ ـ الذهبى ، دول الاسلام ، ج٢ ، ص ٥ ـ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٧ .

(٢) انظر فيما يأتى ، ص ٣١٣ .

السلاجقة يسيطرون على أهم وأغنى أقاليم آسيا الصغرى من نهر الفرات الأعلى شرقا الى شواطىء بحر مرمرة غربا ، اضافة الى تثبيت سلطتهم نهائيا فى أرمينية .

(ج) امتداد النفوذ السلجوقى الى بلاد الشام

الأوضاع السياسية والاقتصادية فى مصر وأثرها على بلاد الشام :

منذ أن انتهت فتنة البساسيرى التى دعمها الفاطميون فى مصر ، أخذت الأحداث تسير فى مصر ابعادا أخرى كان لها نتائجها الوخيمة على الدولة الفاطمية عامة ، وعلى نفوذهم فى بلاد الشام خاصة ، وأهم هذه الأحداث التى سنتحدث عنها بشكل موجز كمدخل الى موضوعنا وهو النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام (١) هى :

(١) الأزمة الاقتصادية والتى عرفت فى تاريخ مصر الاسلامية باسم الشدة العظمى ، أو الشدة المستنصرية ، أو الشدة العظمى والفناء الكبير ، الى غير ذلك من المسميات (٢) .

(٢) الفتنة فى الجيش الفاطمى وخاصة بين الجند الأتراك والجند السودان .

ففيما يتعلق بالأزمة الاقتصادية ، فقد بدأت بوادرها تظهر منذ سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م حينما بدأت مصر تعانى من انخفاض النيل ، وأثر ذلك بدوره على الحياة الزراعية ، الا أن الوزير الفاطمى اليازورى استطاع أن يحد من آثار هذه

---

(١) المقصود بذلك المنطقة الوسطى والجنوبية من بلاد الشام أى دمشق وفلسطين أما حلب والمناطق الشمالية فمبحثها فى الفصل الخامس لكونها تدخل فى الامارات العربية .

(٢) عن هذه الأزمة انظر : المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٩٦-٣٠٠ ـ عبد الله المنهاج ، صراع الوزراء العظام فى العهد الفاطمى الثانى وأثره على الحياة السياسية ٤٦٦-٥٦٧هـ/١٠٧٣-١١٧١م ، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، ١٤٠٧-١٤٠٨هـ ، ص ١٠٩ .

المشكلة حينما تدخل سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م وأمر الجهابذة بحصد المحاصيل الزراعية وتحويلها الى مخازن الدولة بدلا من تسليمها الى التجار حتى لايحتكرها الأخيرون ويغالون فى اثمانها ، وقد عوض اليازورى التجار عن الأموال التى دفعوها الى المزارعين وأعطاهم عن كل دينار دفعوه دينارا اضافة الى ربح قدره ثمن دينار ، وبدأ اليازورى فى توزيع هذه المحاصيل على الناس باثمان معقولة جنبت الديار المصرية الكثير من المخاطر (١). وبعد عزل اليازورى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م بحجة مراسلته للسلطان طغرلبك ، أخذت الأزمة الاقتصادية تشتد ويذكر المقريزى أن أسوأ مامر على مصر فى تلك الفترة هى فى المدة المحصورة فيما بين سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م وسنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م وهى التى عرفت بالشدة العظمى ، أخصبت فيها كل شر ، وهلك فيها معظم الناس ، لانتشار المجاعة والأوبئة (٢)، وأكل الناس فيها القطط والكلاب ، وبلغ الحال ببعضهم أنهم صاروا يخطفون الناس بكلابيب يدلونها من نوافذ منازلهم ثم يأكلونهم (٣).

ولم تكن هذه الشدة والقحط هى السبب الوحيد فى الأزمة الاقتصادية (٤)، فقد قوى من شدة هذه الأزمة الخلاف الذى نشب بين الجند الأتراك والجند السودان الذين استكثرت منهم والدة

---

(١) أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م ، ص ٣٠٠ – محمد حمدى المناوى ، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٤٥ عبد الله المنهاج ، صراع الوزراء العظام فى العهد الفاطمى ، ص ١٠٦ .

(٢) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣٠٠ .

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٩٧ .

(٤) أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ص ٣٠٠ – عبد الله المنهاج ، صراع الوزراء العظام فى العهد الفاطمى ، ص ١٠٦-١٠٧ .

المستنصر بالله وجلبت منهم الكثير الى الديار المصرية بحيث بلغوا في مصر عشرة آلاف جندي سوداني (١)، وذلك لتجعل منهم قوة مقابلة للجند الاتراك بحكم كراهيتها للترك الذين تسببوا في مقتل سيدها الأول أبو سعيد التستري (٢) الذي باعها للخليفة الفاطمي الظاهر (٣) بن الحاكم (٤). وقد حاولت أم المستنصر بالله أن تجعل من الوزراء وسيلتها لتضرب بين الاتراك والسودان، الا أن حكمة وزراء المستنصر بالله وخاصة اليازوري حالت دون رغبتها (٥). فلما عزل اليازوري اضطربت أمور الدولة وكثر عزل وتولية الوزراء، وأخذت الشحناء تدب في الجند الفاطمي وخاصة بين الطائفتين الأكثر عددا وهم الترك والسودان حتى كانت سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م. ففي جمادى الآخرة من هذه السنة قام أحد الأتراك وهو سكران بقتل أحد

---

(١) علي ابراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٤٧.

(٢) أبو سعيد التستري: كان من تجار اليهود الذين أسلموا في مصر، وكانت أم الخليفة المستنصر بالله تعمل في بيته واشتراها منه الخليفة الظاهر بن الحاكم، تولى الوزارة للمستنصر بالله بواسطة أمه، ولم يمكث فيها غير عشرة أيام كما يذكر ذلك ابن منجب الصيرفي في كتابه الاشارة الى من نال الوزارة، ص ٥٢، وقتل على يد بعض الجنود الأتراك سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م بمكيدة من الوزير أبي منصور الفلاحي.
انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ١٩٥ – عبد الله الصنهاج، صراع الوزراء العظام في العهد الفاطمي، ص ٩٠ حاشية رقم ٣.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ١٩٥.

(٤) هو أبو هاشم علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز (٣٩٥-٤٢٧هـ/١٠٠٤-١٠٣٥م)، تولى الحكم بعد مقتل أبيه الحاكم سنة ٤١١هـ/١٠٢١م، ضعفت الدولة في أيامه لكثرة الخارجين عليه وخاصة في بلاد الشام، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، المجلد ٣، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ١٩٥.

السود ، فقامت طائفة من الجند السودان بقتل ذلك التركى (١) وامتدت بينهم الفتنة ودخلوا فى حروب متوالية اضطر فيها الجند السودان أن يخرجوا من القاهرة الى الصعيد ويقوموا بأعمال السلب والنهب ، وقطع الطرقات واتلاف المحاصيل الزراعية حتى لاتصل الى العاصمة الفاطمية مما اضطر زعيم الأتراك ناصر الدولة الحسين بن حمدان (٢) الى أن يتتبعهم الى هناك ، والقضاء عليهم ، وتفريق شملهم (٣) .

ومن ناحية أخرى فقد دفع المستنصر بالله ثمنا غاليا من جراء سكوته على والدته وتدخلها فى شئون الدولة ، فاضطر فى سبيل ارضاء الأتراك وزعيمهم ناصر الدولة بن حمدان أن

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٦٥ ، ويذكر المقريزى أن المستنصر بالله كان من عادته فى كل سنة أن يركب على النجب ومعه النساء والحشم الى جب عميره (فى الناحية البحرية الشمالية من القاهرة وهى أول مراحل طريق الحج المصرى) وهو موضع نزهة ويغير هيئته كأنه خارج يريد الحج على سبيل الهزر والمجانة ومعه الخمر محمول عوضا عن الماء ، ويدور به سقاته عليه وعلى من معه كأنه بطريق الحجاز أو كأنه ماء زمزم ، وقد أنشده أحد الشعراء فى صبيحة يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء
ولاتضح ضحى الا بصهباء
وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم
الى منى قصفهم مع كل هيفاء

وقد جرت هذه الحادثة التى ذكرناها فى المتن فى احدى خرجاته تلك . وانظر أيضا جمال الدين على بن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق اندريه فريه ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ٧٣-٧٤ .

(٢) هو الأمير ناصر الدولة الحسين بن الأمير حسن بن الحسين ابن الحسن بن عبد الله بن حمدان التغلبى ، تولى والده للمستنصر بالله نيابة دمشق ، ويبدو أن ناصر الدولة الحسين تربى فى مصر وترقى فى الوظائف حتى أسندت اليه مهمة قيادة الأتراك فى عهد المستنصر بالله عمل على اسقاط الخلافة الفاطمية كما سنرى ذلك فى المتن وقتل فى سبيل ذلك . انظر ترجمته ومصادرها فى (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٣٣٥-٣٣٦) .

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٧٣ ـ عبد الله المنهاج ، صراع الوزراء العظام فى العهد الفاطمى ، ص ٩٥ .

يخلى خزائنه من الأموال والنفائس حتى اضطروه الى بيع ثيابه وقد تحدث المقريزى فى صفحات طويلة عن الأموال والجواهر التى أخرجها المستنصر من قصوره تلبية لمطالب الأتراك وزعيمهم الحسين بن حمدان (١) ، وآل الأمر فى النهاية الى أن يضطر المستنصر بالله الى البقاء فى قصره على حصيرة ويتصدق عليه المتصدقون بكسرة الخبز لسد رمقه (٢) ، ولما خلت خزائنه ولم يعد لديه شيء من المال ، فكر ناصر الدولة الحسين بن حمدان فى القضاء نهائيا على الدولة الفاطمية ، فبدأ يخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الاسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحرى (٣) ، كما أرسل الفقيه ابا جعفر البخارى الى السلطان ألب أرسلان يستدعيه الى مصر للاستيلاء عليها ، وليكون هو نائبا عن السلطان فيها (٤) . وحين بلغت هذه الأنباء المستنصر بالله الفاطمى اضطر الى مواجهة الحسين بن حمدان وقيادة الجيوش ضده ، واستغلال حالة العداء التى انتشرت بين القادة الترك ضد الحسين بن حمدان لاستئثاره بالأموال والنفوذ دونهم ، واستغلهم فى القضاء عليه والتخلص منه سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م قبل أن يتم مشروعه ذلك (٥) .

أما السلطان السلجوقى ألب أرسلان فانه كان قد توجه نحو بلاد الشام وقطع نهر الفرات فى ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ/

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٨١-٢٩٦ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٩٨ - جمال الدين ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ٧٤ .
(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣٠٢ - عبد الله المنهاج ، صراع الوزراء العظام فى العهد الفاطمى ، ص ٩٨ - على ابراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، ج٥ ص ١٤٨ .
(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٢١ - المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .
(٥) اتفق على قتل ناصر الدولة بن حمدان الأمير الدكز والأمير يلدكوز أقوى الأمراء الأتراك اذ هجموا عليه فى صحن داره على حين غفلة منه وقتلوه فى رجب سنة ٤٦٥هـ/ مارس ١٠٧٢م كما قتلوا كثيرامن أفراد أسرته ، انظر : المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣٠٩-٣١٠ .

ينـاير ١٠٧١م وتوقف أمام حلب فى جمادى الآخرة من نفس السنة وحاصرها لامتناع حاكمها عن المثول أمامه رغم أنه خطب للدولة العباسية (١) ، ونتيجة لسأم الجنود السلاجقة وشغبهم على السلطان ألب أرسلان اضطر الأخير الى الانسحاب من الشام والعودة الى أذربيجان ، ليدخل بعدها فى معركة قوية مع البيزنطيين فى ملاذكرد .

الحملات التركمانية الأولى على بلاد الشام .

ومن النتائج المترتبة على تلك الأوضاع التى سادت مصر اضافة الى نتائج الانتصار الكبير فى ملاذكرد أن بدأت تتدفق على المناطق الجنوبية من بلاد الشام وخاصة فى فلسطين قوات تركمانية ذكرها سبط ابن الجوزى بالتركمان الناوكية (٢) ، وذلك سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م ، واستولوا على الرملة (٣)

---

(١) انظر ماسبق ، وانظر كذلك الفصل الخامس .

(٢) مرآة الزمان ، ص ١٥٣ ، ويشير سبط ابن الجوزى الى أنه قد سبق لبدر الجمالى أن استعان بالتركمان الناوكية قبل سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م بسبب نهب العرب للمناطق الجنوبية من بلاد الشام ، وقد تمكن هؤلاء من طرد العرب وطالبوا بدرا بمكافأتهم على انتصارهم على العرب ، وحين رفض بدر اعطاءهم مطلبهم قاموا بنهب طبريه مما فرض على بدر الجمالى أن يعيد تحالفه مع العرب واستطاع التركمان أن يفاجئوا العرب ويهزموهم وعادوا مرة أخرى الى طبريه ومنها الى طرابلس حيث استدعاهم محمود بن الرؤقليه لمواجهة عمه عطية وحاكم أنطاكية البيزنطى ، ويفهم مما أورده سبط ابن الجوزى أن هذه الأحداث جرت فى الوقت الذى كان السلطان ألب أرسلان فى حرب مع الامبراطور البيزنطى أرمانوس ديوجنيس ، وحين انتهت هذه الحرب تفكك الحلف القائم بين حاكم أنطاكية البيزنطى وعطية المرداسى ، مما دعا محمود بن الرؤقليه الى أن يستبقى من التركمان الناوكيه الف رجل بينما اتجه بقيتهم الى جنوب الشام وهم الذين قاموا بأعمال تقويض سلطة الفاطميين كما أوضحنا فى المتن . انظر : مرآة الزمان ، ص ١٥٣ ــ وعن بداية دخول التركمان الى بلاد الشام انظر أيضا على الغامدى بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٩٤-٩٨ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٣ ــ وانظر أيضا ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٨ ــ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ١٧٣ ، ويذكر هؤلاء ان فتح الرملة تم على يد أتسز بن أوق الخوارزمى الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

التى كانت خرابا وليس بها أحد ، وسرعان ماقام التركمان بجلب الفلاحين الى هذه البلدة لاعمارها اذ اتفقوا معهم على ضمان غلال الزيتون بثلاثين الف دينار ، وقد باع الفلاحون محصولهم بثلثمائة الف دينار دفعوا منها ثلاثين الف دينار واحتفظوا بالباقى لهم (١). ومن الرملة توجه التركمان الناوكية الى دمشق سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م وحاصروها كما قاموا بتخريب الضياع حول دمشق مما فرض على واليها الفاطمى معلى ابن حيدرة بن منزو الكتامى (٢) مهادنتهم حتى يتركوا حصار المدينة والتزم بدفع خمسين الف دينار عجل لهم منها بثلاثة وعشرين الف درهم (٣) وسلم أخاه رهينة على باقى المبلغ ، فتركوا حصار دمشق واتجهوا الى عكا وحاصروها مع حلفائهم من بنى كلب . لكن زعيم التركمان الناوكية المدعو قرلى توفى اثناء الحصار وانفرط عقد جنده الذين مالوا على حلفائهم العرب ونهبوهم (٤) ، وانفرط بذلك عقد التحالف بين الطرفين ، مما دعا احد أقرباء قرلى الى أن يتجه من الرملة ليواصل الحصار على عكا ويقوم بتخريب المناطق المحيطة بها حتى يجبر سكانها على التسليم بفتح المدينة (٥) . لكن بدرا الجمالى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٧ .
(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من المصادر .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٧ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٨ .
(٥) هو بدر بن عبد الله الجمالى ، أصله من الأرمن ، اشتراه جمال الملك بن عمار الطرابلسى ، ولى نيابة دمشق سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م وظل بالشام الى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م حيث قدم الى مصر وتولى الوزارة للمستنصر بالله واستطاع أن يقمع الخارجين على الدولة ويضبط الأمور ويتفرد بالوزارة الى أن توفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م .
انظر : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٨١-٨٣ — ابن منجب الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٥٥-٥٦) .

حاكمها كانت تأتيه المؤن عن طريق البحر ، ولذلك لم يؤثر الحصار عليها ، وفي نفس الوقت يئس المحاصرون من فتح عكا ففكوا الحصار عنها وتفرقوا في عدة نواح حيث اتجه بعضهم نحو مصر ووصلوا الى بلبيس ولم يجدوا هناك مايغريهم على مواصلة البقاء فيها بسبب الأزمة الاقتصادية التي تمر بها مصر ، بينما اتجه آخرون نحو الحجاز حيث توجه سبعة عشر رجلا منهم الى المدينة المنورة وزاروا المسجد النبوي فيها (١) .

سيطرة أتسز بن أوق على فلسطين :

ويبدو أن قرلي الذي توفي في حصار عكا ، كان يتمتع بنفوذ كبير على التركمان الناوكية بدليل تفرق أتباعه بعد موته ، وعلى كل فقد آلت الزعامة على الأتراك التركمان الى أحد القادة وهو أتسز بن أوق الخوارزمي (٢) .

ويذكر المقريزي أن صحة الاسم هو أطسز وأنها كلمة

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٥٨ .

(٢) لايعرف عن أتسز بن أوق الخوارزمي شيء قبل سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، ولايستبعد علي عودة الغامدي في كتابه بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ١٤٢ أن يكون خوارزميا حسب ماجاء في اسمه ، لكنني لاأميل الى هذا الرأي لأن التركمان أو الغز من الصعب عليها الانقياد الى زعامة من خارج قبائلها ، ودليلنا على ذلك هو ماصنعه شكلي الذي فتح عكا سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م واختلف مع اتسز بعث شكلي الى سليمان بن قتلمش يستدعيه ليتولى الأمور في جنوب الشام بدلا من اتسز الذي لايمت بصلة الى البيت السلجوقي الحاكم ، فلو لم يكن تركمانيا لذكر شكلي ذلك في خطابه الى سليمان بن قتلمش ، مما يدل على أنه كان تركمانيا ، وربما دعي بالخوارزمي نسبة الى المكان الذي قدم منه وهو خوارزم ، وعلى كل فقد اثنى على اتسز ابن كثير ، في البداية والنهاية ، ج١٢ ص ١١٩ ، وقال في حقه بأنه كان من خيار الملوك وأجودهم سيرة وأصحهم سريرة وأزال الرفض عن أهل الشام وأبطل الأذان بحي على خير العمل ، وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين .

تركية تعني ليس معه فرس (١) . ورغم أن سبط ابن الجوزي يذكر منذ البداية أن الذي فتح الرملة هو أتسز (٢) ووافقه على ذلك بعض المؤرخين (٣) ، الا أننا نجده لايذكره في حصار عكار أو على الأقل يشير الى دوره في توجيه الأحداث بعد فتح الرملة ، مما يرجح أن القيادة على التركمان كانت موزعة الولاء بين قرلي وأتسز . اذ أنه بعد وفاة قرلي هرع قريب له لانقاذ الموقف قرب عكا ، وحين فشل الحصار تفرق هؤلاء الذين كانوا يخضعون له في عدة أنحاء كما ذكرناه سابقا ، وعلى كل فقد برز أتسز ابن أوق بعد سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م وخاصة حينما تيسر له فتح بيت المقدس في شوال سنة ٤٦٥هـ/يونيه ١٠٧٢م وبعث الى الخليفة القائم بأمر الله يبشره باقامة الخطبة للدولة العباسية والسلطنة السلجوقية . وقد أظهر أتسز من الحكمة وحسن الادارة بعد تسلمه لبيت المقدس من واليها الفاطمي ، اذ لم يتعرض لأهل بيت المقدس بسوء وأقام من قبله أناسا يحفظون الأمن والأموال ، وذلك تقديرا لحرمة المكان وخصوصيته ومكانته عند المسلمين ، وبعد استيلائه على بيت المقدس أتم فتح المناطق المحيطة به من الحصون التابعة له (٤) ، وبذلك تمت

---

(١) المقفى في تراجم أهل مصر والواردين اليها ، مخطوط السليمانية مكتبة بيرتو باشا رقم ٤٩٦ ، مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى رقم ١٠٦٣ تاريخ ، ورقة ٢٠٧أ.

(٢) مرآة الزمان ، ص ١٥٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٨ – ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة تاريخ لبنان والأردن وفلسطين ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م ، ص ١٨٣ – ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨-٩٩ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٦٩ – ويذكر ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٨ ، أن أتسز فتح بيت المقدس سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، وكذلك ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ١٩٩ ، كما ذكر هؤلاء أن بدر الجمالي استعادها سنة ٤٦٥هـ وفتحها اتسز ثانية .

السيطرة على جميع فلسطين ماعدا عسقلان وعكا .(١)

وقد تهيأت الظروف لفتح عكا من قبل السلاجقة وذلك حينما غادرها بدر الجمالي الى مصر باستدعاء المستنصر بالله الفاطمي للقضاء على فتنة الاتراك ، وبعد وصول بدر الجمالي الى مصر واستقرار الأمور لصالحه ، أرسل أحد ثقاته ويدعى ابن سقحاء بأموال وجواهر خاصة به الى عكا لتحفظ له هناك ، وقد تحطم المركب الذى كان يقل ابن سحقاء وخشى ابن سحقاء من بدر الجمالي ، ولذلك حين رجع الى عكا زعم لأعيانها أن بدرا الجمالي قتل رهائنهم ، واتفق معهم على استدعاء شكلي التركماني ليتسلم البلد ، وهكذا دعى شكلي بمواطأة منهم الى الاستيلاء عليها في ربيع الأول سنة ٤٦٧هـ/ اكتوبر ١٠٧٤م(٢) ، واستولى على ذخائر بدر الجمالي وقبض على أسرته(٣) ، ثم أتبع شكلي بعد عكا الاستيلاء على طبريه(٤) .

وقد تسبب استيلاء شكلي على عكا في اثارة الخلاف بينه وبين أتسز ، الذى كان قد بعث الى شكلي يطلب منه ارسال أهل وأولاد بدر الجمالي وارسال نصف الأموال التي استولى عليها من عكا(٥) ، وتسليم مقاليد الأمور في عكا الى الوالي الذى بعثه اتسز . وكان رد شكلي على ذلك هو قتل الوالي الذى

---

(١) علي عوده الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ١٤٤ .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٧١-١٧٢ .
(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٦٩ - ويذكر المقريزي في اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٤ أن شكلي لم يتعرض لأهل بدر الجمالي ، ويضيف ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ١٧٣ أنه لم يتعرض لالأهل بدر الجمالي ولالماله .
(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٤ - ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ١٧٣ .
(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٧٢ .

بعثه اتسز وأعلن تمرده بقوله : "أنا أخذت هذه المدينة بسيفي" (١) . وخوفا من ردة الفعل من جانب أتسز عمل شكلي التركماني على التحالف مع حاكم دمشق معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي وتزوج أخته (٢) ، كما أنه تحالف مع بني كلاب . ويبدو أن أتسز شعر بخطورة هذا الحلف عليه ، ولذلك قرر مهاجمة شكلي قبل أن يقوى حلفه والتقى به في رمضان سنة ٤٦٧هـ/ابريل ١٠٧٤م بالقرب من ساحل فلسطين وهزمه وفر شكلي على اثرها الى رفنيه (٣) بينما تابع أتسز مسيره الى دمشق لحصارها (٤) .

وقد أدرك شكلي أن حليفه حاكم دمشق أضعف من أن يستطيع حماية ولايته من أتسز فضلا عن التصدي له ، ولذلك اتجه الى أحد أبناء قتلمش بن اسرائيل الذي كان في أرض الروم وربما يكون سليمان بن قتلمش ، وطلب منه القدوم الى الشام "لأنه من السلجوقية وبيت الملك واذا أطعناك وكنا في خدمتك تشرفنا بك وافتخرنا وأتسز ليس من بيت الملك ..." (٥) . ويذكر سبط ابن الجوزي أن شكلي بين لابن قتلمش أن هناك وعودا من مصر بامدادهم بالأموال اذا طردوا أتسز من بلاد الشام ، وقد تشجع الأمير السلجوقي بسبب هذا الطلب وقدم الى الشام .

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ١٧٣-١٧٤ ، ومما يجدر ذكره أن ابن شداد يذكر أن أتسز كان قد سبق له الاستيلاء على عكا سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م ، وأن بدر الجمالي استردها منه سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ، وبسبب رحيل بدر الى مصر في نفس السنة استردها شكلي التركماني .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٧٣ .

(٣) رفنية : كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر ، وربما تطلق أيضا على بلدة عند طرابلس من سواحل الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٥٥)

(٤) علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ١٤٥

(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٧٤ .

وبالقرب من طبريه سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م دارت معركة بين اتسز والأمير السلجوقي ، انتصر فيها أتسز انتصارا بينا وقتل شكلي وولده صبرا بين يدى اتسز ، أما ابن قتلمش فقد وقع في الأسر هو وأخ صغير له وابن عم لهما (١) ، ولم يتخذ أتسز أى اجراء بشأن الأمراء السلاجقة سوى أنه بعثهم الى السلطان ملكشاه (٢) .

ويبدو أن أتسز لم يرد أن يفوت العقاب لمن سمح للأمراء السلاجقة بالعبور ، ولذلك قام بالاستيلاء على رفنية وأرسل الى نصر بن محمود حاكم حلب يطالبه بتسليم الامارة له وأن يزوجه أخته ، لكن نصرا لم يستجب لأى من مطالبه تلك واتفق معه على دفع خمسة عشر الف دينار أرسلها اليه ، ليتوجه بعدها لحصار دمشق (٣) .

أما عكا فقد عادت الى الخضوع للفاطميين دون أن يضربوا فيها بسيف ، وذلك أن والد شكلي الذى أطلقه أتسز لكبر سنه عاد الى عكا ، لكن أهلها أغلقوا أبواب المدينة في وجهه واستدعوا جوهر المدني خادم المستنصر بالله الفاطمي الذى كان مقيما في صور وسلموا اليه عكا وأعادوا فيها الخطبة للفاطميين (٤) . هذه رواية سبط ابن الجوزى ، أما رواية ابن شداد ، فتذكر أن والد شكلي كان نائبا عن ابنه في عكا وحين قتل ابنه جمع أموال وحريم بدر الجمالي وسار بهم الى مصر ، فأعاده بدر الجمالي واليا على عكا واستمر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٤-١٧٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٨ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٨ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٥ .

فيها الى سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م حيث عصى على الفاطميين فى تلك السنة ثم استردها نصير الدولة الجيوشى الفاطمى .(١)

لقد خلا جنوب الشام من المنافسين لاتسز واصبح يتحكم فى طرق الامداد التى تصل الشام بالدولة الفاطمية ،(٢) واضافة الى ذلك فقد كانت عادة اتسز منذ فتح الرملة أنه كان يقبل الى دمشق بجيشه منذ سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م وقت ادراك الغلات فيستولى عليها ، فيحرم بذلك أهل دمشق من الانتفاع بها ،(٣) ومع سياسة الحرمان التى عاناها سكان هذه المدينة كان البلاء يحيط بهم من قبل حاكمها معلى بن حيدرة بن منزو الذى أساء الى الرعية والجند بكثرة ظلمه مما جعل جند دمشق يثورون عليه ويطردونه منها فى أواخر سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م ، واجتمع المصامدة وولوا على دمشق انتصار بن يحيى المصمودى المعروف(٤) برزين الدولة الذى لم تكن مهمته سهلة فى دمشق اذ سرعان(٥) ما دب النزاع بين المصامدة وأحداث دمشق ،(٦) وانتقل خبر هذا

---

(١) الأعلاق الخطيرة ، ص ١٧٤ ، ولم أعثر على ترجمة لنصير الدولة الجيوشى فيما بين يدى من مصادر .
(٢) أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة ، ص ٧٦ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٠ .
(٤) لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٠ .
(٦) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠٨ .
والمصامدة : نسبة الى قبيلة مصمودة البربرية كانت تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر المتوسط من نواحى سبتة وطنجة غربا الى وادى نكور شرقا وتمتد بلادهم جنوبا الى قرب فاس .
انظر : (تاريخ المغرب الاسلامى الوسيط ، من كتاب نهاية الارب فى فنون الادب للنويرى ، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد ، ص ٣٠٦) .
أما الأحداث فهم طائفة نشأت فى بلاد الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهم عبارة عن جماعة من القوات المدنية ، كانوا يقومون على حفظ النظام ، ومكافحة الحرائق واغاثة المنكوبين اضافة الى انضمامهم الى القوات النظامية لمحاربة الأعداء عند الحاجة اليهم . انظر : (سعيد عبد الفتاح عاشور ، بحوث ودراسات فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧م ، ص ٣٠-٣١) .

الخلاف الى اتسز الخوارزمى الذى توجه على الفور الى دمشق وحاصرها ومنع عنها الأقوات فارتفعت أسعارها ارتفاعا كبيرا فاق قدرة أهل دمشق ، مما أجبر واليها انتصار على التنازل عن حكم المدينة وسلمها الى اتسز ، ودخلها الأخير آخر سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م ، وخطب فيها للخليفة المقتدى بأمر الله ، ومنع الأذان فيها بأذان الشيعة "حى على خير العمل".(١)

لقد تحقق لاتسز والدولة السلجوقية انجاز كبير بالاستيلاء على المناطق الجنوبية والوسطى من بلاد الشام وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لمشابهة أوضاعها الداخلية أوضاع دمشق ان لم تزد عليها وذلك أن بدرا الجمالى منذ حضوره الى مصر أخذ يعمل على تصفية المناوئين للسلطة الفاطمية وطالت أعماله هذه الكثير من القادة الأتراك قتلا وتشريدا ، اضافة الى ذلك تعددت الثورات فى صعيد مصر على الدولة الفاطمية ،(٢) هذا الى جانب الأزمة الاقتصادية التى مازالت مصر تعانى من آثارها .

ومما قوى عزم اتسز الخوارزمى وشجعه على غزو مصر أن أحد القادة الفارين من بدر الجمالى وهو ابن يلدكوش(٣) الذى اتصل باتسز وقدم له شيئا من النفائس التى تحويها قصور مصر ومنها "ستون حبة لؤلؤ مدحرج زنة كل حبة منها ينيف على مثقال وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا"(٤) وغير ذلك وحثه على

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٨ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٠ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٠ – المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٥ – ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٧٣ .

(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٢-٣١٤ .

(٣) عرفه المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٢ بأنه ناصر الجيوشى أبو الملوك شاه بن يلدكوش وأنه فر الى الشام سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م ، ولم يزد على ذلك فى التعريف به .

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٧ .

التوجه الى البلاد المصرية .

وفى سبيل ذلك جمع اتسز كثيرا من التركمان والاكراد والعرب فى مايقارب عشرين الفا توجه بهم الى مصر سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٧م (١) ، وحين وصل أتسز الى الريف المصرى مكث فيه بجنده الذين أخذوا يجمعون الأموال ويسبون الحريم ويذبحون الأطفال مايزيد على خمسين يوما (٢) . وبدلا من الاتجاه الى القاهرة ، التى كانت تخلو من القوة التى تستطيع أن تصمد أمام القوات السلجوقية بسبب غياب بدر الجمالى فى الصعيد ، ظل أتسز ينتظر فى الريف حسب نصيحة ابن يلدكوش الذى قال له "لاتشتغل بالقاهرة ولكن تملك الريف ، اذا ملكت الريف فقد ملكت مصر" (٣) ، وصنيعه هذا كان من أكبر الأخطاء التى ارتكبها وأدت الى هزيمته عندما عاد بدر الجمالى من الصعيد ، اضافة الى ذلك فانه لم يحسن السياسة فى الريف المصرى عندما سمح لجنده بنهب أموال الناس وسبى نسائهم مما أدى فى النهاية الى تجمع الرعية من كل الطوائف مع المستنصر بالله الفاطمى ضد الحملة السلجوقية (٤) .

وقد عاد بدر الجمالى من الصعيد بعد أن اتفق مع بدر ابن حازم وقبيلته طىء على أن يكونوا كمينا خلف القوات السلجوقية ، وحين أتم بدر استعداداته توجه نحو القوات السلجوقية فى رجب سنة ٤٦٩هـ/يناير ١٠٧٦م التى لم تستطع ان تصمد طويلا فى المواجهة نتيجة لما قام به بدر بن حازم من

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٢ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٢-١٨٣ .
(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٧ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٤ _ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٨٣ .

اضرام النيران فى الخيم السلجوقية مما ولد ذعرا فى صفوف (١) التركمان ووقع كثير منهم قتلى وأسرى ، وسقط أخ لاتسز قتيلا (١) فى المعركة وقطعت يد أخ آخر له ، اضافة الى ماتركه الجيش السلجوقى من غنائم وافرة للفاطميين (٣) .

اما اتسز فقد كتبت له النجاة فى هذه المعركة ، لكنه فى عودته الى الشام واجه تمردا فى المدن التى مر بها ومنها غزة والرملة حيث تمدى له أهلها وقتلوا عددا من جنده وطردوه عن مدنهم ، فآثر العودة مباشرة الى دمشق التى وصلها فى العاشر من رجب سنة ٤٦٩هـ/يناير ١٠٧٦م حيث استقبله أهلها خارج المدينة وهناوه بالسلامة ، وقد شكر لهم اتسز موقفهم هذا وأعفاهم من الخراج لسنة ٤٦٩هـ (٤) .

ويبدو أن اتسز لم يتبق معه الا عدد قليل من التركمان الذين يعتمد عليهم ولذلك قرر طلب المعونة من التركمان

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٣ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٣ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٧-٣١٨ ـ أما ابن الأثير فى الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٣ فقد ذكر أن أتسز هزم من غير سبب ، ثم ينقل رواية ص ١٠٣-١٠٤ ، أن الهزيمة كانت نتيجة قتال ، وفى ص ١٠٤ نقل عن بعض الرواة المصريين أن سبب هزيمة اتسز ترجع الى اساءته السيرة فى الناس مما دعا كثيرا من الأعيان ورؤساء القرى ومقدميهم الى التضامن مع المستنصر بالله الفاطمي للوقوف فى وجه السلاجقة والتطوع كجنود لردعهم ونتيجة لذلك لم يستطع اتسز وجيشه الوقوف أمام جحافل المصريين الذين ثاروا به ثورة رجل واحد ولم يستطع أن يصمد السلاجقة فى وجههم وعادوا منهزمين .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٣-١٨٤ ، ويذكر أن الغنائم التى استولى عليها الفاطميون هى ثلاثة آلاف حصان وعشرة آلاف صبى وجارية وأما من الأموال والثياب فما لايحصى ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٣-١٠٤ ـ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٣١٧-٣١٨ ـ المقريزى ، المقفى ، ص ٢٠٧ب ـ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١١ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٤ .

المقيمين فى آسيا الصغرى لاسترداد الرملة وغزة وبيت المقدس التى أعلنت هى الأخرى عصيانها عليه (١). وحين أتم استعداده توجه الى بيت المقدس ، وحين وصلها ، طلب من الجند السودان والمصامدة فتح المدينة له ، وأعطاهم الأمان بعدم التعرض لهم وعدم محاسبتهم على مااقترفوه بحق الحامية التركمانية فى بيت المقدس (٢) ، الا أنهم رفضوا العودة الى الطاعة وأعلنوا استعدادهم للقتال ، وازاء موقفهم هذا اشتبك معهم فى قتال استمر يوما وليلة . وقد سنحت لاتسز الفرصة حينما دله عدد من الموالين له المعتصمين فى برج يدعى برج (داود) على ثلمة فى البرج تمكن بواسطتها من الدخول الى المدينة والاستيلاء عليها بعد أن قتل ثلاثة آلاف شخص (٣) ، وفرض على السكان غرامات مالية كبيرة بدلا من قتلهم ، هذه رواية ابن الجوزى (٤) ، أما ابن الأثير فيذكر : أن اتسز قتل من أهل بيت المقدس فأكثر القتل فيهم حتى من احتمى منهم بالمسجد الأقصى ، وكف عمن كان عند الصخرة وحدها (٥) .

وبعد أن فرغ أتسز من بيت المقدس توجه الى الرملة فلم يجد بها احدا يقاومه فاتجه الى غزة فقتل كل من فيها ولم يدع بها عينا تطرف كما يذكر سبط ابن الجوزى (٦) . وهى مبالغة بلاشك من سبط ابن الجوزى ، اذ يحتمل أن كثيرا من أهلها كانوا قد غادروها قبل وصول اتسز الى مدينة غزة ولم يبق فيها الا أعدادا قليلة نالهم القتل على يد القوات السلجوقية . ووصل بعدها الى العريش التى أرسل منها سرية الى الريف المصرى دون أن تجد مقاومة وعادت اليه . وبعد

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٤ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٥ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٥ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٣ .
(٤) مرآة الزمان ، ص ١٨٥ .
(٥) الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٣ .
(٦) مرآة الزمان ، ص ١٨٥ .

ذلك توجه أتسز الى يافا فلم يثبت له واليها الفاطمى الذى هرب الى صور ، وبعد أن مكن سيطرته فى جنوب الشام بكامله عاد الى دمشق .(١)

بلاد الشام فى ظل حكم تتش بن ألب أرسلان :

وقد بينت هذه الأحداث للسلطان ملكشاه مدى الخطر الذى يمكن ان يتعرض له النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام(٢) ، ولذلك أمر أخاه تتش بن ألب أرسلان بالتوجه الى جنوب الشام قبل أن تبلغه انباء تمكن أتسز من اعادة النفوذ السلجوقى فى جنوب الشام . وعلى اى حال فان السلطان ملكشاه كان قد سبق له أن أمر اخاه بالتوجه الى الشام سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م واستطاع أتسز اقناع السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بانه أصلح شخصية تحكم هذه المنطقة ، وانه لايكلف الدولة السلجوقية أى تكاليف ، وفوق ذلك فقد أقام الخطبة لهم فى المنطقة التى سيطر عليها ، ويرسل الأموال الى السلطان ، ويقف فى وجه "من بمصر من خليفة وجند ورجال ودولة واموال"(٣) .

ولذلك عدل السلطان عن رأيه وأمر أخاه تتش بن الب ارسلان بالبقاء فى شمال الشام وعدم التعرض لاتسز ، ولكن حين هزم اتسز فى مصر وخرجت عن طاعته معظم بلاد الشام طلب السلطان ملكشاه من أخيه العودة مرة أخرى الى جنوب الشام سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م للمحافظة على النفوذ السلجوقى فيها ، وللمرة الثانية لم يتمكن تتش ابن ألب أرسن من الاستيلاء على جنوب الشام ، وذلك بسبب قضاء اتسز على حركات التمرد ضده اولا ، وثانيا لأن أتسز قد وصله خبر تكليف السلطان ملكشاه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٥ .
(٢) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ١٥٥
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٨-١٧٩ .

لأخيه تتش فبعث على الفور الى السلطان هدايا وأموالا وتعهد للسلطان بحمل ثلاثين الف دينار كل سنة الى الخزانة السلطانية ، واستطاع هذه المرة أيضا أن يقنع السلطان بضرورة بقائه فى جنوب الشام (١) .

وربما كان السلطان ملكشاه يقدر النتائج التى يمكن أن تترتب على تصميمه فى بعث أخيه تتش من احداث انقسام خطير فى صفوف السلاجقة واضعاف قوتهم فى الشام ، وقد يسمح هذا الانقسام بعودة النفوذ الفاطمى مرة أخرى الى هذه المنطقة . وعلى كل فان بدرا الجمالى قد سير جيشا الى فلسطين سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م وأسند قيادته الى نصر الدولة الجيوشى ، وقد استطاع الاستيلاء عليها (٢) دون أن يجد مقاومة تذكر ووصل القائد الفاطمى فى تقدمه شمالا الى دمشق وحاصرها ولم يستطع أتسز أن يتصدى للقوات الفاطمية ورأى أن من الأفضل أن يستعين بتتش بن الب أرسلان ويتنازل له عن حكم دمشق (٣) .

وحين وصلت استغاثة أتسز الى تتش الذى كان يحاصر حلب ترك حصاره لحلب واتجه فورا الى دمشق ، ولم يشأ نصر الدولة الجيوشى أن يضع قواته بين فكى كماشة ، قوات تتش القادمة من حلب وقوات أتسز داخل دمشق ، فانسحب من أمام أسوار دمشق واتجه الى الساحل الشامى . أما تتش بن الب أرسلان فقد وصل

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩٧-١٩٨ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٠ .
(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٢ ، الطبعة المصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وضع فهارس التراجم والموضوعات محمد الطرهونى ، المدينة المنورة ١٤٠٧هـ ص ٦٠٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١١ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٠ - الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٤٣٢ - النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٦٤ .

الى دمشق واستقبله أتسز الذى كوفىء من الأمير السلجوقى تتش بالقاء القبض عليه وقتله فى ربيع الأول سة ٤٧١هـ/سبتمبر ١٠٧٨م متذرعا فى ذلك بأن أتسز لم يبعد فى تلقيه ، واستحوذ تتش على دمشق منفردا بالسلطة فيها (١) .

وقد عمل تتش على ازالة الآثار السيئة التى خلفها أتسز فى جنوب الشام "فأظهر العدل فعمرت وزرعت البلاد وأمنت السبل ، ودرت القوافل" (٢) .

وقد عمل تتش على السيطرة على كل المناطق التى كان يحكمها اتسز الخوارزمى وأهمها بيت المقدس التى كان فيها جمع من الموالين لقائدهم السابق أتسز اذ بعث اليهم حملة فشلت فى الاستيلاء عليها وظلت بيت المقدس ممتنعة عن الاعتراف بسلطة تتش حتى سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م (٣) حينما تمكن أرتق بك من اقناع زعيم التركمان فى بيت المقدس المدعو ترمش بالتنازل عن بيت المقدس ، وعوض بدلا منها بقلعة صرخد (٤) .

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص ٦٠٢ الا أنه يجعل مقتل اتسز فى ١١ ربيع الثانى سنة ٤٧١هـ/٢٢ أكتوبر ١٠٧٨م ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١١ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٠ ـ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٦٤ ـ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٢٣٢ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠١ .

(٣) أرتق بن أكسب : من القادة التركمان الذين اعتمد عليهم السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه فى كثير من المهمات منها على سبيل المثال ماصنعه فى آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرد ، ومنها مشاركته لابن جهير فى حصار مسلم بن قريش كما سيأتى معنا فى الفصل الخامس ، ويبدو أنه قرر البقاء فى الشام منذ أن دخلها الأمير تتش بن ألب أرسلان وتولى له امارة بيت المقدس ، ويعتبر أرتق بن أكسب مؤسس الامارة الارتقية ، انظر ترجمته فى (وفيات الأعيان لابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ١٩١) .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠١، ٢١٣ .
وقلعة صرخد : من أعمال دمشق وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٤٠١) .

وعلى اى حال فان تتش بن الب أرسلان حينما سيطر على دمشق عول على الاستيلاء على حلب ليصبح الشام بأكمله تحت سلطته ، وفى سبيل هذه الغاية قام بحملة على بلاد الروم سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م وكان يقصد أنطاكية وماجاورها لفتحها حتى تصبح حلب وتوابعها محاطة بمناطق نفوذه ، ويسهل بعد ذلك الاستيلاء عليها (١) . وقد تنبه مسلم بن قريش لمقصد تتش ، ولذلك قام هو الآخر بمهاجمة دمشق أثناء غياب تتش مستعينا بعدد كبير من القبائل العربية ، ومعتمدا على مساعدة الفاطميين (٢) ، لكنه منى بالفشل على أبواب دمشق بسبب عودة تتش اليها قبل مسلم فى محرم سنة ٤٧٦هـ/مايو ١٠٨٣م وعدم وصول أى مدد له من الفاطميين (٣) ، اضافة الى ماسبق فقد تمردت حران على مسلم بن قريش مما اضطره الى العودة سريعا اليها وقمعها فى جمادى الأولى سنة ٤٧٦هـ/سبتمبر ١٠٨٣م (٤) .

وربما كانت هذه الحملة التى قام بها مسلم بن قريش على دمشق أقنعت تتش بن الب أرسلان بعدم التعرض لحلب أو محاولة الاستيلاء عليها بسبب أمر سابق من السلطان ملكشاه الى اخيه تتش سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م بألا يتعرض لحلب (٥) ، وصرفه هذا الأمر الى بسط سيطرته على المناطق المتبقية

---

(١) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ١٦٩
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٦-١٢٧ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٠-٢٢١ – ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٤-١١٥ .
(٣) حران : قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهى على طريق الموصل والشام والروم (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٣٥) .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢١،١٢٩-١٣٠ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٦-١٢٧ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١٥-٢١٦ .

للفاطميين في الشام حيث استولى على قلعة بعلبك في صفر سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م (١)، كما استولى على طرطوس في محرم سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م وسلمها الى جلال الملك ابن عمار حاكم طرابلس (٢) في مقابل بعض من المال تسلمه منه، كما سبق له الاستيلاء على بيروت سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م (٣).

وفي محاولة من قبل الفاطميين في منع تتش بن ألب أرسلان الاستيلاء على السواحل الشامية قام بدر الجمالي بحملة على دمشق سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وحاصرها الا أن حملة بدر الجمالي منيت بالفشل وعاد أدراجه الى مصر (٤).

وفي تطور آخر فقد اختل ميزان القوى في بلاد الشام اثر مقتل الأمير العقيلي مسلم بن قريش على يد قوات سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م (٥) الذي أصبح يهدد امارة حلب لضمها الى أملاكه في أنطاكية وآسيا الصغرى، وكان لابد لتتش بن ألب أرسلان أن يقف في وجه ابن عمه سليمان بن قتلمش سيما وأن تتش تلقى رسالة من ابن الحتيتي (٦) العباسي يدعوه فيها الى الحضور الى حلب ليستولي عليها بدلا من سليمان بن قتلمش الذي كان يضغط على القوات المحامية عن حلب (٧)، وازاء هذا

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٢٢٠ ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١١٦.

(٢) جلال الملك علي بن عمار بن محمد بن عمار: خلف عمه أبا طالب بن عمار سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م في امارة طرابلس، ونازعه أعمامه على الامارة وتمكن من التغلب عليهم، يوصف بالدهاء والحنكة، توفي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، انظر (ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، ص ١٠٨ ـ علي الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ص ٢٧٣-٢٧٧).

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٢٢٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ١٤٥ ـ علي الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ص ١٧١.

(٥) انظر ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٦) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ١٤٧ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ٧، وذكر ابن الأثير في الباهر أن أهل حلب حينما رفضوا تسليم مدينتهم لسليمان بن قتلمش قالوا له: (اذا انفصل الأمر بينك وبين تاج الدولة تتش سلمنا البلد اليك).

الطلب توجه تتش اليها وقبل وصول تتش علم به سليمان بن قتلمش فتوجه اليه ليفاجئه قبل أن تأخذ قوات تتش راحتها ، واشتبك معها سليمان بن قتلمش بقواته وقت السحر ، ومع عامل المفاجأة التى كان يريدها ابن قتلمش الا أن كفة تتش بن الب ارسلان كانت هى الراجحة فى المعركة التى كسبها نتيجة استبسال قواته فى القتال وحسن تنظيم قائده أرتق بن أكسب للجند ، واسفرت المعركة بين الطرفين عن مقتل سليمان بن قتلمش (١) .

وكان من المفترض أن تخلو الساحة لتتش فى بلاد الشام بأكملها لولا أن السلطان ملكشاه قرر التوجه بنفسه الى بلاد الشام وتنظيم أمورها بنفسه ، وذلك أن تتش بعد انتصاره كان يتوقع أن ينفذ ابن الحتيتى وعده بتسليم حلب اليه الا أن ابن الحتيتى رفض تسليم حلب ، وأنه ينتظر أمر السلطان ملكشاه ومهما أمره بشىء فانه سيفعله (٢) . ورضخت حلب للحصار الذى فرضه عليها تتش واستطاع الأمير السلجوقى أن يستولى على المدينة (٣) ، أما قلعتها فكانت بيد سالم بن مالك بن بدران العقيلى (٤) الذى صمد فى وجه تتش الى حين وصول السلطان الى حلب الذى كان قد غادر أصبهان فى جمادى الآخرة سنة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٧ ، الباهر ، ص ٧ ، ويذكر ابن الأثير فى رواية أخرى فى نفس الصفحة أن سليمان بن قتلمش قتل نفسه بسكين حينما هزمت قواته .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٨ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٩ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٨ ، الباهر ، ص ٧ .

(٤) سالم بن مالك بن بدران بن مقلد بن المسيب العقيلى ، من الأمراء العقيليين ، استولى على قلعة حلب بعد مقتل مسلم بن قريش ، وتسلمها منه السلطان ملكشاة وعوضه عنها قلعة جعبر وتوفى فيها سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م . انظر (ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٢٠-٢٠٣ – الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٣ ، ص ٧٢) .

٤٧٩هـ/سبتمبر ١٠٨٦م ووصل الى حلب فى رجب من نفس السنة (١) وعرج فى طريقه الى الشام على الرها (٢) واستولى عليها ثم استولى على قلعة جعبر التى كان حاكمها وأبناؤه يقطعون الطرق ويخيفون السبيل (٣)، ثم عبر الفرات واستولى على منبج وواصل طريقه نحو حلب التى كان قد غادرها أخوه تتش بن الب أرسلان الى دمشق ولم يشأ أن يواجه أخاه رغم النصيحة التى قدمها له أرتق بك بكبس جيش السلطان ملكشاه ومفاجاته ، لكن تتش رد عليه بقوله : "... لاأكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فانه يعود بالوهن على أولا" (٤).

وقد تسلم السلطان ملكشاه مدينة حلب بعد وصوله اليها وتسلم أيضا قلعتها من سالم بن مالك العقيلى وعوضه عنها بقلعة جعبر (٥) (٦). وبعد أن اطمأن السلطان توجه الى انطاكية فى غرة رمضان سنة ٤٧٩هـ/ديسمبر ١٠٨٥م . ويذكر سبط ابن الجوزى ان نائب سليمان بن قتلمش المسئول عن أبناء سليمان بعد مقتله أخذ الأمان من السلطان ملكشاه لأبناء سليمان وأهل البلد قبل ان يدخل السلطان انطاكية (٧). وفى هذه المدينة تلقى السلطان رسالة من حاكم شيزر الأمير نصر بن على بن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٨ .
(٢) الرها : هى مدينة أورفا الحالية فى جمهورية تركيا ، وهى من مدن الجزيرة الفراتية ، انظر (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٣٤-١٣٥) .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٩ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٩ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٩ .
(٦) جعبر : قلعة على نهر الفرات بين بالس والرقة قرب صفين (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١٤١-١٤٢) .
(٧) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٠ .

منقذ(١) يعلن خضوعه وطاعته وسلم للسلطان اللاذقية وكفر طاب(٢) وافاميه(٣) ، فاقره السلطان على حكم شيزر(٤) . وبعد أن اطمأن السلطان على الأوضاع قرر العودة الى العراق أواخر سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م بعد أن وزع مناطق النفوذ في الشام ، فقد أقطع حلب لمملوكه قسيم الدولة آقسنقر(٥) ، والرها لقائده بوزان(٦) ، اما أخوه الأمير تتش فقد أقره السلطان على حكم جنوب الشام الذى كان خاضعا له من قبل(٧) ، وأصبح على تتش مواجهة

---

(١) نصر بن على بن منقذ : أبو المرهف عز الدولة ، خلف والده على حكم شيزر سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ، واستطاع أن يسترد بعض المناطق التى سلخت من امارته مثل كفر طاب وأفامية واتبع سياسة متوازنة مع القادة السلاجقة حكام حلب ودمشق وغيرهم ، توفى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م . انظر : سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ٣١٨ .

(٢) كفر طاب : بلدة بين المعرة وحلب . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٧٠) .

(٣) افامية : كورة من كور حمص ، وهى مدينة حصينة ، ويسميها البعض فاميه بدون همز . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٢٢٧) .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٠ .

(٥) قسيم الدولة آق سنقر بن عبد الله ، من اتراب السلطان ملكشاه وتربى معه فى صغره ، وحين ولى ملكشاه السلطنة جعله من أعيان أصحابه ووثق به وثوقا كبيرا ، ولقبه بقسيم الدولة لمكانته عنده ، وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م صالح آق سنقر الأمير تتش بن الب أرسلان عندما طلب الملك لنفسه ، ثم غير رأيه بعد ثبوت السلطنة لبركيارق بن ملكشاه وانضم اليه فى ذلك بوزان مما أجبر الأمير تتش على مواجهتهما بالقرب من حلب سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وانتصر فيها تتش وأسر كل من بوزان وآق سنقر فقتلهما صبرا بين يديه . انظر : ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢٠٤، ١٥ ـ ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٩٧-١١٠ .

(٦) أحد قادة السلطان ملكشاه الكبار ، قتل سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م مع آق سنقر صبرا بين يدى تتش بن الب أرسلان . انظر : سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ص ١٣٠ ، حاشية رقم ٧ .

(٧) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

الفاطميين الذين بدأت حملاتهم تشتد على سواحل بلاد الشام منذ سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م أى بعد مغادرة السلطان ملكشاه شمالى الشام . ففى هذه السنة (٤٨٠هـ) بعث تتش الى أخيه السلطان يطلب منه أن يأمر بوزان حاكم الرها وآقسنقر حاكم حلب بمساعدته فى التصدى للحملات الفاطمية التى وصلت الى الساحل وأخذت تضايقه فى دمشق (١). ويبدو أن القوات الفاطمية لم ترسخ أقدامها فى الساحل الشامى فى تلك السنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، ولذلك عادت لتهاجم هذه المنطقة سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م حيث استولوا أولا على مدينة صور من أبناء عين الدولة بن ابى عقيل ، ثم اتجهوا الى صيدا التى استولوا عليها كذلك ، وبعدها سارت القوات الفاطمية نحو عكا واستولت عليها ثم استولوا بعد عكا على مدينة جبيل (٢) ، وعين بدر الجمالى على هذه المدن عددا من الولاة (٣). ويذكر ابن شداد أن القوات الفاطمية (٤) استولت على مدينة الرملة سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م . ويدل هذا التحرك أن الفاطميين ركزوا على السواحل القريبة من دمشق كما أن استيلاءهم على الرملة جعل لهم مرتكزا فى جنوب فلسطين للانطلاق برا نحو القدس وغيرها من مدن جنوب الشام ، ولذا كان لابد لتتش أن يتحرك لوقف التقدم الفاطمى ، ومن أجل ذلك أرسل الى بوزان حاكم الرها ، وقسيم الدولة آقسنقر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٤ ـ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٢٥ .

(٢) جبيل : شرق بيروت على ثمانية فراسخ منها . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١٠٩) .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، تحقيق مسفر بن سالم الغامدى ، ج١ ، ص ١٤٢-١٤٣ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٦ ـ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٠ ـ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٢٨ .

(٤) الأعلاق الخطيرة ، ص ١٨٣ .

يطلب منهما مساعدته فسارا اليه سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م مع عدد من عساكرهما واتجه الجميع الى حمص لكون حاكمها خلف بن ملاعب (١) قد خطب للفاطميين وأجبره القادة السلاجقة على تسليم المدينة اليهم ، ورحل هو الى السلطان ملكشاه فى قفص ليسجن فى اصبهان (٢) .

ويبدو أن القوات الفاطمية التى استولت على تلك السواحل التى ذكرناها سابقا قد تمكنت من تثبيت سيطرتها ، ولم يتمكن تاج الدولة وتتش وبوزان وقسيم الدولة آقسنقر من زحزحتهم عنها ، بدليل أن السلطان ملكشاه حينما وصل الى بغداد فى رمضان سنة ٤٨٤هـ/اكتوبر ١٠٩١م توافد اليه أمراء الشام ، بوزان حاكم الرها ، وقسيم الدولة آقسنقر حاكم حلب وأخوه تاج الدولة تتش للسلام عليه وعند انصرافهم أمر السلطان ملكشاه بوزان وقسيم الدولة آقسنقر أن يسيرا بصحبة أخيه تتش لاسترداد الساحل الشامى (٣) ، ولذلك توجه المذكورون الى الساحل الشامى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م حيث استولوا على قلعة

---

(١) خلف بن ملاعب الاشهبى : سيف الدولة ، استولى على حمص سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ، وكان متقلب الولاء بين الدولة العباسية والفاطميين من أجل الحفاظ على امارته ، اذ أنه أعلن ولاءه للفاطميين سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م فشن عليه القادة السلاجقة تتش وبوزان وآق سنقر حملة بأمر السلطان ملكشاه وأسروه وبعثوا به فى قفص الى ملكشاه فى أصفهان وظل مسجونا حتى وفاة السلطان ملكشاه ثم أطلق سراحه واتجه الى مصر وظل بها الى سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م ليعود واليا على أفاميه من قبل الأفضل بن بدر الجمالى ، وظل فى افاميه حتى اغتيل فيها سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م ، انظر : (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٣٥ ـ على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٨٢-٢٨٣) .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٣٥ ـ على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٨٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٢ ـ النويرى ، نهاية الارب ، ج٢٧ ، ص ٦٥ .

عرقه (١) ، وبعدها توجهوا الى قلعة أفاميه وملكوها ، ثم حطت بهم الرحال في طرابلس وحاصروها ورأى حاكم طرابلس جلال الملك بن عمار أنه أمام جيش لايستطيع صرفه الا بمكيدة ، ولذلك أبرز في مواجهة الموقف الصعب الذى كان فيه سلاح المال والاغراء حيث أرسل الى قسيم الدولة آقسنقر ثلاثين الف دينار وتحفا تساوى مثل ذلك المبلغ ، ومع هذه الأموال منشورا من السلطان ملكشاه بأحقية ابن عمار بحكم طرابلس والتحذير من محاربته ، وقد اتخذ آقسنقر من هذا المنشور ذريعة للانسحاب من جيش تتش فاضطر الى الانسحاب هو الآخر من أمام طرابلس (٢) ليشغل بعدها تاج الدولة تتش في طلب السلطنة التي أخذت حيزا كبيرا من النزاع بعد وفاة السلطان ملكشاه في شوال سنة ٤٨٥هـ/نوفمبر ١٠٩٢م وتنازع أبناؤه محمود بن ملكشاه وأخوه بركيارق على الحكم ، مما أطمع تاج الدولة تتش في حيازة المنصب بسبب هذا النزاع لتدخل الدولة السلجوقية مرحلة جديدة وخطيرة كان لها أثرها على الدولة كلها وتكريس الانقسام والفرقة في أجزائها .

---

(١) عرقه : عرفها ياقوت بأنها ناحيةمن نواحي الروم ، ولم يزد على ذلك . انظر (معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١١٠) أما (الحميرى في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ٤٩) فذكرها باسم عرقه بكسر العين وعرفها بأنها من ثغور مرعش من بلاد الروم .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ج١ ، ص ١٧٢-١٧٣ — ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ١٣٢-١٣٣ ، ويجعلون حوادثها سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ — النويرى ، نهاية الارب ، ج٢٧ ، ص ٦٥ .

(د) اخضاع بلاد ماوراء النهر

بعد معركة دنداقان سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م ساد الهدوء بين حكام السلاجقة الحاكمين الجدد لخراسان والايلك خانيين حكام ماوراء النهر ، وكان التعاون المثمر بين الأسرتين هو الذى أتاح للسلاجقة التغلب على الغزنويين والقضاء على نفوذهم نهائيا فى أغلب خراسان .

ويبدو أن الهدوء بين الايلك خانيين والسلاجقة مرده الى انشغال السلاجقة فى تثبيت دعائم دولتهم ، فلم تشهد الدولتان اى نزاع بينهما طيلة عقدين من الزمن بالرغم من سيطرة الملك جغرى بك داود على بلخ وترمذ التى كانت محل نزاع بين الغزنويين والايلك خانيين وخاصة فى عهد على تكين الحاكم السابق لبخارى ، وذلك لأهمية هاتين المدينتين فى التحكم فى طرق التجارة والعبور من والى بلاد ماوراء النهر.(١)

ولكن مالبثت أن استقرت الأمور فى بلاد ماوراء النهر بتوحيد السيطرة الايلك خانية عليها تحت زعامة طغماج خان ابراهيم(٢) الذى ضربت السكة باسمه منذ سنة ٤٣٨هـ /

(١) انظر قبل ص ٤٦ .
(٢) هو عماد الدولة طمغاج خان ابراهيم بن نصر ، لاتعرف ولادته أو وفاته على وجه التحديد ، ويذكر ستانلى لين بول فى طبقات سلاطين الاسلام ، ص ١٣٠ أنه حكم من سنة ٤٤٠هـ الى ٤٦٠هـ ، بينما يذكر أحمد السعيد سليمان فى تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ج١ ، ص ٢٨١ ، أنه حكم من سنة ٤٤٠هـ الى ٤٤٦هـ ، أما بارتولد فى كتابه تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ص ٤٦٢ ، فانه جعل وفاته سنة ٤٦١هـ ، ويبدو أن رأى بارتولد هو الراجح ، لأن ابن الأثير فى الكامل ج١٠ ذكره فى حوادث سنة ٤٥٣هـ ، كذلك فان سبط ابن الجوزى يذكره فى مرآة الزمان فى حوادث سنة ٤٥٧هـ فيذكر المصاهرة التى تمت بين طمغاج خان وملكشاه كما سياتى معنا فى البحث .

١٠٤٦م في بخارى وسمرقند (١) . ويبدو أن طمغاج خان رأى من الضروري ازاحة النفوذ السلجوقي من المناطق التي يسيطرون عليها في بلاد ماوراء النهر وهي ترمذ وخوارزم ، ولذلك قام بهجوم على ترمذ ربما في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، وفي نفس الوقت كانت هناك حملة على خوارزم بقيادة من سماه الحسيني باسم خشكا ، الا أن الملك جغرى بك داود تصدى للحملة التي اتجهت الى خوارزم بينما قام ابنه ألب أرسلان بمهاجمة خاقان الترك وأجبره على التراجع (٢) . ويذكر الحسيني في أخبار الأمراء ، أن الملك التركي طمغاج خان جنح الى السلم بعد ذلك ، وطلب مقابلة الملك جغرى بك داود الذي لبى طلب طمغاج خان وعبر اليه النهر وقابله وأقرا الصلح فيما بينهما ثم عاد كل الى بلاده (٣) .

لكن هذا الصلح لم يدم طويلا ، اذ نرى ألب أرسلان الذي خلف اباه في حكم خراسان سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م يقوم بحملة على بلاد ماوراء النهر دون أن يذكر ابن الأثير سبب قيام ألب أرسلان بحملته تلك ، وفي المقابل فان طمغاج خان لم يرد على حملة ألب أرسلان ، وانما لجأ الى الخليفة القائم بأمر الله يهنئه أولا بعودته الى بغداد ويطلب منه ثانيا كف الأمير السلجوقي ألب أرسلان عن بلاده ، وقد استجاب الخليفة القائم بأمر الله لطلب طمغاج خان ، وأرسل اليه أيضا الخلع والألقاب سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (٤) .

---

(١) بارتولد ، تركستان ، ص ٤٥٠ .
(٢) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٧٣-٧٤ .
(٣) الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٧٤ .
(٤) الكامل ، ج٩ ، ص ٣٠٠ .

حملات السلطان ألب أرسلان على بلاد ماوراء النهر
ومقتله فيها سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م :

وبعدما توفى السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م وظهرت مشكلة خلافته بين ألب أرسلان وأخيه سليمان بن داود ، استغل أمراء ختلان(١) وصغانيان حالة الفوضى التى دبت فى الدولة السلجوقية وأعلنا عصيانهما على الدولة ، لكن السلطان الجديد ألب أرسلان بعد أن تخلص من منافسة أخيه عاد مسرعا الى تلك المناطق سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م وتمكن من اخضاعهما من جديد رغم صعوبة المسالك ومناعة الحصون بفضل بسالة السلطان الذى كان متحمسا لخوض القتال بنفسه مما رفع الروح المعنوية لجنده ، فاستبسلوا فى الهجوم على الحصون المنيعة واقتحامها والسيطرة عليها(٢) .

وفى السنة التالية (٤٥٧هـ/١٠٦٥م) نرى السلطان ألب أرسلان يتوجه الى المناطق الشمالية الغربية من بخارى نحو جند وصبران المستقر الأول لجده سلجوق وقومه وبداية اعتناقهم للاسلام من خلال هذه المنطقة ، ويبدو أن غزوة ألب أرسلان هذه تمت عن طريق خوارزم ، ولم يجد السلطان مقاومة تذكر ، بل ان حاكم جند أظهر ولاءه للسلاجقة وقدم الهدايا الجليلة للسلطان ألب أرسلان ، ولذلك أبقاه السلطان على ولايته وعاد أدراجه الى خوارزم ومنها الى مرو(٣) .

---

(١) ختلان : بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٣٤٦) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٤ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٩ – الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٩٦ – الذهبى ، العبر ، ج٣ ، ص ٢٤٣ . وقد أوردت هذه المصادر اسم صبران باسم صيران .

ويذكر سبط ابن الجوزى أنه فى نفس السنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م زوج السلطان ألب أرسلان ابنه ملكشاه من ابنة طمغاج خان ابراهيم ، بينما تزوج السلطان ألب أرسلان ابنة قدر خان التى كانت زوجة لمحمود بن مسعود الغزنوى . (١)

ويضيف ابن الاثير أن السلطان ألب أرسلان زوج ابنه الآخر أرسلان شاه من ابنة الحاكم الغزنوى ابراهيم بن مسعود بن محمود ، (٢) ومما لاشك فيه أن هذه المصاهرة التى تمت بين الأسر الثلاثة تهدف الى تأمين الحدود وتوثيق العلاقات السياسية فيما بينهم .

وقد أتاحت هذه السياسة للسلطان ألب أرسلان أن يتوغل فى حملاته فى أراضى التركمان بالقرب من القفجاق (٣) الذين كانوا يختلطون بالكفار وينهبون التجار ، وحينما سمع هؤلاء بتوجه السلطان ألب أرسلان نحو أراضيهم تركوا أموالهم ونساءهم ومواشيهم وركبوا سفنهم واتجهوا الى احدى الجزر فى البحر - لعلة بالقرب من بحيرة خوارزم - بينما وقعت أموالهم غنيمة للسلاجقة ، (٤) ويبدو أن توجه السلطان ألب أرسلان كان بناء على شكوى من التجار الذين تضرروا من نشاط هؤلاء التركمان ، وفى نفس الوقت فان السلطان ألب أرسلان كان يهدف الى حماية الطرق التجارية التى كان يجوبها التجار من الصين عبر أواسط آسيا الى البلاد الاسلامية وبالعكس ، وحين انتهت مهمة السلطان عاد الى خوارزم ومنها الى خراسان . (٥)

---

(١) مرآة الزمان ، ص ١٢٣-١٢٤ .
(٢) الكامل ، ج١٠ ، ص ٤١ .
(٣) القفجاق : هكذا وردت فى النص عند سبط ابن الجوزى ، وعرفها لسترنج فى بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥٢٩ ، بقبجاق وذكر قصبتها سفناق التى تبعد ٢٤ فرسخا شمال اترار وأن جند كانت شمال أترار .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٣١ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٣١ .

وفي الوقت الذى كان فيه السلطان ألب أرسلان مشغولا بالفتن فى كرمان وفارس نجد ابنه وولى عهده ملكشاه يقوم بحملة على ماوراء النهر سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م فيما يبدو ، وقد تصدى له صهره شمس الملك نصر بن طمغاج خان ابراهيم (ت ٤٧٢هـ/١٠٧٩م) وهزم ملكشاه وغنم مامعه من أموال ومن ضمنها طشت من الذهب المرصع . وبعد عودة شمس الملك ظافرا الى بخارى اتهم زوجته أخت السلطان ألب أرسلان بأنها هى التى أطمعت ابن أخيها بالعبور الى بلاده ، ثم رفسها فماتت بسبب ذلك .(١)

وأدت هذه الحوادث الى أن يعود السلطان ألب أرسلان مرة أخرى على رأس حملة للانتقام لهزيمة ولده ومقتل أخته . ويبدو انه قبل أن يعبر السلطان نهر جيحون وصلت اليه رسالة من شمس الملك فيها أيمان مؤكدة أنه برىء من دم أخته وتدليلا على صدق نواياه تجاه السلطان زوجه بأخته ، وقبل السلطان هذا الاعتذار كما قبل الزواج من أخت شمس الملك وعاد الى خراسان .(٢) ويذكر سبط ابن الجوزى أن السلطان ألب أرسلان لم يدخل بأخت شمس الملك الا بعد عودته من معركة ملاذكرد ،(٣) وأنه حين اجتمع بها وجد من ضمن ماحمل معها الطشت الذى سبق أن استولى عليه شمس الملك من ابنه ملكشاه فاعتبرها اهانة له ولابنه ولذلك عبأ جيشا ضخما ، قدرته المصادر بمائتى ألف مقاتل عبر بهم نهر جيحون فى صفر سنة ٤٦٥هـ/اكتوبر ١٠٧٢م ،(٤) وبعد العبور عاث جيشه فسادا فى سواد

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٤-١٦٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٥ .
(٣) مرآة الزمان ، ص ١٦٥ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٦ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٥ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٣ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١١٧-١١٨ ـ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٨٨-١٨٩ .

بخاری ، كما لقی السلطان مقاومة شديدة من قبل حماة قلعة تدعی بيرون وعلی رأس هؤلاء قائد يدعی يوسف الخوارزمی (١)، ورغم المقاومة الشديدة من قبل حماة هذه القلعة ، الا أن رجال السلطان الب أرسلان تمكنوا من اقتحام القلعة واقتياد يوسف الخوارزمی أسيرا الی السلطان الذی أمر أن تنصب له أربعة أوتاد ليصلب عليها ، وهی طريقة متعارف عليها عند الترك ربما كانت تعتبر معيبة فی حق الجند ، ولذلك كان رد يوسف علی السلطان بذيئا ، اذ قال له : "مخنث ! أمثلی تقتل هذه القتلة ؟" (٢) ، وعندها غضب السلطان وأمر الجنديين اللذين كانا يمسكان بيوسف اطلاقه بعد أن استعد له بسهم ليرميه به ولكن السلطان الذی عهد عنه دقة التصويب بالقوس ، أخطأ هذه المرة لروغان يوسف الخوارزمی الذی اتجه بسرعة نحو السلطان الذی كان قد تعثر بعد نزوله عن السدة لمواجهة الموقف مع يوسف ، واذا بالأخير ينقض علی السلطان بطعنة فی خاصرته وبعدها نال من سعد الدولة الكوهرائين (٣) ، وانتهز السلطان انشغال يوسف بالآخرين الذين كانوا معه فی الخيمة وانتقل الی خيمة أخری (٤) . أما يوسف فان أحد الفراشين الأرمن انقض

---

(١) ابن الجوزی ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٦ – سبط ابن الجوزی مرآة الزمان ، ص ١٦٥ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٣ – الحسينی ، أخبار الأمراء ، ص ١١٧-١١٨ – أبو الفدا ، المختصر فی أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٨٨-١٨٩ .

(٢) ابن الجوزی ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٦ – سبط ابن الجوزی مرآة الزمان ، ص ١٦٥ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٣ – الحسينی ، أخبار الأمراء ، ص ١١٧-١١٨ – أبو الفدا ، المختصر فی أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٨٨-١٨٩ .

(٣) سعد الدولة الكوهرائين : كان من الخدم الأتراك الذين ملكهم الملك أبو كاليجار بن سلطان الدولة البويهی والتحق بخدمة السلطان طغرلبك بعد زوال الدولة البويهية واكتسب مكانة كبيرة فی عهد كل من السلطان الب أرسلان وملكشاه ، انتهی مقتولا فی الحرب التی دارت بين محمد وبركيارق سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م فی تنافسهم علی السلطنة .

(٤) ابن الجوزی ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٦ – سبط ابن الجوزی مرآة الزمان ، ص ١٦٥ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٣ – الحسينی ، أخبار الأمراء ، ص ١١٧-١١٨ – أبو الفدا ، المختصر فی أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٨٨-١٨٩ .

عليه بمرزبة على رأسه فقتله وقام بعض الجند بتقطيعه (١) . وفى الخيمة التى لجأ اليها السلطان ألب أرسلان كان يعانى من الطعنة التى اقتربت به من الموت وهنا أخذته العبرة من هذه الحادثة بقوله : "مامن وجه قصدته وعدو أردته الا استعنت بالله عليه ، ولما كان أمس صعدت على تل ، فلما ارتجت الأرض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت فى نفسى : أنا ملك الدنيا ومايقدر أحد على ، فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه ، وأنا أستغفر الله تعالى واستقيله من ذلك الخاطر" (٢) .

حملات السلطان ملكشاه على بلاد ماوراء النهر :

ولم يلبث أن هلك السلطان ألب أرسلان يوم السبت العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ/٢٥ نوفمبر ١٠٧٢م بعد تسنم ابنه ملكشاه السلطة (٣) ، وكان يتعين على ملكشاه العودة الى خراسان بالجيش الذى معه لتثبيت دعائم الدولة قبل أن ينتشر خبر وفاة والده فى أنحاء الدولة . وبعد العودة الى خراسان تمت البيعة العلنية من قبل الجند للسلطان ملكشاه . وبالطبع فان فترة ظهور المنافسين لملكشاه شجعت شمس الملك نصر بن طمغاج على الاستيلاء على ترمذ وتم له ذلك فى ربيع الثانى سنة ٤٦٥هـ/ديسمبر ١٠٧٢م وأسرف هو وجنده فى نهبها ،

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٤ - وانظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٦ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١١٨-١١٩ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٤ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١١٩ ، الا أنه جعل وفاته يوم السبت سلخ شهر ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٧٠ .

كما أنه نقل ذخائرها الى سمرقند (١) . وقد خشى أهل بلخ أن تمتد أطماع الحاكم الايلك خانى اليهم وينالهم مانال أهل ترمذ من نهب ، خاصة بعد مغادرة اياز بن ألب أرسلان لبلخ الى جوزجان لمواجهة حملة غزنوية اتجهت اليها (٢) ، ولذلك أرسل أهل بلخ الى شمس الملك يطلبون منه الأمان وخطبوا له فى مدينتهم (٣) . وقد حقق اياز بن ألب أرسلان النصر على القوات الغزنوية ، ومن ثم عاد الى بلخ التى يبدو أنها أخليت من القوات الغازية (٤) . وقد ذكر سبط ابن الجوزى أن اياز توفى بعد وصوله الى بلخ بثلاثة أيام وجعل وفاته فى حوادث سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م (٥) ، كما يذكر ابن الأثير أنه جهز حملة عسكرية تقدر بعشرة آلاف مقاتل توجه بهم لاسترداد ترمذ وذلك فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٦٥هـ/٦ مارس ١٠٧٣م (٦) . ويبدو أن شمس الملك لم يعط الفرصة لاياز وجيشه لاكمال عبور نهر جيحون وواجههم مباشرة مما أوقع بالسلاجقة هزيمة ساحقة وبدد جيشهم الذى غرق أكثره فى النهر ، ولم ينج منهم الا القليل .

جرت تلك الأحداث فى الوقت الذى كان فيه السلطان ملكشاه مشغولا بخروج عمه قاورت بك عليه ، وحين انتهت الحرب بينه وبين عمه فى شعبان سنة ٤٦٥هـ/ابريل ١٠٧٢م بانتصار السلطان ملكشاه ، كان من المهام الأساسية له هو العودة الى بلاد ماوراء النهر لتأديب شمس الملك وطرده من ترمذ التى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٧ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١٠٦ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٧ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٧ .
(٥) مرآة الزمان ، ص ١٦٧ .
(٦) الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٧ .

استولى عليها . وقد تمكن السلطان ملكشاه من استعادة هذه المدينة بعد وقت قليل من حصارها واجبار حاميتها على الاستسلام ومن بينهم أخو شمس الملك المدعو بغاتكين بن طمغاج الذى قابله السلطان ملكشاه أحسن مقابلة (١) . وبعد أن اطمأن على الوضع فى ترمذ وأسند مهمة حماية قلعتها الى قائد يدعى سوتكين (٢) ، توجه الى سمرقند عاصمة شمس الملك للاستيلاء عليها .

ويبدو أن شمس الملك أحس بالخطر المقبل ، ولذلك سعى فى طلب الصلح والاعتذار عما بدر منه من الاستيلاء على ترمذ ومواجهة الدولة السلجوقية ، وقد تشفع بالوزير نظام الملك حتى يقنع السلطان باجابة طلبه قبل أن يصل السلطان الى سمرقند (٣) ، وقد تضافرت جهود الوزير نظام الملك مع عميد الدولة بن جهير - الذى قدم خلع وعهد الخليفة القائم بأمر الله الى السلطان ملكشاه - فى اقناع السلطان السلجوقى بقبول اعتذار شمس الملك ومصالحته ، ومن ثم عاد مرة أخرى الى خراسان (٤) ، وأسند مهام الحكم فى بلخ والولايات الشرقية الى أخيه تكش بن ألب أرسلان (٥) .

وقد أدرك الحكام الايلك خانيون الأخطار التى يمكن أن تواجههم لو عادوا مرة أخرى الى ترمذ ، ولذلك انصرف شمس

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٢ - الذهبى ، تاريخ الاسلام ، مخطوط ميكروفيلم بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى رقم ٣٠١ تاريخ ، ورقة ١٩أ - وانظر أيضا الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١٢٨ ، وجعل حوادثها سنة ٤٦٧هـ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٢ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١٢٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٢ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٣ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٢ .

(٥) الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١٢٨ .

الملك الى تصريف شؤونه الداخلية حتى توفى سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م .

وبعد وفاته خلفه فى الحكم أخوه الأمير الخضر حسن ايتكن بن طمغاج خان بناء على وصية من أخيه شمس الملك (١) ، (٢) ولعل وفاة شمس الملك أغرت الأمير تكش بن الب أرسلان فى أن يجرب حظه فى الاستيلاء على بخارى وسمرقند ، غير أنه منى بهزيمة على يد الحاكم الايلك خانى الجديد الخضر حسن ايتكين (٣) ولم نعد نسمع بأى هجمات مماثلة طيلة حياة الخضر .

ويذكر بارتولد أن مملكة الايلكخانيين قد بلغت فى عهد الخضر حسن أقصى درجات الرخاء وامتد سلطانه على جميع ماوراء النهر ، وأنه أمن جانب السلاجقة بمعاهدات دائمة ، لكن خلفه أحمد بن الخضر لم يكن بمثل سياسة والده ، اذ أنه انتهج سياسة الظلم والعسف بالرعية الذين أكثر من مصادرة أموالهم (٤) ، ويبدو أن هذه السياسة وصلت الى الحد الذى لم يعد من الممكن تحمله ، ولذلك اتجه كثير منهم الى الاستنجاد بالسلطان السلجوقى ملكشاه ، وأكد هذا الاتجاه أحد الفقهاء التجار ويدعى أبا طاهر الشافعى الذى خرج من سمرقند بحجة التجارة والحج ، وحين وصل الى أصبهان قابل السلطان ملكشاه (٥) وشكا له سوء الأحوال فى بلاده ،وطلب منه الاستيلاء على بلاد ماوراء النهر لأن الاستيلاء عليها أصبح ميسورا بفضل دعم (٦)

---

(١) يذكر أحمد السعيد سليمان فى كتابه تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٨١ أن الذى خلف شمس الملك بن طمغاج هو أحمد خان الثانى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م ولم يعط له ترجمة واعتبر أن عهده كان واقعا تحت النفوذ السلجوقى ، ولم أعثر للخضر حسن ايتكين على ترجمة خاصة .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٧ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٧ .
(٤) تركستان ، ص ٤٦٤ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧١ .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧١ .

الأهالى الذين كانوا ناقمين على حاكمهم أحمد بن الخضر .

وهكذا عبر السلطان بجيشه نهر جيحون واستولى على بخارى وماجاورها بسهولة سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ، ثم واصل تقدمه نحو سمرقند بعد أن أرسل الى أهلها رسائل سرية يعدهم النصرة وتخليصهم مما هم فيه من ظلم وجور (١) . وحين وصل السلطان ملكشاه الى سمرقند حاصرها . وفى مواجهة النقمة الداخلية والحصار الخارجى عمد أحمد بن الخضر الى توزيع رجاله الذين يعتمد عليهم فى أبراج الحصون للاشراف على مهمات الدفاع عن المدينة ، ولكن من سوء حظه أن أحد رجاله من العلويين كان السلاجقة قد اسروا ابنه فى بخارى ، استخدمه السلطان كورقة تهديد بقتله ان لم يسهل للقوات السلجوقية اقتحام الثغر الذى يحميه ، وغلب العلوى حب الولد ونفذ ماطلب منه السلطان ، مما سهل على السلاجقة دخول سمرقند والاستيلاء عليها بينما اختفى الحاكم الايلك خانى فى أحد دور العامة فدل السلاجقة على مكان اختفائه ، وسرعان ما ألقى القبض عليه واقتيد بحبل فى رقبته الى السلطان ملكشاه الذى قابله بالاحترام ، ثم أرسله بعد ذلك الى أصبهان (٢) . ولأول مرة يتحكم سلطان سلجوقى فى بخارى وسمرقند مباشرة .

ولم يكتف السلطان ملكشاه بذلك اذ أنه واصل مسيره الى يوزكند (٣) بعد أن عين عميد خوارزم المدعو أبا طاهر قائدا فى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧١-١٧٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٢ .
(٣) يوزكند : ويقال لها أوزكند وأوزجند ، آخر مدن فرغانة مما يلى دار الحرب واليها متجر الأتراك ولها بساتين ومياه جارية . انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ٢٨٠) ، وانظر (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥٢٢) .

سمرقند ومن يوزكند كتب الى ملك كاشغر (١) الذى لم تبين المصادر التى بين أيدينا اسمه أو لقبه (٢) ويطلب منه اقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه ، وأرفق بهذا الطلب تهديدا بالوصول اليه ان لم يفعل ، وقد استجاب حاكم كاشغر لطلب السلطان ملكشاه (٣) . ويذكر ابن الأثير وغيره أن حاكم كاشغر توجه بنفسه الى يوزكند وقابل السلطان ملكشاه الذى أكرمه وعظمه لبادرته تلك (٤) . وبعد أن فرض السلطان ملكشاه سيطرته السياسية والعسكرية على معظم تركستان عاد أدراجه الى خراسان ، ولم يكد يبتعد قليلا عن بلاد ماوراء النهر حتى اختلت الأمور فى سمرقند بسبب الخلاف الذى نشب بين الجند الأتراك الجكلية بقيادة زعيمهم عين الدولة وبين عميد خوارزم أبو طاهر ، مما اضطر الأخير الى الفرار الى خوارزم خوفا على حياته من الجكلية (٥) ، وحين خلت سمرقند من نائب السلطان ملكشاه ، كتب زعيم الجكلية الى أخ حاكم كاشغر

---

(١) كاشغر : مدينة وقرى ورساتيق يسافر اليها من سمرقند ، وهى فى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون ، (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٣٠) .

(٢) فى الكامل لابن الأثير ، ج٩ ، ص ٣٠٢ ، أن الذى حكم كاشغر فى هذه الفترة هو هارون بغراخان بن قدر خان الذى حكم تسعة وعشرين عاما من ٤٦٧-٤٩٦هـ/١٠٧٤-١١٠٢م وفى نفس المصدر ، ج١٠ ، ص ١٧٤-١٧٥ ، أن حاكم كاشغر وقع فى الأسر سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م وأن الذى تولى بعده حكمها هو يعقوب تكين صاحب الخلاف مع ملكشاه .
أما محقق كتاب أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، فيذكر فى ص ١٥٠ حاشية رقم ٣ أن حاكم كاشغر هو طبغتج بغراقارا حسن أبو على حسن بن سليمان ٤٧٠-٥٠٥هـ/١٠٧٧-١١١٣م ، دون أن يذكر لنا مرجعه فى ذلك مع أن المحقق فى ص ١٣٧ حاشية رقم ٤ يذكر فترة حكم مغايرة لحسن بن سليمان ٤٦٧-٤٩٦هـ/١٠٧٤-١١٠٣م ، أى نفس فترة ابن الأثير .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٢ .

(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٢ – الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١٣٦ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

المدعو يعقوب تكين - الذى كان يسيطر على منطقة ذكرها ابن الأثير بأب نباشي - يدعوه الى سمرقند (١) ، وقد لبى يعقوب تكين هذه الدعوة ووصل الى سمرقند وبدلا من أن يتكاتف مع زعيم الجكلية عمل على التخلص منه حتى ينفرد بالسلطة فيها ، ولكى يحقق هدفه جمع عددا من الرعية الذين سبق أن أساء اليهم عين الدولة وطلب منهم اقامة الدعوى ضد عين الدولة على جرائمه التى ارتكبها بحقهم ، فادعى عليه هؤلاء واستصدر فيه فتاوى بقتله ، وهكذا تخلص يعقوب تكين من خصمه (٢) .

وقد فرضت هذه الأحداث على السلطان أن يعود مرة أخرى الى سمرقند وفرض سيطرته من جديد عليها ،وحين وصل الى بخارى لم ينتظر يعقوب تكين وصول السلطان اليه فى سمرقند بل فر هاربا عائدا الى ولايته الأصلية آب نباشي (٣) ، أما السلطان ملكشاه فانه لم يكتف بعودة سمرقند الى السلطة السلجوقية بل واصل مسيره الى حيث امارة يعقوب ، وحين وصل السلطان الى يوزكند فرق عددا من الجيش فى عدة اتجاهات للبحث عن يعقوب والقبض عليه ، لكن الأخير كان قد اتجه نحو أخيه حاكم كاشغر لائذا به (٤) ، وعندما علم السلطان بخبره أرسل الى حاكم كاشغر يطلب منه تسليم يعقوب اليه ، ولم يستطع حاكم كاشغر رفض هذا الطلب ، وأرسل أخيه مكبلا الى السلطان (٥) .

وقبل أن يصل الوفد الكاشغرى بيعقوب الى ملكشاه ، حدث تطور خطير فى كاشغر التى تعرضت لهجوم قوى من قبل قائد

---

(١) الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٣ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٣ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٣-١٧٤ .
(٤) ابن الأثير، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٤ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٤ .

يدعى طغرل ينال واستطاع أن يستولى عليه ويأسر حاكمها ، مما فرض على الجمع الذين كانوا مع يعقوب أن يترووا فى شأنه ووجدوا أنه من الأفضل اطلاق سراحه للعودة الى كاشغر ليحل محل أخيه (١) . ومن ناحية أخرى فان قوة طغرل ينال يبدو أنها كانت تشكل خطرا قويا على السلاجقة فيما لو غامر السلطان ملكشاه بالدخول معها فى مواجهة عسكرية ، لذلك سعى السلطان ملكشاه الى اقرار يعقوب تكين على حكم كاشغر والاعتراف به كوريث لأخيه السابق ليكون حاجزا بين الدولة السلجوقية ومناطق نفوذ طغرل ينال (٢) . وهكذا عاد السلطان ملكشاه الى سمرقند ليعيد الحاكم السابق لها أحمد بن الخضر خان (٣) سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وبدلا من النفوذ المباشر للسلاجقة فى بلاد ماوراء النهر عادت الأمور الى طبيعتها ، الى مجرد الاكتفاء بالنفوذ السياسى فى هذه المنطقة كآخر مرحلة بلغتها الدولة السلجوقية فى عهد ملكشاه فى بلاد وراء النهر .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٤-١٧٥ ، ولم أجد تعريفا لطغرل ينال أو المناطق التى يسيطر عليها .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٠١ .

الفصل الخامس

خضوع التركمان والامارات الكردية والعربية
فى الجزيرة وبلاد الشام للسلاجقة

(أ) التركمان وموقفهم من الدولة السلجوقية .

(ب) خضوع الامارات الكردية لدولة السلاجقة .

* امارة وهسوذان بن محمد الروادى بأذربيجان .
* الامارة المروانية .
* امارة هزأرسب بن بنكير الكردى .

(ج) خضوع الامارات العربيمة فى الجزيرة وبلاد الشام للسلاجقة .

* الامارة العقيلية فى الموصل .
* الامارة المرداسية فى حلب .

(أ) التركمان وموقفهم من الدولة السلجوقية

التركمان وموقفهم من الدولة السلجوقية :

لانقصد فى هذا المبحث أن نتطرق الى دراسة أوضاع أقوام بعيدين أصولا عن السلاجقة ، وانما هدفنا هنا أن نكمل ماكنا قد بدأناه فى الفصل الأول حول أتباع أرسلان بن سلجوق الذين كانوا قد اتجهوا الى المناطق الغربية من خراسان بعد عبور الاخوة طغرلبك وجغرى بك وبيغو أبناء ميكائيل بن سلجوق سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وبدلا من أن ينضم أتباع أرسلان بن سلجوق الى أبناء ميكائيل أو العكس نرى التركمان الأوائل - الأتراك الغزية كما سمتهم بعض المصادر (١) - فى خراسان يتجهون الى الرى وأذربيجان وبلاد الجبل تاركين أبناء ميكائيل ومن معهم يواجهون مصيرهم مع الغزنويين ، ولم تذكر لنا المصادر التى أوردت ذكرهم السبب فى ذلك ، ولم نستطع أن نتوصل الى السبب الحقيقى لهذا الموقف ، وعلى كل فعندما زالت دولة الغزنويين من خراسان وحلت محلهم دولة السلاجقة نلاحظ أن عنف التركمان الأوائل فى نساباورد ونيسابور والرى يتحول الى خوف وجبن من ابراهيم ينال الذى دخل الرى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٣م وانصرفوا منها الى أذربيجان (٢) . وقد يكون مرد انسحاب أتباع

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٧٧ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣١٨ - ابن الوردى ، تتمة المختصر ج١ ، ص ٥٢٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٥ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣١٨،٢٦٠ .

أرسلان الى عدم رغبتهم فى دخول حروب مع أبناء عمومتهم ، وحين وصل هؤلاء الى أذربيجان وردتهم رسالة من السلطان طغرلبك سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م وهو فى قزوين يطالب فيها كوكتاش وبوقا وناصغلى وغيرهم من قادة التركمان بالقدوم اليه والعمل فى خدمته لكن هؤلاء الأمراء السابق ذكرهم رفضوا اطلب طغرلبك ، وقالوا له : "... قد علمنا أن غرضك أن تجمعنا لتقبض علينا والخوف منك أبعدنا عنك ، وقد نزلنا هاهنا فان أردتنا قصدنا خراسان أو الروم ولانجتمع بك أبدا" (١) .

غير أن هؤلاء الغز أو التركمان لم يستطيعوا البقاء فى أذربيجان لسببين : أولهما الموقف العدائى من أمير تبريز وهسوذان بن محمد الرواوى الذى سبق له أن قتل جمعا كثيرا منهم سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م (٢) ، وثانيهما أن منطقة أذربيجان كانت عرضة لوصول الجيوش السلجوقية اليها لقربها من قزوين التى غزاها السلطان طغرلبك سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م وأخضعها ، ولذلك انحدر هؤلاء من أذربيجان نحو ديار بكر والموصل ، حيث الامارتين المروانية الكردية ، والعقيلية العربية .

كان أول وصول التركمان حول جزيرة ابن عمر (٣) من ديار بكر وأول عمل قام به قسم منهم فى هذه المنطقة هو نهب مواضع متعددة من ديار بكر وهى قردى (٤) ، وبازبدى (٥) ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٤ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣١٨ .
(٣) جزيرة ابن عمر : نسبت الى الحسن بن عمر التغلبى ، ويحيط بها نهر دجلة الا من ناحية واحدة ، وهى فرضة لأرمينية ، (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٣) .
(٤) قردى : قرية شرقى جزيرة ابن عمر ومن أعمالها . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٢) .
(٥) بازبدى : قرية فى قبالة جزيرة ابن عمر . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣٢١) .

والحسنية[1] بقيادة بوقاوناصغلي[2] ، ويضيف الفارقي الى ذلك قوله : أن السلطان طغرلبك هو الذى بعث بوقاونا صغلي سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م الى ديار بكر[3] - وهى معلومة غير صحيحة بسبب ماذكرناه سابقا - الا أنه يضيف من جانب آخر معلومة مهمة بالنسبة لبوقاوناصغلي اذ يذكر أنهما وصلا الى ميافارقين وتحصن أهلها منهما وقد دارت المفاوضات بين الأمير الكردى نصر الدولة بن مروان فى ميافارقين والقائدين التركمانيين من أجل الحصول على مبلغ من المال قدره المصدر خمسين الف دينار حتى يرحل عنهم هؤلاء ، وبينما كان بوقاوناصغلي يرابطان فى انتظار وصول المال اليهم ، سكر الاثنان فى احدى الليالى ، وحدث نزاع بين القائدين طعن على أثرهما كلاهما الآخر فسقطا ميتين ، وانتهز الأمير نصر الدولة هذه الفرصة وقام بهجوم سريع على أتباعهما ، فقتل منهم مقتله كبيرة ، اضافة الى عدد آخر من الأسرى وسلبهم أموالهم التى كانت معهم ، ففر الباقون عن بلاده . ويذكر الفارقى أنه لم يطرق بلاده أحد من التركمان طيلة ولاية نصر الدولة بن مروان[4] ، أما الذين بقوا فى جزيرة ابن عمر بقيادة منصور بن غزغلي فقد استمالهم سليمان بن نصر الدولة[5] واتفق معهم على أن يبقوا فى مكانهم الى حين انقضاء الشتاء ثم يمضى التركمان

---

(١) الحسنية : بلد فى شرق الموصل على يومين منها . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٠) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٦ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣١٨ ، الا أنه سمى هذه المناطق المنهوبة باسم قزوين ويازيدى .

(٣) تاريخ الفارقى ، ص ١٦٠-١٦١ .

(٤) تاريخ الفارقى ، ص ١٦١ .

(٥) لم أجد لسليمان بن نصر الدولة ترجمة فيما بين يدى من مصادر ، وكذلك القادة التركمان الذين مر ذكرهم فى المتن .

الى بلاد الشام ، وحين تم الاتفاق على ذلك منع وليمة حضرها منصور فقام سليمان بالقبض عليه وسجنه عنده (١) . أما أتباعه فيبدو أنهم خشوا عاقبة بقائهم فى الجزيرة بعد القبض على زعيمهم ، فرحلوا عنها الى الامارة العقيلية . اذ يبدو أنهم استعانوا بمن كان موجودا من التركمان فى نصيبين وسنجار ، وعاد الجميع الى ديار بكر التى لقيت منهم قتلا ونهبا ، فاضطر الأمير نصر الدولة الى طلب مصالحتهم وذلك باطلاق زعيمهم منصور بن غزغلى ، وبذل لهم مالا ليفارقوا بلاده بعد ذلك ، وقد وفى الأمير الكردى للتركمان بما وعدهم به . ويذكر ابن الأثير أنهم زادوا فى الشر ولم يرحل عنه الا قسم منهم الى نصيبين وسنجار (٢) ، ولعل بقاء طائفة منهم فى ديار بكر أجبرت الأمير نصر الدولة بن مروان على مكاتبة السلطان طغرلبك سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م شاكيا اليه الطائفة الموجودة فى بلاده ، وقد كان رد السلطان طغرلبك لابن مروان بقوله : "بلغنى أن عبيدنا قصدوا بلادك ، فانك صانعتهم بمال بذلته لهم ، وأنت صاحب ثغر ينبغى أن تعطى ماتستعين به على قتال الكفار ..." وقد وعد السلطان طغرلبك ابن مروان أنه سوف يرسل اليهم ليرحلهم عن الأمارة الكردية ، هذا ولم نجد فى المصادر التى بين أيدينا مايشير الى تنفيذ وعده لابن مروان (٣) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٦ ـ ويذكر ابن خلدون فى العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣١٨ ، أن سليمان بن نصر الدولة بن مروان كان موجودا فى الموصل ودعاهم الى وليمة فيها وهو خطأ واضح اذ أن الموصل كانت تحت سلطة قرواش بن المقلد العقيلى .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٩ .

أما فيما يتعلق بالامارة العقيلية ودور التركمان فيها فان طائفة من الذين فارقوا جماعتهم من جزيرة ابن عمر فقد حلوا فى برقعيد (١)، وذلك بقيادة كوكتاش (٢)، وقد استثارهم قرواش بن المقلد (٣) عندما أرسل اليهم من يغير عليهم، ويبدو أن التركمان استطاعوا التغلب على رجال قرواش وشجعهم ذلك على التقدم نحو الموصل، حيث حاول قرواش أن يمنعهم من الوصول اليها، وذلك عندما عرض عليهم ثلاثة آلاف دينار مقابل ابتعادهم عنه (٤). لكن كوكتاش اشترط أن ينال خمسة عشر ألف دينار لقاء الابتعاد عن امارة قرواش، وقد رضخ قرواش لمطلبهم هذا. وبينما كان قرواش مجتمعا بأهل الموصل لجمع ماتعهد به من قبل فوجىء بوصول التركمان الى الموصل ضاربين حصارهم عليها، وهنا تغير قرواش والأهالى تجاه التركمان ورأوا مقاومتهم (٥)، وفعلا خرج قرواش وجنده ويساندهم الأهالى الى التركمان، ولم يستطع أهل الموصل الصمود كثيرا أمام أعدائهم، فانهزموا وعلى رأسهم قرواش الذى هرب فى سفينة

---

(١) برقعيد : بليدة فى طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين، (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ١، ص ٣٨٧).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٧ – ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٦٠.

(٣) قرواش ابن مقلد بن المسيب بن رافع أبو المنيع معتمد الدولة، ولى بعد موت أبيه سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م، كان أديبا شاعرا جوادا ممدحا، نهابا وهابا، فيه جاهلية وطبع الأعراب، يقال أنه جمع بين أختين، فلاموه، فقال : حدثونى ما الذى نعمل بالشرع حتى تذكروا هذا ؟ وقال مرة : مافى عنقى غير دم خمسة ستة من العرب، أما الحاضرة فما يعبأ الله بهم، خلعه أخوه بركة سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م، ومات مقتولا بيد قريش بن بدران سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م، وقيل مات موتا طبيعيا.
(الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص ٦٣٣-٦٣٤).

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٧ – ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٦٠، ولم يذكر مقدار المال الذى تعهد به قرواش.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٧.

على الفرات الى السن (١)، أما التركمان فقد دخلوا الموصل "وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب المال" (٢)، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا على الأهالى عشرين ألف دينار، هذا عدا المصادرات التى صادروا بها الناس. لكن هؤلاء الغزاة لم ينعموا فى الموصل كثيرا، اذ أن الأهالى سرعان ماثاروا عليهم بسبب تحريض امرأة ادعت أن التركمان قتلوا ابنها وابنتها، فانتشر الأهالى يقتلون كل من وجدوه منهم فى الدروب والمنازل، ولم ينج غير سبعة أفراد - كما يقول المصدر (٣) - وقد أرسل من بقى على قيد الحياة الى كوكتاش الذى كان قد غادر الموصل قبل هذه الأحداث يستنجدون به فعاد اليهم فى ٢٥ رجب سنة ٤٣٥هـ/ فبراير ١٠٤٤م، وانتقم من أهل الموصل بقتل الكثير منهم. ويذكر ابن الأثير أن التركمان ظلوا يقتلون فى الأهالى طيلة اثنى عشر يوما، وأن القتلى انتنوا لعدم وجود من يدفنهم (٤).

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان قرواشا عندما وصل الى السن كتب الى الملك البويهى جلال الدولة بن بويه ودبيس ابن مزيد الأسدى وابا الشوك فارس بن عناز الكردى وغيرهم من الأمراء يستنجد بهم لاعانته ضد التركمان، وقد استجاب له دبيس بن مزيد فورا الذى سار معه بقومه والتحق به بنو عقيل الى الموصل لمحاصرة التركمان فيها (٥). وقد أدرك الأخيرون أن

---

(١) السن: بلدة على بعد ميل تحت ملتقى الزاب الأسفل بدجلة. (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٠).
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٧-٣٨٨ - وانظر أيضا ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٦٠.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٨-٣٨٩ - وانظر ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٦٠.
(٤) الكامل، ج٩، ص ٣٨٩.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٩٠ - ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٦٠-٢٦١.

جموعهم لاتكفى لمواجهة العرب ، فأرسلوا الى من بديار بكر وغيرهم يطلبون مددهم ، وبعد أن كملت استعدادات التركمان خرجوا لمواجهة قرواش والعرب الذين معه ، وفى رمضان سنة ٤٣٥هـ/ابريل ١٠٤٤م دارت بين الطرفين معركة رهيبة كانت أوائلها للتركمان ، لكن العرب استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم فى النهاية وهزموا التركمان هزيمة ساحقة وغنموا أموالهم وذخائرهم التى كانت موجودة فى الخيام (١) . كما أن هذه المعركة وضعت حدا لوجود التركمان فى الامارتين الكردية والعقيلية ولم يعد لهم وجود يذكر فيهما بعد ذلك . وقد نقل لنا ابن الأثير نصا يبين لنا فيه مدى الخسارة فى الأرواح التى منى بها هؤلاء التركمان قبل دخولهم المنطقة وبعد خروجهم منها وذلك نقلا عن أمير أرمية الذى قال : "... ان القوم لما اجتازوا ببلادى أقمت على قنطرة - لابد لهم من عبورها - من عدهم فكانوا نيفا وثلاثين الفا مع لفيفهم فلما عادوا بعد هزيمتهم لم يبلغوا خمسة آلاف رجل فاما أن يكونوا قتلوا أو هلكوا" (٢) . ورغم مبالغة أمير أرمية فى تعداده للتركمان فانه من جانب آخر يبين لنا بلاشك أن التركمان منوا بخسائر فادحة فى الأرواح لم يستطيعوا معها البقاء فى ديار بكر أو الموصل ، وهم بهذا بين احتمالين : اما أنهم رضخوا للواقع وأدركوا أنهم لايستطيعون العيش بمفردهم فاختاروا الانضواء تحت سلطة السلطان طغرلبك مع العلم بأنهم كانوا أثناء بقائهم فى الموصل كانوا يقيمون الخطبة باسم

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٩١ - ويذكر ابن خلدون العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٦١ ، أن الغز (التركمان) تأخروا الى تل أعفر وأرسلوا من هناك الى بقية التركمان فى ديار بكر .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٣٩١ .

الخليفة القائم بأمر الله ثم لطغرلبك من بعده (١) مما يدل على أنهم يعترفون للسلطان طغرلبك بالسيادة عليهم رغم عدم خضوعهم المباشر له ، أو أن هؤلاء التركمان آثروا الانزواء فى منطقة أرمينية والبحث فيها عن مناطق نفوذ جديدة لهم فى هذه المنطقة . ويذكر ابن الأثير أنهم قصدوا ديار بكر فنهبوها ثم عرجوا على الأرمن والروم فنهبوهم ثم قصدوا أذربيجان (٢) ، وبالتالى لم يعد يعرف عنهم شيئا بعد ذلك .

وقبل أن نختم مايتعلق بتركمان العراق أو الغز العراقية ، لابد أن نشير الى أن قيام دولة السلاجقة شجع الكثيرين من الغز فى بلاد ماوراء النهر على الانضمام الى من سبقهم فى العبور الى خراسان ووضعوا أنفسهم تحت سلطة الدولة السلجوقية ، وأبرز مثال على ذلك هو ماحدث سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م حينما هاجرت أعداد كبيرة منهم الى خراسان من بلاد ماوراء النهر وقدموا على ابراهيم ينال الذى فتح لهم مجالا آخر غير البقاء فى خراسان ألا وهو الاتجاه الى الدولة البيزنطية حيث مجال الفتح والجهاد أمام المهاجرين الجدد أوسع (٣) ، وفى نفس الوقت يكفى البلاد الاسلامية فى المشرق الاسلامى شرورهم وحبهم للسلب والنهب الذى عرف به التركمان الأوائل .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٩ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٦٠ .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٣٩١ - وانظر ابن خلدون ، العبر ، المجلد ٤ ، ص ٢٦١ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٣٧ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤٦ - الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ج٣ ، ص ١٩٤ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١٩٤ .

ب)خضوع الامارات الكردية لدولة السلاجقة

تنتشر مجموعة من الامارات الكردية في المشرق الاسلامي (١) – في الفترة التي ندرسها – ابتداء من أذربيجان في الشمال الى أهواز العراق في الجنوب وتبعا لتعدد الامارات الكردية تتعدد معها قبائلهم ورئاساتهم .

وأول علاقة كانت بين الدولة السلجوقية والامارات الكردية ، هي تلك العلاقة التي انتهت بزوال امارة الكاكويه عندما قضى السلطان طغرلبك وابراهيم ينال على أبناء علاء الدولة بن كاكويه في أصبهان وبلاد الجبل كما سبق أن ذكرنا في الفصل الأول ، ثم امتد نفوذهم الى منطقة الأكراد في امارة بني عناز في حلوان وقرميسين والدينور وغيرها من المناطق ، واذا صعدنا شمالا نحو أذربيجان فاننا نجد امارة وهسوذان بن محمد الروادي في تبريز (٢) ، وهو نفس الشخص الذي

---

(١) ينسب الأكراد الى كرد بن عمر بن صعصعة من هوازن ، وقيل هم من ولد عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء وقيل انهم من بني حميد بن طارق الذي يرجع الى حميد ابن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، انظر (الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ٤٩ ، حاشية رقم ١) . كما أن هناك آراء تنسبهم الى الترك تارة والى الشعوب الايرانية تارة أخرى ، انظر (عبد الرحمن قاسلمو ، كردستان والأكراد ، دراسة سياسية واقتصادية الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠م ، ص ٣٩-٤١) . ويتعدد الأكراد الى مجموعة من القبائل منها : الكورانية ، والهذبانية ، والبشنوية ، والشاهنجانية ، والسرلجية والبزولية ، والمهرانية ، والروادية ، والديسنية ، والهكارية ، والمروانية ، والبادية ، (الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ٤٩ ، حاشية رقم ١) .

(٢) يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل ، ج٩ ، ص ٣٨٤ أن اسمه وهسوذان بن مهلان ، وفي ص ٥٩٨ يسميه وهسوذان بن محمد الروادي ، وفي ص ٦٥١ من نفس الجزء يسميه وهسوذان بن مملان ، وفي سفر نامه ، لناصر خسرو يذكره باسم وهسوذان بن محمد ، وفي دائرة المعارف الاسلامية ، ج٤ ، ص ٥٤١ ، ورد باسم وهوذان بن مهلان (مملان) . هذا ولم أجد لوهسوذان بن محمد الروادي ترجمة فيما بين يدي من مصادر .

أوقع بالغز فى تبريز سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م . ويذكر ناصر خسرو أن وهسوذان كان يطلق عليه سيف الدولة وشرف الملك أبومنصور وهسوذان بن محمد مولى أمير المؤمنين (١)، وتذكر بعض المصادر أن السلطان طغرلبك دخل تبريز سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، وأن صاحبها أبا منصور وهسوذان بن محمد الروادى أطاعه وخطب له فى بلاده وأعطاه ولده رهينة (٢) .

وفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٨٥م توفى وهسوذان وتولى ابنه محمد الذى طلب من السلطان طغرلبك أن يقره على ولاية أبيه فى أذربيجان فأقره السلطان طغرلبك على ولاية أبيه (٣) .

لكن محمد بن وهسوذان لم يستمر فى ولائه للسلطان طغرلبك وتمرد عليه ، بدليل أن السلطان طغرلبك حاصر تبريز سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م ، وقد لقى السلطان طغرلبك صعوبة شديدة فى هذا الحصار بسبب شدة البرد وقلة المؤن اللازمة للجيش أيضا . وقد قرر السلطان أن ينسحب الى بسا ليقضى فيها الجيش السلجوقى فصل الشتاء ثم يعود الى تبريز مرة أخرى ، ويبدو أن الجيش لم يستسغ العودة مرة أخرى اليها ، ولذلك طلب بعض القادة الى السلطان أن يسمح لهم بالذهاب الى الرى ، وهددوه بأنه اذا لم يستجب لطلبهم هذا فانهم سيذهبون الى العراق ويأخذون الخليفة معهم لمحاربته ، مما أجبره على الانصياع والسماح لهم بالعودة الى الرى (٤) مما يعنى فشله فى اخضاع امارة محمد بن وهسوذان الذى استمر تمرده الى سنة

---

(١) سفر نامه ، ص ٣٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٨ ـ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٦ ، ص ٨٢٧ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٤٥٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٥٠ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٤-٧٥ .

٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، وقد عاد اليه السلطان طغرلبك فى التاريخ المشار اليه وكرر محاصرته لتبريز ، ويبدو أن محمد بن وهسوذان رأى من تصميم وعزم السلطان على اخضاعه مادعاه الى أن يستسلم للسلطان طغرلبك ويخضع له بعد أن تعهد بدفع مبلغ من المال ، وأن يضع ولده رهينة لدى السلطان طغرلبك (١). ولم نعد نسمع عن هذه الامارة شيئا بعد هذا التاريخ .

الامارة المروانية فى ديار بكر والجزيرة الفراتية :

احتلت امارة بنى مروان الكردية موقعا استراتيجيا بين الكيانات السياسية فى المشرق الاسلامى ، وزادت أهميتها فى العهد السلجوقى لانبعاث حركة الجهاد والغزو ضد الدولة البيزنطية ، فقد كانت هذه الامارة أحد الطرق التى يسلكها السلاجقة الى غزو الدولة البيزنطية من اقليم الجبل . ويذكر ابن الأثير أن السلطان طغرلبك حينما تمكن من هزيمة ابراهيم ينال بالقرب من همذان سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م أرسل الى نصر الدولة أحمد بن مروان الكردى يطلب منه اقامة الخطبة له فى بلاده فى ديار بكر والجزيرة (٢) ،وكان ذلك بسبب توسط نصر الدولة بن مروان لدى السلطان طغرلبك فى اطلاق ملك الابخاز ليبارت بناء على طلب من الامبراطور قسطنطين التاسع . ولم يخيب السلطان طغرلبك أمل ابن مروان وأطلق له ملك الابخاز

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٩٤ .
(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٦ .

بدون فداء أو مقابل مالى ، مما كان له وقع حسن لدى الطرفين الكردى والبيزنطى ، وفى مقابل ذلك طلب السلطان طغرلبك من الأمير نصر الدولة اقامة الخطبة له فى امارته ، فاستجاب ابن مروان لهذا الطلب ونفذه فى بلاده سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (١) .

وعلى الرغم من قرب ممتلكات الامارة المروانيةمن اقليم الجبل الذى شهد تدفقا سلجوقيا متواليا من السنوات ٤٤١ حتى ٤٤٧هـ/١٠٤٩-١٠٥٥م الذى توج بدخول السلطان طغرلبك بغداد فان السلاجقة لم يحاولوا الاقتراب من هذه الامارة ادراكا منهم لأهمية الدور الذى يقوم به أميرها فى هذه المنطقة الثغرية أمام الدولة البيزنطية . لكن نصر الدولة بن أحمد ابن مروان أجبر السلاجقة على دخول بلاده وتهديد نفوذه بالكامل وتعريضها للزوال ، وسبب ذلك أن ابن مروان كان قد سبق له أن رفض عروضا ملحة من الدولة الفاطمية ممثلة فى المؤيد هبة الله الشيرازى بالانضمام الى حركة البساسيرى ضد الدولة السلجوقية ورفض أيضا اقامة الخطبة للفاطميين فى بلاده (٢) ، وظل يقيم الخطبة فى بلاده للخلافة العباسية وللسلطان طغرلبك بالرغم من انتصار البساسيرى على قتلمش بن اسرائيل فى الموصل سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م وقرب المعسكر الفاطمى من ديار بكر (٣) . الا أن هذا الموقف الذى وقفه ابن مروان من الفاطميين

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٦-٥٥٧ .

(٢) تمسك ابن مروان بسياسة متوازنة بين العباسيين والفاطميين رغم المحاولات المتكررة التى بذلها الداعى الاسماعيلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى ضمه الى جانب البساسيرى وفشل فى مساعيه حول هذا الموضوع انظر (العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ، ص ١٠٥-١٠٩) .

(٣) انظر ماسبق ، ص

لم يشفع له عند السلطان طغرلبك عندما قام باحتجاز رسول السلطان طغرلبك القادم من القسطنطينية ومعه أيضا رسول الدولة البيزنطية الى السلطان طغرلبك فى جمادى الآخرة سنة ٤٤٩هـ/أغسطس ١٠٥٧م بحجة أن الطريق الى بغداد غير آمنة ويخاف عليهما من العرب المنتشرة فى الجزيرة (١) . وقد فسر سبط ابن الجوزى هذا التصرف من قبل ابن مروان بأنه كان طمعا منه (٢) فى حيازة الأموال التى مع الرسولين اذا رجحت كفة الفاطميين على السلاجقة فى الموصل ، وعقب اجلاء السلطان طغرلبك للبساسيرى عن الموصل وهروب الأخير الى بلاد الشام ، حاول ابن مروان أن يصلح ما أفسده تجاه السلطان طغرلبك ، اذ سرح الرسولين ومعهما هدية عبارة عن خمسمائة ثوب من الديباج وخيول وغيرها ، وفى نفس الوقت طلب من هزارسب بن بنكير أن يتوسط له لدى السلطان ليسامحه على مافعل تجاه رسول السلطان والامبراطور البيزنطى لكن السلطان رفض وساطة هزارسب ورفض معها أيضا هدية ابن مروان (٣) ، وصمم على تأديبه عندما نزل على جزيرة ابن عمر وحاصرها ، بينما اتجهت فرقة أخرى من جيشه صوب ميافارقين التى كان قد غادرها نصر الدولة أحمد بن مروان الى آمد (٤) ، وأصبح موقف نصر الدولة بن مروان صعبا للغاية اذ ليست لديه القدرة العسكرية التى يستطيع بها الوقوف أمام السلاجقة ، ولذلك سلك طريق كسب عطف

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩ .
(٢) مرآة الزمان ، ص ١٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٠ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩ .
وآمد : أكبر مدن ديار بكر فى غربى دجلة . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٠) .

المقربين الى السلطان طغرلبك ومنهم ابراهيم ينال الذى وعد بأن يشفع فيه عند السلطان طغرلبك (١)، وكذلك زوجة السلطان التى أرسل اليها ابن مروان يستجير بها ومع رسوله هدية لها معتذرا الى السلطان بقوله : "... مافعلت مافعلت الا خوفا على بلادى ، وأما احتباس الرسولين فانما كان شفقة عليهما ، وأنا شيخ قد سبقت على السبعين ، وماقصدى الا حفظ هذه الثغور من النهب والخراب ..." (٢). ومع قبول زوجة السلطان القيام بدور الشفيع لابن مروان عند زوجها الا أن اجابة السلطان لها كانت بأن ذنب ابن مروان لايغتفر لأن "احتباسه للرسولين طمعا فيما كان معهما ومعاونته لأعدائنا وتربصه الدوائر بنا وهذا ذنب لايغفر" (٣). ويبدو أن الحاح المحيطين والمقربين للسلطان طغرلبك قد نجح أخيرا فى العفو عن نصر الدولة بن مروان على أن يدفع مائة ألف دينار كتأديب له على صنيعه ، ومن ثم انسحب السلطان عائدا الى بغداد فى شعبان سنة ٤٤٩هـ/أكتوبر ١٠٥٧م (٤). وقد كان الدرس الذى تلقاه ابن مروان من هذه الأحداث السابقة كافيا بألا يعود لمثلها تجاه الدولة السلجوقية بدليل أنه بعد دخول البساسيرى الى بغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وسيطرته على العراق بكامله فان ابن مروان ظل محافظا على طاعته للسلاجقة ، ومحتفظا بحفيد الخليفة القائم بأمر الله العباسى ذخيرة الدين فى ضيافته طيلة غياب الخليفة عن بغداد ، فلما عاد اليها الخليفة أرسل بذخيرة الدين اليه مع ابن المحلبان سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٤،٧٢ ـ الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٥٤ .

ولم يعش ابن مروان طويلا بعد هذه الأحداث اذ توفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (١) ، وفقدت بموته الامارة المروانية أحد رجالها الأوفياء الذى حكمها مدة تزيد على خمسين سنة (٢) . وبعد وفاته أخذت الامارة المروانية تسير نحو النهاية لسببين رئيسيين هما :

(١) الانشقاق داخل البيت المرواني الحاكم واتاحة المجال للسلاطين السلاجقة التدخل المباشر فى الامارة المروانية

(٢) سعى فخر الدولة بن جهير (٣) فى القضاء على هذه الامارة لأسباب سنذكرها فى حينها .

أما بالنسبة للشق الأول ، فانه بعد وفاة الأمير نصر الدولة أحمد بن مروان سنة ٤٥٣هـ ، فقد تم الاتفاق فى ميافارقين على تولية ابنه نصر مكانه ولقب نظام الدين بعد مبايعته (٤) . ويذكر الفارقى أن الأمير سعيد بن نصر الدولة أخا نظام الدين فر الى السلطان طغرلبك بسبب خلاف بينهما ، وطلب الأمير سعيد من السلطان طغرلبك امداده بجند لمحاربة أخيه فأمده السلطان طغرلبك بخمسة آلاف فارس عدا المشاة ، زحف

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧ - الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٧٧ .
(٢) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٧٦ .
(٣) هو محمد بن محمد بن جهير أبو نصر : ولد بالموصل سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م عمل فى ديوان حلب ، ثم انتقل الى ديار بكر ووزر لنصر الدولة بن مروان حتى وفاته ، ثم انتقل الى ديوان الخلافة حيث وزر للخليفة القائم بأمر الله ثم عزله الخليفة المقتدى بأمر الله من الوزارة سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م ، توفى فخر الدولة قرب الموصل سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م . انظر : (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ج١ ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٣٨-١٤٤ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٥ ، ص ١٢٧-١٣٤) .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧-١٨ - الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٨١ .

بهم الأمير سعيد بن مروان نحو ميافارقين وحاصر أخاه نظام الدين فيها (١) ، وهنا تدخل الوزير محمد بن محمد بن جهير بين الأخوين ونصح الوزير الأمير سعيدا بألا يجعل نهاية البيت المرواني على يده ، وتعهد أيضا بأن تصل القائد السلجوقي المصاحب له خمسون ألف دينار من الأمير نظام الدين عدا الاقطاع الوفير الذي وعد به الأمير سعيد . وأمام النصائح المقرونة بالمال الوفير من قبل ابن جهير انسحب الأمير سعيد عن ميافارقين دون أن يذكر لنا الفارقي أو غيره الجهة التي انسحب اليها أو الاقطاع الذي منح (٢) .

لم يستمر الأمير سعيد والأمير نظام الدين على وفاقهما اذ نجد أن الأمير سعيد بن نصر ، يعود مرة أخرى الى خلاف أخيه وذلك حينما هرب الى السلطان ألب أرسلان ربما سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ، وصحبه السلطان معه الى ديار بكر سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م متجها نحو ملاذكرد ، وكان هروبه هذا من أجل حمايته ونصرته على أخيه نظام الدين (٣) ، وقد خشي الأمير نظام الدين نصر من نتائج التجاء أخيه الأمير سعيد الى السلطان ألب أرسلان ، ولذلك لجأ هو الآخر الى الوزير نظام الملك ومعه بناته وزوجته وأخواته اللواتي تضرعن اليه من أجل الوقوف

---

(١) الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ١٨١ .
(٢) الفارقي ، تاريخ ميافارقين ، ص ١٨١ .
(٣) الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ١٨٧ – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٥٨ واعتمد سبط ابن الجوزي في روايته عن التجاء الأمير سعيد على الفارقي ويبدو أنها حورت أو سقطت الرواية التي اعتمد عليها سبط ابن الجوزي من النسخ التي اعتمد عليها المحقق ، اذ يذكر أن الأمير سعيدا انتهز فرصة مرور السلطان ألب أرسلان بميافارقين والتجأ اليه ، بينما يذكر الفارقي أن الأمير سعيدا عاد مع السلطان الى ديار بكر سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م مما يعني أنه هرب من أخيه الى السلطان قبل دخول السلطان ديار بكر .

الى جانب والدهم ، ومع هذا التضرع والخضوع قدم الأمير نظام الدين الى السلطان السلجوقى كثيرا من الأموال والجواهر ، وكان لهذه الأموال أثرها اضافة الى التعهد الذى قطعه نظام الملك على نفسه بالوقوف الى جانب الأمير نظام الدين نصر بن مروان (١) ، وقد بر نظام الملك بوعده عندما أقر السلطان ألب أرسلان نظام الدين على امارته ، وألقى القبض على الأمير سعيد بن أحمد بن مروان وسجن فى قلعة الهتاخ (٢) - بالقرب من ميافارقين - ولم يطل سجن الأمير سعيد فى هذه القلعة (٣) اذ أنه أرسل الى أخيه يستعطفه ويطلب منه الصفح عما بدر منه ، وقد رق نظام الدين لأخيه وأمر باخراجه من السجن ثم أقطعه مدينة آمد (٤) ، وتذكر بعض المصادر أن الأمير نظام الدين ندم على اقطاع أخيه مدينة آمد وعمل على استردادها منه عن طريق الخديعة وذلك أنه أرسل الى أخيه الأمير سعيد جارية كان قد اتفق معها على تسميم أخيه فى خلوها معه ، وقد نفذت الجارية ما أمرت به وقضت على حياة الأمير سعيد مسموما سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م ، وقبل أن يتصرف رجال سعيد أى تصرف تفقده هذه المدينة راسل زوجة أخيه وتعهد لها بضم أولاد أخيه ورعايتهم فوافقت على تسليم آمد اليه (٥) . وبذلك تخلص الأمير نظام الدين من منافسه الوحيد فى الامارة غدرا ، ولكن بعد أن أتاحت هذه

---

(١) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٨٧ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٩ .
(٢) الهتاخ : قلعة حصينة فى ديار بكر قرب ميافارقين (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٣٩٢) .
(٣) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٨٨ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٨ .
(٤) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٩٠-١٩١ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٨ .
(٥) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ١٩١ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٩ .

الخلافات للسلاجقة التدخل فى شئون الأسرة المروانية وتقرير أمورها من قبلهم . واذا كانت أهداف السلاجقة لم تتحقق فى عهد نظام الدين نصر بن أحمد بن مروان ، فان الظروف أصبحت أكثر ملاءمة بعد وفاته سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٢م (١) ، وتولى ابنه منصور بن نصر مكانه (٢) ، الذى واجه مشكلة من نوع آخر ليست داخلية وانما خارجية محركها وزير أبيه وجده السابق ، الا وهو الوزير فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير الذى صرفه الخليفة المقتدى بأمر الله عن الوزارة سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م بأمر من السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك ، ورغم أن ملكشاه ونظام الملك رضيا عن ابن جهير الا أن الخليفة لم يعده الى الوزارة ، وبعد محاولات عدة من قبل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك رضى الخليفة المقتدى بأمر الله أن يولى عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير (٣) منصب الوزارة سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م (٤) . الا أن الخليفة المقتدى بأمر الله صرفه عن الوزارة سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م (٥) ، وبالتالى فقد فخر الدولة

---

(١) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٠ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٦ - ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٣ قسم ١ ، ص ٣٧٩ .

(٢) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٠ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٦ - ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، قسم ١ ، تحقيق يحيى عباره ، دمشق ١٩٧٨م ، ص ٣٨٠

(٣) عميد الدولة بن جهير : هو محمد بن محمد بن محمد بن جهير : عميد الدولة شرف الدين ، قال عنه ابن الجوزى وسبطه : (كان حسن التدبير كافيا فى مهمات الخطوب كثير الحلم ، لم يعرف أنه عجل على أحد بمكروه) . خدم ثلاثة خلفاء ووزر لاثنين وهما المقتدى بأمر الله والمستظهر ، انتهى ميتا فى الحبس سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م . انظر : (المنتظم ، ج٩ ، ص ١١٨ - مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، ، ص ٣٥٠-٣٥٤) .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩٧،١٩٩ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٥ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١٩ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٩ .

وابنه عميد الدولة مظاهر السلطة والنفوذ والجاه ، فعول فخر الدولة ابن جهير على العودة الى تلك المظاهر التى افتقدها عن طريق اغراء السلطان ملكشاه الذى قابله فى أصفهان وذكر له الخزائن والأموال والثروة العريضة التى يملكها بنو مروان ، وطلب من السلطان ملكشاه أن يوليه على ديار بكر للاستحواذ على ثروة بنى مروان الكردية ، ويبدو أن ماعرضه ابن جهير على السلطان ملكشاه لقى هوى كان فى نفس السلطان ملكشاه فى القضاء على امارة بنى مروان ، ولذلك عينه أميرا على ديار بكر وهو فى أصبهان فى جمادى الأولى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م (١) . فلما جاءت السنة التالية أمره السلطان ملكشاه بالمسير الى ديار بكر بعد أن زوده بالجند (٢) . وأمام الخطر السلجوقى الجديد لجأ الأمير ناصر الدولة منصور بن نصر المروانى الى شرف الدولة مسلم بن قريش وطلب منه مساعدته فى التصدى لابن جهير فى مقابل التنازل له عن مدينة آمد ، وعلى الفور سار مسلم بن قريش الى الامارة المروانية حيث اجتمع مع أميرها ناصر الدولة منصور بن نصر بالقرب من آمد (٣) . ويبدو أن ابن جهير علم بالتحالف الذى تم بين الامارتين العقيلية والمروانية ولذلك أرسل الى السلطان

---

(١) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٨ ، وذكر أنه خاطب أولا نظام الملك فى الأموال التى يملكها بنو مروان ، بينما يذكر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٦ أن فخر الدولة بن جهير كتب الى السلطان ملكشاه عن ثروات بنى مروان ، وسواء كانت بداية التفاهم مع نظام الملك أو ملكشاه فان النتيجة كانت واحدة اذ حصل ابن جهير على مقصوده فى امارة ديار بكر .

(٢) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٨ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٧ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٤ - ابن الأثير ، الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص ٥

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٧ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٤ .

ملكشاه يطلب منه مددا اضافيا لمواجهة خصمه فأمده بأرتق بن أكسب في جمع من العسكر ، وفي ربيع الأول سنة ٤٧٧هـ/يوليه ١٠٨٤م التقى الجمعان على مقربة من آمد (١) ، ويذكر ابن الأثير أن ابن جهير حين رأى معسكر مسلم بن قريش والأمير ناصر الدين بن مروان بدأ يتراجع عن القتال لأنه لايؤثر أن يحل بالعرب البلاء على يده (٢) ، بينما يذكر سبط ابن الجوزى أن ابن جهير عمل على ابعاد مسلم بن قريش حليف الأمير ناصر الدين ، لكن التركمان المرافقين لأرتق لم يتيحوا لابن جهير الفرصة لتجنيب العرب مخاطر المواجهة مع السلاجقة ، وباغتوا معسكر العرب في منتصف الليل ١٥ ربيع الأول وكبسوهم وهم نيام (٣) ، ويذكر سبط ابن الجوزى أيضا أن التركمان أخذوا العرب باليد من غير ضرب ولاطعن ، واستولوا على كل مامعهم من أموال وذخائر (٤) .

أما مسلم بن قريش وناصر الدين بن مروان فقد هربا الى آمد ولحق بهما ابن جهير ومعه أرتق وحاصرا آمد ، وحتى يخرج مسلم بن قريش من الورطة التي أوقع نفسه فيها ، أرسل الى أرتق بن أكسب يطلب منه السماح له بالخروج من آمد مقابل مبلغ من المال يعطيه اياه اذا بلغ مأمنه (٥) ، وقد طمع أرتق بهذا الاغراء وسمح لمسلم بن قريش بالنجاة بنفسه ، وأدى هذا

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٧ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٤ – وفي الأعلاق الخطيرة لابن شداد ج٣ ، ق١ ، ص ٣٨٣ ، أن أرتق بك خرج هو وابن جهير سويا من عند السلطان ، وأن قيادة الجيش أسندت لابن جهير .

(٢) الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٤ .

(٣) مرآة الزمان ، ص ٢٢٧ .

(٤) مرآة الزمان ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٧ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٥ .

العمل من قبل أرتق بك الى تفرق جمع الجيش السلجوقى عندما نشب الخلاف بين ابن جهير وارتق بسبب سلوك الأخير ، حيث توجه أرتق بن أكسب الى سنجار حيث وصله هناك المال الذى وعده به مسلم (١) ، أما ابن جهير فقد توجه الى ميافارقين . ويبدو من رواية للفارقى أن ناصر الدولة بن مروان أدرك أنه لايستطيع أن يتخلص من المعسكر السلجوقى بالقوة العسكرية ولذلك غادر ديار بكر بعد أن أوكل أمور امارته الى وزيره أبى سالم الطبيب وبعض ثقاته وسار الى السلطان ملكشاه فى أواخر سنة ٤٧٧هـ/١٠٧١م لكى يطلب منه كف ابن جهير عن امارته (٢) . وعند مقابلته للسلطان السلجوقى طلب منه السلطان أن يتنازل عن نصف امارته على أن تكون ميافارقين وآمد لناصر الدولة بن مروان ، ولم يستجب الأخير لمطلب السلطان ملكشاه بسبب نصح الوزير الذى أرسل الى الأمير ناصر الدولة يطلب منه عدم الاستجابة الى مطالب السلطان ملكشاه مهما كان الأمر وأن امارته تستطيع الصمود عشر سنوات أمام السلاجقة (٣) .

اما سبط ابن الجوزى فيذكر أن السلطان ملكشاه استقبل الأمير ناصر الدولة ، وبدت من الأخير تصرفات فى معسكر السلطان لاتليق بأى أمير فضلا عن غيره مما كان له أثر كبير فى تصميم السلطان على اتمام السيطرة على الامارة المروانية ولم يستجب السلطان ملكشاه لكل الوسطاء الذين توسطوا للأمير ناصر الدولة ورده خائبا (٤) . هذا وفى الوقت الذى كان فيه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٨ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٥ .

(٢) تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٩-٢١٠ ، ولم أعثر لأبى سالم الطبيب ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٣) الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢١٠-٢١١ – ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، قسم١ ، ص ٣٨٤ .

(٤) مرآة الزمان ، ص ٢٣٣ – وانظر أيضا الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢١٣-٢١٤ .

الأمير المرواني عند السلطان ملكشاه كان ابن جهير قد استولى على خلاط أواخر سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ، وكذلك جزيرة ابن عمر (١) ، وفي المحرم سنة ٤٧٨هـ/ابريل ١٠٨٥م استولى على آمد (٢) وسقطت ميافارقين في جمادى الآخرة من نفس السنة (٣) ، وبذلك استولى على جميع الامارة المروانية ومكنه هذا الفتح من الاستيلاء على ممتلكات وذخائر بني مروان التي جمعها وأرسلها الى السلطان ملكشاه (٤) . ورغم مسعى ابن جهير في ازالة نعمة بني مروان واسقاطه لامارتهم نهائيا (٥) ، فانه من ناحية أخرى لم يتمتع بما حققه اذ سرعان ماعزله السلطان ملكشاه عن ديار بكر وولى عليها رجلا من قبله يدعى أبو علي البلخي سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م (٦) .

وبذلك أصبحت امارة بني مروان السابقة تخضع للسلطان السلجوقي مباشرة يولي عليها ويعزل منها دون أن تكون

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٥،١٤٤ .

(٢) الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ٢١١-٢١٢ – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٦-٢٣٧ – ابن الأثير ، الكامل . ج١٠ ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٤ – الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ص ٢٠٩-٢١٠ – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ص ٢٣٦-٢٣٧ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٤ – ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، قسم١ ، ص ٣٨٥ ، ويجعل فتح ميافارقين في جمادى الأولى سنة ٤٧٩هـ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٧ .

(٥) في تاريخ الفارقي أن السلطان ملكشاه قال للأمير ناصر الدولة بعد أن أتم ابن جهير فتح ديار بكر : (انظر ماتريد عوض بلادك حتى أعطيك ، فقال ناصر الدولة : حربة تقع في صدري تخرج من ظهري . فقيل للسلطان : قد طلب حربي ، فاقطع القرية المعروفة بحربي من بلد العراق فوق بغداد ، وارتفاعها ثلاثون ألف دينار ... فمضى وأقام بها الى أن مات ملكشاه) .
وانظر أيضا ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، قسم١ ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٥٨ .

وراثية فى بيت معين .(١)

هزارسب بن بنكير الكردى وخضوعه لدولة السلاجقة :

وقبل أن نختم حديثنا عن الأكراد نرى أنه لابد من الحديث عن أحد الأمراء الأكراد الذى كان يسيطر على منطقة ايذج(٢) من الأهواز ، وأخذ يعمل على توسيع نفوذه فى جنوب العراق ، ألا وهو الأمير هزار سب بن بنكير بن عياض الكردى(٣) ، الذى لايعرف عنه الشىء الكثير ولاعن حياته السابقة ، قبل بروزه فى الأحداث التى جرت بين أبناء الملك البويهى أبى كاليجار ، اذ نرى هزارسب بن بنكير يتحالف مع الأمير أبى منصور بن أبى كاليجار ضد الملك الرحيم فى الأهواز سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م وشاركه فى حروبه للسيطرة على الأهواز وأرجان(٤) وشيراز ، وقد لقى هزارسب والأمير أبو منصور هزائم متكررة

---

(١) فى سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، ، ص ١٢٨ ، أن السلطان ملكشاه أعاد عميد الدولة ابن جهير الى ديار بكر كحاكم عليها حتى يمكنه من جمع أموال أبيه فخر الدولة ابن جهير وذلك سنة ٤٨٢هـ ، وأقام بها الى سنة ٤٨٤هـ ثم استدعاه السلطان ملكشاه اليه .

(٢) ايذج : عرفها ياقوت بأنها كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان ، وقال عنها أنها أجل مدن هذه الكورة ، وفى تعريف آخر بأنها بلدة من كور الأهواز وبلاد الخوز ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد١ ، ص ٢٨٨) . وفى بلدان الخلافة الشرقية للسترنج ، ص ٢٨٠ نقلا عن المقدسى بأن ايذج من أجل مدن خوزستان ، ويقال لها أيضا مال الأمير .

(٣) لم أجد تعريفا شاملا لهزارسب بن بنكير فيما بين يدى من مصادر ، ولامتى تولى خلفا لأبيه بنكير بن عياض الذى ولى حكم الأهواز سنة ٤٠٥هـ ولم يعرف متى توفى بنكير أيضا .

(٤) أرجان : مدينة كبيرة بينها وبين شيراز ستون فرسخا وتبعد عن سوق الأهواز ستون فرسخا ، ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٤٣ .

من الملك الرحيم أجبرتهما على العودة الى ايذج (١) ، وفيها شعر الاثنان بقرب الخطر منهما خاصة بعد استيلاء الملك الرحيم على الأهواز فقررا مكاتبة السلطان طغرلبك والاستعانة به ضد الملك الرحيم ، ولم يتوان السلطان طغرلبك في مدهما بما يحتاجانه من قوات استطاع بها هزارسب والأمير أبو منصور من ترجيح كفتهما في المعركة التي نشبت بينهم في الأهواز واجبار قوات الملك الرحيم على الانسحاب من الأهواز الى واسط بعد أن فقد الكثير من قواته هناك (٢) .

ولم يستسلم الملك الرحيم للهزيمة التي حلت به اذ أنه عاد اليها سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م عندما استولى على البصرة وأطاعه الديلم بالأهواز كما احتل أرجان سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م (٣) مما شكل تهديدا لامارة هزارسب ، ولذلك فر الى السلطان طغرلبك الذي كان موجودا في أصبهان سنة ٤٤٥هـ وكان قد سبقه أبو علي بن الملك أبي كاليجار الى السلطان طغرلبك ، طالبين منه معونتهما ضد الملك الرحيم (٤) . وقد عاد أبو علي ابن أبي كاليجار الى الأهواز بمعونة الجند السلجوقي سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م (٥) .

أما هزارسب فانه قد ازداد نفوذه بعد دخول السلطان طغرلبك لبغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، اذ أنه أعطى ضمان البصرة والأهواز لهزارسب في محرم سنة ٤٤٨هـ/مارس ١٠٥٦م بثلثمائة وستين ألف دينار وسمح له بذكر اسمه في الخطبة في الأهواز (٦) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٧٢،٥٧٣ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٧٤-٥٧٥ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٨٨،٥٩٤ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٤ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٣ .
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٨ — ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٣ .

ويضيف سبط ابن الجوزى أنه أقطع أيضا أرجان (١) ، وقد اعترض على هذا الاجراء كل من الديلم الخوزستانية والبصرية والأمير أبو على بن أبى كاليجار ، لكن السلطان طغرلبك لم يأبه لمثل هذا الاعتراض ، ويبدو أن هزار سب حصل على لقب تاج الملوك بعد توليه ضمان البصرة والأهواز (٢) .

وقد لعب هزارسب بن بنكير دورا كبيرا فى معاضدة السلطان طغرلبك ضد البساسيرى فهو الذى فرق شمل القبائل العربية أثناء مطاردة السلطان طغرلبك للبساسيرى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وهو متوجه الى نصيبين ، وهو أيضا صاحب المساعى فى تقريب الأمراء العرب ومصالحتهم مع السلطان بعد انضمامهم للبساسيرى ، وعندما تمكن البساسيرى من دخول بغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م عمل الأخير على انتزاع الاعتراف من هزارسب بن بنكير بالفاطميين واجباره على الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى فى الأهواز سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، وذلك عندما قاد البساسيرى حملة على الأهواز . وقد رفض هزارسب الاستجابة لطلب البساسيرى فى اقامة الدعوة للمستنصر واستعد من جانب آخر أن يدفع مايطلبه البساسيرى من الأموال ، أما الدعوة للفاطميين فكان جوابه بشأنها : "ماأخالف أبا الحرث فى شىء وانما بينى وبين السلطان متاخمة فى الأعمال ومجاورة فى البلاد ، ومتى انحرفت عن طاعته لم آمنه وجاءنى من قبله مالاطاقة لى به ، وكذا أمرى معكم لاأقاتلكم ولاأواجهكم بل أبعد عنكم ، والمصلحة مصالحة السلطان وأن يجاب الى ما أمر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١ .

به من رد الخليفة ..." (١) . وفي الوقت الذى كان فيه هزارسب يدافع ويفاوض البساسيرى ، كانت كتبه تترى الى السلطان طغرلبك لانجاده ، ويبدو أن ضغط البساسيرى على هزارسب كان بعد أن انتهى السلطان طغرلبك من أخيه ابراهيم ينال ، ولذلك نراه يرسل مددا الى هزارسب مما أجبر البساسيرى على التراجع عن الأهواز الى واسط (٢) . وحينما عاد السلطان الى بغداد وقضى على البساسيرى أواخر سنة ٤٥١هـ ، نلاحظ أنه فى سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م يعطى ضمان البصرة لأبى الأغر سعد بن سابور ابن المظفر (٣) ،مما يعنى أن هزارسب بقى على الأهواز فقط (٤). ويذكر سبط ابن الجوزى أن هزارسب انتهز فرصة وفاة السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، وطلب الى الخليفة القائم بأمر الله أن يلقبه بألقاب الملوك وأنه سيدفع فى مقابل ذلك مائة ألف دينار ، لكن الخليفة رفض اجابة هزارسب الى طلبه لأن ألقاب الملوك خاصة بالأسرة السلجوقية الحاكمة (٥) ، وفى نفس الوقت أمره الخليفة بالتصدى لقاورت بك بن داود الذى زادت أطماعه فى فارس والأهواز ، مما يعنى أن الخليفة كان يخشى من امتدادا نفوذ قاورت الى العراق . وعلى كل فان هزارسب قد وقف موقفا معاديا لقاورت بك وأمد فضلويه الشوانكارى (٦) بالجند لمنعه سنة ٤٥٦هـ من الاستيلاء على شيراز من جهة

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥١-٥٢ ــ ابن الأثير الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٢ ــ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٥ .
(٣) لم أعثر لأبى سعد بن المظفر على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٨ .
(٥) مرآة الزمان ، ص ١٠٥ .
(٦) لم أجد فيما بين يدى من مصادر على ترجمة لفضلويه الشوانكارى .

ومنعه أيضا من الوصول الى الأهواز من جهة أخرى .(١)

ولم يكن لهزارسب من دور كبير يمكن أن نلحظه فى عهد السلطان ألب أرسلان سوى ماذكرناه من تصدى لقاورت بك ووقوفه الى جانب السلطة الشرعية وقت انشغال السلطان بالمنافسين له فى البيت السلجوقى ، ويذكر ابن الأثير أن هزارسب كان قد تزوج أخت السلطان ألب أرسلان ، وأنه توفى سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م وهى عنده فزوجها السلطان الى شرف الدولة مسلم بن قريش .(٢) وكما ظهرت امارة هزارسب بن بنكير فجأة فى عهد السلطان طغرلبك اختفت كذلك فجأة فى عهد السلطان ألب أرسلان بعد وفاته ، اذ يبدو أنه لم يعقب ولذلك لم أجد شيئا فيما بين يدى من مصادر عن مصير هذه الامارة بعد وفاة هزارسب بن بنكير الكردى .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٩ .
(٢) الكامل ، ج١٠ ، ص ٦١ .

(ج) خضوع الامارات العربية فى الجزيرة وبلاد الشام للسلاجقة

فى أواخر القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى بدأت الامارة العربية الحمدانية تنهار فى شطريها فى حلب والموصل (١)، وأخذت قبائل عربية أخرى تنشىء على أنقاض الامارة الحمدانية امارة خاصة بها وهذه القبائل هى بنو عقيل فى الموصل وبنو مرداس فى حلب . اضافة الى ذلك نشأت امارة عربية فى نفس الفترة فى جنوب العراق وهى الامارة المزيدية وهدفنا من هذا المبحث هو القاء الضوء على الامارتين العقيلية ثم الامارة المرداسية .

أما الامارة المزيدية فقد كان أميرها دبيس بن مزيد الأسدى له دوره فى حركة البساسيرى الذى أوضحناه فى الفصل الثالث ، ولم يعد يشكل بعد ذلك أى دور فاعل مع السلاجقة العظام الى حين وفاته سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ، وقد نشطت هذه الامارة بعد وفاة السلطان ملكشاه حينما دب الخلاف فى الدولة

---

(١) بنو حمدان : ينسبون الى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب التى يعود نسبها الى وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، ويتفرع منها فروع عديدة منها : بنو شعبة فى الطائف ، وبنو حمدان ملوك الموصل ، والأراقم انظر (عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج١ ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص ١٢٠-١٢٣) .
نشأت الامارة الحمدانية على يد الحسن بن عبد الله بن حمدان (ناصر الدولة) سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م فى الموصل ، أما شعبة حلب فقد قامت سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م على يد سيف الدولة أبى الحسن بن على ، الذى اشتهر بغزواته وجهاده ضد البيزنطيين ، وكانت وفاته سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م ، انظر (أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٤٢،٢٤٣ – أحمد عدوان ، الدولة الحمدانية ، ص ٧٣).

السلجوقية على العرش والفوضى التي نجمت عن ذلك (١).

كما أن هناك امارات عربية صرفنا النظر عنها اما لضآلة دورها مثل امارة بني خفاجة في الكوفة (٢)، أو لأنها نشأت نتيجة للضغط السلجوقي على بلاد الشام مثل امارة بني منقذ (٣)، وامارة بني عمار في طرابلس (٤).

---

(١) بنو مزيد : بطن من بني أسد بن خزيمة العدنانية ، كانت مواطنهم الأولى في الحجاز ، ثم انتقلوا الى جنوب العراق بعد الاسلام ، نشأت امارتهم في جنوب العراق على يد أبي الحسن علي بن مزيد سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م عندما اعترفت الخلافة العباسية بامارته في التاريخ المشار اليه أعلاه ، وكانت هذه الامارة ذات ميول شيعية ، عن هذه الامارة انظر : (عبد الجبار ناجي الامارة المزيدية دراسة في وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ٣٨٧-٥٥٨هـ ، البصرة ١٩٧٠م ، ص ١٢٣-١٧٠ - أمينة بيطار موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٣٥٧-٣٧٥ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٥٣-٢٥٦) .

(٢) بنو خفاجة : نسبة الى خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب ابن عامر بن صعصعة ، بدأت امارتهم في الكوفة ونواحيها سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م على يد أبي طريف عليان بن شمال الخفاجي .
لمزيد عن هذه الامارة انظر : (ماجد خفاجي ، الخفاجيون في التاريخ ، ج١ ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ٦٧ ومابعدها) .

(٣) يرجع بنو منقذ الى قبيلة كنانة القحطانية ، ومؤسس امارة بني منقذ هو علي بن المقلد بن نصر بن منقذ ، الذي استطاع الاستيلاء على شيزر سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م . انظر (علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٢٦١-٢٧٠) .

(٤) مؤسس هذه الامارة هو القاضي أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار الطائي الذي استولى على طرابلس سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ، انظر : (علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٢٧٠-٢٧٧) .

(أ) الامارة العقيلية[١] :

تعود نشأة هذه الامارة الى جهود أبى الذؤاد محمد بن المسيب العقيلى الذى كان قد استعان به الاخوان أبو طاهر والحسين ابنى حمدان للدفاع عن الموصل ضد باذ بن دوستك الكردى[٢] عندما هاجمها[٣] ، وقد اشترط أبو الذؤاد على ابنى طاهر تسليمه نصيبين وبلد وجزيرة ابن عمر مقابل وقوفه معهما ضد الأمير الكردى ، ونتج عن هذا التحالف طرد باذ الكردى عن الموصل وقتله[٤] . وشجع هذا الانتصار ابنى حمدان على المضى قدما الى ميافارقين للاستيلاء عليها ، غير أنهم فشلوا فى ذلك عندما تمكن الحسن بن مروان ابن أخت باذ الكردى من هزيمة القوات الحمدانية وأسر الحسين بن حمدان بينما فر أبو طاهر الى نصيبين[٥] حيث ألقى أبو الذؤاد محمد

---

(١) العقيليون : هم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ينتهى نسبهم الى قيس بن عيلان ،خرج بنو عقيل من البحرين لغلبة بنى ثعلب عليهم وساروا الى العراق وظلوا بها الى أن أزالوا امارة بنى حمدان فى الموصل وأسسوا لهم امارة بها .
أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٣١٩،٣٢٠ .

(٢) باذ ابن دوستك الكردى : أبو عبدالله الحسين بن دوستك من الأكراد الحميدية ، يعتبر مؤسس الامارة الكردية فى ديار بكر وتغلب على الحملات البويهية الموجهة ضده ، قتل وهو يحاول الاستيلاء على الموصل سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، انظر : (ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٥-٣٦ — الفارقى ، تاريخ الفارقى ،ص ٥٠ ، حاشية ٣ — أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٥١).

(٣) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٣٤ — أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٣٣١ .

(٤) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٣٤ أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٣٣١ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٧١-٧٢ ، ويذكر ابن الأثير (الكامل ، ج٩ ، ص ٧٢) أن الفاطميين تشفعوا فى اطلاق الحسين بن حمدان فأطلقه الحسن بن مروان وتوجه بعدها الحسين بن حمدان الى مصر .

ابن المسيب القبض عليه ومعه بعض قادته ، وبذلك أصبحت الموصل خالية من القيادة وسهل الاستيلاء عليها من قبل محمد ابن المسيب سنة ٣٨٥هـ/٩٩٠م (١) .

واعترف بهاء الدولة بن بويه بسلطة العقيليين على الموصل (٢) ، غير أن هذا الاعتراف لم يدم طويلا ،اذ سرعان ماكلف بهاء الدولة بن بويه قائده أبا جعفر الحجاج بن هرمز بالاستيلاء على الموصل واستطاع أبو جعفر أن يطرد منها العقيليين سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م (٣) .

ولم يستسلم العقيليون للسلطة البويهية اذ سرعان مااستعادها المقلد بن المسيب العقيلي أخ محمد بن المسيب سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م (٤) ، واستمر في حكمها الى سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م وخلفه في الامارة ابنه قرواش بن المقلد الى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م (٥) . ولعل أبرز مايتميز به عهد قرواش بن المقلد الطويل هو تقلبه السياسي بين الدولتين العباسية والفاطمية ابتزازا لهما ، وطمعا في تحقيق المكاسب المادية والسياسية ، اذ أنه دعا للفاطميين في مناطق نفوذه في سنتي ٤٠١هـ/١٠١٠م ، ٤٣٠هـ/١٠٣٨م (٦) . وانتهت فترة حكم قرواش بعزله حينما قبض عليه أخوه بركة بن المقلد وسجنه وتولى الحكم بدلا منه . ولم تطل فترة بركة بن المقلد الذى توفى سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٧٥،٧٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٧٥ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٩٢ .
(٤) أبو شجاع الروذراوى ، ذيل تجارب الأمم ، ج٣ ، مصر ١٣٣٤هـ/١٩١٦م ، ص ٢٨٠ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٢٥ .
(٥) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٣٥
(٦) أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٣٣٨،٣٣٤ .

وخلفه في الحكم ابن أخيه قريش بن بدران العقيلي (١) ، الذي ابتدأت في عهده العلاقات بين الامارة العقيلية ودولة السلاجقة سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م .

أما سبب ذلك فان قريشا بن بدران كان قد قام بالاستيلاء على الأنبار سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م واستولى أيضا على الأموال الخاصة بالبساسيري وأتباعه (٢) دون أن يذكر لنا المصدر سبب هذا الخلاف بين البساسيري وقريش بن بدران . وأتبع قريش خطوته بالاستيلاء على الانبار اعلان الخطبة في الموصل وسائر المناطق التي تخضع له للسلطان طغرلبك (٣) ، وهي خطوة بلاشك كانت تهدف الى الاحتماء من غضب البويهيين وقائدهم البساسيري في بغداد بدليل أن البساسيري لم يجرؤ على تعقب قريش بن بدران في الموصل بل اكتفى باسترداد الأنبار ومعاقبة ابني المحلبان اللذين ساندا قريشا في هجومه على تلك المدينة (٤) .

وبعد دخول السلطان طغرلبك بغداد رأينا الدور الذي قام به قريش بن بدران في محاربة السلاجقة والخلافة العباسية (٥) . وحين تم القضاء على البساسيري وفتنته سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م أباح السلطان طغرلبك دم قريش بن بدران وقال فيه : "لاعهد له عندي ذاك الكذاب الغدار المستبيح أموال الخليفة ..." (٦) .

---

(١) علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٢٣٥

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٠ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٠ – ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٢ ، ص ٦٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٠ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ .

(٥) عن ذلك انظر ماسبق ص

(٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٧١ .

ولم يكن أمام قريش سوى الهرب والاختفاء من السلطان طغرلبك ، والى جانب ذلك خسر الموصل التى أصبحت تحت سلطة السلاجقة . وفى سبيل استرداد المكانة التى كان عليها قريش ابن بدران انتهز فرصة مغادرة السلطان طغرلبك العراق الى بلاد الجبل فى ربيع الأول سنة ٤٥٣هـ/مارس ١٠٦١م وكتب الى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه التوسط لدى السلطان طغرلبك بالعفو عنه ورد الأعمال التى له اليه . وقد قبل الخليفة القائم بأمر الله القيام بهذه الوساطة وتجاوز عن كل أفعال قريش بن بدران معه ، وكتب فعلا الى السلطان طغرلبك فى أمر قريش بن بدران الذى لم يلبث بعد ذلك طويلا اذ سرعان ماتوفى طريدا فى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (١) دون أن تذكر لنا المصادر رد السلطان طغرلبك بشأنه . ويبدو أن السلطان طغرلبك كان قد اتخذ قراره بشأن معظم مناطق نفوذ الامارة العقيلية والسيطرة عليها من قبله اذ أن مسلم بن قريش الذى خلف أباه فى زعامة العقيليين انتهز فرصة وفاة السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، واستغل فرصة استدعاء فخر الدولة ابن جهير وزير القائم بأمر الله له الى بغداد ليقوم بحراستها مع غيره من الأمراء العرب والأكراد ، وبدلا من هذه الحماية (٢) أخذ يمارس ضغطه على الخلافة حتى تعيد له ماسلب من مناطق نفوذ أبيه . وقد اتضحت أهدافه هذه حينما أخذ يؤلب ويحشد جموعا كثيرة من العرب والكرد وأوهم تلك الجموع التى حشدها أن الخليفة يريد أن يؤمره على العراق وانتشرت اشاعة

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٩ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٧٧ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٠٢ .

فى بغداد أن مسلم بن قريش وجموعه ينوون الاستيلاء على دار السلطنة ونهب مقر الخلافة (١).

وازاء صنيع الأمير العقيلى كلف الخليفة الأمير دبيس بن مزيد وبعضا من القادة الترك والأكراد بالتصدى لمسلم ومنعه من اثارة الفوضى والاضطراب فى بغداد (٢). وحينما رأى مسلم بن قريش ردة فعل الخليفة تجاهه أرسل الى الوزير فخر الدولة ابن جهير يعتب عليه فى تجميع المقاتلين ضده وبين فى رسالته بأنه مايزال على الطاعة ، وان قدومه الى بغداد كان باستدعاء منه ، كما بين فى رسالته أنه لم يعمل شيئا سوى أنه استرد ماسلب من امارته فى عهد السلطان طغرلبك وماصنعه لايزيد عما فعله دبيس بن مزيد وهزارسب بن بنكير وغيرهم ممن توسعوا فى امارتهم وهو ليس أقل منه (٣).

وانتهى الأمر أخيرا بين الخليفة ومسلم بن قريش باقرار الخليفة القائم بأمر الله لمسلم بما فى حوزته من مناطق النفوذ التى استردها فى محرم سنة ٤٥٦هـ/ديسمبر ١٠٦٣م (٤)، وفى ظل أوضاع الدولة السلجوقية التى شغل فيها السلطان الجديد ألب أرسلان فى تثبيت دعائم ملكه ، وحين استطاع السلطان ألب أرسلان التغلب على منافسيه كتب الى أمراء الأطراف سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م يطلب منهم مبايعتهم له فبايعوه ومن ضمنهم مسلم بن قريش (٥). ويذكر سبط ابن الجوزى أن مسلم ابن قريش (٦) قصد همذان واستجار بنظام الملك سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣١ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٠٢،١٠٤ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٠٦ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٨ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٠٥ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٠ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٣ .
(٦) مرآة الزمان ، ص ١٢٠ .

دون أن يذكر السبب في ذلك .

ويبدو أن السلطان ألب أرسلان لم يرضه موقف مسلم بن قريش والطريقة التي تعامل بها مع الخليفة ،لكي يقره في حكم المناطق التي ورثها من والده قريش بن بدران . وعلى أي حال فان مسلم حاز على رضى السلطان الذي أقطعه الانبار وهيت (١) وحربي والسن والبوازيج وعاد الى بغداد سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م (٢) ، وازدادت العلاقة بينهما فيما بعد حينما تقدم مسلم الى السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م طالبا أخته التي توفى عنها هزار سب بن بنكير فزوجه اياها ، وزاده في اقطاعه في العراق ومن ضمنها المدائن (٣) (٤) .

لكن تلك الامتيازات التي حصل عليها الأمير العقيلي لم تدم طويلا اذ سرعان ماقلص السلطان ألب أرسلان مناطق نفوذه سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م وسلب منه ماسبق أن أقطعه من مناطق وهي حربي والسن والبوازيج ، وأعمال الموصل ، وأبقاه على ماكان عليه والده في أواخر عهد السلطان طغرلبك (٥) .

ويبدو أن هذا الاجراء جاء نتيجة للدسائس التي قام بها كاتب مسلم بن قريش أبو جابر بن مقلاب وحاجبه شروين اللذين كتبا الى السلطان ألب أرسلان رسالة يسفهان فيها عقل مسلم بن قريش وسوء تدبيره بايحاشه العشيرة والحواشي (٦) . وفي رواية

---

(١) هيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٤٢١) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥١ .
(٣) المدائن : جمع مدينة ، موضع أسفل بغداد بسبع فراسخ وهي على جانبي نهر دجلة ، وكانت المدائن تتكون من سبع مدن ، وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، أصبحت بلدة صغيرة آهلة ذات مسجد جامع . انظر : (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥١-٥٢) .
(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ،ص ١٤١ .
(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٥٦ .
(٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٥٩ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٩ . ولم أعثر على أبي جابر بن مقلاب والحاجب شروين على ترجمة فيما بين يدي من مصادر

أن هذين الكاتبين اقترحا على السلطان أن يقوما بالقبض على مسلم وطرد العرب عن العراق (١). وقد اكتشف مسلم بن قريش ماقام به كاتبه وحاجبه ولذلك قبض عليهما وقتلهما ، وألقى القبض كذلك على أخيه ابراهيم بن قريش وسجنه ربما لعلاقته بما حدث له ، أو لخوفه من القيام باغراء العقيليين باختياره أميرا عليهم . وبعد أن أمن جبهته الداخلية توجه الى السلطان ألب أرسلان فى خراسان (٢) ليحاول معه استرداد اقطاعه الذى نزع منه واصطحب معه مبعوثا للخليفة كوسيط فى هذه المسألة ، ولم يقدر لمسلم بن قريش لقاء السلطان الب أرسلان الذى كان قد قتل فى ماوراء النهر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م على يد يوسف الخوارزمى ، وبويع لابنه ملكشاه فالتقى مسلم معه .

وكان لحضور مسلم وعدد من الأمراء العرب مثل منصور بن دبيس الأسدى (٣) معسكر السلطان الجديد أثره الكبير فى ترجيح كفة السلطان ملكشاه ضد عمه قاورت بك فى المعركة التى نشبت بينهما قرب همدان فى شعبان سنة ٤٦٥هـ/ابريل ١٠٧٤م حينما انهزمت ميمنة السلطان ملكشاه وأنقذ الموقف الهجوم الكاسح الذى قام به العرب والأكراد على ميمنة قاورت بك وكسرها مما عجل بنهاية المعركة لصالح السلطان ملكشاه (٤).

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٥-١٦٠ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٠ .
(٣) هو منصور بن دبيس بن على بن مزيد الأسدى : أبو كامل ، بهاء الدولة حكم بعد أبيه دبيس بن مزيد (٤٧٤-٤٧٩هـ/ ١٠٨١-١٠٨٦م) كان فاضلا ، عارفا بالأدب شجاعا شاعرا ، قال عنه نظام الملك حين سمع بوفاته : مات أجل صاحب عمامة . انظر : (الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٧ ، ص ٢٩٩) .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٧ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٨ .

ولم يذكر لنا المصدر النتيجة التي حصل عليها مسلم ابن قريش من ذهابه الى السلطان ملكشاه ، ومهما يكن فان الفترة من ٤٦٥-٤٧٠هـ/١٠٧٢-١٠٧٧م لم تشهد أي تحرك للأمير مسلم بن قريش سواء على مستوى امارته أو على مستوى الدولة السلجوقية . وبعد سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ونتيجة للتحولات التي شهدتها بلاد الشام وعودة التهديد الفاطمي لهذه المنطقة بدأت الأحداث تسير لصالح مسلم بن قريش واستطاع أن يستغل ظروفها لصالحه والاستحواذ على حلب وشمال الشام وضمها الى مناطق نفوذه . وكانت بداية هذا التوسع حينما كلف السلطان ملكشاه أخاه تتش بن ألب أرسلان بالتوجه الى الشام ودعم أتسز بن أرق الخوارزمي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م الذي واجه صعوبات جمة في المناطق الجنوبية من الشام وخاصة في فلسطين ودمشق وعودة التهديد الفاطمي لذلك القائد كما سبق أن أشرنا اليه (١) وحين تمكن أتسز من اقناع السلطان ملكشاه بكفاءته في ادارة الأمور في المناطق التي يسيطر عليها صدرت أوامر السلطان الى أخيه تتش بالتوقف عند حلب والاستيلاء عليها من أمرائها المرداسيين وأمده بعدد من القادة التركمان منهم الافشين وصندق الحاجب وايتكين الحاجب (٢) ، اضافة الى تكليف مسلم بن قريش بالمساهمة في دعم الجيش السلجوقي . وفي الثالث من ذي القعدة سنة ٤٧٠هـ/١٩ مايو ١٠٧٨م كان تتش يحكم حصاره على حلب (٣) . وبدلا من أن يعضد مسلم بن قريش الأمير السلجوقي أخذ

---

(١) انظر ص ٣٠٨ ومابعدها .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٩٧ ، لم أعثر لهؤلاء القادة على ترجمة فيما بين يدي من مصادر .
(٣) علي عودة الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ١٦٠ .

يعمل على تقويض الجهود التي بذلها تتش في سبيل الاستيلاء على حلب ، ومن ذلك أنه كان يوصل المواد التموينية التي يحتاج اليها السكان وقوى عزائمهم في مواجهة الحصار المفروض عليهم من قبل القوات السلجوقية ، واضافة الى ماتقدم أخذ مسلم يؤنب بعضا من بني كلاب على مساندتهم لتتش وأفلح في تغيير موقفهم من الحملة السلجوقية (١) . ونتيجة لصنيع مسلم غضب الأمير تتش بن ألب أرسلان عليه وأمره بمغادرة معسكره ، فانصرف مسلم بعد أن باع أتباعه كل مالديهم من مؤن لأهل حلب مما قوى عزائم السكان في هذه المدينة على التصدي للقوات المحاصرة (٢) . ولم يكتف مسلم بن قريش بصنيعه السابق الذكر اذ أنه عمل على قطع الامدادات العسكرية المتجهة الى الأمير تتش ومن ذلك ماصنعه مع المدعو تركمان التركي الذي وصل الى سنجار نجدة لتتش فخوفه مسلم ابن قريش من المسير الى حلب وحذره من بني كلاب ، فلم يستجب الى نصحه وحين نزل تركمان التركي وادي بزاعه (٣) فاجاه بنو كلاب وبنو عقيل بهجوم سريع أتى على معظم حملته واستولوا على الأموال التي كان يحملها ذلك الجيش المتوجه لمساعدة تتش (٤) .

وحينما سمع الأخير بما حدث لتركمان التركي ترك حلب

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٩٨ - ابن العديم بغية الطلب ، ص ٤٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٩٨ - ابن العديم بغية الطلب ، ص ٤٧ .

(٣) بزاعة : ويقال لها بزاعا ، بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٤٠٩) .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٩٨ ، وسمى القائد السلجوقي بهاء الدولة - ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٤٧ .

للانتقام من بني كلاب مما أتاح لسكان حلب اغتنام الفرصة والانقضاض على جيشه المحاصر لمدينتهم واستطاعوا الاستيلاء على معظم أمواله التي تركها تتش بالقرب من الأسوار، وترك جنده المحاصرون لحلب حصارها وانصرفوا من حيث أتوا في صفر سنة ٤٧١هـ/أغسطس ١٠٧٨م (١). أما تتش فانه لم ينل مأربه من بني كلاب فاتجه الى مسلم بن قريش لتأديبه على دوره في افشال الحصار على حلب، وحين وصل الى الامارة العقيلية وجد أن مسلم بن قريش قد استعد له تماما فلم يجرؤ تتش على الاشتباك معه (٢)، بل واصل سيره الى ديار بكر التي خرب كثيرا من مواضعها. ومن هذه المنطقة كتب الى أخيه السلطان ملكشاه يطلب المساعدة بالجند وأمضى بقية الشتاء في ديار بكر ثم عاد الى حلب سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م، وقد وضح التصميم من جانب تتش في الاستيلاء على حلب من خلال الاستيلاء على الريف والحصون التابعة لها مثل منبج والفايا (٣) والدير (٤) وبزاعة وعزاز (٥) (٦).

وحين تم استيلاء تتش عليها سار نحو حلب وحاصرها لكن الأهالي استطاعوا صده، وفي هذه الظروف الحرجة جاءت استغاثة من أتسز في دمشق تطلب المساعدة للتصدي للحملة

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ١٩٨ - ابن العديم بغية الطلب، ص ٥١.
(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ١٩٨.
(٣) الفايا : كورة بين منبج وحلب جنوب منبج. (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٢٣٤).
(٤) الدير : يطلق على المكان الذي يتعبد فيه الرهبان، وهناك مواضع عديدة في بلدان العالم الاسلامي آنذاك كان فيها أديرة، والدير في المتن هو بالقرب من حلب. انظر (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٤٩٥).
(٥) عزاز : بليدة شمالي حلب بينهما يوم، (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١٨).
(٦) علي الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ص ١٦٣

التى أرسلها بدر الجمالى لاستعادة جنوب الشام ، فغادر تتش المناطق الشمالية من الشام نحو أتسز واستطاع أن يسيطر على الوضع فى دمشق وغيرها ، وقضى على أتسز الخوارزمى لتخضع مباشرة لحكم أحد أفراد البيت السلجوقى الحاكم ، ومن جانب آخر فان أهالى حلب ومعهم أميرهم سابق بن محمود (١) أدركوا أنه بعد أن يتفرغ تتش من اصلاح أموره فى دمشق وفلسطين فانه لابد له من عودة الى منطقتهم ولذلك بادر عدد من أعيان حلب بالذهاب الى مسلم بن قريش طالبين منه تسلم حلب وضمها الى امارته حتى لايستولى عليها الغز (٢) .

أما سابق بن محمود فقد نمى الى علمه استعدادات تتش للعودة الى حلب ولذلك أرسل الى مسلم بن قريش برسالة يقول فيها : "أنت أولى بى من الغير والعربية تجمعنا فان كنت مأكولا فكن أنت آكلى ..." (٣) .

ويذكر سبط ابن الجوزى أن مسلم بن قريش بعث بابنه محمد من زوجته السلجوقية الى السلطان ملكشاه يطلب منه اقراره على حلب مقابل ثلثمائة الف دينار فأقره السلطان على حكمها (٤) ، وذلك خلافا لرواية ابن الأثير وغيره ممن ذكروا أن مسلم طلب من السلطان اقراره على حكم حلب بعد أن استولى

---

(١) سابق بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس : حكم حلب بعد مقتل أخيه نصر بيد التركمان (٤٦٨-٤٧٢هـ/١٠٧٥-١٠٧٩م) كان ضعيفا فى سياسته وكثر الطامعون من التركمان والسلاجقة فى ملك حلب فى فترة حكمه ، حتى تمكن قريش من الاستيلاء عليها منه لتنتهى به الامارة المرداسية ، انظر (الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٣ ، ص ٦٩ أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٤٦) .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٢ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان ، ص ٢٠٣ .

(٤) مرآة الزمان ، ص ٢٠٢ .

عليهـا . لكـن روايـة سبط ابن الجوزى تبدو هى الأرجح (١) ، فمع كونهـا مستقاة من مصدر معاصر من رواية محمد بن هلال الصابى المعاصر للأحداث فان هناك جانبا آخر ألا وهو استناد مسلم بن قريش الى صبغة شرعية من السلطان ملكشاه للوقوف فى وجه تتش ابن ألب أرسلان اذا ماحاول الاستيلاء على حلب والتصدى له لأنه يحكمهـا باسم ملكشاه . وهكذا بعد أن حصل مسلم بن قريش على اقرار السلطان ملكشاه ، توجه الى حلب فى أواخر سنة ٤٧٢هـ واستطاع أن يدخلهـا فى أوائل سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م رغم معارضة سابق بـن محمود الـذى تراجع عن وعده لمسلم بن قريش فيما يبدو ، لكنـه رضخ فـى النهايـة للأمـر الـواقع وسلم قلعة حلب الحصينة الى مسلم (٢) لتنتهى بذلك أسرة المرداسيين فى حلب ويفسـر أحـد البـاحثين حرص مسلم بن قريش على الاستيلاء على حلب بأن مسلما كان ينظر الى أن : "استيلاء الأتراك السلاجقة عـلى حـلب سيجعل امارته فى الموصل والجزيرة مطوقة بالنفوذ السلجوقى من الشرق والغرب ..." (٣) .

هـذا مـن جـانب مسلم بن قريش ، وهنـاك سبب آخر متعلق بالسـلطان ملكشـاه الـذى أعطـى مسـلم السـلطة الشـرعية فى الاستيلاء على حلب ، وذلك حتى يجعل تتش بن ألب أرسلان محصورا فـى المنـاطق الجنوبية من الشام ومنعه من الوصول الى أطراف العـراق ومـن ثـم الخلافة العباسية وهى استراتيجية سبق لألب أرسلان أن طبقها مع أخيه قاورت بك فى كرمان (٤) . وعلى أى حال فـان اسـتيلاء مسلم بن قريش على حلب أطلق يده فى بسط نفوذه

---

(١) الكـامل ، ج١٠ ، ص ١١٥ – ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣٢٣ – ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٤٣٩ – ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٢٦٧ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٢ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٥ .
(٣) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ١٦٠
(٤) انظر ص ٤٠٣ .

على مناطق واسعة فى المناطق الشمالية من بلاد الشام اذ أنه استولى فى سنة ٤٧٤هـ-١٠٨١م على حران وسروج (١) (٢). وفى ربيع الآخر أعلن حاكم الرها وأنطاكية فيلاريتوس دخوله فى طاعة مسلم بن قريش وقبل دفع الجزية ونقش اسم مسلم على السكة (٣).

وفى سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م أخضع حمص وأجبر صاحبها خلف بن ملاعب على الخضوع له (٤) رغم أن ابن ملاعب استنجد بتتش وطلب حمايته ، لكن تتش لم يجرؤ على مهاجمة قريش وحماية ابن ملاعب خوفا من كونه يحارب سلطة أخيه السلطان ملكشاه كما يقول المصدر (٥) ، خصوصا وأن تتش كان قد تلقى أمرا من السلطان ملكشاه بألا يتعرض لحلب وأن يعود الى دمشق وذلك عندما هاجم حلب سنة ٤٧٥هـ (٦).

وفى ظل هذا النمو المتزايد لنفوذ مسلم بن قريش أخذ يتطلع الى مد حدوده الى منطقة ديار بكر المجاورة له متحديا بذلك سلطة السلطان ملكشاه الذى أمر بازالة الأسرة المروانية من ديار بكر (٧). وقد مر بنا كيف تحالف مسلم بن قريش مع ناصر الدين بن مروان ضد فخر الدولة بن جهير ،

---

(١) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢١٦) .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٨ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٢ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٩ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٢ .
(٤) على الغامدى ، بلاد الشام ، ص ٢٤١ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١٥-٢١٦ .
(٦) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١٦-٢١٧ .
(٧) انظر ماسبق ، ص ٣٥٢ .

وكيف آل هذا التحالف الى هزيمة منكرة بمسلم . ومع أن هذه الهزيمة كانت قاسية الا أن آثارها كانت أقسى من تلك الهزيمة العسكرية ، اذ أن السلطان ملكشاه لم يمرر ذلك التحدى مرور الكرام ، بل انه صمم على المضى بنفسه من خراسان الى الجزيرة لمعاقبة مسلم بن قريش ، وتجريده من المناطق التى تخضع له . وفى طريق السلطان ملكشاه الى الجزيرة الفراتية من أصفهان ، أقطع حلب والرحبة لعميد الدولة بن جهير ، ودخل السلطان الموصل سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م . (١) عازما على متابعة الاستيلاء على بقية المناطق فى شمال الشام (٢) لكن تطورا حدث فى خراسان أجبر السلطان ملكشاه على ترضية مسلم بن قريش واعادته الى امارته ألا وهو عصيان أخيه تكش ابن ألب أرسلان . (٣) ومما لاشك فيه أن السلطان ملكشاه قد وازن بين مصلحة الدولة السلجوقية وبين قراره بعزل مسلم من امارته ، ووجد أن اعادة الأمير العقيلى الى امارته ، أفضل من خلق مشكلة مع القبائل العربية التى يمكن أن تثور بسبب عزل مسلم بن قريش ، سيما فى ظل ظروف عصيان تكش بن ألب أرسلان وطموح أخيه الآخر تتش بن ألب أرسلان ، الذى كان يسعى للسيطرة على كامل بلاد الشام ان لم يكن الهدف هو الوصول الى بغداد . وهكذا فضل السلطان ملكشاه الاعتبارات السياسية التى تحفظ كيان الدولة فى جناحها الغربى ، ويتفرغ هو لعصيان أخيه تكش فى الجناح الشرقى ، ولذلك كلف السلطان

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٨ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ٥ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٩ - ابن الأثير ، الباهر ، ص ٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٦ .

ملكشاه مؤيد الملك بن نظام الملك (١) بالذهاب الى مسلم بن قريش في الرحبة وايهامه أن السلطان رضى عنه بتوسط والده الوزير نظام الملك ، وهكذا أعاد مسلم بن قريش الى امارته بسبب عصيان تكش (٢) .

لكن مسلم بن قريش أقحم نفسه بعد تلك النكسة التى مر بها في مشكلة جديدة دفع فيها حياته ثمنا لها ، وتتلخص هذه المشكلة في أن سليمان بن قتلمش كان قد استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ولم يعترض مسلم على ذلك الفتح لكنه طالب سليمان بن قتلمش بما كان يأخذه من أمير أنطاكية البيزنطى فيلاريتوس من جزية ، وكان رد سليمان بن قتلمش بأنه مسلم وليس بكافر ولاتؤخذ الجزية من المسلمين ولذلك فانه لن يدفع من المال مثل ماكان يدفع الحاكم البيزنطى (٣) . ولم تقنع هذه الاجابة مسلم بن قريش ورد عليها بمهاجمة ضواحى أنطاكية سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م (٤) ، فرد سليمان على مسلم بنهب نواحى حلب ، وأخذ

---

(١) مؤيد الملك بن نظام الملك : هو عبيد الله أبو بكر بن نظام الملك الحسن بن على الطوسى ، نشأ بأصبهان ، ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفأ منه ، وكان كثير المكر والحيل في اصلاح أمر الملك ، استوزره السلطان بركيارق سنة ٤٨٧هـ ثم تغير عليه فعزله واعتقله ، وخلص من اعتقاله ليتجه الى محمد بن ملكشاه وشجعه على عصيان أخيه السلطان بركيارق ، وظل وزيرا للسلطان ملكشاه الى حين مقتله على يد بعض أنصار بركيارق ، انظر (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ٣٧٢ ، حاشية ٧) .

(٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٩ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٩ - ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٤٥٣ - النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ٣٢ - ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٢٦٩ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٩ ، حيث ذكر أن سليمان بن قتلمش كان هو البادىء بنهب سواد حلب من منبج الى المعرة ، وكان تعليله للأهالى الذين لجأوا اليه بقوله : (مالى بهذا عادة وانما أميركم فعل هذا حيث نزلنى منزلة الكفار) . ورد عليهم ما أخذ منهم - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٩-١٤٠ - ابن الأثير ، الباهر ، ص ٦ .

كل منهما يستعد للآخر .

وفى شهر صفر سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م قام مسلم بن قريش بتزعم جمع من العرب والتركمان واتجه الى أنطاكية لمحاصرتها ، لكن سليمان بن قتلمش لم يعطه فرصة تنفيذ غرضه وخرج لملاقاته قبل وصوله الى أنطاكية وبالقرب من هذه المدينة دارت بين الطرفين معركة قوية كسبها سليمان بن قتلمش فى النهاية بسبب انحياز التركمان الذين كانوا بصحبة الجيش العربى ، وانتهى مسلم بن قريش قتيلا بعد أن قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب ، وكان مقتله فى شهر صفر سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م (١) لتنتهى بوفاته وحدة الامارة العقيلية التى وسع رقعتها بشكل كبير .

وكانت أولى النتائج المترتبة على مقتله خروج حلب نهائيا من العقيليين وخضوعها مباشرة للسلطان السلجوقى ملكشاه الذى ولى عليها مملوكه آقسنقر سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م (٢) . أما الموصل والجزيرة الفراتية فان بنى عقيل كانوا قد أخرجوا ابراهيم بن قريش من سجنه الذى كان محبوسا فيه منذ سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وولوه عليهم (٣) . وقد اتجه ابراهيم عقب ذلك الى السلطان ملكشاه فى أصبهان وقد أقره السلطان على الموصل والجزيرة وزوجه بعمته التى كانت تحت مسلم بن قريش (٤) أما محمد بن مسلم بن قريش فان السلطان قد أقطعه الرحبة

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٤ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤٠ – ابن الأثير ، الباهر ، ص ٦ – ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص ٢٦٩ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٦٢ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٤-٢٣٥ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤١ – ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٦٩ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٨ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٤١ .

والرقة وحران وغيرها من المناطق ، وزوجه أيضا بأخته زليخا خاتون[(١)] .

ويتضح مما قام به السلطان ملكشاه أنه قام بتقسيم الامارة العقيلية الى قسمين بين ابراهيم بن قريش وابن أخيه محمد بن مسلم وفتت وحدتها حتى لاتكون بمثل القوة التى كانت عليها فى عهد مسلم بن قريش . وقد ظلت هذه الامارة الى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م حينما قضى تتش بن الب أرسلان على ابراهيم بن قريش واستولى على الموصل[(٢)] ، ثم سقطت بعد ذلك فى يد كربوغا سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م[(٣)] لتنتهى بذلك الامارة العقيلية وتطوى صفحتها من التاريخ فى حلب .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٨ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٥٨ - الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ .
(٢) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٠٢
(٣) أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة ، ص ١١٠ .

(ب) الامارة المرداسية فى حلب :

ينتسب بنو مرداس الى قبيلة بنى كلاب بن ربيعة من بطون عامر بن صعصعة (١)، وقد تنقلت المواطن ببنى كلاب منذ القرن الأول الهجرى حتى استقر أمرهم فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى شمالى بلاد الشام حيث ازدادت أعدادهم وقوى نفوذهم مع تدهور الامارة الحمدانية فى حلب (٢). ومع بداية النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام (٣) ربط صالح بن مرداس الكلابى مصالحه ومصالح قومه مع الفاطميين، واعترف لهم بالنفوذ حتى استطاع الاستيلاء على حلب سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م (٤). ومع ذلك فقد قتل صالح بن مرداس فى معركة الأقحوانة (٥) سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م على يد القائد الفاطمى أنوشتكين الدزبرى، عندما اتفق مع حسان بن المفرج الطائى وسنان بن عليان الكلبى على اقتسام النفوذ فى بلاد الشام (٦).

---

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٧١ ـ عمر رضا كحالة معجم القبائل العربية القديمة والحديثة، ج٣، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٩٨٩.

(٢) أمينة بيطار، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، ص ٢٤٧ ـ محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام، ص ١٢.

(٣) صالح بن مرداس بن ادريس الكلابى : أبو على أسد الدولة أول المرداسيين حكما فى حلب (٤١٤-٤٢٠هـ/١٠٢٣-١٠٢٩م) كان من دهاة الأمراء وشجعانهم. انظر : (الزركلى، الأعلام، مجلد ٣، ص ١٩٦-١٩٧ ـ أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الاسلامية، ج١، ص ٢٤٦).

(٤) أمينة بيطار، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، ص ٢٥٠.

(٥) الأقحوانة : بليدة بالشام من أعمال فلسطين بالقرب من طبرية (ابن خلكان، وفيات الأعيان، مجلد ٢، ص ٤٨٨).

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٩٢ ـ المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ١٧٨ ـ على الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى، ص ٦٨-٦٩ ـ محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام، ص ٦٤ ـ أمينة بيطار، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، ص ٢٥٧-٢٥٨.

خلف صالح بن مرداس بعد مقتله ابنه نصر بن صالح (١) الذى قتل هو الآخر سنة ٤٢٩هـ فى معركة مع رافع بن أبى الليل بالقرب من حلب (٢) . وظلت حلب خاضعة مباشرة للفاطميين الى سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م ، اذ تمكن ثمال بن صالح (٣) من استعادتها بعد وفاة الحاكم الفاطمى أنوشتكين الدزبرى (٤) ، وبالرغم من الولاء الظاهرى الذى أبداه ثمال بن صالح المرداسى تجاه الفاطميين الا أن المستنصر بالله الفاطمى لم يقنعه ذلك الولاء وجرد له حملتين فى سنتى ٤٣٩هـ و٤٤١هـ ، واستطاع ثمال أن يتغلب عليها ويوسع مناطق نفوذه باستيلائه على حمص وحماه (٥) .

ولم يشأ ثمال أن يظل فى صراع دائم مع الفاطميين ولذلك بعث ابنه وثاب وأمه الى القاهرة سنة ٤٤٢هـ وقابلا المستنصر بالله الذى أكرمهما وأحسن وفادتهما ، وعادا باعتراف الخليفة الفاطمى بثمال بن صالح حاكما على حلب (٦) . وقد لعب ثمال بن صالح دورا مهما فى فتنة البساسيرى حينما لجأ الأخير الى الرحبة ، اذ استقبله ثمال وحمل اليه مالا

---

(١) نصر بن صالح بن مرداس : أبو كامل شبل الدولة (٤٢٠-٤٢٩هـ/١٠٢٩-١٠٣٨م) انظر (الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٨ ، ص ٢٤ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٤٦) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٦٠ - ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ - على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المليبى ، ص ٧١ .

(٣) ثمال بن صالح بن مرداس : أبو علوان (٤٣٤-٤٤٩هـ/١٠٤٢-١٠٥٧م) وهى الفترة الأولى من حكمه لحلب ثم حكمها فى الفترة الثانية (٤٥٣-٤٥٤هـ/١٠٦١-١٠٦٢م) كما أوضحناه فى المتن ، انظر :(الزركلى ، الأعلام ، مجلد ٢ ، ص ١٠٠ أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٤٦) .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٣ - أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٢٦٨ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٣ - على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المليبى ، ص ٧٤،٧٥ .

(٦) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المليبى ، ص ٧٥ محمد أحمد عبد المولى ، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام ، ص ١٠١ - أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٢٧٦ .

عظيما ، كما أنه وضع نفسه وقومه فى خدمة مبعوث الفاطميين الداعى هبة الله الشيرازى . (١)

والغريب أن ثمال الذى وضع امارته فى مواجهة السلاجقة لم يستطع أن يكبح جشع قومه وأخيه عطية بن صالح فى الأموال التى كانت بصحبة هبة الله الشيرازى ، وأدرك أنه أمام مهمة صعبة آثر الانسحاب منها قبل أن يقضى على فتنة البساسيرى ، ولذلك كتب الى المستنصر بالله يسلم اليه حلب على أن يعوضه بدلا عنها ، فاستجاب له الخليفة الفاطمى وعوضه عن حلب امارة عكا وبيروت وجبيل سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، أما حلب فقد عين المستنصر بالله الحسن بن ملهم حاكما لها واستمر فى حكمها الى سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م . (٢)

وقد أثر فشل حركة البساسيرى على الأوضاع السياسية فى حلب اذ سرعان ماتمرد بنو مرداس على الحكم الفاطمى ، فقد استولى عطية بن صالح على الرحبة ، بينما استولى محمود ابن نصر بن صالح على حلب فى جمادى الثانية سنة ٤٥٢هـ ، وفشلت حملة الفاطميين التى أرسلوها بقيادة الحسين بن حمدان من استعادتها . (٣) وازاء تلك الأوضاع كلف المستنصر بالله ثمال بن صالح بالتوجه الى حلب واستعادتها من ابن أخيه محمود بن نصر ، وتمكن ثمال من طرد ابن أخيه محمود بن

---

(١) هبة الله الشيرازى ، مذكرات داعى الدعاة الدولة الفاطمية ، ص ١٥٤ ـ محمد أحمد عبد المولى ، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام ، ص ١٠٥،١٠٧ .

(٢) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٧٧-٧٨ ـ محمد أحمد عبد المولى ، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام ، ص ١١٤ ـ أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٢٧٩-٢٨٠ . ولم أعثر للحسن بن ملهم ترجمة فيما بين يدى من مصادر

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١-١٢ ـ محمد أحمد عبد المولى ، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام ، ص ١١٦-١١٧،١١٨ .

نصر من حلب سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ، ولم يلبث ثمال أن توفى فى العام التالى ٤٥٤هـ/١٠٦٢م بعد أن أوصى بأن يخلفه أخوه عطية بن صالح (١) .

ولم يعترف محمود بن نصر بوصية عمه ثمال (٢) ، اذ سرعان مانازع عمه عطية وحاصره فى حلب سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، مما دفع بعطية بن صالح الى الاستنجاد بأحد زعماء الترك ويدعى هارون ابن خان الذى وصل الى حلب ومعه ألف فارس تركمانى ، ولذلك سرعان ما انسحب محمود بن نصر من حصار حلب خوفا من التركمان .

وقد دخلت منطقة شمال الشام مرحلة جديدة تغيرت فيها موازين القوى ومارس فيها التركمان دورا فعالا فى تقدير مصير الامارة المرداسية (٣) .

فبعد الحلف الذى تم بين التركمان وعطية بن صالح انقلب الأخير عليهم وطردهم بمساعدة الأهالى من حلب فى صفر سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م ، واتجه التركمان الى خصمه محمود بن نصر وتحالفوا معه واستطاع محمود بحلفائه التركمان الاستيلاء على حلب فى جمادى الثانية من نفس العام (٤) .

وقد تنبه الفاطميون الى خطورة وجود هؤلاء التركمان فى

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٤ - على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٧٩-٨٠ .

(٢) محمود بن نصر بن صالح بن مرداس : عز الدولة (٤٥٧-٤٦٧هـ/١٠٦٤-١٠٧٤م) حكم حلب عشر سنوات وكان شجاعا مهيبا جوادا يدارى الدولتين العباسية والفاطمية (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٣٥٨ - الزركلى الأعلام ، مجلد ٨ ، ص ١٨٩ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٤٦) .

(٣) على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٩٨، ٩٩ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٤-٢٧٥ - على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ١٠٠-١٠١

الامارة المرداسية ، ولذلك كتب المستنصر بالله الى محمود ابن نصر يطلب منه عدة مطالب منها اخراج التركمان من امارته ، وقد رد محمود بن نصر على المستنصر بالله أن يدهم فوق يده واذا كان الخليفة الفاطمي يريد ابعادهم فليبعث بجيش من عنده لطردهم وسيساعدهم في مهمتهم تلك (١). وقد أغضب هذا الرد الخليفة المستنصر بالله الذي كتب الى واليه على دمشق بدر الجمالي يأمره بالمسير الى حلب وتأديب أميرها فلم يكن من بدر الا أن كتب الى عطية بن صالح وهو في الرحبة يأمره بالمسير الى حلب ووعده بمساعدته في هذه المهمة ، وأخذ كل من عطية بن صالح ، ومحمود بن نصر يستعدان للمواجهة لولا تدخل القاضي ابن عمار الذي أصلح بينهما على أن تكون الرحبة وبالس والرقة تابعة لعطية ، وحلب لمحمود (٢).

ورغم الصلح الذي تم بين محمود بن نصر وعمه عطية فان الأخير كان قد توجه بعد ذلك الى دمشق دون معرفة دوافع هذا العمل ، وقد استغل مسلم بن قريش فرصة غياب عطية عن الرحبة وقام بالاستيلاء عليها سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بمواطأة من أهلها الذين كانوا غير راضين عن عطية بن صالح . وقد خطب مسلم بن قريش للخليفة القائم بأمر الله ثم للسلطان ألب أرسلان ولنفسه بعدهما في الرحبة ، كما بعث الى الخليفة القائم بأمر الله أعلام الفاطميين التي كسرت وطيف بها في بغداد ، وكوفىء مسلم بن قريش على ذلك بمنحه خلعا تكريما له (٣).

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٣٣ .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٣٣ .
(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٣٣ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٧ .

ومما لاشك فيه أن الأوضاع السيئة التى كانت تعيشها الدولة الفاطمية فى ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة ، واختلاف العسكر الفاطمى فيما بينهم قد غير معادلة موازين القوى فى بلاد الشام التى أصبحت تميل لصالح السلاجقة . بل ان زوال الدولة الفاطمية كان قد لاح ، عندما أرسل الحسين بن حمدان الى السلطان ألب أرسلان يطلب مسيره الى مصر للقضاء على الدولة الفاطمية سنة ٤٦٢هـ (١) .

وقد فرضت هذه الأحداث على الامارة المرداسية أن تقرر مستقبلها سواء بالبقاء مع الفاطميين ، أو التحول الى الدولة العباسية ومعها السلاجقة ، ولذلك قرر محمود بن نصر أن يحول ولاءه الى العباسيين . ولم يكن هذا التغير فى الولاء نابع من دافع شخصى ، اذ يذكر ابن العديم أن السلطان ألب أرسلان كان قد كتب الى محمود بن نصر سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م يطلب منه أن يقيم الدعوة العباسية ويدين بالولاء للسلاجقة ، كما أرسل اليه خلعا وتشريفا (٢) .

أما سبط ابن الجوزى فيذكر أن الوزير العباسى فخر الدولة هو الذى أرسل الى محمود بن نصر يطلب منه اقامة الدعوة العباسية اذا أرادوا أن يأمنوا على بلادهم من الدولة السلجوقية (٣) ، ومما يبين أن محمود بن نصر كانت استجابته فورية لمثل هذا الطلب ربما لعلمه أيضا بنية

---

(١) انظر ماسبق ، ص ٢٩٥ ومابعدها .
(٢) بغية الطلب ، ص ٢٢ .
(٣) مرآة الزمان ، ص ١٤٢ - وانظر ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج٢ ، ص ٣٨٠ اذ يذكر أن الخليفة القائم بأمر الله لقب محمود المرداسي جزاء اعلانه الخطبة للخليفة العباسي ألقابا كثيرة منها الأمير الأجل حسام الدولة العباسية وزعيم جيوشها تاج الملوك ناصر الدين شرف الأمة ذو الحسبين خالصة أمير المؤمنين

السلطان ألب أرسلان بالتوجه الى بلاد الشام ومنها الى مصر ، ولذلك فقد جمع محمود بن نصر أواخر سنة ٤٦٢هـ أعيان امارته وقال لهم : "قد علمتم أن الدولة التى كنا لها طائعين قد ذهبت ، وهذه دولة جديدة وعساكر عظيمة ، ونحن قد ضعفنا ، ونخاف أن يجينا من لاطاقة لنا به ، وربما ألم بنا سلطاننا ونحن على مانحن عليه من الوهن ، والتسير الى دولة غيرها مع ماتعرفون به من الاعتقاد والمذهب مايستحلون به دماءكم وأموالكم ، والرأى أن نقيم لهم الخطبة قبل أن يجينا وقت لاينفعنا فيه قول ولابذل ..." (١) . وقد رضخ الأعيان لمثل هذه الدعوة ، أما عامة الناس فقد ساءهم تحول الولاء الى الخلافة العباسية والدولة السلجوقية حمية للمذهب الاسماعيلى الذى يدينون به . وقد اضطر محمود بن نصر الى التهديد باستعمال القوة اذا عارض أحد الخطباء الدعاء للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وكان رد الأهالى على ذلك أن سحبوا بسط الجامع احتجاجا على الخطبة للعباسيين ، وقالوا : "... هذه حصر على بن أبى طالب فليأت أبو بكر بحصر يصلى عليها الناس" (٢) مما يبين أن غالبية أهل حلب آنذاك كان يدينون بالمذهب الشيعى (٣) .

ويذكر سبط ابن الجوزى أن بنى كلاب خطبوا أيضا للخليفة القائم بأمر الله فى سواد دمشق (٤) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٢ ـ وانظر ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٣ ، وذكر أنه أقام الخطبة سنة ٤٦٣هـ ـ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٨٠-٣٨٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣ .
(٣) محمد العوفى ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ، ص ١٣٧ .
(٤) مرآة الزمان ، ص ١٤٣ .

مسير السلطان ألب أرسلان الى الشام :

تجهز السلطان بجيوشه وتوجه نحو بلاد الشام سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م وافتتح في طريقه عددا من المواضع ، وحين وصل الى الفرات فوجيء بأن أمير حلب لم يكن في استقباله ، وقد غضب السلطان ألب أرسلان لهذا التصرف ، وعبر الفرات وقام جنوده بنهب نواحي حلب وأعمال حمص .(١)

وأرسل السلطان الى محمود بن نصر يطلب منه الحضور عنده ووطء بساطه ، وكان عند محمود رسول الخليفة القائم بأمر الله وهو نقيب النقباء طراد الزينبي(٢) ، وقد طلب منه الأمير محمود أن يذهب الى السلطان ليعفيه من الحضور عنده ، بحجة أنه مقيم الخطبة للدولة العباسية ، وعندما وصل الزينبي الى السلطان ذكر له ذلك ، وكان رد السلطان عليه : "أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون حي على خير العمل"(٣) ، وأصر السلطان على حضوره ووطء بساطه كما أنه شدد من حصاره على حلب ، وأخذ يستدعي اليه بعضا من زعماء بني كلاب(٤) ، وهنا أسقط في يد محمود الذي خشي من مغبة امتناعه عن ذلك ، ولذا قرر النزول الى السلطان في يوم الأحد لليلة بقيت من جمادى

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ .
(٢) طراد الزينبي : هو أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي ابن حسن الزينبي الهاشمي القرشي مسند العراق ونقيب النقباء ، ولد في بغداد سنة ٣٩٨هـ ، ساد الدهر رتبة وعلوا وفضلا ورأيا وشهامة ولي نقابة البصرة ثم بغداد وكان أعلى أهل بغداد منزلة عند الخليفة . توفي في بغداد سنة ٤٩١هـ .
انظر ترجمته ومصادرها في (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج١٩ ، ص ٣٧-٣٩) .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٤ .
(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٢٤ .

الآخرة سنة ٤٦٣هـ ، ومعه أمه منيعة بنت وثاب النميرى ، ووصلا الى معسكر السلطان الب أرسلان ودخلا عليه ، وتقدمت والدة محمود الى السلطان بالخطاب قائله : "هذا ولدى قد سلمته اليك فاحكم فيه بما ترى"(١)، فما كان من السلطان الا أن طيب خاطرها ، وأكرمها وأكرم ابنها ، ثم طلب منهم العودة الى حلب وأن يعود اليه محمود بن نصر فى الصباح حتى ينال مايليق به من تكريم . وانتهى الموقف بين السلطان الب أرسلان وبين أمير حلب بأن أقره السلطان على حلب معززا مكرما(٢) . وقد علل محمود سبب امتناعه من النزول الى السلطان الب أرسلان فى البداية ، بأن أحد اخوة ابن خان التركمانى حذره من مقابلة السلطان ، وحينما عرف أخ ابن خان بانفضاح أمره هرب الى دمشق(٣) .

أما بشأن عدم مواصلة السلطان الب أرسلان مسيره الى دمشق فان ذلك يعود الى تهديد الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجنيس للدولة السلجوقية فآثر السلطان أن يواجه الامبراطور البيزنطى قبل أى شىء ولذلك رحل الى خلاط بعد أن كلف أمير حلب محمود بن نصر بالتوجه الى دمشق لاجبارها على الخضوع للدولة العباسية(٤) .

ولم يطل العمر كثيرا بعد ذلك بمحمود بن نصر اذ أنه توفى سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م وخلفه ابنه نصر بن محمود الذى قتل

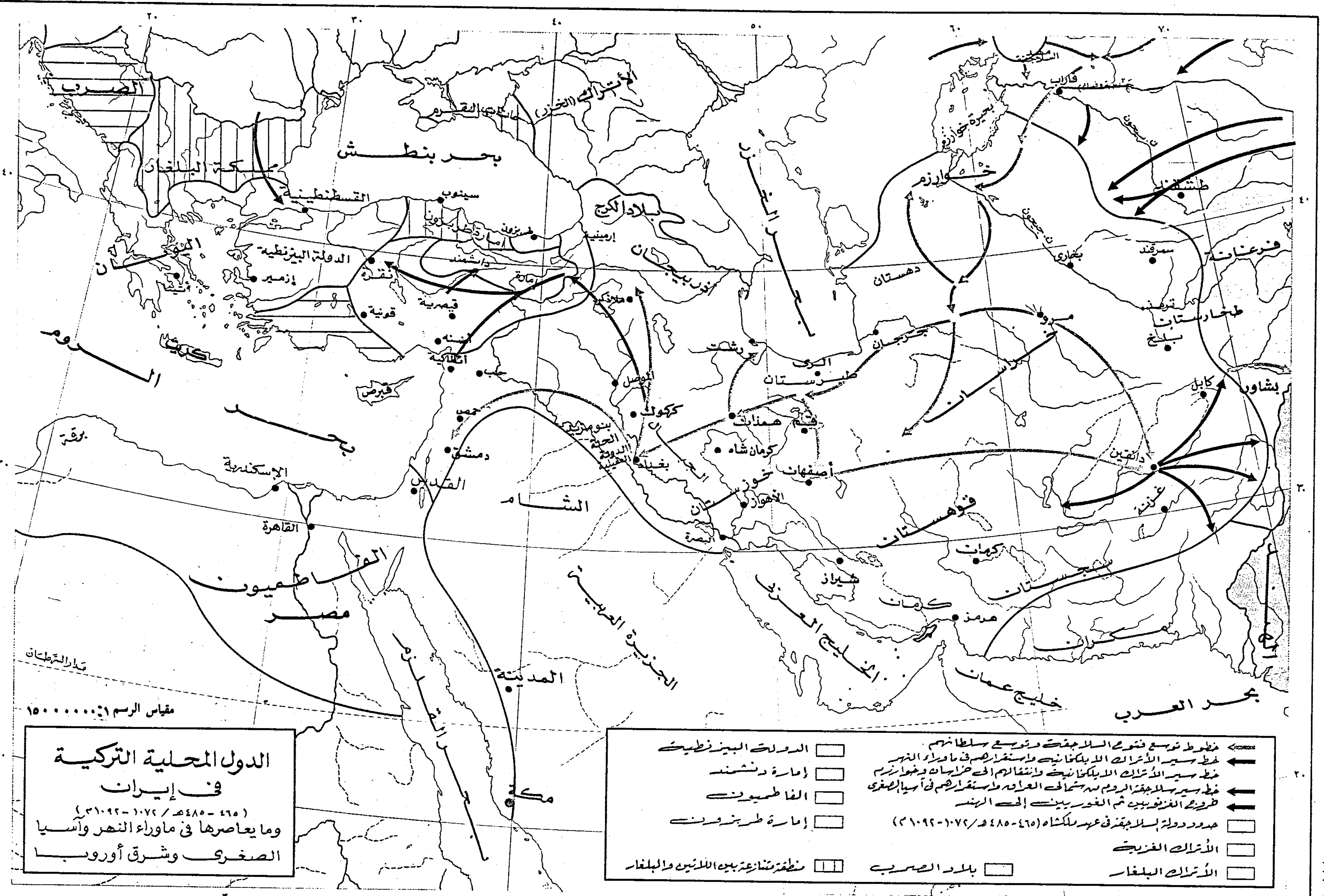
---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ - وانظر ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٤ - ابن العديم ، بغية الطلب ، ص ٢٤ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤٦ .

فى العام التالى على يد التركمان ، وتنازع أخواه سابق ووثاب امارة حلب (١) . وقد أسهم هذا النزاع بين الأخوين فى اضعاف الامارة المرداسية ومن ثم سقوطها بيد مسلم بن قريش العقيلى كما مر بنا ذلك سابقا (٢) .

---

(١) أمينة بيطار ، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ، ص ٢٩١ .
(٢) انظر ماسبق ، ص ٣٧٣ .


الدول المحلية التركية
في إيران
(٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م)
وما يعاصرها في ماوراء النهر وآسيا
الصغرى وشرق أوروبا
مقياس الرسم ١: ١٥٠٠٠٠٠٠
خطوط توسع فتوح السلاجقة وتوسع سلطانهم
خط سير الأتراك الايلكخانيين واستقرارهم في ماوراء النهر
خط سير الأتراك الايلكخانيين وانتقالهم الى خراسان وخوارزم
خط سير سلاجقة الروم من شمالي العراق واستقرارهم في آسيا الصغرى
خروج الغزنويين ثم الغوريين إلى الهند
حدود دولة السلاجقة في عهد ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م)
الأتراك الغزية
الأتراك البلغار
بلاد الصرب
الدولة البيزنطية
إمارة دانشمند
الفاطميون
إمارة طرابزون
منطقة متنازعة بين اللاتين والبلغار
الصرب
مملكة البلغار
الأتراك الخزر
القرم
بحر بنطش
القسطنطينية
سينوب
طرابزون
إمارة طرابزون
الدولة البيزنطية
إزمير
اليونان
أنقرة
قيصرية
قونية
دانشمند
بلاد الكرج
إرمينية
أذربيجان
بحر الخزر
الروم
كريت
قبرص
أنطاكية
حلب
حمص
دمشق
القدس
بحر الروم
برقة
الإسكندرية
القاهرة
الفاطميون
مصر
مدار السرطان
بحر القلزم
المدينة
مكة
الجزيرة العربية
الشام
الموصل
كركوك
بغداد
البصرة
الدولة العقيلية
بنو مزيد
الحلة
العراق
خوزستان
الأهواز
كرمانشاه
همذان
قم
أصفهان
الري
طبرستان
رشت
جرجان
دهستان
خراسان
مرو
بخارى
سمرقند
ن. جيحون
خوارزم
بحيرة خوارزم
فاراب
ن. سيحون
طشقند
فرغانة
ترمذ
طخارستان
بلخ
كابل
بشاور
غزنة
دانقين
قوهستان
كرمان
شيراز
هرمز
سجستان
مكران
الخليج العربي
خليج عمان
بحر العرب
الهند

الفصل السادس

الأحوال الداخلية في دولة السلاجقة

(١) المنافسة بين أبناء البيت السلجوقى .

(أ) تمرد ابراهيم ينال فى عهد السلطان طغرلبك .

(ب) المنافسة بين أبناء البيت السلجوقى فى عهد السلطان طغرلبك .

* تمرد قتلمش بن اسرائيل .
* بيغو بن ميكائيل .
* موقف قاورت بك من أخيه السلطان ألب أرسلان .

(ج) المنافسة بين أبناء البيت السلجوقى فى عهد السلطان ملكشاه .

* تمرد قاورت بك على السلطان ملكشاه .
* موقف تكش من السلطان ملكشاه .

(٢) نظام الملك ودوره فى ادارة الدولة السلجوقية .

* دوره فى عهد السلطان ألب أرسلان .
* دوره فى عهد السلطان ملكشاه .

(٣) علاقة السلاطين السلاجقة الأوائل بالخلافة العباسية ودورهم فى التصدى للمذهب الشيعى .

(أ) علاقة السلطان طغرلبك بالخليفة القائم بأمر الله

(ب) علاقة السلطان ألب أرسلان بالخليفة القائم بأمر الله .

(ج) علاقة السلطان ملكشاه بالخليفة القائم بأمر الله ثم الخليفة المقتدى بأمر الله .

(د) تصدى السلاجقة للشيعة (الامامية ـ الاسماعيلية) .

(أ) المنافسة بين أبناء البيت السلجوقي في عهد السلطان طغرلبك

تمرد ابراهيم ينال على السلطان طغرلبك :

سبق أن ذكرنا في مواضع متعددة من هذا البحث ماقام به ابراهيم ينال من مجهود حربي دعم به سلطة الدولة السلجوقية الناشئة ، ثم ذكرنا أيضا الخلاف بين السلطان طغرلبك وأخيه ابراهيم ينال الذي كان من نتائجه تمرده عليه مما أتاح للبساسيري دخول بغداد وطرد الخليفة منها .

ولفهم طبيعة هذا الخلاف لابد لنا من الاشارة بايجاز الى الدور الذي قام به هذا الأمير ، والوضع الذي أصبح فيه في ظل نفوذ السلطان طغرلبك ، فقد كان ابراهيم ينال ممن عبروا مع طغرلبك واخوانه وكانت له جموع من الغز نسبوا اليه أشار اليهم البيهقي بالينالين (١) . أي أنه كان مساويا للاخوة في النفوذ بين القبائل الغزية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ساهم مع طغرلبك وجغرى بك داود وبيغو في معاركهم ضد قوات السلطان مسعود بن محمود الغزنوي في سرخس ، وفتح نيسابور سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م . وساهم أيضا في حفظ نسا وباورد عقب الصلح مع السلطان مسعود سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م . كذلك ساهم بأتباعه في ارهاق السلطان مسعود وقواته ، وكان له نصيب كبير في الحاق الهزيمة به في دنداقان التي تحدثنا عنها من قبل (٢) .

---

(١) تاريخ البيهقي ، ص ٥٠٣ ، وكذلك ص ٥١٠، ٥٧٣، ٦٢٤، ٦٣٠ .
(٢) انظر فيما سبق ، ص

وبعد سيطرة السلاجقة على خراسان فرض ابراهيم ينال النفوذ السلجوقى على الرى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م (١) ثم بعد ذلك كان له دور كبير فى الفترة من سنة ٤٣٤-٤٤١هـ/١٠٤١-١٠٤٩م فى فتح اقليم الجبل (العراق العجمى) (٢).

وأخذ ابراهيم ينال يقترب أكثر نحو بغداد ، مما أثار المخاوف فى نفس السلطان طغرلبك من طموحه ، وربما كان يخشى من وصول هذا الأمير الطموح الى بغداد ، ويستأثر فيها بنفوذ قد لايستطيع كبح جماحه فيما بعد . ولذلك نرى السلطان يصدر اليه أمرا بالتوقف عن الفتح سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م ، عندما طالبه الملك البويهى أبو كاليجار بالصلح ، لكن ابراهيم ينال رغم التزامه الظاهر بالأمر الصادر اليه بشأن فتوحه فى العراق ، الا أنه اتخذ من سعدى بن أبى الشوك أداة له ليفتح له عدة مناطق سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م فى جنوبى العراق مثل الدسكرة وبعقوبا وغيرها (٣)، وتقام لابراهيم ينال الخطبة فيها وهنا فكر السلطان طغرلبك فى وضع حد لأطماع أخيه ابراهيم ينال وتجريده من مناطق نفوذه ، ولذلك طالبه فى سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م بأن يسلم له مدينة همذان والقلاع الموجودة فى اقليم الجبل ، وكان رد ابراهيم ينال على هذا الطلب الرفض .

ويذكر ابن الأثير أن ابراهيم ينال اتهم وزيره المدعو أبا على فى السعى بينه وبين السلطان فسمل احدى عينيه وقطع شفتيه (٤)، وأخذ يستعد عسكريا لمواجهة السلطان طغرلبك ، ودارت بينهما معارك متعددة كانت الغلبة فيها للسلطان الذى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٠٦ .
(٢) انظر فيما سبق ، ص
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥١ .
(٤) الكامل ، ج٩ ، ص ٥٥٦ .

استطاع أن يخرج ابراهيم ينال من قلعة سرماج التى تحصن بها قهرا[(١)].

ورغم انتصار السلطان طغرلبك فانه لم يسىء الى أخيه بل انه استقبله وأحسن اليه وسلمه بعض القلاع التى كان يسيطر عليها[(٢)]. وهذه القلاع وان كانت المصادر لم تذكر مواضعها وأهميتها الا أنها بلاشك لم تكن تمثل ماكان يسعى اليه ابراهيم ينال سيما وأن اخوة طغرلبك مثل الملك جغرى بك داود والملك بيغو كانوا يحظون بمناطق استراتيجية هامة تفوق مابيده بمراحل كثيرة. وكما رأينا فان دوره فى بناء الدولة لم يكن يقل عن أى واحد من هؤلاء الاخوة فلماذا لايعامل مثلهم ؟ هذا فى نظرى هو أهم سبب جعل ابراهيم ينال يتحين الفرصة لينتقم لنفسه من أخيه السلطان طغرلبك. ومن جانب آخر يبدو أن السلطان طغرلبك كان ينظر الى توحيد الدولة وجعلها فى أبناء ميكائيل بن سلجوق وأنه لن يسمح بمشاركة أى فرع من فروع البيت السلجوقى، وأخطر هؤلاء هو ابراهيم ينال ولذلك عمد على تقليص نفوذه بالقوة العسكرية.

لقد رضخ ابراهيم ينال لأخيه كرها وانضوى تحت لوائه من جديد قابلا الوضع الجديد المفروض عليه. وبدخول السلطان طغرلبك بغداد وتزايد خطر الفاطميين بواسطة رجلهم البساسيرى طلب طغرلبك من ابراهيم ينال أن ينجده لاستعادة الموصل من البساسيرى سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م كان رده الاعتذار والتسويف فى عدم قدرته على تلبية هذا الطلب[(٣)]، مما أغضب السلطان طغرلبك.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥٥٦ - ابن الوردى، تتمة المختصر، ج١، ص ٥٣٠.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٥٥٧.
(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ص ١٦.

ويبدو أنه خشى مغبة هذا الرد فتوجه مسرعا الى الموصل بعد أن فرغ السلطان من خصمه البساسيرى وكان أول وصوله وقبل مقابلته للسلطان فى الموصل فى رمضان سنة ٤٤٩هـ/ نوفمبر ١٠٥٧م أن قام بالقاء اللوم على عميد الملك الكندرى لمصالحته بين الأمراء العرب والسلطان . وهدأ عميد الملك من ثائرة ابراهيم ينال ، وحظى ابراهيم ينال بعد ذلك بمقابلة أخيه السلطان الذى استقبله بكل احترام (١) .

ويذكر لنا سبط ابن الجوزى محادثة مهمة جرت بين السلطان طغرلبك وابراهيم ينال ، ذلك أن الأخير طلب من السلطان أن يمنحه اقطاعا ينفق منه على أتباعه ، فكان رد السلطان "ما أعطينا الا ماتفتحه أنت ، واذا سرت الى الرحبة فهى لك ، فثقل عليه وسرح جماعة ممن كان معه الى خراسان" (٢) . فهل كان رد السلطان اتهاما لأخيه بممالأة البساسيرى ؟ أم أن ذلك كان طلبا من السلطان لابراهيم ينال بالتوجه لمتابعة البساسيرى وحلفائه من العرب والفاطميين ؟ ربما يكون المقصود هو الاحتمال الثانى لأن انكشاف خيوط العلاقة بين الفاطميين والبساسيرى وابراهيم ينال لم تكتمل الا بعد تفاقم الخلاف بين السلطان وابراهيم ينال ، وذلك عندما غادر الأخير الموصل الى بلاد الجبل فى محرم سنة ٤٥٠هـ/فبراير ١٠٥٨م . وقد فسر السلطان هذا العمل من جانب ابراهيم ينال بأنه تمرد جديد ضده ، ولتلافيه أرسل اليه رسولا يستدعيه الى بغداد ومعه أيضا رسالة من الخليفة القائم بأمر الله (٣) ، فلم

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٠ .
(٢) مرآة الزمان ، ص ٢٣ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٩ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٧٦ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٧-٨ .

يجد ابراهيم ينال بدا من العودة الى بغداد .

وفى بغداد تدخل الخليفة القائم بأمر الله للتوفيق بين الأخوين ، وذلك بأن بعث الى السلطان طغرلبك وزيره ابن المسلمة ينصحه بعدم الاستماع الى الواشين الذين يغرونه بابراهيم ينال .

وحتى يدفع السلطان عن نفسه مثل هذا الاتهام أظهر استعداده للوقوف بين يدى الخليفة مع ابراهيم ينال حتى يتحاكما أمامه ، وانتهى الأمر أخيرا بنصيحة من الخليفة القائم بأمر الله للسلطان طغرلبك بأن ينهى حالة العداء مع أخيه طالما أنه حضر الى بغداد (١) .

وعلى كل فقد بذل الخليفة جهده فى اصلاح ذات بينهما ، وأظهر من جانب آخر كل مظاهر الود والاحترام لابراهيم ينال حتى يذهب ضغينته (٢) .

وحينما استولى البساسيرى على الموصل سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وعزم السلطان طغرلبك على استردادها منه ، أمر الخليفة على أن يتولى ابراهيم ينال هذه المهمة فانه لم يقم بأى شىء فى محاربة البساسيرى وانسحب فجأة الى همذان للاستيلاء عليها (٣) نتيجة للمراسلات التى تمت بينه وبين الفاطميين والبساسيرى وخشيته من عواقبها . لكن السلطان طغرلبك لم يتح له

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٨ ، ويذكر المصدر أن رئيس الرؤساء ابن المسلمة قابل ابراهيم ينال وقال له : (ان أمير المؤمنين قد أنس بقربك وسكن الى سلامتك وسر بما يبلغه من طاعتك فقام - أى ابراهيم ينال - وقال أنا خادم الدار العزيزة وباذل مهجتى فى نصرتها وحيث ورد كتابك وأمرك بالحضور سارعت متشرفا بهذا المحل الشريف ومتجملا بهذا الاستدعاء الكريم ...) .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٢١٣ .

الاستفادة من ذلك الانسحاب المفاجيء ، وسبقه في شوال سنة ٤٥٠هـ/نوفمبر ١٠٥٨م الى همذان (١). تلك المدينة التي كان قد سبق أن أرغم ابراهيم ينال على تسليمها للسلطان طغرلبك ، غير أن سرعة تصرف السلطان طغرلبك على هذا النحو أفقدته من جانب آخر ميزة الاستفادة من الجند السلجوقي الذين استمالهم ابراهيم ينال بالوعود الحسنة . وتعهد لهم عدم تكليفهم المسير الى العراق لخرابها الاقتصادي ، اضافة الى أنه وعدهم بألا يتصرف أي تصرف الا بعد مشورتهم فانضموا اليه لذلك ، وفرض بهم ابراهيم ينال الحصار على السلطان طغرلبك في همذان (٢). ولم يجد السلطان طغرلبك من يعينه سوى الأهالي في حماية هذه المدينة (٣). ومن ناحية ثانية أرسل الى زوجته الخاتون ووزيره عميد الملك الكندري يطلب منهما القدوم اليه وذلك لتخفيف ضغط الحصار المفروض عليه ، وقد أغرت الأموال التي كانت تحملها زوجة السلطان جمعا كثيرا من أتباع ابراهيم ينال الذين ترصدوا لها في الطريق للاستيلاء على مامعها ولمنعها أيضا من نجدة زوجها (٤).

ويبدو أن السلطان طغرلبك انتهز فرصة ماحدث من قبل الجيش المحاصر له ، وقام بكسر الحصار المفروض عليه ليهرب الى الري (٥).

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٣١ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٠ – البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧ .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٣١-٣٢ – ابن الأثير الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٥ .
(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٣٢ .
(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٤٤ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٠ .
(٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٥ .

ويذكر سبط ابن الجوزى نقلا عن محمد بن هلال الصابى : أنه حدثت معركة بين الأخوين بالقرب من قزوين هزم فيها السلطان طغرلبك ، واضطر الى العودة مرة أخرى الى الرى ،(١) ومنها أرسل الى أبناء أخيه جغرى بك داود وهم ألب أرسلان وياقوتى وقاورت بك ، الذين انضموا الى عمهم طغرلبك ورجحت كفته بهم على ابراهيم ينال فى الموقعة التى دارت بالقرب من الرى ، ووقع فيها ابراهيم ينال وأبناء أخيه محمد وأحمد أسرى .(٢)

ولم تجد مع السلطان طغرلبك التوسلات التى قام بها البعض فى العفو عنهم ، بل ان السلطان غيظا من ابراهيم ينال قتله بيده وبوتر قوسه لعظم ماورد على الخلافة العباسية بسببه . وبمقتل ابراهيم ينال فى التاسع من جمادى الآخرة سنة ٤٥١هـ/٢٤ يوليه ١٠٥٩م(٣) تم التغلب على أول انشقاق حدث فى الدولة السلجوقية فى عهد طغرلبك .

المنافسة بين أبناء البيت السلجوقى على السلطنة فى عهد ألب أرسلان :

توفى السلطان طغرلبك فى الثامن من رمضان سنة ٤٥٥هـ/ ٥ سبتمبر ١٠٦٣م(٤) ولم يرزقه الله بولد يخلفه فى السلطنة ، وكان قد سبق له أن تزوج امرأة أخيه الملك داود وفى حجرها

(١) مرآة الزمان ، ص ٥٠ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٠ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٥٠ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٤٥ – الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٦١ ، ويذكر أن مقتل ابراهيم ينال كان يوم الأربعاء ١٩ جمادى الآخرة سنة ٤٥١هـ – البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨ – الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ١١٢ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣١ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٠٢ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٦ .

وليد صغير هو سليمان بن داود (١). ويبدو أنه وقع تحت تأثير أم سليمان وسيطرتها مما جعله يقدم ابن أخيه الصغير فى خلافته ان جاءه الموت (٢)، وكانت أولى وصاياه هذه حينما مرض فى أرمية فى محرم سنة ٤٥٥هـ/يناير ١٠٦٣م فجمع الأعيان والقادة وطلب منهم أن يرجعوا الى عميد الملك فى تنفيذ وصيته وشدد عليهم فى ذلك (٣).

ويرى سبط ابن الجوزى أن هذه الوصية كانت بتأثير الوزير عميد الملك حتى يتم له السيطرة على سليمان ويوجهه حسب ارادته ومن ثم السيطرة على الدولة (٤).

لكن مثل هذا الاجراء فتح بلاشك باب الصراع للأقارب من آل سلجوق للاستحواذ على السلطنة وأدى فى النهاية الى سريان الضعف والتصدع فى بنيان هذه الدولة (٥) وخاصة بعد وفاة السلطان ملكشاه وتجزأت الدولة المترامية الأطراف الى عدة دول .

وعلى كل فانه بعد وفاة السلطان طغرلبك انسحب الوزير عميد الملك الكندرى الذى كان محاصرا لقتلمش بن اسرائيل فى كردكوه (٦) وترك الحصار وتوجه فورا الى الرى قبل أن يدفن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٦ .
(٢) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٥٤ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٩٧ .
(٤) مرآة الزمان ، ص ٩٧ .
(٥) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٥٤ .
(٦) كردكوه : قلعة من قلاع الدامغان الحصينة القريبة منها (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٠٥) .

السلطان وأخذ يعمل على تنصيب سليمان بن داود بتفريق الأموال الطائلة على العسكر الذين ارتضوا قبول تولية سليمان فى السلطنة (١) .

غير أن هذه الاجراءات التى اتخذها عميد الملك لم ترض أكبر أبناء الملك داود وهو ألب أرسلان (٢) الذى كان بطبيعة الحال أول المناهضين لأخيه الصغير ومن وقف معه (٣) وكان متجهزا بقواته للتصدى لعميد الملك وحصره فى الرى قبل أن يستفحل أمره . ويبدو أن عميد الملك لم يجد تأييدا قويا من السلاجقة الذين كانوا قد أخذوا منه الأموال التى أنفقها عليهم ، ولذلك نراه يسلم بسرعة للسلطان ألب أرسلان حتى قبل أن يشتبك معه فى أى قتال ويرتضى الأمر الواقع للقوة التى يملكها ألب أرسلان ويعلن الخطبة له فى الرى ومن بعده لأخيه سليمان ، فى ذى القعدة سنة ٤٥٥هـ/اكتوبر ١٠٦٣م (٤) .

تمرد قتلمش بن اسرائيل على السلطان ألب أرسلان :

لم يكن ألب أرسلان هو المطالب الوحيد بالسلطنة بعد وفاة السلطان طغرلبك فقد طالب قتلمش بن اسرائيل بما يطالب به ألب أرسلان وكان قد سبق أن تمرد على السلطان طغرلبك وتحصن بقلعة كردكوه وبعث اليه الوزير عميد الملك لمحاصرته

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٢٣١ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٩ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٦٧ .

(٣) أحمد كمال الدين حلمى ، السلاجقة فى التاريخ والحضارة ط١ ، الكويت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص ٣٢ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٩ ـ ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٦٧ .

هنـــاك ، غير أن وفـاة السلطان طغرلبك أجبرت عميد الملك على (١) العودة الى الرى لتنصيب سليمان بن داود . وقد انتهز قتلمش ابن اسرائيل هذه الظروف وحشد جمعا كبيرا من التركمان وسار بهم الى الرى للاستيلاء عليها قبل ابن عمه ألب أرسلان الذى كان بعيدا عنها (٢) ، وعندما وصل قتلمش الى الرى فى ذى القعدة سنة ٤٥٥هـ/أكتوبر ١٠٦٣م وجدها محصنة فضرب حصاره عليها وأخرب ماحولها من الضياع لارغام من بداخلها على الاستسلام له (٣) ومن جانب آخر فان السلطان ألب أرسلان أرسل قوة من جنده مهمتها اشغال قتلمش بن اسرائيل عن الرى الى حين وصوله بقواته اليها . وقد سمع قتلمش بن اسرائيل بخبر هذه الحملة فأسرع اليها قبل وصولها الى هدفها واستطاع سحق هذه الحملة واجبار قائدها على التحصن فى احدى القلاع باحدى القرى فى أواخر ذى القعدة سنة ٤٥٥هـ/نوفمبر ١٠٦٣م (٤) .

لكن قتلمش لم يهنأ بهذا الانتصار فسرعان ماقدم السلطان ألب أرسلان الى منطقة الرى واشتبك مع قوات قتلمش فى معركة طاحنة انتصرت فيها قوات السلطان على قوات قتلمش وأجبرتها على الانسحاب ، ووقع أيضا كثير من قادة قتلمش

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٠١ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٦ - الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ٨٠-٨١ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٠ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١١ - وفى الكامل لابن الأثير ، ج١٠ ، ص ٣٦ أن ألب أرسلان أرسل قوة تمكنت من دخول الرى قبل وصول قتلمش .
ومما يجدر ذكره أن كلا من عبد النعيم حسنين فى كتابه ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، ص ٥٥ - ومحمد ادريس فى تاريخ العراق والمشرق الاسلامى ، ص ١٣٩ يذكر أن قتلمش تمكن من دخول الرى واعلان نفسه سلطانا فى هذه المدينة والصحيح أنه لم يتمكن من ذلك كما ذكرته المصادر أعلاه .

وأقاربه أسرى . أما قتلمش فقد هرب من ميدان المعركة سالكا[1] الطرق الوعرة للنجاة بنفسه الى قلعته بكردكوه ، الا أنه لسوء حظه سقط من على الفرس سقطة مميتة أثناء فراره ، فحمل الى الرى حيث دفن فيها فى ذى الحجة سنة ٤٥٥هـ[2] .

أما السلطان ألب أرسلان فقد دخل الرى دخول الظافرين فى محرم سنة ٤٥٦هـ/يناير ١٠٦٤م وكان فى استقباله عميد الملك الكندرى وسار الجميع الى قصر الحكم ، وهناك أخذ السلطان يحاسب عميد الملك على الأموال التى أنفقها فى سبيل تولية أخيه سليمان بن داود ، ثم مالبث أن ألقى القبض عليه وسجنه فى محرم سنة ٤٥٦هـ/يناير ١٠٦٤م وصادر جميع أمواله[3] ليقتل فيما بعد بسعاية من الوزير نظام الملك[4] .

تمرد بيغو بن ميكائيل :

لم يكد يفرغ السلطان ألب أرسلان من قتلمش بن اسرائيل حتى ظهر له منافس آخر ألا وهو فخر الملك بيغو بن ميكائيل . وكما عرفنا فقد كان بيغو الشريك الثالث لاخوته السلطان طغرلبك والملك جغرى بك داود والد ألب أرسلان ، وبالتالى فان بيغو بن ميكائيل أسن من ابن أخيه السلطان ألب أرسلان

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٦-٣٧ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨٠-٨١ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١١ ـ ويذكر ابن الأثير ، فى الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٧ أن قتلمش وجد بعد المعركة مباشرة ميتا لايدرى أحد كيف كان موته ـ وانظر كذلك : الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ٨١ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٢ .

(٤) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٥٦ .

وأحق منه بالسلطنة والزعامة فى تصوره ، ولذلك أعلن العصيان فى هراة سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م (١) . ويبدو أن بيغو بن ميكائيل لم يكن من القوة والمنعة بما يكفى لتنفيذ أطماعه فى خلافة السلطان طغرلبك ، لذلك تذكر بعض المصادر أن السلطان ألب أرسلان حاصره فى هراة بجيش ضخم أجبره فى النهاية على الاستسلام والانصياع له . وقد قوبل بيغو من ابن أخيه بكل الود والاحترام وأقره على حكم المناطق التى كانت خاضعة له ، لينصرف لاخضاع صغانيان وختلان التى أعلنت تمردها عليه واستطاع أن يخضعها لحكمه من جديد (٢) .

قاورت بك وموقفه من السلطان ألب أرسلان :

أقر قاورت بك لأخيه ألب أرسلان بالسلطنة وخطب له فى المناطق التى يحكمها وهى كرمان وبعضا من فارس ، الا أنه كان يطمع فى بعض الأموال التى حصل عليها السلطان ألب أرسلان من خزائن عمهما السلطان طغرلبك ، ويدعى فى رسالة بعثها الى أخيه السلطان أنه له نصيب فيها (٣) . ولم يذكر سبط ابن الجوزى مافعله السلطان تجاه مطلب أخيه قاورت بك ، لكن يتضح فيما ذكره عن هذا الموضوع أنه حدث خلاف بين الأخوين فيما بعد وسبب ذلك أن قاورت بك كان يطمع فى الاستيلاء على اقليم فارس بأكمله وخاض من أجل ذلك حروبا متعددة مع والى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٤ - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ٨٤ - الذهبى ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى رقم ٣٠١ تاريخ ، ورقة ٣ب .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٤ - الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ورقة ٣ب .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٨-١١٩ .

شيراز فضلويه الشوانكارى فى السنوات ٤٥٤، ٤٥٥هـ/١٠٦٢، ١٠٦٣م (١) ولكى يضع فضلويه حدا لأطماع قاورت بك أعلن ولاءه للسلطان ألب أرسلان وخطب له فى بلاده سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م وطلب من السلطان كف أخيه عنه أو امداده بالجند لصده (٢).

ويبدو أن السلطان خشى مغبة حيازة قاورت بك لاقليم فارس وسيطرته عليه ، اذ أنه سيكون بهذا الموقع قريبا من بغداد ولذلك عمل جاهدا على ألا يمكنه من الاستيلاء عليه وخاض معه حروبا متعددة فى السنوات ٤٥٧هـ/١٠٦٤م ، ٤٥٩هـ/١٠٦٦م ، ٤٦١هـ/١٠٦٨م ، ٤٦٢هـ/١٠٦٩م (٣) ، ويبدو أن محصلة تلك المعارك لم تكن حاسمة اذ ظل قاورت بك مسيطرا على كرمان ، كما لم يستطع تحقيق أطماعه فى فارس مما يدل على نجاح السلطان ألب أرسلان فى سياسته تجاه هذا الاقليم وهى الاحتفاظ به بعيدا عن سيطرة قاورت بك .

المنافسة بين أبناء البيت السلجوقى فى عهد ملكشاه :

قضى السلطان ألب أرسلان فترة حكمه فى تثبيت دعائم الدولة السلجوقية وفى الفتح والجهاد ، اضافة الى ذلك فقد أراد أن يتجنب خطأ عمه السلطان طغرلبك حينما أوصى لطفل لخلافته ، اذ أنه فى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م وفى وسط خراسان جمع قادته وأعيان الدولة وأعلن تنصيب ابنه ملكشاه وليا للعهد وأخذ العهود والمواثيق على رجال دولته بشأن ذلك ، ثم أمر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٩١-٩٢، ١٠٠ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٧٧ ، ولم أجد لفضلويه الشوانكارى ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢١، ١٣٤، ١٣٩، ١٤١-١٤٢ .

بالخطبة له في الدولة السلجوقية (١) .

ويذكر ابن الأثير أنه في الوقت الذى نصب فيه ألب أرسلان ابنه ملكشاه وليا للعهد قام من جانب آخر بتعيين بعض أقاربه وأبنائه على معظم مناطق خراسان كبلخ ومرو وخوارزم وطخارستان وغيرها من المناطق مما يدل دلالة واضحة أن السلطان كان يسعى الى عدم تضارب المصالح بين أقاربه وحقوق كل واحد منهم (٢) .

وعندما طعن السلطان ألب أرسلان في ماوراء النهر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م كانت وصيته واضحة لأعيان دولته بأن ينصبوا ابنه وولى عهده سلطانا ، كما أوصى لابنه اياز أن يتولى المناطق التى كان يحكمها الملك جغرى بك داود اضافة الى خمسمائة ألف دينار تعطى له . أما أخوه قاورت بك فأوصى له بأن يمنح حكم كرمان وفارس وأن يزوج بزوجته خاتون السفريه فاذا ارتضى هؤلاء بوصيته أقروا على ماخصصه لهم ، والا استعانوا بالأموال التى خصصها لهم في حربهم (٣) .

ويتبين لنا من وصيته الأخيرة هذه أنه كان يتوقع من ابنه اياز ومن أخيه قاورت بك أن ينافسوا ملكشاه على السلطنة . وعلى كل فان نظام الملك ومعه الأمراء السلاجقة أخفوا خبر موته وهم في بلاد ماوراء النهر وانسحبوا فجأة الى خراسان بسرعة ، وعند وصولهم الى مرو أعلنوا وفاته وطالبوا الحاضرين بمبايعة ملكشاه بعد أن أنفق فيهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٠ .
(٢) الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٠ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٩ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٥-١٦٦ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٧٦ .

سبعمائة ألف دينار .(١)

وقد صح ماتوقعه السلطان ألب أرسلان بشأن أخيه قاورت بك الذى ما أن سمع بوفاته أن قرر الرحيل فورا الى كرمان ، ومنها الى الرى للاستيلاء عليها قبل وصول ملكشاه اليها .(٢) لكن ملكشاه فوت عليه هذه الفرصة ودخلها بمعية وزيره نظام الملك ، وفى هذه المدينة أيضا أنفقا الكثير من المال لكسب ولاء الجند السلجوقى ، وأخذ السلطان ملكشاه يعد عدته لملاقاة عمه الذى وصل بعد ملكشاه بيومين . ويبدو أن قاورت انسحب الى همذان عندما سبقه السلطان ملكشاه الى الرى ، وبالقرب من همذان فى شعبان سنة ٤٦٥هـ/ابريل ١٠٧٤م وقعت معركة كبيرة بين الطرفين هزم فيها قاورت بك وفر من أرض المعركة ، ووقع أبناؤه الأربعة فى الأسر .(٣)

أما قاورت بك فقد اختبأ فى احدى القرى القريبة ، وقد اكتشف مكانه أحد سكانها الذى سرعان ماتوجه الى السلطان ملكشاه وأخبره بمكان عمه فأرسل من يحضره اليه .(٤) ويتضح من العتاب الذى وجهه السلطان ملكشاه لعمه أن قاورت بك لم

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٧ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٦ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ص ٢٧٧ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٨ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٢٣ ، ويذكر الحسينى ص ١٢٢ ، أن قاورت بك بعث الى السلطان ملكشاه برسالة يدعى فيها أحقيته فى خلافة السلطان ألب أرسلان ، لأنه أكبر سنا منه .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٧ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٠-١٦١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٧٨ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ ـ ابن الأثير الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٩ .

يتجرأ على محاربة ابن أخيه الا بعد أن كاتبه كثير من القادة يطلبون اليه سرعة الوصول اليهم (١) . ومما يؤكد قوله هذا ما أورده ابن الأثير من أن عددا من الجند السلجوقى الذين كانوا فى صف السلطان ملكشاه قاموا بنهب ممتلكات الأمراء العرب وعلى رأسهم قريش بن بدران لدور هؤلاء الأمراء فى ترجيح كفة السلطان ملكشاه فى المعركة وافشالهم بالتالى لمؤامرة بعض القادة السلاجقة التى كان هدفها تغليب كفة قاورت بك على ابن أخيه (٢) .

وعلى كل فقد أمر السلطان بترحيل عمه الى همذان ،وفى هذه المدينة أمر السلطان ملكشاه بقتل عمه وكحل أبنائه سلطان شاه وأميران شاه (٣) .

تكش بن ألب أرسلان وموقفه من السلطان ملكشاه :

اكتسب تكش بن ألب أرسلان نفوذه بدعم من أخيه السلطان ملكشاه عقب وفاة أخيه الآخر اياز بن ألب أرسلان فى بلخ أواخر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٤م (٤) . وقد سر ملكشاه لوفاة اياز ومنح

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٨ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦١ .
(٢) الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٨ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٨ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٣-١٦٤ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١٢٤ .
ومما يجدر ذكره أن سلطان شاه تمكن من الهروب من سجنه والفرار الى كرمان واستولى عليها فى جمادى الأولى سنة ٤٦٦هـ ولم يحاول الخروج على ابن عمه السلطان ملكشاه بل انه أكد ولاءه له حينما توجه الأخير الى كرمان سنة ٤٧٣هـ فنزل اليه سلطان شاه وقبل الأرض بين يديه فأقره ملكشاه على حكم كرمان ، وزوجه باحدى بناته (انظر سبط ابن الجوزى ، ص ١٦٨-١٦٩،٢٠٦ ، وكذلك ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٥) .
(٤) ذكر سبط ابن الجوزى أن نظام الملك حينما رأى سرور السلطان ملكشاه بوفاة أخيه اياز عاتبه وقال له : (لاتظهر الشماتة به واقعد فى العزاء ففعل وأظهر الحزن عليه) . مرآة الزمان ، ص ١٦٧ .

حكم بلخ وطخارستان لتكش بن ألب أرسلان فى السنة التالية (١) .
وفى زيارة قام بها السلطان ملكشاه الى هذه المنطقة سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م قدم اليه تكش وقدم فروض الطاعة وحاز الاكرام والخلع من أخيه (٢) .

لكن هذا الولاء لم يستمر اذ تحول الأمر بينهما الى حروب متعددة ، ومع أن سبط ابن الجوزى الذى تحدث عن هذه الحروب لم يذكر لنا سبب الخلاف بين الأخوين (٣) ، الا أنه من المرجح من خلال النصوص التى بين أيدينا أن تكش لم يكن قانعا بما تحت يده من بلاد وهى بلخ وطخارستان وتطلع الى ماهو أوسع منها مثل مرو ونيسابور . ولعل مما قوى عزمه على تنفيذ طموحه ، هو لجوء حوالى سبعة آلاف جندى اليه كان السلطان ملكشاه قد أسقطهم من الديوان سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م رغم تحذير وزيره نظام الملك (٤) . واستغل تكش قدوم هؤلاء الجند عليه وسار بهم الى نيسابور للاستيلاء عليها ، وقد سمع السلطان ملكشاه بخبر تحرك أخيه ووجهته فخرج من الرى مسرعا الى نيسابور وسبق أخاه اليها . ومن هذه المدينة تبع أخاه الى ترمذ التى تحصن تكش فى قلاعها وحاصره فيها ، وتحت وطأة الحصار هدد بعض رجال تكش أميرهم بالانضمام الى السلطان ملكشاه اذا لم يسع تكش فى الصلح مع أخيه السلطان (٥) . وتحت هذا التهديد أرسل تكش الى السلطان ملكشاه يطلب مصالحته ، وقد اشترط السلطان مقابل هذا الصلح أن يتخلى تكش عن ترمذ

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٩٢ ــ وفى أخبار الأمراء للحسينى ص ١٢٨ أنه فوضه امارة خراسان .
(٢) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٣١ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٩ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٨ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٩ .

وأن يكتفى بولاية بلخ وأعمالها ، اضافة الى ذلك أن يقوم تكش بوطء بساطه ، وقد رضى تكش بشروط السلطان عدا وطء البساط ، فارتضى منه السلطان التنازل عن بلخ وصالحه ثم قفل عائدا الى اصبهان فى نهاية ربيع الثانى سنة ٤٧٤هـ/ سبتمبر ١٠٨١م (١) .

ويذكر سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م أن السلطان ملكشاه كان قد حاصر أخاه تكش فى بلخ ، مما يدل على أنه عاد الى العصيان والتمرد واعتصم فى قلاع حصينة . وقد واجه تكش فى هذا الحصار أيضا البرد ونقص المؤن ، مما اضطره الى قبول الصلح الذى طلبه بعض رجاله ، واشترط السلطان هذه المرة أيضا أن يتنازل تكش عن ترمذ وأن يضع ولده رهينة لدى السلطان ملكشاه فاستجاب تكش لهذه الشروط وعاد السلطان أدراجه الى سرخس (٢) .

غير أن التمرد الذى قام به تكش سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م كان بمثابة النهاية له ، اذ صمم السلطان ملكشاه على أن يضع حدا لخروج أخيه عليه ، وذلك أن تكش انتهز فرصة بعد السلطان ملكشاه فى العراق وقام بمهاجمة مرو الروذ ونهب أموال أهلها وانتقل بعد ذلك الى مرو الشاهجان وفتحها وأباحها لجنده مدة ثلاثة أيام فى رمضان سنة ٤٧٧هـ/يناير ١٠٨٥م ، ثم انتقل الى سرخس حيث جوبه بمقاومة صلبة من مستحفظ قلعة سرخس المدعو مسعود بن ياخز التركمانى (٣) . ويبدو

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٩ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٨-١١٩ .
(٢) مرآة الزمان ، ص ٢١٨ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٠-٢٣١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٧ .

أن عميد خراسان لم تكن لديه قوة كافية للتصدى لتكش ، وانقاذا لموقف مستحفظ قلعة سرخس فقد كلف أحد الكتاب بتقليد خط نظام الملك وكتب رسالة موجهة الى مسعود بن ياخز يأمره فيها أن يصمد فى وجه تكش لأنه خارج من الرى فى اليوم الفلانى وسيصل اليه فى الليلة الفلانية لكبس قوات تكش وسحقها (١) . وبعد أن أعد الكتاب بخط مماثل لخط نظام الملك أمر أحد الثقاة بالانطلاق نحو سرخس والتعرض لرجال تكش حتى يقبضوا عليه ، وبعد الضرب يعترف لهم بالخطاب الذى معه . وهكذا جرت الأحداث كما أراد عميد خراسان ، اذ أن تكش ما أن علم بمضمون الكتاب حتى انفض جمعه وولى هاربا لايلوى على شىء (٢) . ومن جانب آخر فان عميد خراسان أبلغ السلطان بما حدث من أخيه فترك العراق مسرعا فى جمع قليل الى نيسابور . وفى هذه المدينة لحق به جيشه وعندما اكتمل وصوله سار به الى أخيه تكش الذى كان قد جمع أمواله وذخائره من بلخ ، ثم هرب منها الى قلعة ونج (٣) . وقد تبعه السلطان ملكشاه وفرض عليه حصارا شديدا ، ومنع عنه المؤن والامدادات ، وخوفا من وصول شىء منها اليه ، أرسل تحذيرا الى السلطان الغزنوى ابراهيم ابن مسعود (٤) يحذره من مغبة تسريب شىء من الامدادات الى أخيه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٨ .

(٣) ونج : يقول عنها ياقوت فى معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٤ أنها من قرى نسف ولم أجد لها تعريفا فى غيره من كتب البلدان التى بين يدى مثل معجم ما استعجم للبكرى ، وبلدان الخلافة الشرقية للسترنج ، ونسف ذكرها ياقوت ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٥ ، بأنها بين سمرقند ونهر جيحون ، وهذا التعريف لاينطبق على ونج الواردة فى المتن .

(٤) ابراهيم بن مسعود بن محمود الغزنوى : أبو المظفر ظهير الدولة (٤٥١-٤٩٣هـ/١٠٥٩-١٠٩٩م) كان عادلا منصفا سائسا محببا الى الرعية . انظر : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ١٥٦ - أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ج٢ ، ص ٥٩٢) .

تكش لأن الدولة الغزنوية تعتبر المنفذ الوحيد لعبور هذه الامدادات اليه (١) . ولقد حاول السلطان الغزنوى أن يبرىء ساحته بشأن اتهامه بتأييد وتدعيم تكش ، ويعرض التوسط بين الطرفين للصلح ، ورغم أن السلطان الغزنوى نفى أى ضلع له فى تمرد الأمير السلجوقى تكش الا أنه اجابته للسلطان ملكشاه بأنه أفرغ غزنة من الأموال الى بلاد الهند تدل دلالة واضحة أنه كان يتوقع ردا انتقاميا من جانب الدولة السلجوقية ، ويؤكد بالتالى أن الدولة الغزنوية كانت تشجع تكش (٢) . ومما لاشك فيه أن الحصار المفروض على تكش قد استغرق وقتا طويلا بدليل تردد الرسل بين الدولتين السلجوقية والغزنوية . وقد أضر هذا الحصار بتكش ورجاله ضررا بليغا "وأشرفوا على الهلاك" (٣) . وأمام هذا الحصار الشديد أرسل تكش الى أخيه السلطان ملكشاه طالبا الصلح والعودة الى الطاعة ، وقد اشترط السلطان على تكش ليقبل صلحه أن يسلم اليه القلاع التى بيده وأن يطأ بساطه وتشدد فى تنفيذ هذه المطالب ، وكان رد تكش على ذلك هو أن القلاع لن يسلمها وانما سيخربها ورفض النزول الى السلطان ملكشاه ، وطلب أن يرسل اليه الوزير نظام الملك ليأخذ عليه من العهود مايشاء (٤) . وقد رفض

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٠ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣١-٢٣٢ ، ومما نقله سبط ابن الجوزى عن رسول السلطان ابراهيم بن مسعود الغزنوى : (صاحبى يقول ـ السلطان ابراهيم ـ أنا مقيم على العهد الذى بيننا وقد فرغت غزنة ونقلت أهلها وأموالها الى بلاد الهند وأعوذ بالله أن أواجهك أو أحاربك ، بل ألقاك بالخضوع حتى يزول ماوقر فى صدرك ، فقال السلطان : اننا نرفعه من الدخول فى عهد هذا الغلام ولانؤثر مقاطعته لأجله) .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٢ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٣ .

السلطان هذه المطالب التى طلبها أخوه وشدد حصاره عليه حتى أذعن واستسلم لأخيه فى جمادى الآخرة سنة ٤٧٨هـ/سبتمبر ١٠٨٥م بعد عهود ومواثيق بألا يؤذيه السلطان ولايتعرض له بمكروه (١) .

ولكن السلطان ملكشاه كان قد لدغ من أخيه مرارا ورأى أن يتخلص منه نهائيا فأمر بكحله وسجنه فى قلعة فيروزكوه من أعمال الدامغان التى سيق اليها فى رمضان سنة ٤٧٨هـ/ديسمبر ١٠٨٥م (٢) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٣٧ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٧ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣٨ . ويذكر ابن الأثير أن السلطان (كان قد حلف له بالأيمان أنه لايؤذيه ولايناله منه مكروه ، فأفتاه بعض من حضر بأن يجعل الأمر الى ولده أحمد ففعل ذلك ، فأمر بكحله فكحل وسجن) .

(ب) نظام الملك ودوره فى ادارة الدولة السلجوقية

تطورت الادارة فى العهد السلجوقى تطورا كبيرا نتيجة جهود رجال كان لهم خبرات واسعة من الدول السابقة للعهد السلجوقى مثل الدولة الغزنوية والبويهية ، وكان هؤلاء الموظفون على دراية كبيرة بدقائق الأعمال ، وهى ميزة كان يفتقر اليها الحكام السلاجقة الأوائل لطبيعتهم العسكرية أولا وثانيا لقرب عهدهم بالمدنية والحضارة (١).

وعندما قامت الدولة السلجوقية استعان حكامها الأوائل بأولئك الموظفين الذين كانوا يخدمون فى بلاط الغزنويين ، ومن أوائل من اعتمد عليهم السلطان طغرلبك وأخيه الملك جغرى بك داود : أبو القاسم على بن عبد الله سلار بوزكان ، وأبو محمد حسن بن محمد بن نظام الملك الدهستانى ، ورئيس الرؤساء أبو عبد الله حسين بن على بن ميكال الغزنوى ، وهؤلاء يشكلون الطبقة الأولى من وزراء السلاجقة الذين وضعوا أسس الادارة للمملكة الجديدة بمساعدة عدد من الكتاب والعمال الذين تربوا فى أجهزة الغزنويين الادارية ، ثم أحكم هذه الأسس عميد الملك الكندرى الذى وزر للسلطان طغرلبك حتى وفاته سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، ثم زاد هذه الادارة

---

(١) عباس اقبال ، الوزارة فى عهد السلاجقة ، ترجمة وتعليق أحمد كمال الدين حلمى ، الكويت ١٩٨٠م ، ص ٣٨ ـ أحمد كمال الدين حلمى ، السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٠٨-٢٠٩ ـ عزام باشا ، النظام الادارى فى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ، ص ٢٠٠ .

احكاما أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي المشهور بنظام الملك الطوسي (١)، الذي كان يعمل لألب أرسلان وهو في خراسان قبل أن يلي السلطنة ، وحين وصل السلطان ألب أرسلان الى سدة الحكم قبض على وزير عمه عميد الملك الكندري وأسند منصبه الى نظام الملك رجله الذي كان يخدمه في خراسان (٢).

لقد دامت وزارة نظام الملك الطوسي قرابة ثلاثين سنة في عهدي كل من السلطان ألب أرسلان ثم ابنه ملكشاه ، وبرزت خلال هذه المدة الطويلة شخصيته في الادارة والسياسة والثقافة .

ومما خدم نظام الملك أيضا في حسن ادارته ولمعان نجمه نظرة السلاطين السلاجقة الذين خدمهم الى أهمية منصب الوزارة والدور الخطير الذي يضطلع به صاحب هذا المنصب . ففي وثيقة نشرها حسين أمين ، في كتابه (تاريخ العراق في العصر السلجوقي) نتبين منها مكانة الوزير والمهام المطلوبة منها ففيها يذكر السلطان ألب أرسلان :

"... وحيث عرفنا بالقياس ، وعلمنا التجارب ، أن استقرار قواعد الحكم في الدنيا ، واستحكام دعائم المقاصد موكول ومفوض الى منصب وزارة أرباب الأقلام ، كما أن تقرير مصالح العالم ، وتيسير الأعمال العظام منوط بكمال كفاءة

---

(١) عباس اقبال ، الوزارة في عهد السلاجقة ، ص ٣٨ ، ولم أجد للطبقة الأولى من الوزراء السلاجقة على تراجم خاصة بهم فيما بين يدي من مصادر .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص ٢٣٤-٢٣٥ – سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١١٢ – ابن الأثير ، الكامل ج١٠ ، ص ٣١-٣٣ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ص ٩٠ .

هؤلاء ونور عقليتهم وهداهم ، لأن مصالح المملكة لاتستقر الا باستمرار جريان أقلامهم ، ومهمات الدولة لاتتضح الا باقتباس أنوار رأيهم الواضح ، واستقامة السيف وقوته يلزمها مساعدة يد العلم ومعاضدته ، وثبوت قوائم الملك له ثبوت قدم صاحب الرأى السديد وشجاعته فى صحيفة العلم ، وتقرر لدى أرباب العقل أن مركز قاعدة الملك لايثبت دون وزير صالح يهتدى بآثار عقله الوافى ، وأن أساس المملكة لايؤكد ولايستقيم دون مشير كامل يستضاء بأشعة رأيه الصافية ليفتح الملك خزانة أسراره أمامه ، وينشط قلبه بهداية نصائحه ... وقد فتحنا له باب التصرف وقلدناه الوزارة لكفاءته وصدق نصيحته ... وذلك ليشتغل فى هذا العمل الخطير بقوة قلب وفراغ بال ، وليستقبل هذه الأمانة العظيمة بانشراح صدر واتساع خاطر ، كما هو المعهود المألوف من ديانته ، واحتياطه ، وأمانته ، وصدقه ليرتب مصالح الديوان ... وبالجملة فان مقصودنا من ذلك كله أن يعمل الوزير الخبير بما فيه صلاح الديوان وراحة الرعايا ... وأن يقوم بشرايط هذا العمل الخطير بكل نشاط واخلاص ..." (١).

ان مما ورد فى هذه الوثيقة يدل على أى مدى كان ينظر السلطان ألب أرسلان الى منصب الوزير ، ولعل الذى ساعد نظام الملك فى حسن ادارته هو عدم تدخل السلطان ألب أرسلان فى

---

(١) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، ص ٣٦١-٣٦٣ ، ومما يجدر ذكره أن حسين أمين ذكر رقم المجموعة من المخطوطات التى اقتبس منها لكنه لم يشر الى موضعها وفى أى مكتبة كانت ، كما أنه ذكر أن مناسبة هذه الوثيقة هى تفويض السلطان ألب أرسلان ولده ملكشاه الى نظام الملك ولم يكن هناك تاريخ محدد لهذه الوثيقة . ويبدو لى من خلال تلك الوثيقة أنها كانت مرسوما بتعيين نظام الملك فى منصب الوزارة ، وعهد السلطان ألب أرسلان الى وزيره فى تربية ابنه ملكشاه .

السياسة التى كان يتبعها وزيره ، اذ لم نلحظ فى المصادر التى بين أيدينا مايدل على ذلك التدخل ، بل ان هناك أمثلة عملية تبين مدى احترام السلطان ألب أرسلان لوزيره نظام الملك وانفاذه مايشير به رغم مخالفته لأوامر سبق أن أصدرها السلطان نفسه . ففى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م تدخل نظام الملك فى اقرار مسلم بن قريش العقيلى فى امارته ، عندما توجه الأخير الى همذان ليسترضى السلطان الذى كان فيما يبدو غاضبا عليه بسبب سلوكه مع الخليفة القائم بأمر الله عندما أجبره على الاعتراف بحدود امارته ، وقد تمكن نظام الملك من اقناع السلطان بالعفو عنه ، واعادته الى امارته معززا مكرما (١) .

والمثال الآخر حدث سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م عندما قرر السلطان ألب أرسلان وهو فى ديار بكر أن ينصب الأمير الكردى سعيد بن نصر الدولة بن مروان فى الامارة المروانية ، بدلا من أخيه نظام الدين وحلف له على ذلك ، بينما لجأ الأمير نظام الدين الى الوزير نظام الملك هو وعدد من نساء أهل بيته اللواتى تعلقن بثيابه حتى يثبت نظام الدين فى امارته ، وتعهد نظام الملك لنظام الدين بأنه سيعود الى امارته سلطانا . وعلى الفور قابل نظام الملك السلطان ألب أرسلان وذكر له ماجرى من نظام الدين ونساء بيته ، وقد ذكر السلطان لوزيره أنه قد حلف للأمير سعيد بأنه سيعينه فى الامارة المروانية ، لكن نظام الملك طلب من السلطان أن يترك له التصرف مع الأمير سعيد ، وفعلا رضخ السلطان لطلب وزيره ، وخرج متصيدا ،

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢٠ .

وعندهـا قام نظام الملك بحبس الأمير سعيد ، أما نظام الدين فقد رجع الى امارته يحمل لقب سلطان الأمراء .(١)

ان الغرض من سياق هاتين الحادثتين اللتين يتخذ فيهما السلطان قراره ثم يعود عنه ترضية للوزير لاتدل بأى حال من الأحوال على الضعف من جانب السلطان ألب أرسلان ، ولكن تدل على ثقة كاملة فى الوزير الذى منحه كل السلطات لتصريف مهام الدولة المدنية ، وقد برهنت هذه الثقة على جدارة نظام الملك وكفاءته فى ادارة الدولة ، لأننا لم نلحظ خلال الفترة التى وزر فيها للسلطان ألب أرسلان أى أزمات اقتصادية بعكس ماكان يعانيه السلطان طغرلبك حينما دخل بغداد سنة ٤٤٧هـ واضطراره الى مطالبة الخليفة القائم بأمر الله بالأموال التى يحتاجها للصرف على جنده .(٢)

نظام الملك ودوره فى عهد السلطان ملكشاه :

وعندما طعن السلطان ألب أرسلان فى ماوراء النهر ، أوصى كبار القادة بمبايعة ابنه وولى عهده ملكشاه ، وكان الرأى هو العودة الى خراسان لتتم هناك المبايعة ، وقد بذل نظام الملك جهده فى اتمام البيعة وأنفق من الخزانة السلطانية سبعمائة ألف دينار ترضية للجند .(٣)

وبعد انتصار السلطان ملكشاه على عمه قاورت بك ووقوعه فى الأسر ، أشار نظام الملك على السلطان بقتل عمه ، وحين رأى تردد السلطان فى هذا الأمر ذكر له أن الملك عقيم ، ولو

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٨-١٥٩ ـ الفارقى تاريخ الفارقى ، ص ١٨٦-١٨٨ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٥ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٧ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٢ .

كان عمه هو المنتصر لما تردد لحظة فى قتله (١) . ان هذا الموقف يبرز صرامة ورجاحة عقل نظام الملك فى مقابل حداثة سن السلطان ملكشاه الذى لم يكن يبلغ حينها العشرين عاما .

فقد تبين لنظام الملك من مجريات المعركة التى دارت بين ملكشاه وعمه ميل كثير من الجند التركمان الى قاورت بك لكونه أكبر سنا من ملكشاه ، وتواطأوا معه على المساهمة فى هزيمة السلطان ، لولا ثبات الأمراء العرب الذين صمدوا فى وجه هذه المؤامرة ، وقلبوا نتيجة المعركة لصالح السلطان ، وعليه فانه من الخطأ أن يظل قاورت حيا طالما أن رغبة هؤلاء التركمان تميل لصالح قاورت بك ، لما سببه من متاعب فى المستقبل .

وقد أثار مقتل قاورت بك حفيظة أولئك التركمان وبدأوا فى الشغب واثارة الفوضى فى المعسكر ، وامتدت أيديهم الى السلب والنهب بحجة أن السلطان لم يعطهم الأموال بسبب وزيره نظام الملك . ويبدو أن نظام الملك كان ينتظر من السلطان التصرف فى هذه المسألة ووقف أولئك المشاغبين عند حدهم ، وعدم استغلال العلاقة بين السلطان والوزير فى اثارة الفتنة والنيل من سلطات الوزير ، ولذلك اتجه فورا الى السلطان ونصحه بضرورة الاسراع فى تدارك الموقف ، أو ترك الأمور له

---

(١) الحسينى ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٢٣-١٢٤ ، ومما يجدر ذكره أن نظام الملك كان له دور فى تحريض السلطان ملكشاه على قتل عمته المدعوة كوهر خاتون سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م عندما أظهرت تذمرها من نظام الملك وهددته لأنه لم يحسن معاملتها ، واتجهت الى أذربيجان لتحريض التركمان هناك ضد ابن أخيها ، فما كان من نظام الملك الا أن أمر بعض غلمانه بملاحقتها وقتلها قبل أن تصل الى أذربيجان . عن ذلك انظر : (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٦) .

بدلا منه ، وعندها فوضه السلطان ملكشاه فى ادارة أمور الدولة كبيرها وصغيرها وقليلها وكثيرها ، من غير اعتراض ولارد لما يكون منه ، ولقبه بالأتابك – أى الأمير الوالد – وحلف له على ذلك ، وأقطعه طوس بلدته (١) .

وقد حكم السلطان ملكشاه قرابة عشرين سنة وتوسعت مملكته عما كانت عليه فى عهد والده ، فقد دخلت بلاد الشام تحت طاعته وتمكن السلاجقة من الاستيلاء على معظم آسيا الصغرى باسمه ، ودانت له بلاد ماوراء النهر بأكملها ، وكان وزيره نظام الملك يضبط أمور الدولة ويحكم قواعدها بآرائه السديدة وأفعاله الحميدة حتى أن السبكى يذكر أن السلطنة كانت باسم السلطان ملكشاه والأمر والنهى لوزيره ، وأن السلطان كان متفرغا للصيد واللهو ، والتدبير والادارة بيد نظام الملك (٢) .

ولم يكن السبكى مغاليا فيما ذهب اليه ، فقد احتج نظام الملك نفسه على السلطان ملكشاه حينما غضب من تصرفات أبناء نظام الملك الذين تعدوا اختصاصاتهم كأن أباهم شريك له فى السلطنة ، وكان رد نظام الملك على هذا القول : "قولوا للسلطان ان كنت ماعلمت أنى شريكك فى الملك فاعلم" ، فانك مانلت هذا الأمر ، الا بيدى ورأيى . أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم منهم فلان وفلان وذكر جماعة من خرج عليه ، وهو فى ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ولايخالفنى ، فلما قدت الأمور اليه وجمعت

(١) المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٨ – سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٦٢ – ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٠،٨٠ .

(٢) طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٣١٧ .

الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة ، والبعيدة وأطاعه القاصي والداني ، أقبل يتجنى الذنوب ويسمع في السعايات ... " .(١)

ولاشك أن نظام الملك بقوله هذا للسلطان ملكشاه كان يقدر ماقام به من جهد في سبيل الدولة السلجوقية ، وهو يرى أنه صاحب الفضل على السلطان فيما وصلت اليه الدولة في عهد ملكشاه ، وقد أكسبت سياسة نظام الملك في ادارة الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه نفوذا كبيرا ، كما أن تدخل نظام الملك في شئون الخلافة من خلال محاولته فرض رأيه عليها في الوزير الذي يتولى شئونها يعتبر خير دليل على ذلك النفوذ .(٢)

أما فيما يتعلق بالادارة فقد كان نظام الملك يحرص على تعيين الأكفاء في المناصب المهمة ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، واستعان في ذلك بالطبقة المثقفة ، اذ يذكر البنداري أنه : "نشأ طبقات الكتاب الجياد ،وفرعوا المناصب وولوا المراتب وأنه كان بصيرا ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه " .(٣)

كما أن نظام الملك استعان بأبنائه في ادارة الدولة واشتهر منهم مؤيد الملك بن نظام الملك(٤) الذي ولي منصب

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٥-٢٠٦ ـ وانظر سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدي ، ص ١٧٠-١٧١ ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٦٧ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٤٥ ـ النويري ، نهاية الأرب ، ج٢٦ ، ص ٣٣١ .
(٢) انظر فيما بعد ، ص ٤٥٨ ومابعدها .
(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٩ .
(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣١ ، وكان قبل ذلك متوليا على تكريت منذ سنة ٤٧٣هـ ـ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ص ٢٠٧ .

الطغراء سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م (١) . ومنهم جمال الملك بن نظام الملك الذى ولى بلخ (٢) ، وعز الملك بن نظام الملك الذى كان متوليا بخوارزم ، وعثمان بن جمال الملك بن نظام الملك وقد ولى مدينة مرو (٣) .

ومع أن نظام الملك كان دقيقا فى اختيار الموظفين فانه كان يراقبهم مراقبة دقيقة وخاصة فيمن يتعلق عملهم بجباية الأموال واستخراج الخراج ، ويسأل عن سيرتهم فى الناس ، وهل هم يتحرون العدل فى الجباية ويوقتون التوقيت المناسب للمزارعين فى جباية الخراج أم لا (٤) ؟

وكان نظام الملك يستعين فى معرفة أحوال أولئك الموظفين بالعلماء والعباد والزهاد والتجار وغيرهم من طبقات المجتمع للوصول الى الحقيقة (٥) .

علاوة على ذلك فقد كان نظام الملك يحرص عى جعل أبوابه مفتوحة للناس ولايمنعهم من الدخول اليه ورفع شكاياتهم له كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، ولايميز بين رجل وامرأة ويستمع الى كل منهم برحابة صدر ، وهى سياسة حرص عليها

---

(١) الطغراء فى الأصل علامة ترسم فى مناشير السلطان ومسكوكاته يدرج فيها اسمه ، وتصميم الطغراء يختلف باختلاف السلاطين ، وقد أفرد السلاجقة له ديوانا يطلق على من يتولاه طغرائى . وهو من المناصب المهمة فى الدولة السلجوقية اذ تكون مرتبته بعد الوزارة وديوان الاستيفاء ، انظر : (عزام باشا ، النظام الادارى فى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ، ص ٢٣٧-٢٣٨) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٥، ٢١٩ ، فيما عدا مؤيد الملك بن نظام الملك الذى سبق أن عرفنا به ، فانى لم أجد لهؤلاء تراجم فيما بين يدى من مصادر .

(٤) نظام الملك الطوسى ، سياسة نامه ، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى ، بدون ذكر لمكان وتاريخ الطبع ، ص ٥١، ٦١ .

(٥) نظام الملك الطوسى ، سياسة نامه ، ص ١٠٧ .

طيلة فترة وزارته [1]، مما ساعده على معرفة أحوال الناس والانتصاف لهم مما يحيق بهم من مظالم اذا حدثت من أى جهة من الجهات .

ولم يكن الجباة والموظفون الآخرون هم المراقبين وحدهم فهناك طائفة أخرى لها أهميتها وخطرها فى تثبيت دعائم العدل فى الدولة ، والحكم بين الناس بالقسطاس ، ألا وهم طبقة القضاة والمحتسبين . وفى اشارة لها دلالتها فى كتاب سياسة نامه ، يشير نظام الملك الى أن السلطان هو المسؤول عن اختيار القضاة ، لأنهم هم نواب السلطان ويجب عليه أن يناصرهم وأن يجزل رواتبهم حتى لايفسدوا وتؤدى بهم الحاجة الى الخيانة ، ولأنهم مسلطون على دماء المسلمين وأموالهم [2] .

وكما هو معروف فان تعيين القضاة كان من اختصاص الخلافة العباسية ، وقد تصدى الخلفاء العباسيون لملوك بنى بويه حينما حاولوا التدخل فى هذا الجانب [3] .

ونحن نلحظ هنا أن نظام الملك يجرد الخليفة العباسى من هذا الحق ، ويعطيه للسلطان ، كما أن هناك بعض النصوص تشير الى أن الوزير السلجوقى كان يختار القضاة ويوليهم ويعزلهم ، فقد ذكر ابن العديم رواية عن القاضى محمد بن يوسف بن الخضر الحنفى أن نظام الملك كان "يتعصب للشافعية [4] كثيرا ، فكان يولى الحنفية القضاء ويولى الشافعية المدارس" [5] .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ص ١٦٤-١٦٥ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢١٠ — السبكى ، طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٣١٣ .
(٢) ص ٧٠ .
(٣) محمد حسين الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ، ص ٤١ فاضل الخالدى ، الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق خلال القرن الخامس الهجرى ، ص ٢٢٠ .
(٤) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٥) بغية الطلب ، ص ٨٤-٨٥ .

كما يروى ابن العديم أن نظام الملك ولى رجلا قضاء سرخس فلم يرتض طريقته فى القضاء فعزله وولى رجلا آخر ، وقد توسط المعزول بأحد أعيان الدولة عند نظام الملك ، لكن نظام الملك رفض تلك الوساطة وكتب على ظهر الورقة التى قدمت اليه : "قلدناه أمرا عظيم الخطر ، ليوم الفزع الأكبر فاشاقل وتقاعد حين حسن القيام به ولم يبال بالتفريط فى جنب الله ، ألم يعلم أنه المقلد لا المخلد" (١) .

ومن خلال النصين السابقين يتأكد لدينا أن نظام الملك كان يعين القضاه ويعزل منهم من كان غير محمود السيرة ، كما يثبت النصان المشار اليهما أن السلاجقة سحبوا من الخلفاء حق تعيين القضاة . ولعل مرد عدم تدخل بنى بويه فى القضاء أن البويهيين كانوا شيعة ومعظم أقاليم العالم الاسلامى كان سنيا ، ولذلك لم يسمح الخلفاء العباسيون لبنى بويه بالتدخل فى الوظائف الدينية وخاصة القضاء والحسبة والخطبة . أما السلاجقة فقد كانوا سنيين ، ولذلك هيمنوا على تلك الوظائف وأصبحوا يعينون القضاة . ويبدو لى أن منصب قاضى القضاة كان من اختصاص الخليفة وحده ، فقد عين الخليفة القائم أبا عبد الله الدامغانى (٢) فى ذى القعدة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وحين توفى الدامغانى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م عين

---

(١) بغية الطلب ، ص ٧٧-٧٨ .

(٢) الدامغانى : أبو عبد الله محمد بن على بن محمد الدامغانى الحنفى ، ولد فى الدامغان سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وأخذ العلم فيها وهو صغير ، ثم رحل الى نيسابور ، وقدم بغداد شابا وأخذ على علمائها . تولى القضاء سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وتوفى فى بغداد سنة ٤٧١هـ/١٠٨٥م . انظر ترجمته ومصادرها فى : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٤٨٥-٤٨٧) .

الخليفة المقتدى أبا بكر محمد بن المظفر الشامى فى ذلك المنصب (١) . (٢)

وفيما يتعلق بالجوانب المالية ، فقد كان نظام الملك يحرص على ضبط الحسابات المالية للدولة ومعرفة دخل وخرج كل ولاية بدقة (٣) . وكانت الموارد المالية للدولة السلجوقية تنقسم الى قسمين ، قسم يوجه نحو الانفاق على الجند والوظائف والمرافق وماشابهها ، والقسم الآخر يوضع كاحتياط للطوارىء والمهمات العاجلة كالحروب والأزمات الاقتصادية ، ولايؤخذ من الاحتياط الا للضرورة فاذا ماأخذ منه أعيد مقداره فور انتهاء الغرض الذى أخذ من أجله (٤) . وكان نظام الملك يتشدد فى هذا الأمر ولايسمح بالأخذ من الاحتياط الا بأمر من السلطان وحده ، ويتبين مما ورد فى رسالة نظام الملك الى ابنه فخر الملك عندما تولى مدينة طوس ، أنه كان فى كل ولاية أموال خاصة كاحتياط تختم بختم المسؤولين عنها ولايقتطع منها شىء الا بأمر من السلطان وحده ، وينبغى على متولى الولاية أن يراجع حسابات تلك الأموال وأن يكون على علم بكل ماصرف منها ودخل اليها ، واذا تصرف الخازن فى شىء

---

(١) هو محمد بن المظفر بن بكران الحموى الشامى (٤٠٠-٤٨٨هـ/١٠٠٩-١٠٩٥م) تفقه ببلده أولا ثم قدم بغداد بعد أن حج سنة ٤١٧هـ ، وتفقه على عدد من علماء بغداد منهم أبو الطيب الطبرى ، كما سمع الحديث من أبى القاسم بن بشران وغيره ، وشهد عند قاضى القضاه أبى عبد الله الدامغانى سنة ٤٥٢هـ .
قال عنه ابن الجوزى : انه كان ثقة عفيفا نزها لايقبل من سلطان عطية ولامن صديقه هدية . وتوفى ببغداد .
انظر ترجمته فى : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٩٤-٩٦) .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٢٣،٩٥ .

(٣) نظام الملك الطوسى ، سياسة نامه ، ص ١٠٤ .

(٤) نظام الملك الطوسى ، سياسة نامه ، ص ٢٩٧ ، وسمى نظام الملك الخزانة التى يسحب منها خزانة الانفاق ، وخزانة الاحتياط ، سماها الخزانة الأصلية .

من تلك الأموال عرض نفسه للقتل (١) .

ولعل فائدة اختصاص كل ولاية باحتياطها هو ايجاد تنوع في مصادر وموارد السلطان المالية اذا دهمه أمر من أمور الفتن والتمرد أو مواجهة أخطار خارجية كما حدث مع ملكشاه عندما قتل أبوه وظهر له منافسون مثل عمه قاورت بك أو أخيه تكش ابن ألب أرسلان فلايصبح السلطان مقيدا بمكان معين ومحدد تأتي منه الأموال ، وانما تصبح كل الولايات تحت تصرفه وقتها .

ولم يكن نظام الملك رجلا مدنيا فحسب ، بل كان رجلا عسكريا لايقل كفاءة عن أي قائد ، فقد كان له دوره في فتوح أرمينية ، كما شارك في عدد من الحروب في بلاد فارس وأذربيجان ، ففي سنة ٤٦١هـ توجه السلطان ألب أرسلان من أصبهان الى كرمان لاخضاع أخيه قاورت بك ، وحين وصل السلطان الى فارس استعصت عليه بعض القلاع وأشهرها قلعة لفضلويه الشوانكاري تدعى قلعة خرشة ، ولم يرد السلطان ألب أرسلان أن يضيع وقته أمامها فترك بها قوة على رأسها وزيره نظام الملك وتوجه هو الى كرمان لقتال أخيه ، وقد تمكن نظام الملك من أسر فضلويه الشوانكاري الذي حاول أن يخدعه ويكبس جيشه ولكنه فشل نتيجة يقظة رجال نظام الملك ووقع في الأسر وسلمه الوزير الى السلطان ألب أرسلان (٢) . وقبل ذلك سنة ٤٦٠هـ

---

(١) عبد الهادي رضا محبوبه ، من رسائل نظام الملك الوزير السلجوقي ، بحث نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد السابع سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ، ص ٣٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ١٣٨-١٣٩ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧١-٧٢ ـ الحسيني ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص ١٠١-١٠٢ .

خاض نظام الملك حربا ضد فضلون بن أبى الأسوار حاكم جنزة (١) واستطاع نظام الملك أن يجبره على الاستسلام ودوس بساط السلطان ألب أرسلان ويحمل اليه كثيرا من الأموال كدليل على خضوعه (٢) .

ان تجوال الوزير نظام الملك مع السلطان ألب أرسلان فى أنحاء الدولة السلجوقية وخوضه الحروب معه فى كثير من المواطن أكسبت نظام الملك كثيرا من الخبرة وبعد النظر للحفاظ على مستوى قوة الدولة لتستطيع أن تحفظ وحدتها وكيانها ، وخاصة فى عهد ملكشاه الذى اتسعت فى عهده دولة السلاجقة اتساعا كبيرا . ولذلك كان يلزم أن يكون لدى الدولة السلجوقية جيش كبير متنوع الأجناس حتى لايطغى جنس على جنس وتختل أمور الدولة ، ومن ثم نرى من ضمن وصايا نظام الملك للسلطان ملكشاه فى كتابه سياسة نامه قوله فى هذا الصدد : "اذا كان الجيش كله من جنس واحد نجم عن ذلك الخطر ولم يجتهد جنده كل الاجتهاد واختلط أمرهم ، ولذلك يجب أن يكون الجيش من كل جنس" (٣) . أما تعليله لهذا الأمر فهو أنه فى وقت الحروب تكون كل طائفة حريصة على سمعة أقوامها أمام الأجناس الأخرى ويصبح التنافس بينهم فى الاخلاص فى القتال ، وتظهر شجاعتها وتفوقها أمام الفرق والأجناس الأخرى .

وأوصى نظام الملك بالعناية بالتركمان خاصة لما لهم من أفضال على الدولة السلجوقية وخاصة فى نشأتها المبكرة (٤) .

---

(١) لم أجد لفضلون بن أبى الأسوار ترجمة فيما بين يدى من مصادر .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٣٦ .
(٣) ص ١٣٦ .
(٤) سياسة نامه ، ص ١٣٩ .

هذا ويذكر نظام الملك أن تعداد الجيش فى عهد ملكشاه كان يبلغ أربعمائة ألف رجل (١). وقد حاول أحد المخالطين للسلطان ملكشاه أن يقنع السلطان بانزال عدد الجيش الى سبعين ألفا ويصرف الباقين حتى تتوفر للخزانة أموال طائلة من جراء ذلك ، وقد عرف نظام الملك بتلك النصيحة التى نصح بها السلطان السلجوقى ، ولذلك اتجه الى السلطان وبين له خطأ تلك المشورة لأن الدولة السلجوقية استطاعت أن تحفظ كيانها فى خراسان وماوراء النهر وخوارزم والعراقين وفارس وأذربيجان وأرمينية والشام بمثل هذا العدد ، ولو ارتفع عدد الجيش الى سبعمائة ألف ليسيطر السلطان على مصر والدولة البيزنطية والمغرب والحبشة . هذا بالاضافة الى أن تسريح ثلاثمائة وثلاثين ألفا من الجند سيلحق الخراب بالدولة لانقطاع رزقهم ، وسيحاول هؤلاء تنصيب شخص آخر سلطانا عليهم فتصبح المعادلة سبعين ألفا مقابل ثلاثمائة وثلاثين ألفا وسيضطر السلطان الى دفع أضعاف أضعاف ماوفره (٢) .

---

(١) ذكر حسين أمين فى كتابه تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ٢٠٦ ، أن عدد الجيش السلجوقى فى عهد ملكشاه بلغ سبعين ألفا ، وكذلك السيد الباز العرينى فى بحثه عن الاقطاع الذى نشره فى مجلة حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الرابع ١٩٥٧م ، ص ١٣٩. وهذا غير صحيح لأن نظام الملك وهو الوزير الأول أعرف بعدد الجيش السلجوقى وهو الذى ذكر فى كتابه أنهم أربعمائة ألف ، ولذلك فهو أوثق من غيره فى هذا الشأن ولعل الباحثين الذين ذكرناهما التبس عليهما الأمر وذكرا أن الجيش هو سبعون ألفا بناء على النصيحة التى قدمها شخص ما للسلطان ، واعتبرا أن السلطان استجاب لمطلبه مع أن بقية نص نظام الملك لايوحى بذلك .

(٢) نظام الملك الطوسى ، سياسة نامه ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

ويبدو أن السلطان اقتنع برأى وزيره ، لأنه سبق أن ذاق الأمرين من مخالفته لمشورة نظام الملك سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م حينما سرح من الجيش سبعة آلاف وهو فى مرو ، وتوجه أولئك المفصولون الى أخيه تكش بن ألب أرسلان الذى تمرد على السلطان واضطره الى قيادة الحملات ضده حتى ظفر به بعد حين.(١)

وفى مثل هذا التعداد الضخم الذى بلغه الجيش السلجوقى تبرز أهمية النظام الاقطاعى الذى لجأ اليه نظام الملك لتخفيف الأعباء عن خزينة الدولة ، اذ يذكر البندارى : "ان العادة جارية بجباية الأموال من البلاد وصرفها الى الأجناد ، ولم يكن لأحد من قبل اقطاع ، فرأى نظام الملك أن الأموال لاتحصل من البلاد لاختلالها ولايصح منها ارتفاع لاعتلالها ، ففرقها على الأجناد اقطاعا وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا ، فتوفرت دواعيهم على عمارتها وعادت فى أقصر مدة الى أحسن حالة من حليتها ..." .(٢)

ويرى كلود كاهن أن ماورد فى هذا النص انما ينطبق على ماجرى للاقطاع من تغيير وتعديل بعد نظام الملك ، اذ استغرق التغيير قرنا من الزمان تحول فيه الاقطاع الى ماانتهى اليه من صورة حربية فى العصر الذى صنف فيه عماد الدين الأصفهانى كتابه وهو العصر الذهبى للاقطاع الحربى ، وتعرض فيه الى الناحية النظرية لا الى ماجرى فعلا زمن نظام الملك .(٣)

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١١٨ ، وانظر ماسبق ص ٤٠٦ .

(٢) البندارى ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٦٠ - وانظر السبكى ، طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٣١٧ .

(٣) نقلا عن السيد الباز العرينى ، الاقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن الثالث حتى القرن الثالث عشر الميلادى دراسة مقارنة ، بحث فى حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الرابع سنة ١٩٥٧م ، ص ١٣٧-١٣٨ .

هذا ونظام الملك نفسه لم يعترف بأن الاقطاع الحربى كان معروفا من قبل ، كما لم يزعم بأنه مبتكر هذا النظام (١) .

ولعل الجديد الذى جاء به نظام الملك هو أنه أدرك أن الفرسان المدرجين بديوان الجيش لم يوزع عليهم الا اقطاعات قليلة ، والجيش السلجوقى بضخامة عدده يلزمه اقطاعات كثيرة ولذلك وزعت كثير من الاقطاعات فى خراسان على قادة الجيش ورؤسائه بسبب اتساع رقعة الدولة السلجوقية فى عهد ملكشاه (٢) .

ويرى أحد الباحثين أن من الأسباب التى جعلت نظام الملك يوزع الاقطاعات على الجند ، هو أن تركيبة الجيش كانت مختلفة العناصر ، فأراد لتلك الجماعات أن تستقر فى أراض تقطع لها فترتبط بالأرض وتشعر بشعور المواطنة مما يسهل على الدولة السيطرة عليها وتقل المنازعات فيما بينهم مما يخفف أعباء الدولة المركزية الادارية والحربية (٣) .

وعلى أى حال فان الاقطاع فى الفترة التى ندرسها كان مقيدا بضوابط حددها نظام الملك نفسه فى كتابه سياسة نامه وهى : أن المقطعين ليس لهم على الرعية الا جباية المال المحدد الذى عهد اليهم بجبايته وبالحسنى ، فاذا جبوا الأموال يجب أن يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم ، ومن حق الرعية أن تتظلم من المقطع اذا أساء استخدام سلطته فى الجباية ، ويجب أن يعزل المقطع عن

---

(١) السيد الباز العرينى ، الاقطاع فى الشرق الأوسط ، ص ١٣٨ – حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ٢٠٧ .

(٢) السيد الباز العرينى ، الاقطاع فى الشرق الأوسط ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٣) محمد مسفر الزهرانى ، نظام الوزارة فى الدولة العباسية ، ص ١٨١-١٨٢ .

اقطاعه اذا خرج عن القواعد المحددة له ويعاقب حتى يعتبر به الآخرون (١) .

كما يجب على السلطان أن يتفقد الرعية ويرسل من يسأل عن أصحاب الاقطاع وهل يسيرون فى الناس السيرة الحسنة أم لا لأن ترك الأمور على عواهنها للمقطعين سيؤدى الى الخراب وتبتئس الرعية وتجبى الأموال بغير حق (٢) .

وفوق هذا فان نظام الملك أدرك خطورة نظام الاقطاع على السلطة المركزية ، وحتى لايقوى المقطع بما يكون له من عصبية وقوة فانه فرق الاقطاع الواحد فى بلاد مختلفة (٣) ، وفى هذا يقول البندراى : "وربما قرر نظام الملك لواحد من الجند ألف دينار فى السنة فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه فى أقصى خراسان وصاحب القرار راض" (٤) .

والى جانب حسن ادارة وسياسة نظام الملك ، فقد استطاع بما له من خلفية ثقافية طيبة أن يوجه الحركة العلمية فى عصره وينقلها نقلة كبيرة . فقد تولى نظام الملك الوزارة وكانت الأزمة شديدة بين علماء الشافعية والسلطة الحاكمة بسبب الأمر الذى أصدره السلطان طغرلبك الى الخطباء فى خراسان سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م بلعن الرافضة والأشعرية (٥) ، وقد غضب علماء الشافعية الذين يعتنقون المذهب الأشعرى فى الأصول وعلى رأسهم أبو نصر القشيرى (٦) ،

---

(١) نظام الملك ، سياسة نامه ، ص ٦١ .
(٢) نظام الملك ، سياسة نامة ، ص ١٧١ .
(٣) ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ص ٢٤-٢٥ .
(٤) تاريخ آل سلجوق ، ص ٦٠ .
(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٥٨ .
(٦) أبو القاسم القشيرى : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيرى النيسابورى الشافعى (٣٧٥-٤٦٥هـ/٩٨٥-١٠٧٣م) سمع الحديث من أبى الحسين أحمد بن محمد الخفاف ، وأبى نعيم عبد الملك بن الحسن =

والجوينى الذى رحل الى مكة بسبب هذا الأمر (١) . وعندما تولى السلطان ألب أرسلان الحكم بعد عمه السلطان طغرلبك وتولى نظام الملك الوزارة كان أول عمل يقوم به هو ازالة لعن الأشعرية من على المنابر (٢) .

ولأن نظام الملك كان شافعيا فقد اهتم بعلماء هذا المذهب وفتح لهم الكثير من المدارس وأشهرها المدرسة النظامية فى بغداد التى أمر ببناءها سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م (٣) ، وتوسع فى انشاء المدارس فى كل من بلخ ونيسابور وهراة وأصبهان والبصرة ومرو وآمل طبرستان والموصل (٤) وأذربيجان (٥) . ويذكر البندارى أن نظام الملك كان يختار بعض المتميزين فى دراستهم ويرسلهم الى الأماكن التى يغلب عليها الجهل حتى ينتفع أهل تلك الجهات بمثل هؤلاء العلماء (٦) .

ولم يبخل نظام الملك فى صرف الأموال الطائلة فى بناء المدارس والصرف على العلماء وطلاب العلم ، وكان هذا الانفاق

= الاسفرايينى ، وأبى الحسن العلوى وغيرهم ، كما تفقه على أبى بكر محمد بن أبى بكر الطوسى ، وأبى اسحاق الاسفرايينى ، وكان القشيرى علامة فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب .
عن ترجمته ومصادرها انظر : (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٢٢٧-٢٣٣ .

(١) الجوينى : هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله : أبو المعالى امام الحرمين (٤١٧-٤٧٨هـ/١٠٢٦-١٠٨٥م) ولد بجوين قرية من قرى نيسابور وتفقه على والده وسمع الحديث الكثير ، كما تتلمذ عليه كثيرون وكان يحضر درسه كل يوم نحو ثلثمائة وتخرج به جماعة من الأكابر حتى درسوا فى حياته .
عن ترجمته انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٨-٢٠) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٢ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٢٤ .
(٤) السبكى ، طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٣١٣-٣١٤ .
(٥) القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٦٠٢ .
(٦) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٩ .

موضع ملاحظة لبعض الحاقدين عليه الذى قال للسلطان ملكشاه "ان الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشا يركز رايته فى سور القسطنطينية" . وقد رد نظام الملك على السلطان ملكشاه حينما عاتبه فى هذا الموضوع بقوله : "... وأنت مشتغل بلذاتك منهمك فى شهواتك وأكثر مايصعد الى الله معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى ... وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل اذا قامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفا بين يدى ربهم ، فارسلوا دموعهم واطلقوا ألسنتهم ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون وبدعائهم يبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون" (١) .

وفى رواية لسبط ابن الجوزى أنه قال له : "ياملك لما أقمت العساكر تقاتل بين يديك الأعداء بالنهار ، أقمت لك جندا فى الليل يصفون أقدامهم ويدعون لك وأنت نائم ، وبعد هذا فانظر فى المال الذى غرمته فى هذه الوجوه فأنا أحمله اليك وأمحو اسمك من أبوابها واكتب اسمى ليبقى لى ذكرها وآجرها" . فقال عندها السلطان ملكشاه : "لاوالله ماأريد أن أمحو اسمى من أماكن البر والصلة وجزاك الله خيرا فيما فعلت" (٢) .

وعلى الرغم من كون نظام الملك شافعيا وأنه اهتم بعلماء مذهبه وحنا عليهم ، فقد حاول بعض العلماء استغلال

---

(١) الطرطوشى ، سراج الملوك ، باعتناء أنطون أفندى ، الاسكندرية ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م ، ص ٢٦٧ .
(٢) مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٩٢ .

هذه العلاقة فى اثارة الفتنة فى بغداد وأخذوا يتحرشون بالحنابلة وذلك عندما دخل أبو نصر القشيرى بغداد مدرسا بالنظامية سنة ٤٦٩هـ ، وأخذ يذم الحنابلة فيها مما أغضب عليه الحنابلة وقامت الفتنة بين الطرفين وشهدت دروب بغداد من الصراع والسب بين الطائفتين شيئا عظيما (١) ، وكان اعتماد الشافعية على نظام الملك ، والحنابلة على كثرتهم وعلى الخليفة المقتدى ووزيره ابن جهير ، لكن نظام الملك عالج الموقف بحكمة وكياسة واستطاع أن يخفف من حدة الصراع بين المتنازعين فى المذاهب ، وذلك عندما كتب الى أبى اسحاق الشيرازى (٢) ردا على شكواه من الحنابلة بما معناه أنه ليس من الواجب عليه (نظام الملك) أن يتحيز الى جهة دون جهة وليس من مقتضى العدل والسياسة مثل ذلك ، كما بين له ان انشاء المدرسة فى بغداد كان بهدف نشر العلم وليست سببا الى الفرقة والاختلاف ، وذكر له أن أهل بغداد معظمهم من الحنابلة ، ولاينبغى أن يقادوا الى خلاف مايعتقدونه ، لأن الشافعية يريدون ذلك (٣) .

وفى نفس الوقت فقد عاتب نظام الملك فخر الملك وزير الخليفة فى الرسالة التى وجهها اليه بسبب تلك الفتنة لعدم اتخاذه الموقف المناسب الذى يقطع دابرها كما بين له فى

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣٠٥ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٨٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) هو ابراهيم بن على بن يوسف الفيروز ابادى الشيرازى (٣٩٣-٤٧٦هـ/١٠٠٢-١٠٨٣م) تفقه على يد عدد من علماء فارس والبصرة وبغداد ، وتولى التدريس فى بغداد وخاصة المدرسة النظامية فيها ، توفى فى بغداد ، انظر ترجمته فى : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٧-٨) .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣١٢ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٩٣-١٩٤ .

رسالته أنه مابنى مدرسته فى بغداد الا ليتفيأ الشافعية فيها ظل عنايته (١) . فنظام الملك فى ردوده تلك أرهب الخليفة ووزيره حتى لايفكر فى مناصرة الحنابلة ، ولم يعط الشافعية فرصة لاتخاذه وسيلة لتحدى خصومهم فى بغداد بواسطته مما قضى على خصومة الطرفين قبل أن يستفحل خطرها .

والى جانب ماكانت تقوم به المدارس النظامية فى أنحاء الدولة من تدريس الطلبة وتخريج العلماء المتخصصين فى العلوم الشرعية ، فقد كانت تقوم بدور آخر لايقل أهمية عن دورها الأساسى ، ألا وهو التصدى للنحل والمبادىء الهدامة وأبرزها فرق الباطنية التى بدأت تستعيد نشاطها فى المشرق الاسلامى بواسطة الدعاة الفاطميين ، وكانت هذه المدارس وعلماؤها السد الذى وقف أمام أولئك الباطنيين بما ألفوه من كتب فى الرد عليهم وبطلان منهجهم وفساد عقيدتهم (٢) .

ومما لاشك فيه أن المكانة التى وصل اليها نظام الملك فى عصر ملكشاه قد أوجدت له من يحسده عليها ، وأصبح كل مقرب من السلطان يتمنى أن يصل الى منصب الوزارة بأى شكل من الأشكال . وقد تعرض نظام الملك للعديد من المكائد لهذا السبب (٣) ، ومن ضمن من كاده شخص يدعى ابن بهمنيار الشرابى الذى قال للسلطان ملكشاه سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ، ان نظام الملك يبدد من الأموال كل سنة سبعمائة ألف دينار ، وأنه أخذ ضمان أصفهان بزيادة سبعين ألف دينار كل سنة ، ولم يستطع أن يفى بتلك الزيادة ، ولكن نظام الملك استطاع أن يفلت من تلك

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٧-١٨٨ .
(٢) انظر فيما بعد ص ٤٦٩ ومابعدها .
(٣) لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

المكيـدة عندمـا بين للسلطان ملكشاه أن خصمه يكيد له وأنه وضع له السم ليخلص منه فاقتنع السلطان بحجة وزيره (١) .

وقد كرر سيد الوزراء أبو المحاسن بن كمال الملك (٢) الذى كان مقربا من السلطان ملكشاه نفس الدور عندما طلب من السلطان ملكشاه سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م أن يسلم اليه نظام الملك واصحابه متعهدا للسلطان أن يستخرج منهم ألف ألف دينار . وقد عرف نظام الملك بما دار من الحديث عنه فى مجلس السلطان ، ولذلك صنع وليمة كبيرة للسلطان وحين انتهى من الطعام خلا به نظام الملك بين مماليكه - نظام الملك - وقال له : "أيها السلطان اننى ماآخذ من عشر أموالك أنفقه فى هذا العسكر الذى تراه وأن جامكيتهم تشتمل على مائتى ألف دينار فى كل سنة وهؤلاء يقاتلون أعداء دولتك ولو لم أدفع اليهم هذا المال من عندى لاحتجت الى أن تعطيهم من خزانتك وقد جمعتهم وخيلهم وسلاحهم وجمالهم وخيامهم فتقدم بنقلهم الى من تراه من الحجاب يصرف اليهم من هذا العشر الذى أخذه وأستريح أنا من التعب والخطر ، ومع هذا فقد خدمت جدك وأباك وشخت فى دولتكم وأنا والله مشفق من مفيك على ما أنت عليه وخائف من عقبى ما أنت خائف فيه ..." . وفى نهاية الحديث قدم نظام الملك للسلطان كثيرا من الجواهر والأموال وانتهى الأمر بقتل أبى المحاسن بن أبى الرضا وعزل والده من ديوان الطغراء (٣) .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣٣٠ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢٠٩ .

(٢) لم أجد لأبى المحاسن بن كمال الملك على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٢٤-٢٢٥ ، وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٦ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٣١ .

ان مادار فى ذلك المجلس يبين لنا أن نظام الملك كان يتقاضى راتبا كبيرا وهو عشر مايرد الى الخزانة السلطانية وفى نفس الوقت يتبين لنا أن نظام الملك أسس لنفسه جيشا داخل الجيش السلجوقى يخضعون له مباشرة ، ولعل ملكشاه قبل تبرير وزيره مضطرا لاقناعه منه وانما خوفا من الاقدام على أية خطوة تؤدى الى الصدام ، وهو مالمح له نظام الملك وان كان تظاهر باستعداده للتخلى عن كل شىء اذا كان ذلك يرضى السلطان .

ويبدو أن ملكشاه تحمل على مضض حتى كانت ذروة الخلاف بينهما سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م ، وقد أورد سبط ابن الجوزى عدة أسباب لهذا الخلاف منها :

(١) أن ملكشاه أرسل أحد مماليكه الى مرو وكان فيها شمس الملك بن نظام الملك ، الذى تصدى لظلم مملوك السلطان ملكشاه للرعية وحبسه وعندما أطلقه توجه الى مولاه يشكو من ابن نظام الملك وزين له أن مافعل به يمس السلطان شخصيا ، فغضب السلطان ملكشاه وأرسل اليه وفدا من رجال دولته ليبلغوه عنه قوله :

(ان كنت شريكى فى ملكى فلذلك حكم وان كنت متعاليا فيجب أن تلزم حدك وهؤلاء أولادك قد استولوا على الدنيا ولايقنعهم ذلك حتى يخرقوا الحرمة " . وكان رد نظام الملك جافيا عندما قال : ماعلم أننى شريكه فى الملك الا اليوم ؟ وأخذ يعدد أياديه على السلطان منذ أن تولى الملك الى يومه ثم قال فى النهاية : "ان ثبات قلنسوته على رأسه مقرون بفتح هذه الدواة ومتى أطبقت هذه زالت تلك" ، ووصل رد نظام

الملك الى السلطان الذى سكت على مضض .(١)

(٢) أن تاج الملك المرزبان بن خسرو اتفق مع السلطان بعد رد نظام الملك على الاحتيال فى ازاحته من الوزارة ويتولى هو مكانه .(٢)

(٣) أن السلطان ملكشاه استشار نظام الملك فى خلع الخليفة المقتدى بأمر الله ورفض نظام الملك أن يوافق السلطان على رأيه بينما وافقه تاج الملك وطلب منه قتل وزيره حتى يستريح منه .

(٤) أن خاتون زوجة السلطان ملكشاه طلبت من السلطان أن يولى عهده لابنها محمود ، فاستشار السلطان نظام الملك فى هذا الأمر فقال له : "بأى وجه تلقى الله غدا وقد وليت على المسلمين امرأة وصبيا ولك أولاد كبار" ، فتآمرت زوجة السلطان وتاج الملك على قتله .(٣)

وهكذا سواء لهذه الأسباب أو أحدها فان نظام الملك كان مهددا بالقتل وهو ماحدث فى رمضان سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م عندما قتل نظام الملك فى قرية من قرى نهاوند على يد أحد الباطنية كان متنكرا فى زى الصوفية ومتظاهرا بأن عنده مظلمة يريد أن يقدمها اليه وعندما مد يده لقراءتها ضربه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٧٠-١٧١ .

(٢) أبو الغنائم تاج الملك بن خسرو بن دارست ، كان كاتبا للأمير سرهنك ثم التحق بخدمة السلطان ملكشاه ، حتى قتل نظام الملك ، فعينه السلطان ملكشاه وزيرا محل نظام الملك . قتل على يد الجند النظامية سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م .
انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٧٤ - الذهبى سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ١٠٠-١٠١) .

(٣) مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، ج١ ، ص ١٧١ .

بسكين أصابته فى مقتل وقتل على اثره قاتله (١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير العظيم ولم يعش بعده السلطان الا خمسة وثلاثين يوما لتدخل الدولة السلجوقية بعدهما مرحلة عصيبة من الفتن من جراء التنافس على العرش والوزارة والتى استغرقت منها وقتا طويلا .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٧٢-١٧٣ .

علاقة الخلافة العباسية
بالسلاطين السلاجقة العظام
ودورهم فى التصدى للمذهب الشيعى

علاقة الخليفة القائم بأمر الله بالسلطان طغرلبك :

منذ أن دخل السلطان طغرلبك مدينة بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م بدأت مرحلة جديدة فى العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية التى أصبحت تفرض سيطرتها على بغداد ، وأكدت هذه السيطرة بعد القبض على الملك الرحيم وارساله مخفورا ليسجن فى قلعة طبرك لتنتهى بذلك دولة بنى بويه فى العراق ، على الرغم من اعتراض الخليفة القائم بأمر الله على ذلك التصرف الذى قام به السلطان طغرلبك تجاه الملك الرحيم ، ومع ذلك فقد قبل الخليفة القائم بأمر الله مرغما بما صنعه السلطان السلجوقى طغرلبك بآخر حاكم بويهى فى العراق . ثم جاء التصرف الثانى من قبل السلطان طغرلبك فى اظهار السيطرة على الخلافة فى وقت كان فيه الخليفة القائم بأمر الله يتجرع الحسرة على ابنه الوحيد وولى عهده ذخيرة الدين أبو العباس محمد بن القائم الذى توفى فى أواخر سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م . ففى أثناء جلوس الخليفة القائم بأمر الله لتلقى العزاء فى وفاة ابنه ، حضر عميد الملك الكندرى الى مجلس الخليفة يحمل طلبا من السلطان الى الخليفة بالقيام من مجلس العزاء ، واضافة الى ذلك طلب مبلغا من المال لم يحدد المصدر مقداره (١) . ويبدو أن هذا الطلب لم يلق استجابة

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٥ .

من قبل الخليفة ، ربما لعدم توفر المطلوب فى خزائنه ، وقد اقترح أحد الحاضرين على الخليفة أن يطلق يد السلطان فى دار الحريم ، وقد رفض الخليفة هذا الأمر . كما عبر الخليفة عن حزنه فى الطريقة والتوقيت الذى قام به السلطان طغرلبك بطلب المال عندما قال : "مازال هذا الحريم مصونا وقد جرى فيه مارأينا مكافأته فى ولدنا فما نشك أن دعوة سمعت والرعية سألت فأجيبت" (١) .

ولم يمض وقت غير قليل حتى تقرب السلطان طغرلبك من الخليفة بتزويجه من بنت أخيه خديجة بنت الملك جغرى بك داود وعقد عليها فى المحرم سنة ٤٤٨هـ/مارس ١٠٥٦م (٢) .

ويذكر سبط ابن الجوزى أن أرسلان خاتون كانت للذخيرة محمد بن القائم بأمر الله فلما توفى الذخيرة قبل أن يعقد عليها عدل بها الى الخليفة نفسه (٣) . ومما لاشك فيه أن السلطان السلجوقى اقتدى فى هذا الأمر بالبويهيين حينما زوج عضد الدولة البويهى ابنته من الخليفة الطائع لله (٤) . اضافة الى ذلك ماينشده السلطان طغرلبك من التميز على سائر ملوك وأمراء المشرق الاسلامى بهذه المصاهرة (٥) .

ومن الغريب أن السلطان طغرلبك لم يقابل الخليفة القائم بأمر الله منذ دخوله بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م الى

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٦٥ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧٠ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢ – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٧ – ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٦٧ – ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٨٦ .
(٣) مرآة الزمان ،ص ٢ .
(٤) اليوزبكى ، الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية ، ص ٢٢٣ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢ .

أواخر سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م حينما تمكن السلطان من اخراج البساسيرى من الموصل . ويفهم مما أورده ابن الجوزى أن السلطان طغرلبك كان يلح على الخليفة القائم بأمر الله فى مقابلته (١) ، وقد يكون مرد ذلك الى أن السلطان طغرلبك لم يحسم أموره مع البساسيرى الذى كان خطره مايزال مستمرا سيما بعد تحالفه مع الفاطميين . وربما يكون هذا هو السبب أيضا فى أن الخليفة القائم بأمر الله لم يفوض السلطان طغرلبك فى ادارة الدولة العباسية الا بعد أن تغلب السلطان طغرلبك على البساسيرى وطرده من الموصل فى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وعندها سمح الخليفة فى مقابلة السلطان طغرلبك . وفى يوم (٢) السبت الخامس والعشرين من ذى القعدة ٤٤٩هـ/٢٥ يناير ١٠٥٧م كان الخليفة فى استقبال السلطان طغرلبك الذى دخل دار الخلافة ومعه الأمراء والملوك يمشون بين يديه ، فلما وصل الى باب دهليز صحن السلام انتظر بعضا من الوقت حتى فتح له وكان فى استقباله فى صحن السلام رئيس الرؤساء ابن المسلمة الذى قاده الى الخليفة القائم بأمر الله حيث كان يجلس على سرير مرتفع عن الأرض نحو سبعة أذرع مرتديا بردة النبى صلى الله عليه وسلم وبيده قضيب . وحين شاهد السلطان الخليفة القائم بأمر الله قبل الأرض عدة مرات (٣) ، ثم أمر بالجلوس بجانب الخليفة على سرير دونه وكان المترجم بينه وبين

---

(١) المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨١ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨١ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢٤ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٣ ـ البندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٦ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٧٢ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨١-١٨٢ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤-٢٥ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٣ .

الخليفة عميد الملك الكندرى .

وحينما جلس السلطان قال له الخليفة القائم بأمر الله "أمير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفعلك آنس بقربك ، زائد الشغف بك ، وقد ولاك جميع ماولاه الله تعالى من بلاده ورد اليك فيه مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك ، وعبدك فى ذلك ، واجتهد فى عمارة البلاد وصلاح العباد ، ونشر العدل وكف الظلم ..." (١). وبعد أن ترجم عميد الملك الكندرى للسلطان ماقاله الخليفة قام السلطان وقبل الأرض مرة أخرى وقال : "أنا خادم أمير المؤمنين وعبده ، ومتصرف على أمره ونهيه ، ومتشرف بما أهلنى له واستخدمنى فيه ، ومن الله أستمد المعونة والتوفيق" (٢). وبعد ذلك نهض السلطان طغرلبك الى غرفة أخرى ارتدى فيها الخلع السبع التى منحها اياه الخليفة القائم بأمر الله ثم لبس التاج وعاد الى مجلسه عند الخليفة ، وهنا أعطاه الخليفة القائم بأمر الله سيفا وقلده اياه وخاطبه بملك المشرق والمغرب ، كما أعطاه ثلاثة ألوية عقد احداها بيديه وهو لواء الحمد ، ثم أحضر العهد والتكليف وأمر الخليفة أن يسلم الى السلطان طغرلبك ليعمل بموجبه ، كما أوصى السلطان بقوله : (آمرك بما أمرك الله به ، وأنهاك عما نهاك الله عنه) (٣).

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨٢ - وانظر ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٥ - ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٣-٦٣٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨٢ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢٥-٢٦ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨٢ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢٦ - وانظر كذلك ابن الأثير ، الكامل ج٩ ، ص ٦٣٤ .

وينقل لنا ابن الجوزى صورة الوضع الذى كان عليه السلطان طغرلبك وهو فى حضرة الخليفة القائم بأمر الله بقوله : "وكان من السلطان طغرلبك فى كل يفصل بفصل له من الشكر وتقبيل الأرض ما أبان عن حسن طاعته وصادق محبته وسأل مصافحته باليد الشريفة فأعطاه أمير المؤمنين يده دفعتين قبل لبسه الخلع وعند انصرافه من حضرته وهو يقبلها ويضعها على عينيه ..." (١) .

وبعد أن لبس السلطان الخلع وأعطى التقليد دخل بقية رجال الدولة الى حيث مجلس الخليفة والسلطان ليخرج الجميع من عند الخليفة القائم بأمر الله بصحبة السلطان طغرلبك . واحتفل السلطان فى يوم الاثنين ٢٧ ذى القعدة بالتقليد حسب رغبة الخليفة ليشهد "الناس ماتواتر من انعامه (الخليفة القائم) فيبتهج الولى وينقمع العدو" (٢) .

وتذكر بعض المصادر أن السلطان دفع فى مقابل التقليد والخلع خمسين ألف دينار وخمسين غلاما من الأتراك على خيول بسيوف ومناطق وعشرين رأسا من الخيل وخمسين قطعة من الثياب (٣) .

ومما لاشك فيه أن السلطان طغرلبك حاز ماكان يصبوا اليه منذ قضى على الدولة الغزنوية فى خراسان ، وانفتح أمامه السبيل للوصول الى مقر الخلافة والفوز بتفويضها ، وهو ماعبر عنه السلطان طغرلبك فيما بعد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م

---

(١) المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨٢-١٨٣ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨٣ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٨٣ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢٦ ،وذكر أن السلطان قدم للخليفة فيما قدمه خمسمائة ثوب بدلا من خمسين – ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٤ .

عندما اشتد ضغط البساسيرى على الموصل وما أشيع عن نية البساسيرى بالاتجاه الى بغداد وذلك عندما قال السلطان طغرلبك لابن المسلمة : "... وكنت الساعة قبل حضورك - أى ابن المسلمة - تقدمت الى عميد الملك بأن يتقدم الى الحواشى والحجاب ويقول لهم : من أرجف بأنى عائد الى خراسان آذيته وعذبته ، وقد كنت أجوب الأرض حتى أصل الى هذه الرتبة من خدمة الدار العزيزة ، وقد بلغت منها نهاية الأمنية ، ولم يبق من خراسان من أخاف منه على بلادى كلهم لبسوا خلعى ودخلوا تحت طاعتى ، ولابد لى من نطحة الشام بعد تقضى الصيف وحضور المهرجان (١) ..." (٢) .

ومن خلال الحوار السابق الذى تم بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرلبك نلحظ مدى التودد والخضوع من جانب السلطان طغرلبك تجاه الخليفة فى هذه المرحلة التى كانت تشهد صراعا بين الخلافتين العباسية والفاطمية التى آزرت البساسيرى ووقفت الى جانبه ضد الخلافة العباسية . ومما لاشك فيه أن التوافق المذهبى السنى بين الخلافة العباسية والسلاجقة فرض على السلاجقة والخلافة أن يتحدا بقوة فى هذه المرحلة والوقوف بصلابة أمام الدولة الفاطمية الشيعية ، وقد يكون هذا هو السبب فى أننا لم نشهد أى تصادم بين السلطان طغرلبك والخليفة القائم بأمر الله بنفس الدرجة التى حدثت بين الخلافة العباسية والقوى المتغلبة فى فترة العصر العباسى الثانى .

---

(١) المهرجان : من أعياد الفرس وموعده فى السادس والعشرين من تشرين الأول ومدته ستة أيام يسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر .
انظر : (القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج٢ الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ٤٤٨) .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٨ .

وقد رأينا كيف كان السلطان طغرلبك حريصا على الخليفة القائم بأمر الله فى الفترة التى تغلب فيها البساسيرى على بغداد ، ووجود الخليفة القائم بأمر الله فى الحديثة رهينا لدى مهارش بن المجلى العقيلى ، لكنه بعد خلاص الخليفة من أسره نشهد موقفا غريبا من جانب السلطان طغرلبك ، ففى أثناء عودة الخليفة الى بغداد طلب القائم بأمر الله من مرافقيه أن يضربوا خيمة بجانب مخيم السلطان حتى يشهد بنفسه قتال البساسيرى ، وقد رفض السلطان طغرلبك هذا الطلب رفضا قاطعا بقوله : "هذا مما لايجوز فعله ،ونحن الذين نصلح للحرب والسفر والتهجم والخطر دون أمير المؤمنين ، فاذا خرج بنفسه فأى حكم لنا وأى خدمة تقع منا والمصلحة دخول أمير المؤمنين الى داره ..." (١). ويبدو أن الخليفة القائم بأمر الله استشرفت نفسه الى اعادة بعض مهام الخلافة التى فقدتها الخلافة العباسية وهى قيادة الجيوش لردع المخالفين أو أن طلبه هذا كان اختبارا لنظرة السلطان السلجوقى فى دور الخليفة فى ادارة الدولة العباسية ، وأيما كان هدف الخليفة القائم بأمر الله من طلبه ذاك الا أنه صدم برد السلطان طغرلبك وكشفت له حقيقة الأمر وأن دوره هو ملازمة داره للتفويض فى ادارة الدولة العباسية لأى قوة تصل الى بغداد .

ومما يعزز قولنا هذا مانقله لنا ابن العمرانى من أن عميد الملك الكندرى حضر الى ديوان الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، ومن المحتمل أن حضوره تم بعد

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧ ـ وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٠٨ .

القضاء على البساسيرى ، وقبل عودة السلطان طغرلبك من البصرة "لتقرير الأمور واقرار مايختص بديوانه من البلاد" (١) .

واستند عميد الملك الكندرى فى اتخاذ مثل هذا الاجراء لأن : "... أمير المؤمنين قد ولى ركن الدين من وراء بابه ، وهو الذى أعاد هذه الدولة بعدما زالت ... وأمير المؤمنين ليس له عسكر سوانا" (٢) . ولذلك فقد قرر عميد الملك أن يصرف للخليفة خمسمائة دينار فى اليوم . وقد استقل موظفوا ديوان الخلافة مثل هذا المبلغ لنفقات الخليفة لما يحتاجه الخليفة من التشريفات والخلع والصلات للملوك والأمراء والقضاة والأشراف وسائر طبقات الناس (٣) .

وبعد أخذ ورد رضى عميد الملك أن يقرر للخليفة القائم بأمر الله كل يوم ألفى دينار ، اضافة الى اقطاع يدر على دار الخلافة سبعمائة وعشرون ألف دينار فى السنة . واعتبر عميد الملك هذا الوضع الذى قدمناه اتفاقية بين الخليفة والسلطان السلجوقى كتبت فيه السجلات وشهد عليه الشهود (٤) ربما حتى لايتراجع الخليفة العباسى فيما بعد عن تلك الاتفاقية . ومن الملاحظ مما نقله ابن العمرانى أن عميد الملك الكندرى استشهد بما كان عليه وضع الخلافة بفترة امرة الأمراء وعلاقتهم بالخلافة العباسية ولم يستشهد بما كان عليه الخلفاء العباسيين فى فترة بنى بويه ، وذلك دفعا لحجة من يحتج بأن بنى بويه كانوا شيعة ولايحترمون خلفاء بنى العباس فضلا عن أنهم لايعترفون بأحقيتهم بالخلافة ، ولذلك رجع الى

---

(١) الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٧ .
(٢) ابن العمرانى ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٧ .
(٣) ابن العمرانى ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٧ .
(٤) ابن العمرانى ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٧ .

تاريخ الخلافة ليستشهد بأوضاعها فى زمن كان القادة الترك سنة على مذهب الخلافة ، ولذلك فليس بدعا أن يسلك السلطان السلجوقى مسلكهم فى هذا الأمر .

ولم تنقل لنا المصادر الأخرى أى رد فعل من جانب الخليفة القائم بأمر الله تجاه هذا الاجراء مما يدل على قبوله بهذا الواقع الذى فرضه وزير السلطان عميد الملك الكندرى . وحين عاد السلطان طغرلبك من البصرة فى صفر سنة ٤٥٢هـ/مارس ١٠٦٠م استقبله الخليفة على وليمة صنعها اكراما للسلطان السلجوقى وحاشيته ، ورد السلطان بعمل مأدبة مماثلة حضرها الخليفة القائم بأمر الله ليعود بعدها السلطان الى بلاد الجبل فى ربيع الأول سنة ٤٥٢هـ/ابريل ١٠٦٠م بعد أن ترك حامية فى بغداد بقيادة أحد أمرائه ويدعى الأمير برسق (١) .

ولم يكتف السلطان طغرلبك بما حصل عليه من تقليد وتفويض من قبل الخلافة ، وانما تطلع الى ماهو أبعد حينما أقدم فى خطوة لم يسبقه اليها أحد من المتغلبين على الخلافة ألا وهى خطبة ابنة الخليفة القائم بأمر الله . وقد أتت رغبته هذه كما يذكر ابن الجوزى بناء على وصية من زوجته التونجان التى توفيت فى جرجان سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م وطلبت من طغرلبك أن يتزوج من ابنة الخليفة كما أوصت أن يكون مالها جميعه لبنت الخليفة (٢) .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٤-٢١٥ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧١-٧٢ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٨-٩ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٢ ، ص ٨٥ .

(٢) المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٨ ـ وانظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٥ .

ويضيف ابن الجوزى أن قهرمانة الخليفة لمحت للسلطان طغرلبك عن هذا الزواج (١) . وسرعان مانفذ السلطان طغرلبك وصية زوجته المتوفاة ، اذ انتهز طلب الخليفة القائم بأمر الله بارجاع زوجته الخاتون أرسلان بنت جغرى بك داود – التى كانت موجودة فى الرى منذ أن أرجعها قريش بن بدران سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م – الى بغداد ، وبدلا من ارجاع زوجة الخليفة وصل الى بغداد فى ربيع الأول سنة ٤٥٣هـ/مارس ١٠٦١م قاضى الرى أبو سعد بن صاعد (٢) يحمل رسالة الى الخليفة القائم بأمر الله يطلب فيها السلطان خطبة ابنة الخليفة لنفسه ، وقام قاضى الرى بالتلميح بالتهديد ان هو لم يستجب لهذا الطلب ، وقد حاول القائم بأمر الله أن يتنصل من هذا الزواج حينما قال "ماجرت بهذا عادة لأحد من الخلفاء ، وركن الدين عضد الدولة وركنها والمحامى عنها والماحى لكل أذى عنها ، وماهذا مما يجوز سومنا اياه ومطالبتنا به ..." (٣) .

ويبدو أن التهديد الذى أظهره قاضى الرى هو الذى جعل الخليفة القائم بأمر الله يبدو مترددا بشأن اجابة طلب السلطان طغرلبك الى طلبه ، وجعله يفرض شروطا ظن أنها تصرف السلطان عن طلبه . وهذه الشروط هى : أن تسلم اليه مدينة

---

(١) المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٨ .

(٢) أبو سعد بن صاعد : يحيى بن محمد بن صاعد ، قاضى القضاة من بيت علم وقضاء ، ولد سنة ٤٠١هـ وسمع من مشايخ وقته ومن أبيه وجده ، توفى بالرى سنة ٤٦٠هـ . انظر : (الحافظ أبو الحسين عبد الغافر بن اسماعيل الفارسى ، المنتخب من السياق (فى تاريخ نيسابور) انتخاب الحافظ أبى اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفينى ، ص ٧٤٣-٧٤٤) .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٦ – وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٨ .

واسط ، وأن يعطى الأموال التى خلفتها خاتون زوجة السلطان طغرلبك وأملاكها ، اضافة الى ثلثمائة ألف دينار مهرا ، وأن يقيم السلطان طغرلبك فى بغداد ولايرحل عنها (١). وقد وافق عميد العراق أبو الفتح المظفر بن الحسين (٢) نيابة عن السلطان على شروط الخليفة المالية ، أما مايتعلق ببقائه فى بغداد فلابد من أخذ رأى السلطان فيه (٣).

وفى سبيل معرفة رأى السلطان فى الشروط التى اشترطها الخليفة القائم بأمر الله ذهب الى الرى كل من أبى محمد التميمى (٤) وطراد بن محمد الزينبى نقيب الهاشميين رسولين من قبل الخليفة ، وقد طلب الخليفة من رسوليه السابقين أن يستعفيا من هذا الزواج ، فان لم يعفى الخليفة فيه تطرح تلك الشروط للاجابة عليها ، كما أوصاهما بأن يستعينا بعميد الملك الكندرى وزير السلطان طغرلبك فى هذه المسائل ، وأن ترجع الأمور الى نظره (٥) ، ظنا منه أن عميد الملك سيحسن

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٨ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٧٦ .

(٢) تولى منصب عميد بغداد سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م وعزل عنها سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ولم أعثر له على ترجمة خاصة فيما بين يدى من مصادر .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٨ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٧٦ .

(٤) أبو محمد التميمى : رزق الله بن عبد الوهاب بن الحارث بن أسد التميمى ، شيخ الحنابلة وامامهم فى وقته ، ولد سنة ٤٠١هـ ، قرأ على والده وشيوخ عصره ، كما حدث عنه كثيرون ، لقب بجمال الاسلام ، أوفد عدة مرات من قبل الخلافة الى السلاطين أولاهما التى ذكرناها فى المتن ، وآخرها سنة ٤٨٣هـ . توفى فى بغداد فى جمادى الأولى سنة ٤٨٨هـ .
انظر ترجمته ومصادرها فى (الذهبى ، سير أعلام النبلاء ج١٨ ، ص ٦٠٩-٦١٥) .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢١٨-٢١٩ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٨ ـ وانظر ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠ .

التصرف ، غير أن الأخير أخذ يفند على الخليفة طلبه وشروطه بحجة أن : "هذه الرسالة والتذكرة لايحسن عرضها فان الامتناع لايحسن بعد السؤال والضراعة ، ولاالمطالبة بالبلاد والأموال بازاء الرغبة فى الافتخار والجمال ومتى طرق هذا سمع السلطان علم أن الرغبة فى الشئ لافيه فربما تغيرت نيته ، وكان منه مالانؤثره ، وهو يفعل فى جواب الاجابة أكثر مما يطلب منه" (١). كما أن عميد الملك استغل ارجاع الأمر اليه فى هذا الشأن واجتمع بالسلطان وأخبره بموافقة الخليفة على تزويجه من ابنته ، وسر السلطان بهذا الخبر سرورا عظيما جمع من أجله كبار رجال دولته وخطب فيهم عميد الملك : أن السلطان يذكر نعمة الله عنده وبلوغه مالم يبلغه أحد من قبله بسبب هذه الوصلة بأمير المؤمنين (٢).

ومن أجل التأكد من صدق قول الرسل الذين بعثهم الخليفة طلب السلطان من عميد الملك الكندرى بأن يأخذ ورقة رسمية من أبى محمد التميمى على تلك الموافقة ، غير أن أبا محمد رفض أن يكتب لعميد الملك مايريد ، ورغم ذلك فان السلطان طغرلبك أمر عميد الملك بالرحيل الى بغداد ومعه زوجة الخليفة لاتمام الزواج ، على الرغم من المخاوف التى أبداها عميد الملك ، والاحراج الذى يمكن أن يقعوا فيه اذا لم يتم الخليفة أمرهم .

وفى جمادى الأولى من سنة ٤٥٣هـ/مايو ١٠٦١م وصل عميد الملك الى بغداد ، واجتمع بالخليفة ليعرف رأيه القاطع فى تلك المسألة ، واذا بالخليفة يحتج لعميد الملك بأن شروطه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٨ – وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٩ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٨ .

التي وضعها لم تلب ، وانه يطلب اعفاءه من هذا الأمر ، والا فانه سيضطر الى مغادرة بغداد . وقد غضب عميد الملك من جواب الخليفة واحتج على الخليفة بأنه اذا لم يكن موافقا على تزويج ابنته فقد كان يجب أن يكون صريحا من البداية ، وأن لايضع شروطا توحي بأنه موافق ثم يعود عنها (١) ، وبين له حرج موقفه أمام السلطان طغرلبك ، لأنه هو الذى نقل الموافقة اليه بناء على تفويض الأمر اليه مع رسله الذين ذكرناهم ، وقد يقتله السلطان بسبب ذلك (٢) .

وقد رافق عملية الأخذ والرد بين الخليفة ورجال السلطان طغرلبك ضغوطا شديدة على الخليفة ، وأهم هذه الضغوط هو الاستيلاء على اقطاعاته المالية وطرد رجال الخليفة من ادارة هذه الاقطاعات (٣) ، بل وصل الأمر الى أن يمد رجال السلطان طغرلبك يدهم الى الجوالى "الجزية" (٤) التى هى من الحقوق الشرعية والتى ليس لتنظيم الدولة السلجوقية أى علاقة بها ، وانما هى مرتبطة بديوان الخلافة ، الا أن أسوأ تهديد واجهه الخليفة القائم بأمر الله هو ماصنعه عميد الملك الكندرى من تظاهره بالتشيع وذلك عندما مر أمام مسجد مكتوب على بابه - معاوية خال على - وهى عبارة كان يكتبها أهل السنة نكاية فى الشيعة ، فأنكر عميد الملك مثل هذه العبارة ، وأمر بعض غلمانه بازالة تلك العبارة من المسجد ونال من معاوية رضى الله عنه ومن بنى أمية ، ومن ناحية

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٨٠ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠-٢١ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨٠ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨٣،٨٢،٧٧ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨٧ .

اخرى فاجأ عميد الملك رجال الخليفة حينما دخل الديوان وهو يرتدى ثيابا بيضا على بغلة بيضاء ، وكما هو معروف فان شعار العباسيين كان هو السواد ، أما البياض فكان شعار أعدائهم الفاطميين ، وحينما عوتب عميد الملك قال : هذا هو السنة (١) .

لقد كان هذا ايحاء من جانب عميد الملك ، وربما من السلطان للخليفة القائم بأمر الله بخطورة وعاقبة استمراره فى الامتناع من تزويج ابنته للسلطان طغرلبك بالتحول الى الفاطميين نكاية فيه . ورغم هذا التهديد المبطن فقد ظل الخليفة ممتنعا طيلة سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م عن اجابة السلطان السلجوقى على طلبه ، وكان رد طغرلبك أن كتب الى عماله فى ذى القعدة سنة ٤٥٣هـ/نوفمبر ١٠٦١م فى بغداد استعمال القبيح فى حق الخليفة وخرق الهيبة ورفع الحشمة ، كما أمر ابنة أخيه زوجة الخليفة بالانتقال من دار الخلافة الى دار المملكة الى حين وصول من يصحبها معه الى السلطان (٢) . كما أن طغرلبك أرسل الى قاضى القضاه أبى عبد الله الدامغانى رسالة يشكو فيها الخليفة الذى كافأ السلطان طغرلبك على صنيعه معه بنكران الجميل ، وقبيح المكافأة (٣) . وهنا تدخل القاضى الدامغانى والأعيان لدى الخليفة باستدراك الأمر "والا بعد المرام واتسع الخرق" (٤) ، واضطر الخليفة القائم بأمر الله الى أن يوافق على تزويج ابنته من السلطان طغرلبك ،

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨١ - وانظر أيضا ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢١ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨٦-٨٧ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢٤ - سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٨٧-٨٨ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٨٨ .

بعد أن شرط ألا تخرج من بغداد ، وألا يدخل بها ثلاث سنين ولايجتمع بها الا فى دار الخلافة . وقد وافق عميد الملك نيابة عن السلطان على هذه الشروط (١) ، وعلى ضوئها تم العقد على بنت الخليفة القائم بأمر الله على السلطان طغرلبك فى يوم الخميس الثالث عشر من شعبان سنة ٤٥٤هـ/أغسطس ١٠٦٢م بالقرب من تبريز (٢) . وقد أورد سبط ابن الجوزى مظاهر الاحتفال الذى أقيم بهذه المناسبة وكيف أن السلطان طغرلبك أخرج من الخزائن الجواهر واللؤلؤ والذهب المصاغ والثياب والألطاف الشىء الكثير فرحا بعقده على ابنة الخليفة القائم بأمر الله (٣) ، كما أنه أمر بأن يهدى للخليفة ثلاثون غلاما من الترك وثلاثون جارية وعشرة آلاف دينار وعشرة آلاف لابنته ، وأعطاه أيضا الاقطاع الذى كان لزوجته خاتون المتوفاة فى العراق ، وثلاثة آلاف لأم العروس ، وخمسة آلاف دينار لولى عهد الخليفة القائم بأمر الله وغير ذلك من الهدايا (٤) .

وفى المحرم من سنة ٤٥٥هـ/يناير ١٠٦٣م وصل السلطان طغرلبك الى بغداد للدخول بابنة الخليفة حيث جرى حفل الزفاف فى الخامس عشر من صفر ، وزفت ابنة الخليفة الى دار المملكة رغم اشتراط الخليفة على السلطان بألا يجتمع بها الا فى داره . ويذكر كل من ابن الجوزى وسبط ابن الجوزى : أن

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢٤،٢٢٨-٢٢٩ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٩٨ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢٦ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٩٢ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠ ـ ابن العمرانى ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٨ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٨٧-٨٨ ـ النويرى نهاية الارب، ج٢٦ ، ص ٣٠٠ ـ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٥٣ .
(٣) مرآة الزمان ، ص ٩٤ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٩٥ .

السلطان طغرلبك دخل على زوجته ابنة الخليفة وأنه قبل الأرض بين يديها وخدمها وخرج من غير أن يجلس ولاهى قامت له ولاكشفت البرقع عن وجهها ولاأبصرته ، وأن السلطان خرج الى صحن دار المملكة ورجال الدولة يرقصون ويغنون بالتركية وأن السلطان رقص معهم (١) ، وظهر من السلطان سرور عظيم ومن الخليفة تألم كثير (٢) (٣) .

ولم يطل السلطان مقامه فى بغداد بعد زواجه بل غادر بغداد فى العاشر من ربيع الأول مستصحبا معه زوجة الخليفة أرسلان خاتون ومعه ابنة الخليفة أيضا الى الرى رغم معارضة الخليفة الشديدة (٤) ، وفى الرى توفى السلطان طغرلبك فى رمضان سنة ٤٥٥هـ/أغسطس ١٠٦٣م من أثر المرض الذى كان يعانيه .

ومن خلال عرض العلاقة بين السلطان طغرلبك والخليفة القائم بأمر الله نلحظ أنها ساءت كثيرا جدا بسبب فكرة الزواج تلك التى طرأت على ذهن السلطان طغرلبك وسام فيها الخليفة القائم كل ألوان القهر حتى يرضخ لمطلبه ، ويبدو أن السلطان طغرلبك كان ينظر الى هذا الزواج على أنه قربى لله تعالى كما وضحه فى رسالته الى قاضى القضاة الدامغانى التى أشرنا اليها سابقا ، لكنه أخطأ الأسلوب بلاشك وأفحش فى اذلال الخليفة حتى توصل الى مبتغاه فى هذا الأمر .

---

(١) المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢٩ – مرآة الزمان ، ص ٩٩ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٢٩ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٠ – سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٩٩ .

علاقة السلطان ألب أرسلان بالخليفة القائم بأمر الله :

ومهما يكن فقد تمكن السلطان ألب أرسلان من القضاء على منافسيه على السلطنة وعمل بعد دخوله الرى والقبض على عميد الملك على مراسلة الخليفة القائم بأمر الله ونيل مبايعته وتفويضه فى ادارة الدولة . وكان مدخله الى تحسين العلاقة بين الدولة السلجوقية والخلافة العباسية التى ساءت فى عهد سلفه السلطان طغرلبك هو اعادة ابنة الخليفة القائم بأمر ألله الى بغداد ، والايحاء اليها أن القبض على عميد الملك وسجنه كان بسبب دوره فى اخراجها الى الرى بغير اذن والدها الخليفة ورضاه (١) .

وقد وصلت ابنة الخليفة الى بغداد فى ربيع الثانى سنة ٤٥٦هـ/مارس ١٠٦٣م ومعها رسالة الى الخليفة تطلب اقراره وتفويضه بالسلطة ، وقد سر الخليفة القائم بأمر الله برجوع ابنته الى بغداد واستحسن مبادرة ألب أرسلان وشكره عليها (٢) .

كما أمر الخليفة أن يخطب للسلطان ألب أرسلان فى بغداد وأقيمت له الدعوة يوم الجمعة ١٨ ربيع الثانى ، وكانت الدعوة له على المنابر كما أوردها سبط ابن الجوزى (اللهم أصلح السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم ملك العرب والعجم ، سيد ملوك الأمم ضياء الدين غياث المسلمين ظهير الامام كهف

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٤ — سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١١٢ — ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٥ — ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١٩ — ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ، ص ٤٦٨ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٥ — سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢١٣ .

الأنــام عضد الدولة وتاج الملة أبا شجاع ألب أرسلان محمد بن داود برهان أمير المؤمنين) (١) .

واستقبل السلطان ألب أرسلان نبأ اقامة الخطبة له ببغداد وهو فى أذربيجان بسرور كبير وسجد شكرا لله تعالى ، وفى نظير ذلك أرسل الى الخليفة بعشرة آلاف دينار وعشرة آلاف أخرى حوالة على ناظر بغداد ، وأربعمائة ثوب من أنواع مختلفة ، وعشرة جياد وعشرة بغال (٢) . ويذكر سبط ابن الجوزى أن السلطان ألب أرسلان أمر بأن ينقش اسمه على السكة وطلب من الخليفة أن يلقبه بالولد المؤيد . ومن ناحية أخرى فقد أمر السلطان ألب أرسلان بأن يحول الاقطاع الذى آل الى ابنة الخليفة من السلطان طغرلبك الى زوجته خاتون السفريه ، وقد رفض الخليفة تنفيذ أمر السلطان فيما يتعلق باقطاع ابنته ، ونفذ رغبة السلطان فيما يتعلق بالسكة والتلقيب بالولد المؤيد (٣) . وحينما اكتمل صنع الخلع الخاصة بالسلطان ألب أرسلان جمع الخليفة القائم بأمر الله رجال الدولة فى ديوانه وأقيم احتفال بمناسبة تقليد السلطان ألب أرسلان وتفويضه بادارة الدولة (٤) ، وبعد انتهاء الاحتفال ، أمر الخليفة أبا محمد التميمى نقيب العباسيين بالتوجه الى السلطان بالخلع وبخطاب التفويض الى السلطان ألب أرسلان فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٦هـ/مايو ١٠٦٣م .

---

(١) مرآة الزمان ، ص ١١٣ ـ وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٥ ، وأورد نص الخطبة بما يلى : (اللهم أصلح السلطان المعظم عضد الدولة تاج الملة أبا شجاع ألب أرسلان محمد بن داود).

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٥ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١١٤ .

(٣) مرآة الزمان ، ص ١١٤ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٥ .

وقد نقل لنا سبط ابن الجوزى خطاب التفويض الذى كتبه الخليفة ومما جاء فيه بعد البسملة : "من عبد الله أبى جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، الى الولد المؤيد شاهنشاه الأعظم ملك العرب والعجم سيد ملوك الأمم ضياء الدين غياث المسلمين ملك الاسلام ظهير الامام كهف الأنام عضد الدولة القاهرة وتاج الملة الباهرة ألب أرسلان أبى شجاع محمد بن داود بن ميكائيل سلطان ديار المسلمين برهان أمير المؤمنين ... وان أمير المؤمنين بما وكله الله اليه من الأمور العامة للبلاد والعباد ، وملكه زمام الاصدار والايراد ، وناطه به من حفظ النظام ، وفرضه عليه من السعى فى الصلاح الشامل العام ، يرى استنفاذ الوسع فى اختيار من ينيبه فى الأراضى ، ويلقى اليه مقاليد البسط والقبض ، ويحبوه بالمرتبة التى طال ما امتدت نحوها الآمال ... فوض اليك أمير المؤمنين أزمة الحل والعقد وأمطاك ذرى العلاء والمجد ...". (١)

وهذا التفويض بما فيه من زيادة فى الألقاب التى ذكرت فى جوامع بغداد والتى ذكرناها سابقا يشير من ناحية أخرى

---

(١) مرآة الزمان ، ص ١١٥-١١٦ ، ومما يجدر ذكره أن بارتولد يذكر فى كتابه تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٠٥ أن السلاجقة استعملوا لقب شاهنشاه على العملة التى سكوها باسمهم وهم فى خراسان وحينما وصلوا الى العراق تركوا لقب شاهنشاه واتخذوا بدله لقب سلطان الاسلام .
لكن نصوص الألقاب التى أوردها سبط ابن الجوزى والتى ذكرناها فى المتن تنفى ما أورده بارتولد ، ولم يكن السلطان ألب أرسلان هو أول من خوطب بشاهنشاه ، وانما سبقه الى ذلك السلطان طغرلبك ، وفى كتاب السلطان طغرلبك الى أبى عبد الله الدامغانى ابتداه السلطان بما يلى : (الى قاضى القضاة أبى عبد الله الدامغانى من شاهنشاه المعظم ملك المشرق والمغرب ...) .
مما يدل على أن السلاجقة اقتدوا اثر البويهيين فى التلقب بمثل هذه الألقاب .

الى التطبيق العملى للاتفاقية التى عقدت بين الخلافة والسلطنة فى عهد السلطان طغرلبك .

وعموما فانه يمكن القول أن العلاقة بين السلطان ألب أرسلان والخليفة القائم بأمر الله كانت طيبة وحسنة ولم يحدث أن فرض السلطان على الخليفة شيئا يكرهه أو أنه أجبره على أمر من الأمور . وكان السلطان يقف الى جانب الخليفة اذا ماحاول أحد رجاله فى بغداد أن يعكر صفو العلاقات بينهما . ومثال ذلك ماحدث سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م حينما أخذ رئيس العراقين يتدخل فى أمور الخلافة ومد يده الى اقطاع وزير الخليفة فخر الدولة بن جهير وأهان رجاله ، فتصدى له الخليفة ، وحينما بلغ السلطان ألب أرسلان وهو فى أرمينية ماصنعه رئيس العراقين استنكر أفعاله ، وأمره بأن يتذلل للخليفة وأن يكون طوع أمير المؤمنين ولايعود الى أفعاله تلك ، ولم يكتف السلطان بتأنيب رئيس العراقين أبو أحمد النهاوندى (١) بل اننا نجده يعزله فى ذى القعدة من نفس السنة ٤٥٦هـ (٢) .

وهناك مثال آخر ، وهو أن الخليفة القائم غضب على ايتكين السليمانى (٣) شحنة بغداد لقيام ابنه بقتل أحد مماليك دار الخلافة ، ويبدو أن شحنة بغداد حمى ابنه من العقاب الذى يستحقه ، ولذلك كتب الخليفة الى السلطان ألب أرسلان بالحادث وطلب عزله من منصبه . ورغم أن نظام الملك لم يعر

---

(١) ذكره ابن الاثير ، فى الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٦ فى وفيات سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م ولم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١١٦-١١٧،١١٩ .

(٣) لم أجد لأيتكين السليمانى ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

طلب الخليفة أى اهتمام وزاد فى اقطاع ايتكين السليمانى مدينة تكريت ، وهنا غضب الخليفة وأمر والى تكريت عدم تسليم اقطاع ايتكين السليمانى ، رغم اعتذار شحنة بغداد ومحاولته استرضاء الخليفة . وحين رأى السلطان ألب أرسلان ووزيره نظام الملك اصرار الخليفة القائم بأمر الله على عزل خصمه ، عزله من منصبه واستبدل به شحنة آخر وهو سعد الدولة الكوهرائين سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م (١) .

ومع هذا الموقف نرى السلطان يقدم فى خطوة لم نر لها مثيل فى عهد السلطان طغرلبك ، حينما عين وزيرا للخليفة القائم بأمر الله هو أبو العلاء محمد بن الحسين دون استشارته أو أخذ رأيه فى هذا التعيين ، وهذا الاجراء يعنى عزل وزير الخليفة فخر الدولة ابن جهير ، وقد رفض الخليفة استقبال الوزير الجديد الذى وصل الى بغداد فى ربيع الأول سنة ٤٦٤هـ/نوفمبر ١٠٧١م ، وجاء بعده بثلاثة أيام سعد الدولة الكوهرائين يحمل رسالة من السلطان ألب أرسلان يبين له فيها سبب عزل فخر الدولة ابن جهير ، ومع ذلك فقد فند الخليفة القائم الاتهامات التى قيلت فى ابن جهير وتعهد بايضاح الحقيقة للسلطان ألب أرسلان (٢) . ومما يجدر ذكره أن الخليفة القائم بأمر الله سبق له أن عزل الوزير فخر الدولة بن جهير سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م ، لأنه تلقى خلعا من السلطان ولبسها فى دار الخلافة دون استئذان الخليفة فى ذلك ورشح السلطان بعد عزله أبا العلاء محمد بن الحسين للمنصب ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٠ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٥٥-١٥٦ ، ولم أجد لأبى العلاء ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

لكن الخليفة رفض تعيين مرشح السلطان وأعاد ابن جهير للوزارة سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م (١) . ورغم هذا الاجراء الذى اتخذه الخليفة نرى السلطان يتقرب اليه ويسأله أن يزوج ابنته خاتون السفرية ، لولى عهد الخليفة ، وقد قبل الخليفة هذه الخطبة وتم العقد فى نيسابور سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م (٢) .

وهكذا نلحظ أن السلطان ألب أرسلان طيلة فترة حكمه التى قاربت العشر سنوات كان على علاقة طيبة مع الخلافة العباسية حتى قضى نحبه فى بلاد ماوراء النهر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ، مع العلم بأنه لم يزر بغداد ولم يقابل الخليفة طيلة فترة حكمه والتى قضاها فى تثبيت دعائم الدولة والفتح والجهاد فى أرمينية والدولة البيزنطية . وفى رأيى أن تلك المواقف التى وقفها الخليفة القائم بأمر الله ضد بعض رغبات السلطان ألب أرسلان وضد بعض رجال دولته فى بغداد لاترجع الى قوة شخصية الخليفة القائم بأمر الله وتمكنه من استرداد بعض من النفوذ فى بغداد التى فقدت منها الخلافة العباسية الكثير ، وانما ترجع الى شخصية السلطان ألب أرسلان الذى كان ينظر الى الخليفة نظرة تقدير واحترام انعكست على سلوكه مع الخليفة القائم بأمر الله طيلة فترة حكمه .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٥٠-٢٥١ ــ وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٤٩ ، وذكر عزل فخر الدولة بن جهير فقط ، والبندارى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٤٥ ويجعل حوادثها سنة ٤٦٤هـ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٤١،١٥٦-١٥٧ ــ وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .

علاقة السلطان ملكشاه بالخليفة القائم
بأمر الله ثم المقتدي بأمر الله :

سبق للسلطان ألب أرسلان أن طلب من الخليفة القائم بأمر الله سنة أن يقر ابنه ملكشاه وليا للعهد سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م (١) ، فلما قتل السلطان ألب أرسلان فى بلاد ماوراء النهر بويع ابنه ملكشاه خلفا لأبيه . وأرسل السلطان الجديد ملكشاه سعد الدولة الكوهرائين الى بغداد يطلب العهد والخلع من الخليفة القائم بأمر الله ، وقد استقبل الخليفة القائم بأمر الله مبعوث السلطان ملكشاه الذى وصل الى بغداد فى صفر سنة ٤٦٦هـ/أكتوبر ١٠٧٣م فى جمع كبير حضره رجال الدولة والعامة ، وقرأ الوزير فى ذلك الحفل خطاب العهد أمام الحضور ، وعقد الخليفة لواءا للسلطان بيده ، وبعد انتهاء مراسم التولية والعهد أمر الخليفة عميد الدولة بن فخر الدولة بالتوجه الى السلطان ليسلم بنفسه العهد الى السلطان ملكشاه (٢) .

وفى الوقت الذى كان فيه عميد الدولة فى طريقه الى خراسان ، جاءت أوامر من الوزير نظام الملك الى بعض القادة التركمان تمنحهم بعض الاقطاعات التى تخص الخليفة القائم بأمر الله ، ولم يشأ الخليفة القائم بأمر الله أن يصطدم بهؤلاء التركمان من أجل الاقطاع الذى منحهم اياه نظام الملك حتى لايصطدم بالسلطان الجديد ، ولذلك لجأ الى ترضيتهم ببعض

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٧٠ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٨٤ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٨ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٠ .

المال لقاء تنازلهم عن اقطاعهم الذى منحهم اياه نظام الملك .(١)

ويذكر ابن الأثير أن جمعا من الفقهاء ومعهم بعض العوام اجتمعوا بباب الخليفة سنة ٤٦٦هـ وطلبوا منه أن يأمر بازالة المواخير والحانات التى كثرت فى بغداد فى تلك الفترة ، الا أن الخليفة القائم بأمر الله لم يجرؤ على مثل هذا العمل قبل أن يستأذن السلطان ملكشاه فى ذلك ،(٢) مع أن إزالة المنكرات عمل شرعى بحت يتعلق بمسؤولية الخليفة قبل السلطان ، مما يوضح أن الخليفة القائم بأمر الله الذى كان يتحدى بعض أوامر السلطان ألب أرسلان فى بغداد ، لم يقدم على مثل تلك الخطوة تلافيا لأى اصطدام مع السلطان الجديد الذى لم يسبق له التعامل المباشر معه .

ولم يطل العمر بالخليفة القائم اذ أنه توفى فى شعبان سنة ٤٦٧هـ/مارس ١٠٧٥م ، وبويع لحفيده أبى القاسم عبد الله ابن محمد بن القائم بأمر الله فى بغداد ولقب بالمقتدى بأمر الله .(٣) وعلى الفور خرج عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير الى خراسان لأخذ البيعة من السلطان ملكشاه للخليفة المقتدى بأمر الله ، وقد حمل رسول الخليفة معه خمسة عشر الف دينار وثمانمائة ثوب مختلفة الأنواع هدية للسلطان ملكشاه ، واستقبل السلطان عميد الدولة ، وأعطى بيعته

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٨٤ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ١٦٨ .
(٢) الكامل ، ج١٠ ، ص ٩١ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٩٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٤ ـ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص ٣١٨ ـ ابن العمرانى ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٠ ـ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٩ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج١ ، ص ٥٦٨ .

للخليفة المقتدى وكذلك وزيره نظام الملك ، وكبار قادة الدولة السلجوقية ، وبعد أن أتم عميد الدولة مهمته ، عاد الى بغداد فى ذى الحجة من نفس السنة [(١)].

وقد واجه الخليفة المقتدى بأمر الله فى مبتدأ خلافته مشكلة الوزارة العباسية التى كان يشغلها فخر الدولة ابن جهير والذى سبق أن طلب نظام الملك عزله ، وكان لنظام الملك الدور الرئيسى فى اثارة المتاعب أمام الخليفة أكثر من السلطان ملكشاه حتى يعزله من الوزارة بسبب نفوذه الكبير على السلطان خاصة ، وعلى الدولة السلجوقية عامة . ويبدو أن نظام الملك كان يريد أن يفرض ارادة الدولة السلجوقية فى تعيين وزراء الخليفة أكثر مما كان مهتما باعفاء فخر الدولة بن جهير . ولعل هذا هو السبب فى اصرار الخليفة القائم بأمر الله على ابقاء فخر الدولة بن جهير ، وكذلك الخليفة المقتدى بأمر الله فى أول خلافته ، لكن الضغوط التى مارسها نظام الملك على الخليفة المقتدى بأمر الله أجبرته على الاستجابة لمطلب نظام الملك مؤقتا . والسبب فى ذلك أن نظام الملك أرسل فى صفر سنة ٤٦٨هـ/سبتمبر ١٠٧٥م العميد أبو نصر الى بغداد وحين وصلها أخذ يطالب ديوان الخلافة بمائة ألف دينار بحجة أن السلطان ليس لديه المال الكافى للانفاق على الجند ، ولم ينتظر العميد رد الخليفة بل أخذ يستولى على اقطاع الخليفة وطرد نواب الخليفة منه [(٢)]. كل ذلك من أجل الضغط على الخليفة لكى

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٩٠-٢٩١،٢٩٤ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٣،١٧٦ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٩٦،٩٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٧٧-١٧٨ .

يعزل وزيره ، ويبدو أن الأمور هدأت نسبيا بين الخليفة والادارة السلجوقية حتى ثارت الفتنة المذهبية بين الأشاعرة والحنابلة فى شوال سنة ٤٦٩هـ/مايو ١٠٧٦م (١) اتهم فيها الوزير فخر الدولة بالانحياز الى الحنابلة ولذلك جاء سعد الدولة الكوهرائين فى محرم سنة ٤٧١هـ/يوليه ١٠٧٨م ومعه أوامر مشددة من السلطان ملكشاه يطلب فيها من الخليفة عزل فخر الدولة من الوزارة ، وأخذ سعد الدولة يضايق الخليفة ورجاله وفرض حصاره على ديوان الخلافة مطالبا تسليم فخر الدولة بن جهير اليه . وتلافيا لأى مشاكل يقع فيها الخليفة طلب ابن جهير من الخليفة اعفاءه من منصبه ، وقد استجاب الخليفة لطلب وزيره وعزله من الوزارة (٢) فى صفر سنة ٤٧١هـ/ أغسطس ١٠٧٧م . وفى الوقت الذى كان فيه الخليفة المقتدى بأمر الله يعانى من مشكلة وزيره فخر الدولة تمكن عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير من استرضاء نظام الملك وكسب عطفه ، وذلك عندما اجتمع به فى أصفهان فى محرم سنة ٤٧١هـ/ يوليه ١٠٧٨م ، واستطاع عميد الدولة أن يقنع الوزير السلجوقى باعادة والده فخر الدولة الى الوزارة وعاد عميد الدولة (٣) الى بغداد يحمل توقيعا باقرار فخر الدولة فى منصبه

---

(١) سبب هذه الفتنة : أن أبو نصر القشيرى دخل بغداد وجلس فى المدرسة النظامية وأخذ يذم الحنابلة ، ورماهم بالتجسيم ، وآزره فى هذه الدعوى شخص يقال له أبو سعد الصوفى اضافة الى مؤازرة أبى اسحاق الشيرازى ، ولم يكتف هؤلاء بما فعلوه بل انهم هاجموا الشريف أبا جعفر الهاشمى الذى استنصر بعدد من أتباعه ، وهكذا تعصب لكل فريق طائفة من أهل بغداد حتى وصل الأمر الى القتال فيما بينهم .
عن هذه الفتنة انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣٠٥-٣٠٧ - سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٨٦-١٩٦ - السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٩١) .

(٢) سبط ابن الجوزى ، المنتظم ، ص ١٩٥-١٩٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ١٩٧ - وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١ ، ص ٣١٨-٣١٩ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٠ .

لكن الخليفة المقتدى بأمر الله لم ترضه الطريقة التى لجأ اليها نظام الملك أو عميد الدولة بن جهير ولذلك أمره الخليفة بأن يلحق بأبيه وأن يلازم داره ولايراجعه فى طلب الخدمة . لكن الخليفة لم يستطع تحدى السلطة السلجوقية اذ سرعان ماعين فى ذى القعدة من نفس السنة عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير فى الوزارة بناء على طلب من نظام الملك الى الخليفة فى ذلك ، لأن عميد الدولة بن جهير كان صهرا لنظام الملك على ابنة ابنته ومن أجل ذلك قبل الخليفة تعيينه فى الوزارة بدلا من أبيه فخر الدولة بن جهير (١) .

أخذت العلاقات تتحسن بين الخليفة المقتدى بأمر الله وبين السلطان ملكشاه بعد أن تقدم الخليفة طالبا الزواج من ابنة السلطان ملكشاه الذى وافق على هذا الزواج سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م (٢) ، وبدأت أمور الخليفة المقتدى بأمر الله تتحسن الى درجة أنه عزل وزيره عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م وأخرجه من بغداد بصورة مهينة ومعه ابنة نظام الملك ، وعين بدلا منه أبا شجاع محمد بن الحسين فى الوزارة (٣) ، ولم نر أى رد فعل انتقامى من نظام الملك ، كما

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٣١٩ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢١٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٠ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٤٧٥ ـ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ص ٢١٠ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٢٠ .

(٣) هو أبو شجاع محمد بن حسين بن عبد الله بن ابراهيم الروذراوى ، ولد بالأهواز فى حدود سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م ، سمع الحديث وقرأ الفقه والعربية ، واثنى عليه ابن الجوزى ووصفه بالصلاح والتقوى ، وكان حازما فى وزارته للخليفة المقتدى بأمر الله ، متواضعا يدخل عليه الطفل والمرأة والرجل الضعيف ، متشددا مع أهل الذمة توفى بالمدينة المنورة سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م .
انظر عن ترجمته : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٩٠-٩٤) .

كان يفعل سابقا ، وكل ما استطاع أن يفعله هو السعى لدى السلطان حتى ولى فخر الدولة على ديار بكر[(١)] .

كما أن السلطان ملكشاه بدأ يغدق على الخليفة بالأموال حتى يستعين بها على تكاليف الزواج اذ أنه أمر فى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م بحوالات مالية للخليفة المقتدى بأمر الله مقدارها خمسون ألف دينار ، كما أمر أن يزاد فى اقطاع الخليفة نهر برزى وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد[(٢)] .

كما أن مجىء السلطان ملكشاه الى بغداد فى ذى الحجة سنة ٤٧٩هـ/مارس ١٠٨٧م قادما من بلاد الشام وطريقة الاستقبال التى أمر بها الخليفة المقتدى بأمر الله للسلطان ملكشاه من اقامة الموائد منذ أن حط السلطان فى عقرقوف[(٣)] وارسال الوزير أبى شجاع محمد بن الحسين اليه لتبليغه بفرح الخليفة وسروره بقدومه الى بغداد ، اضافة الى اصطفاف الناس على جانبى الطريق أثناء دخوله الى بغداد[(٤)] ، كل ذلك يبين أى مدى وصلت اليه العلاقة بين الطرفين .

وحين أخذ السلطان قسطا من الراحة فى بغداد أذن الخليفة للسلطان ملكشاه فى مقابلته فى محرم سنة ٤٨٠هـ/ ابريل ١٠٨٧م ، وأسبغ عليه الخليفة الخلع وأعطاه سيفين ليكون قويا فى مقابلة أعداء الله ، وجدد معه العهد . وفى نهاية المقابلة طلب السلطان من الخليفة أن يأذن له فى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢١٩-٢٢٠ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٣٨ ــ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٥٨ .
(٣) عقرقوف : قرية من نواحى دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ١٣٧) .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٢٤١-٢٤٢ ــ وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٢٩ .

تقبيل يده ، فلم يأذن له ربما تكريما واحتراما له ، كما أمر الخليفة أن يقرأ العهد الذي كتب بهذه المناسبة في دار المملكة أمام رجال الدولة السلجوقية وأعيانها .(١)

وفي صفر من نفس السنة ، تم زفاف ابنة السلطان ملكشاه الى الخليفة المقتدي بأمر الله في حفل باذخ غير معهود في الزيجات السابقة التي تمت بين القائم بأمر الله وابنه جغرى بك داود أو زواج المقتدي بأمر الله - وهو ولي للعهد - من ابنة السلطان ألب أرسلان . وقد ذكر سبط ابن الجوزي أن ماتم نقله في جهاز ابنة السلطان حمل على مائة وثلاثين جملا في اليوم الأول من الزفاف ، وفي اليوم الثاني أكمل نقل الجهاز على أربع وسبعين بغلا ، هذا عدا الجواهر والنفائس الذهبية التي حملت مع ابنة السلطان وجواريها وخدامها .(٢)

على أن هذا الود والصفاء لم يدم بين الخليفة المقتدي بالله والسلطان ملكشاه اذ سرعان ما انقلب الموقف بينهما وذلك لسببين :

أولهما : أن ابنة السلطان ملكشاه زوجة الخليفة كتبت الى أبيها سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م تشكو الخليفة بأنه معرض عنها كثير الاطراح لها ، فأمر السلطان ابنته بأن ترحل اليه في خراسان فغادرت بغداد في ربيع الأول سنة ٤٨٢هـ/مايو ١٠٨٩م ومعها ابنها أبو الفضل جعفر بن المقتدي بأمر الله الذي

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٣٥-٣٦ - سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٤-٢٤٥ - وانظر ابن الأثير الكامل ، ج١٠ ، ص ١٥٦ ، الا أنه يجعل المقابلة بين السلطان والخليفة سنة ٤٧٩هـ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢٤٥-٢٤٦ - وانظر ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٣٦-٣٧ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٦٠،١٦١ .

ولـد فـى ذى القعدة من سنة ٤٨٠هـ/فبراير ١٠٨٨م ، وقد حاول الخليفة منعها من اصطحاب ابنها الا أنه لم يستطع ذلك .(١)

والأمـر الثـانى : أن الخليفـة رفـض أن يسـتجيب لطلـب السلطان ملكشـاه فـى أن يـولى حـفيده مـن ابنتـه جعفر بن المقتـدى وليـا للعهـد ، وكما هو معروف فهذه أول مرة تزوج فيهـا احدى بنات سلاطين السلاجقة بابن من خليفة عباسى ، وقد رأى السلطان ملكشاه أن هذه فرصة فى أن يتولى الخلافة حفيده الذى يجمع بين البيتين السلجوقى والعباسى .(٢) الا أن المقتدى بـأمر الله رفض أن يستجيب لهذا الطلب لأنه كان قد عين ابنه الأكـبر أحمد بن المقتدى وليا للعهد وأصر على موقفه ذلك . وعندمـا قـدم السلطان ملكشاه الى بغداد للمرة الثانية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م طلـب من الخليفة أن يغادر بغداد فورا الى أى بلد يشاء ، وربما كان هذا الأمر نوعا من الضغط على الخليفة حـتى ينفـذ مطلبه ، وقد استمهل المقتدى بأمر الله السلطان ملكشـاه شـهرا حـتى يمكنه من تجهيز نفسه للمغادرة ، الا أن السلطان رفـض اعطـاءه المهلـة التى طلبها . وقد تدخل أبو الغنائم تاج الملك ـ الوزير الجديد الذى خلف نظام الملك ـ(٣) لـدى السلطان حـتى أعطاه مهلة عشرة أيام ليستعد للرحيل ،

---

(١) ابـن الجـوزى ، المنتظـم ، ج٩ ، ص ٤٦-٤٧ ـ سـبط ابـن الجـوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٣٦ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٥ .

(٢) عـزام عبـد اللـه باشـا ، النظـام الادارى فـى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ، ص ٣٧٠ .

(٣) أبو الغنائم تاج الملك بن خسرو بن دراست ، كان كاتبا للأمـير سرهنك ثم التحق بخدمة السلطان ملكشاه حتى قتل نظـام الملـك ، فعينه السلطان ملكشاه وزيرا محل نظام الملك ، قتل على يد الجند النظامية سنة ٤٨٦هـ .
ابـن الجـوزى ، المنتظـم ، ج٩ ، ص ٧٤ ـ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ١٠٠-١٠١ .

لكن الله سبحانه وتعالى قدر وفاة السلطان ملكشاه أثناء هذه المهلة اذ توفى فى شوال سنة ٤٨٥هـ/نوفمبر ١٠٩٢م (١) . وجنب الخليفة المقتدى بأمر الله مأزقا كبيرا كان واقعا فيه ، واستردت الخلافة أنفاسها حينما انقسم البيت السلجوقى على نفسه بسبب التنافس على السلطنة بين أبناء ملكشاه محمود وبركيارق ، ثم عمهم تتش بن ألب أرسلان ، وتمزقت الدولة السلجوقية الى فروع عديدة بعد ملكشاه .

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٦١-٦٢ ـ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ، ص ١٨١-١٨٢ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢١٠ ـ الحسينى ، أخبار الأمراء ، ص ١٤٧ ـ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٥٧ .

(د) تصدى السلاجقة للشيعة الامامية ـ الاسماعيلية

منذ أن دخل السلاجقة فى الاسلام ، وأصبحوا من أهل السنة حملوا معهم روحا اسلامية قوية تمثلت فى قيامهم بجهاد من يليهم من كفار الترك . وبعد أن مكن الله لهم فى الأرض ، وأزاحوا دولة الغزنويين من خراسان ، تحمل السلاجقة نفس الدور الذى قام به السلطان محمود من محاربة المتشيعة والفلاسفة والمتكلمين .

فبعد أن تم للسلطان طغرلبك الاستيلاء على معظم اقليم الجبل أصدر أمره سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م بلعن الرافضة من على منابر خراسان (١) ، ولاشك أن هذا الأمر له دلالته فى السياسة التى سوف تتبع مع الرافضة والمتشيعة كافة ، خصوصا وأن اقليم الجبل والعراق من المناطق التى كان يسيطر عليها بنو بويه والتى وجد الشيعة فيها منهم كل دعم وتأييد فى نشر مذهبهم والجهر به ، وهو حال انقلب عليهم الى الضد بعد لعنهم من على المنابر الذى سيجعل منهم متوارين عن الأنظار والانكفاء داخل مجتمعاتهم لايتجاوزونها .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٢ ، وقد أشار ابن الأثير الى أن عميد الملك الكندرى هو الذى أشار على السلطان بذلك كما أن عميد الملك هو الذى طلب من السلطان لعن الأشعرية مع الرافضة . وقد أثارت هذه القضية كبار علماء الشافعية منهم القشيرى الذى كتب رسالة وضح فيها مانالته الأشعرية من السلطان طغرلبك وسماها "شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة" . انظر حول هذا الموضوع : (عبد المجيد أبو الفتوح بدوى التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق الاسلامى ، ص ١٢٨-١٣٦) .

وبعد أن دخل السلطان طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م أصدر أمره الى أهل الكرخ من الرافضة بأن يؤذنوا في مساجدهم وقت الفجر "بالصلاة خير من النوم" (١) . ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما أصدر الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م أمره ال أهل الكرخ بأن يعتمدوا في مساجدهم بأذن أهل السنة كاملا وأن يحذفوا منه عبارة "حى على خير العمل" . ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : "ففعلوا ما أمر به خوف السلطنة" (٢) .

واتبعت هذه الاجراءات باجراءات أخرى أمر بها وزير الخليفة القائم بأمر الله وهو ابن المسلمة عندما أمر بأن تنصب أعلام سود في محلة الكرخ ، وهو الشعار الذى تتخذه الدولة العباسية رمزا لها (٣) ، وعلى اثر ذلك قلعت جميع العبارات التى تحمل عبارة (محمد وعلى خير البشر) من دروب الشيعة ، وشعر أهل السنة آنذاك بنوع من الفرح بازالة تلك المظاهر ، وخاصة أهل باب البصرة (٤) الذين دخلوا الكرخ وأنشدوا الأشعار في مدح الصحابة دون أن يجرؤ أهل الكرخ على التعرض لهم (٥) .

وعلى اثر تلك القرارات بدأت تختفى مظاهر الاحتفالات التى سنها بنو بويه للشيعة مثل الاحتفال بذكرى كربلاء ، وغدير خم ، وغيرها من تلك المناسبات (٦) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٦١٤ .
(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ٦٣٢ – وانظر ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧٢ .
(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧١ .
(٤) باب البصرة : أحد أبواب بغداد الأربعة الكبرى ، وهو في الجنوب الشرقى ، يفضى الى الارباض الممتدة على ضفة دجلة . (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٨) .
(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧٢-١٧٣ .
(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ، وقد حاول الشيعة في بغداد أن يعيدوا احتفالهم بذكرى كربلاء سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م أى بعد وفاة السلطان طغرلبك ، لكن أهل =

ولم تمر تلك الاجراءات دون اعتراض مطلق من الشيعة ، فقد ذكر ابن الجوزى أن الوزير ابن المسلمة أمر بقتل أبى عبد الله بن الجلاب (١) شيخ البزازين بباب الطاق (٢) بسبب ماكان يظهره من غلو فى التشيع سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م (٣) . ويبدو أن شيخ البزازين كان يهدف من الظهور أمام الناس بمغالاته فى التشيع هو الاحتجاج العلنى من قبله على تلك الأوامر التى أصدرها كل من الخليفة والسلطان طغرلبك والوزير ابن المسلمة التى لم يعهدها الشيعة فى ظل سلطة بنى بويه والتى كانت تسندهم طيلة مايزيد على قرن من السنين . ولعل هذا الشعور هو الذى أثار أيضا أبا جعفر الطوسى (٤) متكلم الشيعة من مثل تلك الاجراءات وكان الرد عليه هو الهجوم على منزله واحراق كتبه فى الكرخ فى صفر سنة ٤٤٩هـ/ابريل ١٠٥٧م (٥) .

غير أن تلك الأوامر التى صدرت الى الشيعة جوانب ايجابية على مستوى الحياة الاجتماعية فى بغداد ، اذ أننا لم نلحظ قيام فتن طائفية بين السنة والشيعة كتلك التى اعتادتها بغداد فى العصر البويهى ، مما يثبت أن مؤازرة الحكام البويهيين للأقلية من الشيعة فى بغداد كانت سببا فى

= السنة تمدوا لهم ، وصدرت أوامر الخليفة القائم بأمر الله باعتقال المسئولين عن ذلك وحبسهم ـ وانظر أيضا الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ورقة ٤ب .

(١) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٢) باب الطاق : محلة كبيرة ببغداد فى الجانب الشرقى منها . (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٣٠٨) .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٤) أبو جعفر الطوسى : من فقهاء الشيعة ومتكلميها ، توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م . انظر : (ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ٢٥٢) .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص ١٧٩ .

اثارة النزعات المذهبية بين أهل السنة والشيعة (١).

ولاشك أن سياسة السلطان طغرلبك التى ذكرناها تجاه الشيعة فى بغداد كانت تمثل تصدى السلاجقة للمظاهر العلنية للشيعة الامامية فى بغداد ، لكن الوزير نظام الملك يكشف لنا جانبا آخر من جوانب محاربة التشيع . فكما هو معروف أن حكم دولة بنى بويه شمل أجزاء واسعة من المشرق وكانت سياستهم الواضحة هى مؤازرة الفرق المخالفة لأهل السنة من رافضة ، واسماعيلية ، وفلاسفة ، واستعانوا بأمثال هؤلاء فى وظائف الدولة ترغيبا لغيرهم فى الانضواء تحت لواء أمثال هذه الفرق ، وبالطبع فان الجهاز الادارى الذى كان سائدا فى المشرق كان جزءا مما خلفه بنو بويه .

وحينما سيطر السلاجقة على المشرق كانت سياستهم هى ابعاد أمثال هؤلاء عن الجهاز الادارى للدولة السلجوقية ، اذ يذكر نظام الملك أنه لم يكن أحد فى زمن السلطان طغرلبك منه يجرؤ على أن يعين أحدا من خبثاء المذهب "لأنهم على دين الديالم وهم أنصارهم وصنائعهم ، فان رسخت أقدامهم خسر الاتراك منهم وجهد المسلمون بهم ، فمن الخير الايكون بيننا عدو" (٢).

---

(١) نستثنى من ذلك الفتنة التى حدثت سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م بسبب فتنة البساسيرى وماقام به أهل الكرخ ضد السنة ، ثم ماقام به السنة ضد الشيعة كرد فعل انتقامى منهم ضد الشيعة بعد عودة السلطان طغرلبك الى بغداد ، وقد حدثت فتنة أخرى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م فى عهد السلطان ملكشاه وكانت عنيفة جدا قتل فيها خلق كثير ، ومع ذلك فان الخليفة والسلطات السلجوقية القائمة لم تسكت على أهل السنة بل أدبت زعماء الفتنة من أهل باب البصرة وباب الكوفة حتى عادت الأمور الى نصابها . انظر : (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدى ص ١٣٧-١٣٩) .

(٢) سياسة نامه ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

ويسوق لنا نظام الملك دليلا عمليا بما فعله السلطان الب أرسلان عندما علم أن أحد أمرائه ويدعى أردم استخدم باطنيا عنده ، فغضب السلطان الب أرسلان من ذلك واعتبر أردم خصما له باستخدامه لذلك الباطنى ، ولم يرض عنه السلطان الا بعد أن أحضر ذلك الباطنى الى قصره وضرب ضربا مبرحا ثم ألقى به خارج القصر وهو مشرف على الموت ، وبعدها التفت السلطان الى من حوله قائلا لهم : "... ليس الذنب ذنب ذلك الرجل ، انما هو ذنب أردم اذ يستعمل خبيث المذهب كافرا فى خدمته ، واننى لم أقل مرة ولامرتين بل لعلنى قلت لكم مائة مرة : أنكم جنود خراسان وماوراء النهر منفردون فى هذه الديار وقد أخذتم هذه الولاية قهرا وتغلبا ، ونحن جميعا مسلمون ، حسن اسلامنا ، وأغلب أهل العراق على نحلة خبيثة واعتقاد خبيث يناصرون الديالم جند العراق ، وأن بين الترك والديلم لعداوة وخلافا غير جديدين بل هما قديمان ، واليوم أعز الله عز وجل الأتراك فسلطهم عليهم ، لأن الأتراك مسلمون حسن اسلامهم لايميلون الى الأهواء ولايبتدعون البدع ، أما هم فخبثاء المذهب ..." .(١)

ونستكشف مما أورده لنا نظام الملك فى النصين السابقين أن السلاجقة فى عهد كل من طغرلبك وألب أرسلان عملوا على تطهير الجهاز الادارى من الفرق المخالفة لأهل السنة . والربط الذى ذكره السلطان ألب أرسلان بين أصحاب الأهواء والديلم صحيح لاغبار عليه ، ومن هنا فاننا لانستغرب ذلك التشدد الذى أبداه كل من السلطان طغرلبك وألب أرسلان ،

---

(١) سياسة نامه ، ص ٢٠٤ .

وفى هذه السياسة أيضا تدعيم لأهل السنة واحلالهم مكان أصحاب المذاهب المنحرفة الذين سبق لبنى بويه استخدامهم فى الجهاز الادارى .

وقد أدت مثل تلك السياسة من جانب آخر الى انكفاء دعاة الفلاسفة والباطنية والمتكلمين على أنفسهم وفقدوا الجرأة على الظهور العلنى فى دعوتهم ، ولهذا لم نجد لأولئك نشاطا ملحوظا فى المشرق فى فترة حكم السلطان طغرلبك وألب أرسلان وخاصة دعاة الدولة الفاطمية . ولعل مما أوهن نشاط دعاة الدولة الفاطمية هو الضعف والانقسام الذى حدث فيها نتيجة الضائقة الاقتصادية والفتنة بين الجند الأتراك والسودان اللتين سبق أن تحدثنا عنهما (١) ، مما فرض عليهم الالتفات الى مشاكلها الداخلية والانصراف الى حلها تاركين شئون المشرق والدعاة التابعين لهم فيه يواجهون الضغط السلجوقى (٢) ، دون أى دعم مادى أو معنوى وخصوصا بعد الدور الذى قام به الفاطميون فى تدعيم حركة البساسيرى ومعاضدته ضد الخلافة العباسية وضد السلاجقة . فلم يكن أمام الدعاة الفاطميين الا أن يلزموا السكينة حتى تأتى الظروف المناسبة لهم مرة أخرى .

أما الدولة الفاطمية نفسها فقد خسرت بلاد الشام وأصبح السلاجقة سادتها الذين أزالوا عنها مظاهر التشيع من سب الصحابة والأذان بحى على خير العمل وغير ذلك من الأمور التى نشرها الفاطميون فى بلاد الشام (٣) .

---

(١) انظر ص

(٢) عبد المجيد بدوى ، التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١١٩ .

وكان لهذه الضربات الموجهة للدولة الفاطمية آثارها على دعاتهم الذين غيروا من استراتيجيتهم فى الدعوة وبدأوا يلجأون الى الأطراف من الدولة السلجوقية ، وكان عهد السلطان ملكشاه هو الذى شهد عودة نشاط الدعاة الفاطميين الى المشرق ، وقد يكون هذا لعاملين أساسيين : أحدهما داخلى ، والآخر خارجى .

أما العامل الداخلى فهو الذى يوضحه لنا نظام الملك فى كتابه سياسة نامه الذى يذكر فيه أن الباطنية والشيعة قد أصبحوا يملأون الديوان والدركاه (١) .

وتخصيص نظام الملك عدة فصول من كتابه للحديث عن الدعوات الباطنية وانتشارها فى المشرق الاسلامى منذ قيام الدولة الاسلامية وبيانه لأهدافهم التى تقوم على تقويض الاسلام وابعاد المسلمين عن دينهم من الداخل يبين لنا أن نظام الملك كان يدرك حجم المشكلة التى أصبحت تواجهها الدولة السلجوقية من جراء النشاط الذى يقوم به الدعاة الباطنيون (٢).

على أنه لاينبغى أن يفهم من ذلك أنه حدث تساهل من قبل السلطان ملكشاه تجاه الشيعة وتجاه الدعاة الباطنية ، فقد جاءت تحذيرات نظام الملك للسلطان ملكشاه فى أواخر عهده أى فى الوقت الذى كانت فيه العلاقات بينهما يشوبها كثير من الحذر ، ويبدو أن السلطان ملكشاه كان ينظر الى تحذير نظام الملك له بابعاد عدد من الوزراء والمقربين المتهمين بالتشيع الى أنه نوع من التنافس والحسد الذى لايخلوا منه انسان تجاه أقرانه ونظرائه المقربين من السلطان ، فأفاد

---

(١) سياسة نامه ، ص ٢٠٢ .
(٢) انظر : سياسة نامه ، ص ٢٣٣-٢٩٧ .

الدعاة الفاطميون من هذا الوضع ، وعادوا الى نشاطهم القديم على الرغم من الجهود التى كان يبذلها نظام الملك فى القضاء عليهم . وفى هذا الصدد يشير بعض الباحثين الى أن الهدف من انشائه المدارس التى بناها فى كل من بغداد ، وبلخ ، ونيسابور وهراة وأصبهان ، والبصرة ومرو وأمل طبرستان والموصل ، وغيرها من الأماكن هو لمحاربة الأفكار الباطنية فى المشرق (١) . ويرى عبد المجيد بدوى أن السلاجقة منذ أن استتب لهم الأمر فى خراسان كانت مقاومتهم للشيعة هى مقاومة سياسية ، فلما وزر نظام الملك للسلطان ألب أرسلان رأى أن المقاومة السياسية وحدها لاتكفى نظرا لأن الشيعة الامامية والاسماعيلية استخدموا وسائل فكرية متعددة لنشر مذهبهم من انشاء المدارس والمكتبات فى كل من العراق ومصر وأجروا الجرايات على الطلبة الذين يقصدون مثل هذه المدارس بالاضافة الى البرامج المخصصة التى كان يقوم بها الفاطميون فى مصر لاعداد الدعاة الذين يريدون منهم التوجه الى سائر البلاد الاسلامية . ومن هنا أتى تفكير نظام فى انشاء تلك المدارس فى معظم بلاد المشرق الاسلامى ، لتقوم هذه المدارس بنشر الفكر السنى ليواجه تحديات الفكر الشيعى ثم ايجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريسه ونشره فى الأقاليم المختلفة ، وأما الهدف الثالث هو خلق طائفة من الموظفين السنيين ليشاركوا فى تسيير مؤسسات الدولة وادارة

---

(١) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٢٣ عبد المجيد بدوى ، التطور السياسى والفكرى للمذهب السنى ، ص ٢١٣ ـ مريزن بن سعيد عسيرى ، الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، مكة المكرمة ١٤٠٦هـ ، ص ١٣١ ـ حسام الدين السامرائى ، المدرسة مع التركيز على النظاميات ، بحث القى بجامعة أم القرى وطبع سنة ١٤٠٩هـ ، ص ١٩ .

دواوينها .(١)

وكان نظام الملك يشرف بنفسه على تعيين المدرسين الأكفاء في تلك المدارس ويعين كل واحد منهم في المدرسة التي يرى أنها تحتاج الى مثله .(٢) ومما لاشك فيه أن انشاء تلك المدارس استحوذ على جمهور لايستهان به من الطلبة الذين بدورهم سيكون لهم تأثير كبير في المجتمعات التي ينتمون اليها .(٣)

ولكن هل قضت هذه المدارس على أساليب الدعوة الباطنية في المشرق أو أبقت على نطاقه المحدود كما كان الحال عليه زمن السلطان طغرلبك والسلطان ألب أرسلان ؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغي أن نتحدث عن العامل الخارجي بعد أن تحدثنا فيما سبق عن العامل الداخلي ، وهو أنه بعد أن تولى بدر الجمالي الوزارة للمستنصر بالله سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م تمكن من القضاء على فتنة الأتراك والسودان واستطاع أن يضبط أمور مصر بعد قضائه على الزعماء الذين رأسوا حركة التمرد على المستنصر بالله وعلى رأسهم الحسين بن حمدان ، كما قضى على زعماء القبائل الذين كانوا يقطعون الطرق ويخيفون السبل ، ولذلك نشطت الحركة التجارية الى القاهرة من الجنوب والشمال ، كما شجع المزارعين بالعودة الى زراعتهم وأعفاهم من الخراج مدة ثلاث سنوات فنشطت حركة الزراعة وغير ذلك من الأعمال .(٤)

---

(١) التطور السياسي والفكري للمذهب السني ، ص ٢١٣-٢١٦ .
(٢) عبد المجيد بدوي ، التطور السياسي والفكر للمذهب السني ، ص ٢١٨-٢٢٠ .
(٣) عبد المجيد بدوي ، التطور السياسي والفكر للمذهب السني ، ص ٢٢٦ .
(٤) انظر عبد الله الصنهاج ، صراع الوزراء العظام في العهد الفاطمي الثاني ، ص ١٤١-١٤٧ .

وأدى استقرار أوضاع مصر الى أن يلتفت بدر الجمالى الى الشام لاستعادة مايستطيع استعادته من السلاجقة كما تحدثنا عن ذلك فى الفصل الرابع . ولابد بعد هذا الاستقرار أن يعيد الفاطميون تنظيم أمور الدعوة الاسماعيلية ، وخاصة فى المشرق ، وأن يهتموا بدعاتهم فيها الذين كانوا تحت تأثير القوة السلجوقية وهيبتها ، وخاصة الوزير نظام الملك الذى كان يهتم لنشاط أولئك الدعاة ويحاول أن يتخلص منهم كلما أمكن ذلك .

لكن يبدو أن الفاطميين بجانب اهتمامهم بدعاتهم استغلوا جانب الصراع الخفى بين السلطان ملكشاه وبعض وزرائه من جهة ونظام الملك من جهة أخرى للبحث عن دماء جديدة تتولى مهمة الدعوة الاسماعيلية فى المشرق وكان الاختيار الذى وقع عليه دعاة الاسماعيلية فى المشرق هو الحسن بن الصباح (١) ، الذى كان فى بداية أمره رافضيا اماميا ثم تحول الى المذهب الاسماعيلى على يد شخص يدعى الأمير الضراب وآخر يدعى أبو نجم السراج ثم انتقل الى عبد الملك

---

(١) هو الحسن بن على بن محمد بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميرى (٤٢٨-٥١٨هـ/١٠٣٧-١١٢٤م) زعيم ومؤسس الفرقة النزارية (ممن يقول بامامة نزار بن المستنصر بالله) كان فى مبتدأ حياته رافضيا ثم تحول الى الاسماعيلية كما ذكرنا فى المتن ، استولى على قلعة ألموت سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وكان هذا التاريخ بداية ظهور الفرقة الباطنية المعروفة بالحشاشين الذين اتخذوا سياسة الاغتيال ضد خصومهم ومناوئيهم ، وكان أول خصومه الذى يقتل بواسطتهم هو الوزير نظام الملك سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . وقد اشتدت شوكتهم بعد وفاة السلطان ملكشاه . ومما يعرف عن الحسن بن الصباح أنه كان عالما بالهندسة والحساب ، واستطاع أن يؤسس فرقته على الطاعة المطلقة لزعامته حتى توفى بقلعة ألموت سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م . عن الحسن الصباح وترجمته ودوره انظر : (محمد حسين كامل ، طائفة الاسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٩م ، ص ٦٤-٧٩) .

ابن عطاش الذى قبل بيعته للمستنصر بالله سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م (١) (٢) ونصحه بضرورة الذهاب الى مصر ومقابلة المستنصر بالله الفاطمى ، وبعد مكوثه فى مصر قرابة سنة ونصف وبعد مقابلته (٣) للمستنصر بالله قفل الحسن بن الصباح عائدا الى أصفهان سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م (٤) .

هذا هو ملخص الظروف التى جعلت من الحسن بن الصباح داعيا اسماعيليا . أما عن نشاطه داخل الدولة السلجوقية فقد أورد عطا ملك الجوينى فى ذكره لسيرة الحسن الصباح أنه وصل الى أصبهان سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م ثم انتقل الى كرمان ثم الى جنوب فارس ، ويبدو أنه لم ينجح فى استمالة الناس هناك فاتجه الى دامغان (٥) ، التى أقام فيها ثلاث سنوات بث منها دعاته الى المناطق الواقعة جنوب قزوين وخاصة المناطق ذات القلاع الحصينة وأشهرها قلعة الموت (٦) (٧) .

---

(١) عبد الملك بن عطاش (ت بعد سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م) من دعاة الفاطميين فى العراق العجمى ، دعا الى مذهبه فى أصبهان وهدد بالقتل فيها ، فانتقل الى الرى وغيرها من المناطق حتى وقع اختياره على الحسن الصباح ليكون داعيا ونصحه بالذهاب الى مصر ولم يعد يعرف عنه شىء بعد ذلك . انظر : (محمد السعيد جمال الدين ، دولة الاسماعيلية فى ايران ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٩٤-٩٥) .

(٢) عطا ملك الجوينى ، تاريخ فاتح العالم أو جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ترجمة محمد التونجى ، الطبعة الأولى ، حلب ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٠٣ .

(٣) الجوينى ، جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ص ٣٠٤ . وفى ترجمة محمد السعيد جمال الدين بجهانكشاى ، ص ١٨٥ يظهر بعض الاختلاف عن ترجمة محمد التونجي اذ يذكر أن الحسن بن الصباح قابل شخصا يسمى مؤمن ثم تعرف بعدها الى عبد الملك بن عطاش سنة ٤٦٤هـ .

(٤) الجوينى ، جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

(٥) دامغان : بلد كبير بين الرى ونيسابور وهو قصبة قومس مدينة كثيرة الفواكه ، (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٤٣٣) .

(٦) قلعة ألموت : قلعة حصينة من ناحية روذبار بين قزوين وبحر الخزر على قلعة جبل ، وحولها وهاد لايمكن نصب المجانيق عليها ولا النشاب يبلغها (القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٠١) — وهى على ستة فراسخ =

واضافة الى اختياره مثل هذه المواقع ، فقد كانت هناك نقطة أخرى يجدر الاهتمام بها ، وهى : أن المناطق الواقعة جنوب قزوين كانت تعد من مناطق الديلم الذين يكثر فيهم التشيع وهذه المنطقة تعتبر تربة خصبة لمثل دعوات الحسن بن الصباح التى تنادى بأحقية آل البيت بالخلافة المرتكز الأساسى لكل دعوات الشيعة . وربما أدرك الحسن بن الصباح أهمية هذه المنطقة من خلال ذلك الوضع الذى أشرنا اليه . هذا ويرى بعض المؤرخين المحدثين : أن الحسن بن الصباح والدعاة من أمثاله استفادوا من جهل الطبقات الدنيا من المجتمع لاستقطابهم الى جانبهم ضد السلاجقة الذين اتهموهم بالظلم (١). ويبالغ فى الأخذ بهذا الرأى مصطفى غالب المعروف بتحيزه الواضح للمذهب الاسماعيلى (٢).

= من قزوين (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٥٦) . ومعنى الموت بلغة الديلم عش العقاب (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٥٦) أو تعليم العقاب كما ذكر ذلك ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣١٦-٣١٧ .

(٧) الجوينى ، جهانكشاى ، ص ٣٠٥ .

(١) محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، ص ٦٩ – محمد السعيد جمال الدين ، دولة الاسماعيلية فى ايران ، ص ٩٩ .

(٢) مصطفى غالب ، الثائر الحميرى الحسن بن الصباح ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٥١ ، ومن العجب أن مصطفى غالب يذكر فى مقدمته للكتاب ص ٢٩ أن الحسن بن الصباح "اختار أنجع السبل لربط الفرد بالجماعة ولتربية النشء تربية دينية صحيحة يسيطر عليها الاخاء ووحدة الصف ..." . ومن أحسن ماقيل عن مصطفى غالب ومؤلفاته ماذكره احسان الهى ظهير رحمه الله اذ قال عنه : "مارأيت مثل هذا الرجل جريئا على السرقة والكذب ، فانه من الأشخاص الذين يمكن أن يضرب بهم الأمثال بسرقة أفكار الآخرين وآرائهم ... ومن جرأته على الكذب أنه بدأ يلقب نفسه فى الأعوام الأخيرة بالدكتور مصرحا بأنه حصل على الدكتوراه فى الفلسفة والتاريخ مع أنه لم يتخرج من جامعة اطلاقا" . عنه انظر : (احسان الهى ظهير ، الاسماعيلية تاريخ وعقائد ص ٧-٨ ، حاشية رقم ٢) . =

وقد يكون قولهم فيما يتعلق باستغلال الاسماعيلية للطبقات الدنيا من المجتمع له وجاهته ، وخاصة في منطقة جنوب قزوين التي ذكرنا أنها تربة خصبة للدعوات الشيعية .

أما فيما يتعلق بأن الحسن بن الصباح وأتباعه استغلوا ظلم السلاجقة للرعية فهو قول لايستند الى دليل وخاصة في عهد ملكشاه الذي ظهرت في عهده دعوة الحسن الصباح الذي أجمعت المصادر التي ترجمت له ولوزيره نظام الملك على عدلهما وحسن سياستهما تجاه الرعية (١) .

وعلى كل فان نظام الملك كان متتبعا لتحركات الحسن الصباح ، وكان قد أصدر أمره الى والي الري المدعو أبو مسلم الرازي بالترصد للحسن الصباح ، مما أجبره على التنقل متخفيا في عدة مواضع من قزوين حتى اقترب من قلعة ألموت التي كان قد هيأ أتباعه نفوسهم على الاستيلاء عليها بالاتفاق المسبق معه . وهكذا دخل الحسن الصباح القلعة متنكرا وحين تأكد من ثبات قدمه فيها أمر بطرد الوالي

= ومصطفى غالب الاسماعيلي الاتجاه وأمثاله استغل مثل هذه الفتن التي جرت في العالم الاسلامي لينشر مؤلفاته مستغلا جهل كثير من الناس بمبادىء الاسماعيلية ومنها كتابه الذي أشرنا اليه ، وكتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، ليدلس على الناس حقيقة المذهب الاسماعيلي وأتباعه من أمثال حسن بن الصباح ووصفهم بالبطولة وصدق الايمان .

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٦٩-٧٠ - سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، تحقيق مسفر الغامدي ، ج١ ، ص ١٨٤ - ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٩٤-٩٥، ٥٥-٥٦ .

السلجوقى منها ، ليحمل من خلالها على أمنع حصن فى تلك الناحية فى شعبان سنة ٤٨٣هـ/سبتمبر ١٠٩٠م (١) ليفرض هيمنته على ماحواليها من البقاع والأماكن . ويذكر الجوينى أنه بث دعوته فى تلك البقاع ، ومن لم يستجب له قتله أو نهبه ونشط فى بناء القلاع فى المناطق التى استولى عليها (٢) لتكون أولى بدايات الارهاب والقتل وسفك الدماء من قبل الحسن الصباح واتباعه .

وقد كانت حصانة الموقع والقلعة سببا فى افشال العديد من الحملات التى أرسلها ضده السلطان ملكشاه (٣) . وحتى يخفف ابن الصباح من الضغط السلجوقى على قلعة ألموت كلف عددا من أتباعه بالاستيلاء على قلعة قهستان .

وقد أدرك السلطان ملكشاه أن خطورة الدعاة الباطنية ونجاحهم فى الاستيلاء على القلاع الواحدة تلو الأخرى سيمثل تهديدا قويا لدولته ، ولذلك أعد فى أوائل سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م حملة كبيرة بقيادة قائد يدعى أرسلان تاش الذى فرض بقواته حصارا قويا على قلعة ألموت فى جمادى الأولى سنة ٤٨٥هـ/يونيه ١٠٩٢م . وعلى الرغم من قوة الحصار وشدته الا أن قائد الجيش السلجوقى لم يضع فى حسبانه بقية القلاع الأخرى الخاضعة لنفوذ الحسن بن الصباح ، ومن تحصن فيها من أتباعه الذين تجمع أعداد منهم وقاموا بهجوم مباغت على القوات السلجوقية وسحقوها ، وتفرق الجند السلجوقى عن القلعة فى شعبان من نفس السنة (٤) .

---

(١) جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ص ٣٠٧ .
(٢) الجوينى ، جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ص ٣٠٩-٣١٠ .
(٣) الجوينى ، جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ص ٣١٠ .
(٤) الجوينى ، جهانكشاى ، مجلد ٢ ، ص ٣١٠-٣١١ .

ولعل الحسن بن الصباح أدرك أن اهتمام السلطان ملكشاه بتلك القلعة آخذ فى التزايد سيما بعد هزيمة جنده ، ولذلك أعد خطة قتل الوزير نظام الملك على يد أحد أتباعه منتهزا الخلاف الشديد بين السلطان ووزيره الذى وصل الى حد التهديد وفعلا تم اغتيال نظام الملك على يد أحد الباطنية فى رمضان سنة ٤٨٥هـ/أكتوبر ١٠٩٢م . وتحققت للحسن بن الصباح عدة أهداف من ذلك ، وهى : التخلص من نظام الملك أشد المتحمسين فى محاربة الفرق الضالة وعلى رأسها الباطنية ، والثانى تخفيف الضغط السلجوقى عن القلاع التى استولى عليها الباطنيون عن طريق الانقسام الذى سيحدث من قتل نظام الملك وتوجيه الاتهام الى السلطان ملكشاه بقتله (١) . وعلى كل فقد توفى السلطان ملكشاه بعده بقليل فى شوال سنة ٤٨٥هـ/نوفمبر ١٠٩٢م لتغرق الدولة السلجوقية فى الصراع بين أبناء ملكشاه واخوته تنافسا على السلطنة مما رسخ أقدام الاسماعيلية فى المشرق لتثير بقتل الكبراء والوزراء والقادة والخلفاء الفزع والخوف وظلت قلعتهم الحصينة ألموت بأيديهم حتى فتحها المغول سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م (٢) .

---

(١) عبد النعيم حسنين ، ايران والعراق فى العصر السلجوقى ص ٨٥ .

(٢) محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية ، ص ٨٥-٨٦ .

الخـــاتمـــة

الحمد لله الذى أعان على اتمام هذا البحث ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل فى سبيل مرضاته ، وأصلى وأسلم على أشرف خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

رأينا فى بداية البحث الأثر الذى تركه انتشار الاسلام فى بلاد ماوراء النهر وماترتب عليه من تغير لميزان القوى فى المشرق . ونستخلص من خلال ذلك أن تلك القبائل التى ارتضت الاسلام دينا وتحمست له واندمجت فى مجتمعات بلاد ماوراء النهر ، الا انها قد فاقت غيرها من المجتمعات الاسلامية بما حملته من روح وحماس لهذا الدين منذ اللحظة الأولى . فقد كان سلجوق وأتباعه مثالا حيا لهذا الحماس بما قام به من جهاد لكفار الترك وكف أذاهم عن ديار المسلمين ، وسار على خطاه ابنه ميكائيل بعد وفاة والده ، وانتهى به الأمر شهيدا فى احدى غزواته .

واذا كان أبناء سلجوق وميكائيل لم يسيروا على ذلك النهج فى بلاد ماوراء النهر ، فان ذلك مرده الى انغماسهم فى مشاكل تلك المنطقة وتدخلهم فى شئونها السياسية ، مما ترتب عليه أن انتبه الى خطورتهم أقوى حاكم فى المشرق الاسلامى وقتذاك السلطان محمود الغزنوى الذى أجبر طائفة منهم على مغادرة مواطنهم الأولى الى خراسان بعد القبض على زعيمهم أرسلان بن سلجوق .

وقد ترك أتباعه فى خراسان بعد عبورهم الى ذلك الاقليم أثرا سيئا كان طابعه التخريب والتدمير والفوضى ، وكانت

أعمالهم تلك نتيجة طبيعية لموقف السلطة الغزنوية منهم فى المقام الأول ، اضافة الى أن بعض تلك المجتمعات لم تتقبل وجودهم بسهولة فى أراضيهم ، فانعكس ذلك على سلوكهم الذى حمل طابع الفوضى والنهب والسلب ، وألحق أفدح الضرر بمعظم المشرق الاسلامى آنذاك .

وكما تورط أرسلان بن سلجوق فى مشاكل بلاد ماوراء النهر فقد تورط أيضا أبناء أخيه ميكائيل فى مشاكل تلك المنطقة ، مما أدى بهم فى النهاية الى أن يقتفوا أثر أتباع عمهم ويعبروا الى خراسان ، يسبقهم اليها تلك السمعة السيئة التى تركها أبناء عمومتهم وماخلفوه من آثار سيئة ، وقد كانت تلك الظروف سببا فى المواجهة بينهم وبين الغزنويين .

واذا كان أتباع أرسلان بن سلجوق قد اختاروا الفرار من أمام السلطة الغزنوية ومجابهة القوى الضعيفة ، فان جغرى بك داود وطغرلبك محمد وبيغو اختاروا المواجهة مع الدولة الغزنوية ، التى كانت تعد آنذاك أقوى دولة فى المشرق الاسلامى وتحمل كل سمات تلك القوة من سلطة موحدة الى جيش يمتلك الخبرة الحربية ودولة ذات اقتصاد قوى .

وفى المقابل كان أبناء ميكائيل وأتباعهم يملكون القدرة على أساليب الكر والفر ، وخفة الحركة والمناورة والمهارة فى استخدام القوس والنشاب ودقة التصويب بها . وقد أثبتت المواجهة الأولى بينهم وبين بكتغدى فى نسا سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م تلك الحقيقة واستوعب درسها كل من جغرى بك داود وطغرلبك وبيغو فاعتمدوا على تلك الأساليب الحربية التى استمدوها من بيئتهم الأصلية فى التركستان ، واعتبروها تقاليد خاصة بهم ، واستطاعوا بها اضافة الى مايملكونه من

روح عالية من سحق أقوى دولة فى المشرق وهى دولة الغزنويين والاستحواذ على أملاكها فى خراسان ، فى معركة دندانقان سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م .

وكان خضوع بقية أجزاء خراسان وبعضا من أذربيجان اضافة الى منطقة قزوين وخوارزم ، واقليم الجبل نتيجة طبيعية من نتائج معركة دنداقان ، لأن تلك المناطق كانت تخضع معنويا للدولة الغزنوية ، قبل أن يفرض السلاجقة هيمنتهم عليها .

ومما لاشك فيه أيضا أن بسط السلاجقة سيادتهم على تلك المناطق التى أشرنا اليها اضافة الى خراسان ، قد أضفى على دولتهم الناشئة الاستقرار والوحدة التى كانت تفتقدها بسبب تعدد الامارات التى كان تخوض فيما بينها حروبا طاحنة فى سبيل بسط الهيمنة والأطماع الذاتية لكل منهم ، وهذه احدى حسنات السلاجقة الأول على المشرق الاسلامى .

أما الخلافة العباسية التى كانت ترزح تحت النفوذ البويهى الشيعى وعلى رأسها الخليفة القائم بأمر الله ، فقد أدرك أهمية قوة السلاجقة وسرعان ما اعترف بهم بعد معركة دنداقان ، وأضفى عليهم السلطة الشرعية التى كانت تلزمهم فى حكم المناطق التى استولوا عليها ، وسرعان ما اشتد التقارب فيما بين السلطان طغرلبك والخليفة القائم بأمر الله وتوج بدخول السلطان طغرلبك الى بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ، منهيا بذلك نفوذ الشيعة فى العراق ومعيدا لقوة أهل السنة فى ذلك الاقليم وفى المشرق عامة ، وهذه أيضا حسنة أخرى للسلاجقة تحسب لهم .

أما فيما يتعلق بحركة الجهاد والفتح والتوسع فقد كان للسلاجقة فضل فيه كبير لاينسى ، وكان من نتائج قيامهم بهذه الفريضة أن تمكنوا من الاستيلاء على أرمينية بأكملها وضمها الى الدولة الاسلامية فى عهد السلطان ألب أرسلان ، واضافة الى أرمينية ، فقد بسط المسلمون فى عهده نفوذهم على بلاد الكرج أو جورجيا الحالية حيث دخلت أعداد لابأس بها من أهل هذين الاقليمين فى الاسلام ، وقد ظلت أرمينية خاصة منذ ذلك الحين فى حوزة المسلمين .

واذا كانت معركة دنداقان قد فتحت المشرق الاسلامى للسلاجقة وكانت من معاركهم الفاصلة ، فان معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، تعد من المعارك الفاصلة فى التاريخ الاسلامى وفى التاريخ النصرانى . ففى هذه المعركة وضع الامبراطور رومانوس ديوجنيس كل امكانات الدولة البيزنطية المادية والبشرية فى سبيل سحق قوة المسلمين ممثلة فى قوة السلاجقة وقد برزت من خلال أحداث تلك المعركة قوة وصلابة وايمان السلطان ألب أرسلان ، واعتماده على الله سبحانه وتعالى ، فى مواجهة ذلك الخطر قبل كل شىء مع أخذ الأسباب التى تمكنه من تحقيق النصر الذى يرجوه ، وتحقق له من جراء ذلك أعظم انتصار حققه المسلمون ضد البيزنطيين منذ فترات طويلة .

وكان لانتصار المسلمين فى معركة ملاذكرد أعظم النتائج اذ أنها فتحت آسيا الصغرى – أو أرض الروم كما كان يطلق عليها – على مصراعيها ليؤسس فيها المسلمون دولا وامارات لأول مرة منذ ذلك التاريخ ، وكانت هذه الدول نواة فيما بعد انطلق منها العثمانيون فى القضاء على الدولة البيزنطية والوصول الى شرق أوربا .

كما كان لانتصار السلاجقة فى معركة ملاذكرد أثر فى بسط نفوذهم على بلاد الشام وهم آمنون من الدولة البيزنطية التى ظلت تعانى من نتائج تلك المعركة واخضاع بلاد الشام واعادته الى حوزة الدولة العباسية واعادة نفوذ أهل السنة الى هذه المنطقة .

واضافة الى ماسبق فقد بلغت الدولة السلجوقية بعد مقتل السلطان ألب أرسلان وولاية ابنه السلطان ملكشاه أقصى درجات التوسع عندما بسط نفوذه السياسى على بلاد ماوراء النهر ، وأصبح يخطب للخليفة المقتدر بالله والسلطان ملكشاه من أقصى بلاد ماوراء النهر شرقا الى أدنى منطقة فى بلاد الشام غربا .

ورغم كل تلك الامكانات العسكرية التى يملكها السلاجقة فى عهد سلاطين السلاجقة العظام ، فانهم من جانب آخر انصرفوا عن الشئون المدنية واعتمدوا اعتمادا كبيرا على الوزراء . وقد برز فى عهدهم كل من عميد الملك الكندرى ، والوزير نظام الملك الحسن بن على الطوسى كأعظم الوزراء الذين شهدتهم هذه الدولة ، وكان لنظام الملك فضل كبير عليها فى حسن ادارته وتنظيمه لأمور الدولة وبما يحمله من اخلاص وصدق فى التوجه فى كل النواحى . وقد ترك فى الدولة السلجوقية بصمات واضحة له باجتذابه للعلماء والانفاق عليهم ، وانشائه للمدارس فى معظم المدن السلجوقية الكبرى ناشرا للعلم فيها وكان من آثار ذلك أن لعبت تلك المدارس دورا خطيرا فى مواجهة الحركة الباطنية التى بدأت تنشط فى أواخر عهد السلطان ملكشاه ، وتنامت قوتها بمقتل الوزير نظام الملك ، ومات بعده السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م .

واذا كنا قد ذكرنا فيما سبق محاسن السلاجقة ، فان ذلك لايمنع من ذكر سلبياتهم وخاصة ماانتهجه السلطان طغرلبك تجاه الخليفة القائم بأمر الله واجباره على تزويجه ابنته له بكل وسائل الضغط والقهر حتى زوجه اياها وتوفى عنها دون أن ينجب منها . وقد خفف السلطان ألب أرسلان من وقع هذه القضية على الخليفة القائم بأمر الله بما انتهجه من سياسة طيبة ، وظل على ذلك حتى وفاته .

وقد سار ابنه السلطان ملكشاه على نفس منواله مع الخليفة القائم بأمر الله ثم مع حفيده الخليفة المقتدى بأمر الله وتوجت هذه العلاقة بزواج الخليفة المقتدى بأمر الله من ابنة السلطان ملكشاه التى رزقه الله منها بولد ، وهنا طمع السلطان فى أن يحقق حلما طالما طمع فيه المتغلبون على الخلفاء العباسيين ، وخاصة البويهيون الذين كانوا يحلمون بخليفة عباسى يجمع بين النسب العباسى والنسب البويهى ، وهى فكرة راودت بلاشك السلاجقة ، وخاصة فى عهد ملكشاه . وفى سبيل ذلك مارس السلطان على الخليفة المقتدى بالله ضغوطا كثيرة فى سبيل أن يجعل حفيده وليا للعهد ، ووصل به الأمر فى سبيل تنفيذ ذلك الهدف الى التهديد بطرده من بغداد عندما لم يستجب له ، وانتهى الأمر بموت السلطان ملكشاه قبل أن يحقق هدفه .

الا أن أسوأ ماتركه السلاجقة وكان له أعظم الآثار السلبية على المشرق الاسلامى ، ألا وهو مسألة الوراثة للسلطنة ، تلك القضية التى أغرت ابراهيم ينال فى عهد السلطان طغرلبك بمنازعة أخيه فى سبيلها وتركت آثارا سيئة على الخلافة العباسية وكاد أن يقضى عليها .

وبدلا من أن يستفيد السلطان طغرلبك من ذلك الدرس ، فانه سن عرفا يبيح فيه لأقوى وأقدر آل سلجوق أن ينتزع السلطنة ، وذلك حين أوصى لابن أخيه الصغير سليمان بن جغرى بك داود بالسلطنة بعده متجاهلا أخوة سليمان الكبار وعلى رأسهم ألب أرسلان . وقد حاول ألب أرسلان أن يجنب الدولة السلجوقية آثار تلك السنة التى استنها عمه السلطان طغرلبك بأن حاول تلافيها عندما جعل أكبر أبنائه وهو ملكشاه وليا للعهد ، وقرب وفاته أكد على هذا الاتجاه لكبار قادته بمبايعة ابنه ملكشاه ، ورغم ذلك ظهر له عمه قاورت بك بحجة أنه أسن من ابن أخيه .

ولم يستفد ملكشاه من ذلك الدرس وحاول أن ينصب ابنه محمودا متجاهلا بذلك أكبر أبنائه بركياروق ، رغم تحذير نظام الملك الذى لم يجد معه ، مما عاد بأفدح الضرر على الدولة السلجوقية خاصة ، وعلى المسلمين عامة حينما تنافس أفراد البيت السلجوقى على الملك بعد وفاة ملكشاه ليقوى بذلك اسماعيلية المشرق بقيادة الحسن بن الصباح ، وليمكن الصليبيين من السيطرة على معظم بلاد الشام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر والمراجع

* روعي في ترتيب المصادر أسماء المؤلفين دون الكنى والألقاب .

المصادر القديمة :

* شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ) :
نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٦ ، تحقيق محمد فوزى العنتيل ، القاهرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ج٢٧ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، تاريخ المغرب الاسلامى الوسيط ، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ .

* الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد ، المجلد ٩ ، المجلد ١١ ، الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، بدون ذكر مكان وتاريخ الطبع .

* أبو العباس أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١هـ) : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ج٢، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

* تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ) :
١ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج٢ ، ج٣ ، تحقيق محمد حلمى أحمد ، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م .
٢ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، الطبعة الثانية ، ج١ القسم الأول ، قام بنشره محمد مصطفى زياده ، القاهرة ١٩٥٦م .

٣ ـ المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين اليها ، مخطوط السليمانية ، مكتبة بيرتو باشا رقم ٤٩٦ ، مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى رقم ١٠٦٣ تاريخ .

* أحمد بن لطف الله المولوى : صحائف الأخبار فى وقائع الاعصار ، مخطوط مكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم ١/٢٩٥٤ مصور ميكروفيلم فى مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى رقم ١٠٤٢ تاريخ تراجم .

* شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ابن خلكان (ت٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلد ١ ، مجلد ٢ مجلد ٣ ، مجلد ٥ ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ .

* أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بمسكويه (ت ٤٢١هـ) : تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، مجلد ٢ ، القاهرة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م .

* أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد القرمانى (ت ١٠١٩هـ) أخبار الدول وآثار الأول ، بيروت ، بدون تاريخ .

* أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى (ت ٥٩٠هـ) : تاريخ الفارقى ، حققه وقدم له بدوى عبد اللطيف عوض ، بيروت ١٩٧٤م .

* أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت٧٣٢هـ) المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، بيروت ، بدون تاريخ .

* عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ) البداية والنهاية فى التاريخ ، ج١٢ ، دار الفكر العربى ، القاهرة بدون تاريخ للطبع .

* الحسن بن علي بن اسحاق الطوسى ـ الوزير نظام الملك (ت ٤٨٥هـ) : سياسة نامه ، ترجمة وتعليق محمد العزاوى القاهرة ١٩٧٦م .

* الحسن بن على بن سينا (٤٢٨هـ) : القانون فى الطب ، بيروت ، بدون تاريخ .

* حمد الله القزوينى (ت ٧٥٠هـ) : تاريخ كزيدة ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ، ونصر الله مبشر الطرزى ، القاهرة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، وهو ملحق بتاريخ بخارى للنرشخى .

* أبو يعلى حمزة القلانسى (ت ٥٥٥هـ) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م .

* صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى : (ت ٧٦٤هـ) : الوافى بالوفيات ، ج٥ ، تحقيق محمد محمود وابراهيم سليمان ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م .

* رشيد الدين بن فضل الله (ت ٧١٨هـ) : جامع التواريخ المجلد ٢ ، ج٥ ، تحقيق أحمد آتشى ، مطبعة الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة ١٩٦٠م .

* زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢هـ) : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

* زين الدين بن عمر بن الوردى (ت ٧٤٩هـ) : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج١ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، الطبعة ١ ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م .

* أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك الكرديزى (ت فى أوائل القرن الخامس الهجرى) : كتاب زين الأخبار ، تعريب محمد بن تاويت ، فاس ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

* جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (ت ٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بدون ذكر تاريخ ومكان الطبع .

* أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج٧ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن ١٣٥٨هـ ، ج٨ ، ج٩ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن ١٣٥٩هـ .

* عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) : تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ، المجلد ٣ ، المجلد ٤ ، المجلد ٥ ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٧م .

* عبد الغافر الفارسى (ت ٥٢٩هـ) : المنتخب من السياق ، انتخاب أبى اسحاق ابراهيم بن محمد الصريفينى ، أعده محمد كاظم المحمودى ، قم ١٤٠٣هـ/١٣٦٢هـ.ش .

* أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (ت ٥٦٢هـ) : الأنساب ، ج٥ ، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

* تاج الدين عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى (ت ٧٧١هـ) : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٤ ، ج٥ ، تحقيق محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م .

* ابن عذارى المراكشى (ت ٦٩٥هـ) : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ج١ ، تحقيق ج.س.كولان ، وليفى بروفنسال ، بيروت ، بدون تاريخ .

* عطا ملك الجوينى (ت ٦٧٩هـ) : تاريخ فاتح العالم "جهانكشاى" ، مجلد ٢ ، نقله الى العربية محمد

التونجي ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، بدون ذكر لمكان الطبع .

* أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الشافعي (ت ٥٧١هـ) : تاريخ دمشق ، ج٢ ، الطبعة المصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية ، وضع فهارس الموضوعات والتراجم ، محمد الطرهوني ، المدينة المنورة ١٤٠٧هـ .

* جمال الدين علي بن أبي منصور ظافر بن الحسين بن غازي الحلبي الأزدي (ت ٦١٣هـ) : أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق د. محمد بن سفر بن حسين الزهراني ، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

* عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) :

١ ـ الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ج٩ ، ج١٠ ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية "بالموصل" ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ، بدون تاريخ .

* أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الصيرفي (ت ٥٤٢هـ) : الاشارة الى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤م .

* الأمير صدر الدين علي بن ناصر بن علي الحسيني (ت بعد ٦٢٢هـ) : زبدة التواريخ "أخبار الأمراء والملوك السلجوقية" ، تحقيق محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) :
١ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة ، عنى بنشره وعلق عليه على سويم ، مطبعة الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة ١٩٧٦م .
٢ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج٢ ، تحقيق سامى الدهان ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .
* غريغوريوس ابن العبرى الملطى (ت ٦٨٥هـ) : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
* غياث الدين خواندمير : (ت ٩٤٢هـ تقريبا) : دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق حربى أمين سليمان ، القاهرة ١٩٨٠م .
* الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى (ت ٦٤٣هـ) : تاريخ دولة آل سلجوق ، ط/الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
* محمد بن أبى المكارم الحنبلى البغدادى المعروف بابن المعمار (ت ٦٤٢هـ) : كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٦٠م .
* شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨هـ)
١ ـ تاريخ الاسلام ، ج١٣ ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم ٢٢٧١ ، مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى رقم ١٥٢ تاريخ ، الحوادث (٤٠١-٤٤٨هـ) .
الحوادث (٤٥١-٤٩٠هـ) مخطوط مكتبة المتحف البريطانى رقم ٥٠ ، مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى

واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى رقم ٣٠١ تاريخ

٢ - دول الاسلام ، ج٢ ، الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٣٣٧هـ .

٣ - سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ومحمد العرقسوسي ، ج١٧ ، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٤هـ ، ج١٨ ، ج١٩ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٤ - العبر في خبر من غبر ، ج٣ ، تحقيق فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، الكويت ١٩٨٤م .

* محمود بن أحمد الشهير بالبدر العيني (ت ٨٥٥هـ) : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

* ابو الفضل ، محمد بن حسين البيهقي (ت في حدود ٤٧٠هـ) : تاريخ البيهقي ، ترجمة الى العربية يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، دار النهضة ، بيروت ١٩٨٢م .

* أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) : الملل والنحل ، ج١ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* محمد بن عبد الملك الهمداني (ت ٥٢١هـ) : تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق البرت يوسف كنعان ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦١م .

* محمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧هـ) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠م .

* عز الدين محمد بن على بن ابراهيم الحلبي المعروف بابن شداد (٦٨٤هـ) :

١ ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الثالث ، القسم الأول والثاني ، تحقيق يحيى عبارة ، دمشق ١٩٧٨م .

٢ ـ القسم الخاص بتاريخ لبنان والأردن وفلسطين ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م .

* أبو بكر محمد بن علي بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين بن همة الراوندي (ت ٦٠٣هـ) : راحة الصدور وآية السرور ، نقله الى العربية ابراهيم الشواربي ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

* محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني (ت في حدود ٥٨٠هـ) : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٩٨٢م .

* محمد بن محمد بن عبد الله النظام الحسيني (ت ٧٤٣هـ) : العراضة في الحكاية السلجوقية ، ترجمة عبد النعيم حسنين ، وحسين أمين بغداد ١٩٧٩م .

* جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٦٣٠هـ) : لسان العرب ، ج٤ ، طبعة بولاق ١٣٠١هـ .

* أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) : سراج الملوك ، باعتناء أنطون أفندي ، الاسكندرية ١٢٨٩هـ .

* ناصر الدين بن البيبي (ت ٦٧٩هـ) : مختصر سلجوق نامه باعتناء هوتسما ، ليدن ١٩٠٢م ، وهو متن كامل في كتاب اخبار سلاجقة الروم لمحمد جواد مشكور .

* ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠م .
* هبة الله بن أبى عمران موسى الشيرازى (المؤيد فى الدين) (ت ٤٧٠هـ) : مذكرات داعى دعاة الدولة الفاطمية ، تحقيق عارف تامر ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
* ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
* جمال الدين يوسف بن تغرى بردى - الأتابكى - (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٥ ، تعليقات محمد رمزى ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة بدون تاريخ .
* شمس الدين يوسف بن قزا أوغلى - سبط ابن الجوزى - (ت ٦٥٤هـ) :
١ - مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦-١٠٨٦م ، عنى بنشره وعلق عليه على سويم ، الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة ١٩٦٨م .
٢ - مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (٤٨١-٥١٧هـ/١٠٨٨-١١٢٣م) ، تحقيق ودراسة مسفر سالم الغامدى ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

المراجع العربية والمعربة :

* آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، مجلد ١ ، نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة الطبعة الرابعة ، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

* ابراهيم عطا الله البلوشى : بلاد البحرين فى العصر العباسى الثانى ، رسالة ماجستير فى جامعة أم القرى ١٤٠٥/١٤٠٦هـ .

* احسان الهى ظهير : الاسماعيلية تاريخ وعقائد ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* أحمد تونى عبد اللطيف : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة الروم ، رسالة دكتوراه فى جامعة المنيا ـ كلية الآداب ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ج١ ، القاهرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

* أحمد الشامى : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* أحمد عبد الكريم سليمان : المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجرى ـ التاسع والعاشر الميلادى ، ج١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* أحمد عدوان : الدولة الحمدانية ، الطبعة الأولى ، ليبيا ١٩٨١م .

* أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ط١ ، الكويت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

* أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م .

* أحمد معوض : أضواء على تاريخ المشرق الاسلامى وحضارته ذروة عصر السلاجقة العظام (طغرل بيك) ، الطبعة الأولى القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

* أديب السيد : أرمينية في التاريخ العربي ، الطبعة الأولى ، حلب ١٩٧٢م .

* أرشيد يوسف : سلاجقة الشام والجزيرة (٤٣٥-٥٧٠هـ) ، عمان ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

* أرمنيوس فامبري : تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمه وعلق عليه أحمد محمود الساداتي القاهرة ، بدون تاريخ الطبع .

* استارجيان : تاريخ الأمة الأرمنية ، الموصل ١٩٥٣م .

* استنالي لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمة طاهر الكعبي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* اسمت غنيم : معركة منزيكرت في ضوء وثائق بسيللوس ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ١٩٨١م .

* أنطون خانجي : مختصر تواريخ الأرمن ، أورشليم (القدس) ١٨٦٨م .

* بارتولد :

١ ـ تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، الكويت ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٢ ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد السليمان ، القاهرة ، بدون تاريخ .

* بول اميل : تاريخ أرمينيا ، ترجمة شكري علاوي ، بيروت بدون تاريخ .

* تامارا تالبوت رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، بغداد ١٩٦٨م .

* توفيق سلطان اليوزبكي : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية (١٣٢-٤٤٧هـ) ، الطبعة الثانية ، الموصل ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

* حسن ابراهيم حسن :
١ - تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الرابعة ١٩٨١م .
٢ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى مجلد ٣ ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٦٥م .
* حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
* حسن أحمد محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة ١٩٧٢م .
* حسن منيمنة : تاريخ الدولة البويهية - السياسى والاقتصادى والاجتماعى - مقاطعة فارس ٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م ، بيروت ١٩٨٤م .
* حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
* حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، بغداد ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
* حسين بن فيض الله الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (٢٦٨هـ/٦٢٦م) ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٥٥م .
* حسين مؤنس : أطلس تاريخ الاسلام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
* خير الدين الزركلى : الأعلام ، مجلدات : ١،٢،٣،٧،٨ ، الطبعة السابعة ، بيروت ١٩٨٦م .

* رشاد عباس معتوق : الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م) ، رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

* زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

* سعيد أحمد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* سعيد الصباغ : الأطلس العربي العام ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ ـ بحوث ودراسات في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧م .

٢ ـ الحركة الصليبية ، ج١ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٨م .

* سهيل زكار :

١ ـ أخبار القرامطة في الأحساء ـ الشام ـ اليمن ـ العراق ، تحقيق ودراسة ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٢ ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٧٥م .

* سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* صابر محمد دياب حسين : أرمينية من الفتح الاسلامي الى مستهل القرن الخامس الهجري ، القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

* عباس اقبال : الوزارة في عهد السلاجقة ، ترجمة وتعليق أحمد كمال الدين حلمي ، الكويت ١٩٨٠م .

* عبد الرحمن قاسملوا : كردستان والأكراد ، دراسة سياسية واقتصادية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠م .

* عبد الله المنهاج : صراع الوزراء العظام فى العهد الفاطمى الثانى وأثره على الحياة السياسية (٤٦٦-٥٦٧هـ/١٠٧٣م١١٧١م) ، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ١٤٠٧-١٤٠٨هـ .

* عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م .

* عبد المجيد أبو الفتوح بدوى : التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى فى المشرق الاسلامى من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* عبد النعيم حسنين :

١ - ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، الطبعة الأولى بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٢ - دولة السلاجقة ، القاهرة ١٩٧٥م .

* عزام عبد الله باشا : النظام الادارى فى الدولة العباسية فى العصر السلجوقى ٣٤٢-٤٨٥هـ/١٠٤٠-١٠٩٢م ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧٧م .

* عصام عبد الرؤوف الفقى : الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٧م .

* على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٦٤م .

* علي محمد عوده الغامدي :
١ ـ بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٤٦٣-٤٩١هـ/١٠٧٠-١٠٩٨م) ، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
٢ ـ المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى ، الطائف ١٤١١هـ .
* عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج١ ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
* فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري ، بغداد ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
* فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٦م) ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
* فايز نجيب اسكندر :
١ ـ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٠٠-١٠٧١م/٣٩٢-٤٦٣هـ) في مصنف أريستاكيس الليستفرتي ، الاسكندرية ١٩٨٣م .
٢ ـ البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد (١٠٧١م/٤٦٣هـ) في مصنف نقفور برينيوس ، دراسة مقارنة للمصادر ، الاسكندرية ١٩٨٤م .
* فتحية النبراوي : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى (١٠٠٠-١٣٠٠م) ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
* فيصل السامر :
١ ـ ثورة الزنج ، بغداد ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
٢ ـ الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٣م .

* محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

* محمد حسين الزبيدى : العراق فى العصر البويهى ، التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م ، القاهرة ١٩٦٩م .

* محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٠م .

* محمد سالم بن شديد العوفى : العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى ٤٤٧-٥٦٧هـ/١٠٥٥-١١٧١م ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* محمد السعيد جمال الدين : دولة الاسماعيلية فى ايران ، القاهرة ١٩٧٥م .

* محمد على البار : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ ، ج١ ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* محمد على حيدر : الدولة السامانية ، تطورها وقيامها وحضارتها ، رسالة ماجستير ، مكتبة دار العلوم ، جامعة القاهرة ١٩٦٥م .

* محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ـ تاريخها ـ نظمها عقائدها ، الطبعة الأولى ١٩٥٩م .

* محمد مختار باشا : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ، دراسة وتحقيق وتكملة محمد عمارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

* محمد مسفر الزهرانى : نظام الوزارة فى الدولة العباسية (العهدان البويهى والسلجوقى) (٣٣٤-٥٩٠هـ) الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* مريزن سعيد عسيرى : الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ .
* مصطفى غالب : الثائر الحميرى الحسن بن الصباح ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩م .
* ميكال يان دى خويه : القرامطة ـ نشأتهم ، دولتهم ، وعلاقتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسنى زينة ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .
* ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، المجلد ٣ ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٢م .

البحوث :

* حسام الدين السامرائى : المدرسة مع التركيز على النظاميات ، بحث مطبوع سنة ١٤٠٩هـ .
* سليمان الرحيلى : مظاهر الشعوبية فى العصر البويهى ، مجلة بحوث تاريخية ، اصدار الجمعية التاريخية السعودية ، عدد شوال ١٤٠٩هـ ، شوال ١٤١٠هـ .
* السيد الباز العرينى : الاقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن الثالث حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، دراسة مقارنة ، بحث فى حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الرابع سنة ١٩٥٧م .
* شاكر مصطفى : دخول الترك الغز الى الشام ، بحث فى المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام المنعقد فى الجامعة الأردنية سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

* عبـد الهـادى رضا محبوبه : من رسائل نظام الملك الوزير السلجوقى ، بحث نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد السابع سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

* عصام الدين عبد الرؤوف : الحياة السياسية فى بلاد الجبل ويزد فى عهد الكاكويه الديالمة ، بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشر ، بغداد سنة ١٩٨١م

كتب غير عربية :

* Abul-Farag, Tarihi, Gili. 1, Turkceye cev-iren Omer Riza Do Grul, Ankra, 1987 .

* Claude- Cahen, Pre-Ottoman, Turky, London, 1966 .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الصفحة